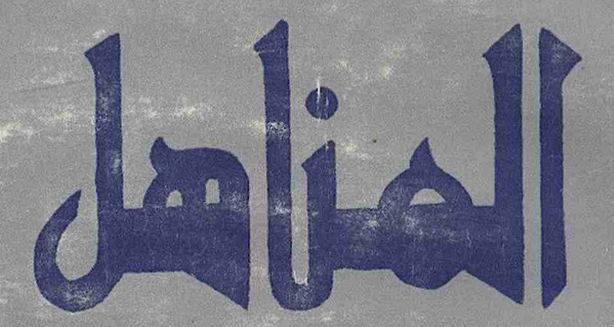
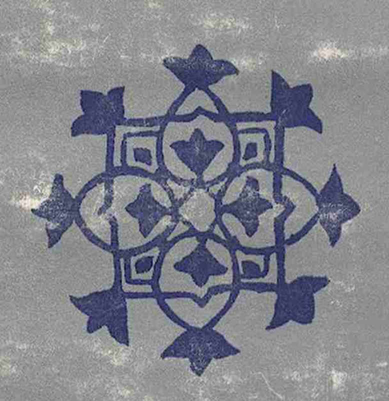
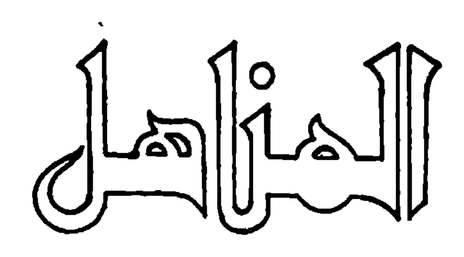




6



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد السادس رجب 1396
السنة الثالثة يوليو 1976

إلى القارئ العزيز

يوافيك - أيها القارئ العزيز - هذا العدد السادس من مجلة «المناهل» والمغرب في أشكال من ثقافته يتأهب لزيارة القطر التونسي الشقيق، وامتاع إخوته هنالك في البلد الحبيب مدة أسبوع كامل بألوان من مهارته، وأصناف من حضارته، وصور شتى من تاريخه وتقاليده.

وقد أرادت مجلة «المناهل» أن يمتاز عددها هذا بالتقاء أقلام الأعلام من علماء تونس الشقيقة وكتابها المبرزين، وأقلام الصفوة المختارة والنخبة المرموقة من علماء بلدها وأدبائه وأقلام غير هؤلاء، وأولئك ممن يمتون إلى المغرب وتونس بصلة نسب وقرابة، ويعدون من جهابذة العلم وفطاحله.

وتجاوز كثير منها حد هذا اللقاء، في رغبة أن يكون عددها الوافد عليك في هذا الظرف مرآة تجلو كثيرا من قسمات تاريخ طويل امتد عبر العلاقات، وتوثقت خلاله الصلات، بين وطنك ووطن أصدقائك وأصفيائك.

وإذا كان الأمل معقودا ببلوغها من الإلمام بهذا التاريخ حظا ميسورا، ونصيبا موفورا، فإن العزم وطيد على أن تتوالى الجهود وتتدارك النقص بانتظار استحسانك المعهود، واستمرار تأييدك المحمود.



فاس
من خلال المخطوطات التونسية *

المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور

صاح ، اركب العــزم لا تخلــد الى اليــاس
واصحب أخا الحــزم ، ذا جــد ، الى فــاس

واشرح مــتــون صبــابــاتى لــجــيرتــهــا
وحــى حــيــا بهــم قــد كــان ايــنــاسى

واقــر الســلام على تلــك المعاهــد مــن
حــيران يلفــظــه نــاس الــى نــاس

وقــل لهــم : ذلــك المضنى ـ وحقهــم ـ
بــاق على الــعــهــد ذو وجــد بكم راس

لا يــبــصر الحســن الا فى وجــوهــكــم
وليــس يجــنــح ، فى حــب ، لوســواس

*) نظرا لقيمة هذا البحث المنشور بمجلة ((المغرب)) الصادرة عن وزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك بالرباط ، فى عددها 7 و 8 ص 8 / 18 ـ دجمبر ـ 1965 .
ووفاء لذكرى صاحبه المرحوم العلامة الكبير ، الذي كانت تربطه بالمغرب أواصر فكرية متينة ، رأت ((المناهل)) أن تعيد نشره ، نقلا عن المجلة المذكورة . (المناهل)

كذلك . . . فى الحنين البليغ ، والشوق المستطير كان امـــام تونس الاكبر ، وعالمها الفرد : شيخ الاسلام ابراهيم الرياحى ، سنة 1221 ، يذكر فاسا ، ويبثها وجده ، فيعرب فى هذا الحنين عن عاطفة مـــــلأت صدره ، كما كانت تملأ صدور من حولــه من « الطلبـــة والمشايـــخ » بتونس ، تحبب اليهم فاسا ، وتدنيهم منها بالذكرى والروح ، وتشيع من معانيها ومغانيها أشباحا وأرواحا ، يخالطونها ويأنسون اليهـــا ويهيمون بها ، وقد ارتسمت فى أذهانهم بفعل الدروس والطروس ، التى كلمـــــا ترددوا عليها وقلبوها ، وجدوا من أسرار فاس وصور معالمها وأطياف أعلامها مازادهم لها معاشرة ، وبها ائتلافا ، حتى أصبحوا يعيشون فيها بالهوى ، ويعرفونها معرفة الوجدان التى تسمو على معرفة الاعيان .

وكذلك . . . كان الشيخ الرياحى وجيله ، قد ورثـــوا هذه العلاقة الروحية عن أجيال قبلهم ، كانوا أيضا قد علقت قلوبهم بفاس ، وتعرفت أرواحهم اليها . فكانت تلك العلاقة غذاء النشـــأة الروحية المتسلسلة ، انطبعت عليها الاجيال بعد الاجيال ، فاصطبغت بها العقول والمشاعر ، ثم أورثوها القرون من بعدهم الى اليوم .

فلست تجد بتونس ، اليوم ، ذا حـــظ من الثقافـــة الاسلاميـــة ، الا ولفاس على لسانه ذكر ، وفى ضميره ذكر ، ان لم يعرفها عن عيان ، فلقد تأثر منها بعلمائها ومعالمها وآثارها واخبارها ، حتى أصبح لها فى نفسه ظهور ، لعله أقوى من ظهور بهجتها للناظر ، حين يطل عليها من مقبرة بنى مرين ، أو يشرف عليها من جبل زالـــغ .

تلك المعانى هى التى لو وضعت موضـــع التحليـــل والتعليـــل ، فضبطت عناصرها ، ورجع بها الى مناشئها ، لتبين أن عشها الذى تبيض فيه وتفرخ ، ثم تبرز منه وتدرج ، انما هو خزائن المخطوطات التى زخرت وتزخر بها العاصمة التونسية . فالذى يطوف بتلك الرياض النضرة العطرة ويجول فيها ، هو الذى يجد حقا روحا مترددا من المدينة الادريسيـــة ، لا يلبث أن يدرك أنه هو الذى كان يخالط قلوب العلماء ، ويملأ جوانبهم ، فتهوى به أفئدتهم الى العاصمة الخالدة : عاصمة الشرف والعلم .

فان الذى يخالط خزائن المخطوطات بعاصمة تونس ، ويأنس بتعاطى جلودها ، وتقليب صحفها ، ومراس خطوطها ، يشعر بمخالطة لمدينة فاس ، والفة بها ، تتربيان فى نفسه ، ناميتين على قدر ما تطول مخالطته لتلك القماطر والدفاتر ، حتى تنشرح نفسه من فاس بصورها المجلوة فى تلك الآثار .

وكيف يستطيع المخالط لمخطوطات تونس أن يحمى نفسه من سحر فاس ، وهو الذى لو حاسب نفسه على ما رأت عينه ، ووعى قلبه من تلك الكنوز الغوالى ، لادرك ان نصف ذلك فى الاحصاء ، ان لم يكن اكثر ، يرجع الى فاس ، اما من طريق التاريخ ، أو التأليف ، أو التحقيق ، أو التخطيط . فلا غرو أن يخرج من بين تلك الخزائن وهو ربيب لفاس ، وثيق العهد بها .

فهلم بنا نطف بهذه الاركان الاربعة التى قام عليها صرح المجد الفاسى الروحى : مجد يتجاوز حدود الاوطان ، ويتخطى رقاب الازمان ، وتلك هى العناصر الاربعة :

التاريخ الفاسي
التاليف الفاسي
التحقيق الفاسي
التخطيط الفاسي

التاريخ الفاسي

يبتدىء الطالب ممارسة المخطوطات ، وفى نفسه لمحة من مدينة فاس كما فيها لغير فاس من عواصم الثقافة الاسلامية ، هى اللمحة التى حصلت عنده من مجموعة ما لديه من المعارف الاسلامية ، فلا تزال تلك اللمحة تشرق وتشع وينتشر شعاعها ، بأثر ما تقربه الى فاس المخطوطات التى فى الخزائن التونسية من كتب الادب والتاريخ ، حتى يصبح متأثرا بمناظر فاس ومواقعها ، واقفا على تفاصيل تاريخها ، وكأنه شهد الاحداث، وشايع العصبيات ، وتردد على المعالم ، وسلك الدروب والازقة ، وانتشق أنفاس الرياض الزواهر ، ونادم الادباء على « وادى الجواهر ».

فحين تأخذه العناية الكبرى التى تحوط النسخ العديدة من تاريخ ابن خلدون ، ومن كتاب المقرى « نفح الطيب » بين مخطوطات جامع الزيتونة الاعظم ، والمكتبة العبدلية ، وما عسى أن يتصل به من الخزائن الخاصة ، أو تأخذه العناية المنوه بها على النسخة الخطية من « أزهار الرياض » فى خزانة الجامع الاعظم ، أو النسخة البديعة التى بخط الشيخ مصطفى رضوان بالمكتبة العاشورية ، ويسرح مع هؤلاء فى الاخبار والاسمار ، لا يخرج الا وهو لاهج ، من فاس : بعدوة القرويين ، وعدوة الاندلس ، والبلد القديم ، والدوح ، وباب الفتوح ، وباب عجيسة ، وباب المحروق ، هائم بالبطحاء ، والطالعة ، والقيسارية ، وسوق الصفارين ، متغن بجامع القرويين : أروقته ، ومنارته وفواراته ، وبالمدرسة البوعنانية ، ومدرسة العطارين ، والمصباحية ، ومدرسة الصهريج ، ومدرسة الحلفاويين ، فيشوقه ذلك الى المزيد من التعرف الى فاس ، فى أخبارها وأسمارها ، فاذا هو واجد بين مخطوطات الجامع الاعظم ما يزيده معرفة بتاريخ فاس ، وأنسا بأخبارها ، واعتناء بنكت أسمارها ، اذ يجد : نسخة خطية كتبت فى تونس ، من كتاب « جنى زهرة الآس فى بناء فاس » للجزنائى ، ونسخة خطية من كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس ، فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » لابن أبى زرع ، ونسخة من « رحلة » أبى سالم العياشى ، ونسخة من « محاضرات » اليوسى ، ومن « الاجوبة الناصرية » له ، ونسخا عديدة من « رسائل » اليوسى الى السلطان المولى اسماعيل ابن الشريف بالزيتونة وبالعبدلية ، وكذلك يستكمل الصور التفصيلية لخطط فاس ، ودقائق الحياة فيها ، بما يكون فيه « ذوقا » خاصا يصل ما بينه وبين فاس ، مالا تصله الرحلة اليها ، بل ولا السكنى فيها .

التاليف الفاسي

نشأت مدينة فاس عاصمة عربية هاشمية ، سنية مالكية ، واخلصت لنشأتها فأسرع اليها ما يسرع الى نجباء الابناء من المحن فى سبيل الوفاء بحق أصولهم ، فنهضت فى وجه المحن ، وكان ذلك هو الذي زكاها ، كما يزكو بالمحنة كل ذى عرق أصيل .

فلم تكد فاس تقعد من نهضتها فى وجه الفتن ، التى نشبت فى غمارة وبرغواطة ومكناسة ، ثم من موقفها الثابت ضد الحكم العبيدى ، الا منتصف القرن الرابع ، فبرزت حينئذ حقيقة الروح التى قامت عليها المدينة ، فى الزهرة العلمية السنية التى أينعت بالامام دراس بن اسماعيل ، وقد تخرج بالقيروان ، واقام بفاس ، فأصل السنة والفقه فى فاس ، واشاعهما عنها ، فاتصل به ما بين فاس وبين القيروان والمشرق العربى ، وبين الاندلس ، اتصالا نشأ عليه ابن عمران الفاسى الذى انتقل من فاس الى القيروان ، فأتم تخرجه فيها حتى أصبح امامها .

وبذلك استقام المحور الرابط بين فاس وافريقية بصورة أحكمت الاتصالات الفكرية ، والمقابسات العلمية ، على نحو مطرد : من وحدة المنهج ، ووحدة العمل . وتوالت على فاس رجات زعزعتها ، ومادت بها ، ومالت بالامن والامر عنها ، على عهد المرابطين ، ثم على عهد بنى عبد المؤمن ، الى أن عاودتها زهرتها بقيام الدولة المرينية ، التى أرجعت اليها تخت الملك ، فى منتصف القرن السابع .

ومن هذا التاريخ يبتدىء الدور العظيم الذى كان لفاس ، فى اشعاعها بالروح العلمية التى لم يزل مضيئا بها قلبها ، بعد أن كسفتها الحوادث ثلاثة قرون ، دون الاشراق فى الآفاق . وصادف ذلك ظهور زهرة مدينة تونس ، بانتقال العاصمة الافريقية اليها ، وظهور عظمة الدولة الحفصية . فكان القرن السابع قرن الزمالة المستحكمة بين المصرين العظيمين : انتعشت الحركة العلمية بجامع القرويين وبجامع الزيتونة ، واكتملت لكل منهما هالة من المدارس العلمية حوله ، بما قلب العاصمتين : المرينية والحفصية ، الى مدينتين جامعيتين . واطردت العلاقات العلمية بين رجال المصرين على المنهج التعليمى الجامع ، الذى برز به فى تونس : أضراب ابن زيتون ، وابن عبد السلام ، وابن عرفة ، وابن خلدون ، وتجاوب فيه معهم فى فاس : أمثال ابن الصباغ ، والمقرى الكبير ، وتلك الحلبة التى نوه بها ابن خلدون فى التعريف بنفسه ، حتى نجلت علوم كل من العاصمتين ، وتصدر رجال كل من الجامعين الاعظمين : الزيتونة والقرويين ، للتدريس فى الجامع الآخر ومدارسه ، واشترك في التخرج على أساتذة المدينتين طلبة من هنا وهناك .

وبذلك تأصلت لمدينة فاس منزلتها العلميـــة فى المحيـــط التونسى ، وبدأت الاوضاع الفاسية تشيع ، ويعظم قدرها .

وكما تواصلت الروابط بين أيمة العلم ، فشاعت التآليف العلمية الفاسية بتونس ، تواصلت الروابط كذلك بين أيمـــة التربية الصوفية ، باتحاد طريق السلوك على الخطة السنية الجنيدية التى أخذها الشيخ ابو مدين عن الامام عبد القادر الجيلى ، ودرج عليها تلاميذ أبى مديـــن الفاسيون ، مثل أبى عبد الله ابن حرزهم (الاصغـــر) والشيـــخ عبـــد السلام بن مشيش ، وتلاميذه التونسيون ، مثل أبى سعيد البلاجي وعبد العزيز المهدوى . وبهؤلاء وهؤلاء سلك الامام أبـــو الحســـن الشاذلى ، وجمعت حياته وطريقته بين القطرين ، قبل أن تنتشر بالمشرق والمغرب ، فكان التواصل فى الطريقـــة الشاذلية ، من عهـــد أصحابـــه واصحاب أصحابه ، بتونس وفاس ، بين المؤلفين فى طريقته ومناقبه والشارحين لأحزابه الى القرن الماضى .

وجاء القرن التاسع بأحداثه وأزماتـــه ، وعظمت فـيـــه مشكلـــة الاندلس ، وبدت طلائع الخطر الحائق ببقية دولة الاسلام فى غرناطة ، وتقاطر اللاجئون الاندلسيون على البلاد المغربية ، وبدت نـــذر التدهور الاقتصادى والسياسى ، وحدثت للناس فى حياتهم الاجتماعية اقضيـــة فقهية على قدر ما أحدثوا ، فتطلعوا الى قضاء عادل بصير بالاحوال ، يتصرف بالاختبار ، وحسن التطبيق ، وتحقيق مناط الاحكام ، وتوجهوا الى « البلدة الغراء فاس » فوجدوا من فقهائها عملا قضائيا جاريا على ما يلائم التطلعات الاجتماعية ، واصبح « قاضى فـــاس » ابـــو الحسن الزقاق يجمع المسائل التى جرى فيها العمل بفاس على خـــلاف المشهور من المذهب المالكى « لما قد فشى من قبح حال وحيلة » ، فاتخذ « العمل الفاسى » مرجعا فى الاقطار الافريقية ، واعتمد فقهاء تونس على فقهـــاء فاس ، يدرسون كتبهم ، ويجمعون فتاويهم ، ويتنافسون فى رسائلهم ، فطلع عليهم الوانشريسى بالمعيار ، وأبو الحسن الصغير بتقييـــده على المدونة ، وابن غازى بتكميله للتقييد ، واتصلت تلك الآثـــار الفقهية من قريب أو من بعيد : من كتب السنوسى فى العقائد وكتب الشيخ احمـــد

زروق البرانسى فى الحديث والفقه والتصوف ، وكتب الشيخ الجزولى وأحزابه ، ولاسيما كتابه الذائع الشهرة « دلائل الخيرات » وكتب ابن غازى وضوابطه ، وتقييد الهبطى لوقف القرآن ، وكتب ابن المرابط فى النحو .

واستهل القرن الحادى عشر بالشيخ يوسف الفاسى ، وأخيه عبد الرحمان ، فعمت شهرتهما فى العلم والصلاح ، وتأيدت بشهرة الذين تتابعوا عليها فيما بعد من آل الفاسى الفهريين ، مثل الشيخ عبد القادر الفاسى الذى ملأت حياته هذا القرن كله ، كما عظمت شهرة الشيخ عبد الواحد بن عاشر بكتبه فى الفقه والقراآت وغيرهما ، وذاع صيت أبى العباس المقرى غربا وشرقا ، واشتهر أبو محمد ميارة وكتبه . وختم القرن الحادى عشر بركنى العلم والادب : اليوسى وابن زاكور ، وامام السلوك : الشيخ محمد بن ناصر الدرعي .

ورسخت سمعة فاس الفقهية ، فى القرن الثانى عشر ، باختصاص ايمة الفقه المالكى بفاس ، بتحقيق المذهب ، وتصحيح نقوله ، والرجوع الى امهات الدواوين ومجاذبة الانظار مع كبار فقهاء المذهب المالكى بمصر من أهل القرن الحادى عشر ، وتقويم مباحثهم ، وذلك ما ظهرت به كتب الشيخ ابن رحال ، فى تعقيبه لشراح المختصر الخليلى : الاجهورى ، وتلاميذه الشبرخيتى والخرشى والزرقانى ، وذلك ما اشتهر به الشيخ محمد بن الحسن بنانى ، والشيخ محمد التاودى ابن سودة ، والشيخ علي التسولى ، والشيخ محمد الرهونى ، حتى أصبح الفقه المالكى عالة عليهم ، لا يستقيم بحث فقهى ، بالغرب وبالشرق ، الا على طريق تحاريرهم .

واشتهر فقهاء فاس بالبراعة فى القضاء ، حتى اصبح المثل السائر فى تونس يضرب للقضايا المعقدة بقولهم : « ما يحلها قاضى فاس » .

وظهرت فى فاس نزعة جديدة فى الفقه وأصول الدين : هى السلفية التى اشاعها السلطان المولى محمد ابن عبد الله ، والف بها كتبه ، وسار عليها ابنه المولى سليمان ، وناصرها كثير من العلماء ، فاهتم بها فقهاء تونس ، وعلت بها منزلة السلاطين العلويين فى نظر الخاصة والعامة

بتونس ، بما جمعوا الى نسبهم الزكى ، ومنصب سلطنتهم ، من شرف الامامة العلميـــة .

واجتمعت لفاس مع سمعتها العلمية بتونس ، سمعة أخرى رفيعة ، فى صناعة الحديث والاسناد ، وعلت السمعتان معا بمقدم الشيخ أحمد المكودى ، وهو تلميذ الشيخ الحريشى والشيخ أحمد بن مبارك . فاستقر بتونس وولى الافتاء بها ، ووصل اسانيدها من طريق شيخه ، بأسانيد الشيخ عبد القادر الفاسى .

وبأثر هذه الصلات المتأكدة تواصلت الرحلات بين القطرين بمـــا ربط الاسانيد ، وجمع بين الافكار والانظـــار : فى رحلـــة الشيخ ابراهيم الرياحى ، والشيخ محمد المناعى ، الى المغرب ، ورحلة الشيخ التجانى ، والشيخ محمد القصرى ، وابن عبد الله الفـــاسى ، والشيـــخ محمد بن التهامى العربى الرباطى ، الى تونـــس ، ومـــا تفـــرع على ذلـــك من الصـــلات والمـــآخـــذ .

فهذا ما يوضح لنا أن مدينة فاس ، منذ أن استقر امرها فى القرن السابع ، لم تزل منار العلم ومداره ، توالت عليهـــا سبعة قرون وهى عالية السمعة ، مشرقة الطلعة ، فى البلاد التونسية . وذلـــك هو الذى يراه راى العين ، الممارس لخزائـــن المخطوطات فى الحضرة التونسيـــة الـــخـــضـراء .

فانه من المعروف ان الكتب لم يبدأ شملها يجتمع بتونس ، وخزائنها تعمر ، الا من أوائل القرن الحادى عشر ، بعد نكبة الاحتلال الاسبانى التى أصابت البلاد التونسية ، فذهبت بطارفها وتليدها فى القرن العاشر . فلا غرو كانت المكاتب ، التى تكونت فى عصر الدايات والمراديين ، قـــد تكونت وسمعة فاس العلمية التى استعرضناها ، سمعة مكينة سامية ، فكان لذلك مظهره الواضح فى تكون تلك المكاتب ، اذ جمعت من التآليف الفاسية ما يتنافس فيه المتنافسون ، سواء فى ذلك خزائن المساجـــد والمدارس ، أو خزائن القصور الملكية ، او بيوت الاسر العلمية .

فمن خلال تلك الخزائن يرى المطالع ما كان للتونسيين ، فى عهد تكونها من العناية بالتآليف الفاسية التى وضعت فيما بين القرن السابع والقرن التاسع ، حين لا يكاد يجد خزانة ذات اعتبار ، من الخزائن العامة والخاصة ، الا وهى مشتملة على الاقل ، على الاجرومية ، وناهيك بشهرتها ، وعلى نسخة أو نسخ من تقييد ابى الحسن الصغير على المدونة . وفى مكتبة والدنا منه نسخة شرقت وغربت وعادت من مصر الى تونس وعليها خط الشيخ سالم السنهورى ، ولا يكاد يجد خزانة ايضا الا وهى تشتمل فيما تشتمل عليه من كتب الامام المقرى الكبير ، على نسخة من كتاب « القواعد » بل يجد الخزانة الام : خزانة جامع الزيتونة الاعظم قد اسس فيها فن باستقلاله ، عنوانه فى الفهرس « مبحث القواعد الفقهية » على كتاب المقرى وما اتصل به وبنى عليه من تآليف الفاسيين : الونشريسى ، والزقاق والمنجور ، وميارة ، وحين يجد نسخة تونسية ، كتبت فى القرن التاسع ، من شرح القباب على قواعد القاضى عياض ، هى عندنا فى مكتبة سيدى الوالد ابقاه الله .

ويتتبع آثار الامام الشاذلى فيجد فى جامع الزيتونة وحده ، نسخا عديدة من كتابه « القصد الى الله » وعشرات المخطوطات النفيسة من الصلاة المشيشية والاحزاب الشاذلية مفردة ومجموعة ، الى ما عليها من الشروح الفاسية الكثيرة : شروح زروق ، وعبد الرحمان الفاسى الاكبر ، وبنانى ، وابن عجيبة ، ونسخا كذلك من شرح ابن عباد على الحكم (بله ما بعده من مثل شرح جسوس ، وشرح ابن كيران) .

ويمر المطالع الى القرن العاشر ، فيحس بأن التراث الفاسى نما وتكاثر ، حين تطالعه النسخ الخطية التى لا تكاد تحصر من كتب الزقاق : اللامية والمنهج المنتخب وكتب الونشريسى ، وفى مقدمتها « المعيار » وقد تعددت نسخه التامة فى جامع الزيتونة ، على طوله ، زيادة على الاجزاء المفردة ، والنسخ الملفقة ، وعلى مختصراته ، ومنها نسخة من اختصار المجليدى عندنا ، واخرى من اختصار الشيخ التسولي ، لعله من تأليفه . ومن كتب ابن غازى فى القراآت ، والحديث ، والفقه والنحو، والحساب ، والتاريخ ، منها منظومته التى عنوانها رجزا :

بالعبدلية ، من احباس الامير على باشا الحسينى على مدرسته ، وتكميل التقييد بجامع الزيتونة ، وحاشية البخارى بجامع الزيتونة أيضا .

ومن كتب السنوسى نسخ تعد بالعشرات : من صغرى الصغرى ، والصغرى ، والوسطى ، والكبرى ، والمقدمات ، وعليها من الشروح والحواشى (منها حاشية المنجور اليوسى ، بالعبدلية كتبت أوائل القرن الثانى عشر) .

وما يزال المطالع يمشى مع آثار القرن العاشر اذ يستعرض كتب الشيخ احمد زروق : شرح البخارى ، وشرح الارشاد ، والنصيحة الكافية ، وكتاب تقيد وقف القرآن للهبطى ، حتى تشرق له انوار الشيخ البديعة من دلائل الخيرات للشيخ محمد بن سليمان الجزولى ، التى هى حلية كل خزانة .

ويجتاز عتبة القرن الحادى عشر ، فاذا هو امام نسخ من أراجيز ابن عاشر : مورد الظمآن ، والمرشد المعين ، بما يحوطها من آثار الشهرة والعناية ، ورسائل على الشيخ ميارة ، وشروحه على المرشد المعين وعلى لامية الزقاق ، وشرح ابن المرابط على التسهيل ، وهو من نفائس خزانة جامع الزيتونة ، وقد كان ، على عزته ، عمدة الدراسة منذ القرن الثانى عشر ، واختصره الامير علي باشا ابن محمد ، واختصاره فى الزيتونة أيضا .

واذا هو أمام كتب المقرى ، الجامعة المتعة ، غير التى مضى ذكرها ، واشرفها : كتاب « فتح المتعال بوصف النعال » ونسخته فى الزيتونة نسخة ذات قيمة يعز فيها نظيرها فهى بخط الامام ابراهيم الرياحى ، أبدع فى ضبطها ، وتحقيقها ، وتخطيطها وتزويقها ، وفى مكتبتنا منه نسخة كتبت بفاس فى حياة المؤلف ، سنة 1034 بعد رحلته الى المشرق ، عن الاصل الذى بخطه ، وكتب الامام الفذ أبى علي اليوسى : حاشيته الكبرى ، ورسالته فى جواب المولى اسماعيل ، ومنهما نسخ

عديدة بالزيتونة وبالعبدلية ، وكتب امام اللغة والادب محمد بن قاسم ابن زاكور : ديوان شعره فى المديح النبوى الشريف ، وعدة من رسائله ، وشرحه على ديوان الحماسة ، وشرحه على لامية العرب ؛ وهى موجودة كلها فى الزيتونة وغيرها ، ونسخة من شرحه على قلائد العقيان، هى مسودته التى بخطه بمكتبتنا .

ومن كتب آل البيت الفاسى : كتب الشيخ محمد ابن عبد القادر ، والشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر ، واشهرها نظم العمل الفاسى ، الذى لا يخلو منه بيت فقيه ، والشيخ محمد المهدى الفاسى ، ونسخ شرحه على دلائل الخيرات كثيرة جدا ، بالزيتونة والعبدلية والمكاتب الخاصة ، وكتابه فى السيرة النبوية الذى سماه « سمط الجوهر الفاخر ، من مفاخر النبىء الاول والآخر » ومنه بالزيتونة نسخة اصلية جليلة كتبت سنة 1098 ، بخط محمد المهدى بن احمد بن محمد بن يحيى بدار مؤلفه ومحضره ، وفى آخر النسخة شهادة بخط المؤلف بسماع الشيخ عبد الرحمان الزمرانى الكتاب عليه واجازته فيه وفى جميع تآليفه وبسنده عن الشيخ محمد العربى الفاسى عن أبى عبد الله القصار . ويجعل هذه النسخة الجليلة مسك ختام القرن الحادى عشر .

فاذا انتهى الى القرن الثانى عشر ، وجد مظاهر الصلات المطردة قد عقدت بين القطرين وحدة شاملة ، وأحضرت فاسا حضورا باديا فى كل فن من فنون العلم . يلحظ ذلك فى اجازة الشيخ احمد بن مبارك السجلماسى للمكودى بخطه أيضا ، وفى ما أشاع مقدم الشيخ المكودى من رسائل الشيخ ابن مبارك النفيسة العديدة المسماة فى اجازته ، ومنها الكثير بالزيتونة والعبدلية وغيرهما من المكاتب الخاصة وبعضها بخطه .

كما يلحظ آثار العناية التونسية بالنهضة الفقهية فى فاس : فى شرح ابن رحال على المختصر ، بنسخته المغربية الجليلة ، ذات الخمسة عشر جزءا بالزيتونة ، زيادة على النسخ الاخرى الملفقة بالزيتونة والعبدلية ومكاتب أخرى ، وحاشيته على شرح ميارة على العاصمية فى الزيتونة وفى كثير من المكاتب الخاصة ، وحاشية الشيخ محمد بن الحسن بنانى

علي الزرقانى فى نسخة الزيتونة المنقولة عن مبيضة المؤلـف والمقابـلة عليها ، والنسخ العديدة الاخرى منها فى الزيتونة وغيرها .

ويلحظ ذلك بصورة أجلى ، فى العناية بالشيخ التاودى ابن سودة وكتبه ، وما ينوه به تلميذه التونسى الشيخ محمد بن سليمـان المناعى ، فلا حديث عن شرح التاودى على العاصية وشيوع نسخه المتقنة ، ولكن نذكر شرح الزقاقية بالزيتونة وغيرها ، وحاشيـة الزرقـانى بالزيتونـة وبمكاتب اخرى خاصة ، وشرحه على جامع المختصر الخليلى بالزيتونة ، ونسخة من كناشه بالزيتونة أيضا .

ويلحظ ذلك أيضا فى مخطوطات حاشيـة الرهونـى على الزرقانى بالعبدلية وغيرها ، الى تمام السلسلة فى كتب التسولى : شرح التحفة ، وحاشية شرح الزقاقية ، ومجموعة فتاويه وفتاوى شيخه التاودى ابن سودة ، ومنها مجلد بخطه فى خزانة استاذنا المنعم سيدى ابى الحسن النجاء التى آلت الى المكتبة العبدلية . ويتبـع هذا مظهـر من عنايـة التونسيين بتلك الاوضاع الفقهية المهمة فى حاشية الشيخ حسن الشريف على شرح ميارة على اللامية ، وحاشية الشيخ احمد بن الطاهر والشيخ محمد ابن سلامة على التاودى ، وجميعها بخزانة جامع الزيتونة .

ويلحظ من جهة أخرى ، آثار الحركة السلفية التى قام بها المولى السلطان محمد بن عبد الله فى النسخ من تآليفه الكثيرة التى اشتمـل عليها مجموعان بخزانة جامع الزيتونة : احدهما فيه جامـع المسانيد ، ورسالة فى آداب التعليم وغيرهما ، كتب على بعضها انه النسخة الاصلية التى وجه بها المولى السلطان الى الشيخ التاودى ، والمجموع الآخـر مجلد فاسى عظيم القيمة ، بديع التذهيب والتخطيط والتزويق ، به كتاب « سمط الجواهر واللئالى فى ما اشتمل عليه كتـاب الاحياء للغـزالى » وخمس رسائل تابعة له ، وعليه توقيفات بخط مؤلـفه المولى السلطان نـفـسـه .

ويلحظ اثرا ذا بال من صلة الطريقة الناصرية بالبلاد التونسية فى اجازة الشيخ يوسف بن محمد ابن محمد بن ناصر الدرعي للباشا علـي

بن حسين ، اجابة لطلبه ، وتأكيدا لما سبق للباشا من انتساب الى الطريقة بواسطة السيد عبد الحفيظ ، وهى فى جامع الزيتونة . واثرا يتبع هذا ، فى القرن بعده ، من صلة الطريقة التجانية بتونس فى اجازة الشيخ ابراهيم الرياحى للشيخ احمد بن الطاهر سنة 1244 وفيها بخطه : « اجزت بها حبيبنا الشيخ أبا العباس احمد ابن الشيخ سيدى الطاهر اللطيفى كما اجازنى بها شيخنا ابو العباس رضى الله عنه واجازة الشيخ الرياحى أيضا بسنده فى البخارى عن الشيخ الامير السلوى عن الشيخ عمر بن عبد الصادق والشيخ محمد بن عبد الهادى التطاونى . مظهر من مظاهر الصلات الاسنادية بصورة عامة ، وهى التى أجاز بها الامام الرياحى تلميذيه شيخى الاسلام محمد ابن الخوجة واحمد ابن حسين .

وهكذا يستمر للاسناد مظهره فى وثائق الاجازات ، مترجما عن حضور مكين لفاس بتونس ، فى مثل اجازة الشيخ محمد بن التهامى للشيخ محمد ابن الخوجة سنة 1243 ، واجازة الشيخين عمر واحمد ابنى الشيخ الطالب ابن سودة للشيخ سالم بوحاجب . فى حين تنقطع مخطوطات الكتب عن الشهادة بذلك ، وقد صالت عليها صلصلة الطباعة .

التحقيق الفاسي

فى الوقت الذى كان ابن خلدون يشكو فيه انقطاع صناعة الخط والضبط والرواية من المغرب ، ويتحرق على « ان الامهات والدواوين صارت تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف » كانت فاس قد بدات تصل ما انقطع من تلك الصناعة ، وتعاود ما ذهب من رسومها .

وكانت مبادىء هذا الانبعاث فى حياة ابن خلدون من حيث لم يشعر بها . وذلك بأن الاندلس ، التى يشهد ابن خلدون نفسه بأن أثارة من صناعة الوراقة قد بقيت فيها ، كانت قد انتقلت بمعظمها ، كتبا وكتابا ، الى فاس ، فى ما يحدثنا به صاحبنا ولى الدين عن كثرة الخارجين من الاندلس الى المغرب فى دولة بنى مرين ، وغلبة صنائعهم الخطية هنالك ،

ثم ما حدثنا به ايضا عن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من مطالبته الطاغية سانجه بتسليم كتب العلم التى بأيدى النصارى منذ استيلائهم على مدن الاسلام ، فبعث منها ثلاثة عشر حملا وقفها السلطان على المدرسة التى اسسها بفاس ، ثم ما ذكره من اعتناء السلطان ابى الحسن المرينى بنسخ المصاحف بخطه وتكليف القراء بضبطها وتهذيبها . فاذا أضفنا هذا الى ما ورد فى خطبة مقدمته من التنويه بخزانة الكتب التى اوقفها السلطان ابو عنان المرينى لطلبة العلم بجامع القرويين ، وهى التى وجه اليها بالنسخة الشهيرة من تاريخه من المشرق ، تبين لنا أن مدينة فاس ، منذ برزت بمظهرها المشرق فى التأليف ، قد كان للعناية بأصول الدواوين واستجادة نسخها ، والاهتمام بأصالتها وصحتها ، والحرص على ضبطها ، ما يضارع الهمة العلمية البادية فى التأليف والتحرير .

وقد تأكدت هذه العناية بأن فاسا لم تزل دار حديث ورواية ، وان صناعة الحديث فى العصور المتأخرة انما تتمثل فى الضبط والمقابلة وتصحيح الروايات كما ذكر ابن خلدون ، وكان ذلك هو سبيل العلم عند الفاسيين ، كما ذكر المقرى فى أزهار الرياض ، نقلا عن بعض معاصريه .

ولا شك فى أن بقاء الاصول الجليلة من أمهات كتب الاسلام فى فاس قد قوى هذه العناية ونماها .

وكفى من ذلك نسخة البخارى « الشيخة » التى نقلها أبو عمران بن سعادة عن نسخة ابى علي الصدفى ، واعتمدها الناس منذ القرن السادس بالاندلس والمغرب للنسخ والمقابلة . وقد شاعت فى المخطوطات التونسية النسخ المأخوذة منها ، والمقابلة عليها ، وأجلها النسخة المكتوبة بتخطيط بديع وتذهيب سنة 838 لخزانة الوزير على بن يوسف الوطاسى ، وبآخر كل جزء منها أنه مقابه على نسخة ابن سعادة التى عليها خط أبى على الصدفى ، ويوجد منها جزآن فقط من خمسة أجزاء بمكتبتنا . واكثر نسخ البخارى بتونس ، واعظمها قدرا ، هى النسخ الفاسية المنقولة عن نسخة ابن سعادة ، وتبتدىء على الطريقة المتبعة فى ذلك ، بالحديث عن ابى على الصدفى بسنده الى البخارى مكتوبا بعد الترجمة الاولى ، وهى مجزاة فى الاكثر الى خمسة أجزاء كتجزئة ابن سعادة ، ومنها نسخ

عزيزة فى مجلد واحد : خمس منها بجامع الزيتونة ونسخة بالعبدلية وفرائد أخرى ببعض الخزائن الخاصة .

كما توجد نسخ أخرى من البخارى مصححة ومقابلة على غير نسخة ابن سعادة . ولكنها فيما يظهر راجعة اليها بواسطة ، مثل نسخة بخط محمد بن عبد العزيز الحلو ، ذات اجزاء بالعبدلية ، مقابلة على اصل بخط الشيخ المهدى الفاسى .

وبهذا اشتهرت كتب الحديث المخطوطة بفاس بالصحة والاتقان والضبط ، وأصبح الاعتماد عليها شائعا ، والتنافس فيها شأن أصحاب الخزائن .

فقد كان الامير علي باشا بن محمد المتوفى سنة 1170 من عنايته بالكتب ، وحرصه على الاصول الصحيحة المضبوطة ، أرسل رجالا الى فاس يشترون له الكتب ، وبذل فى ذلك بذلا طائلا كما ذكر فى تاريخ « المشرع الملكي » . وهذا الامير هو الذى أنشأ خزائن عظيمة بالمدارس الاربع التى أحدثها بتونس ، رجع الكثير منها الآن الى العبدلية ، وجمع لنفسه خزانة عظمى فى قصره بباردو ، وهى التى حبسها المشير احمد باشا على جامع الزيتونة سنة 1256 .

واشتملت هذه المكاتب ، وغيرها من المكاتب التونسية ، على أصول مصححة مقابلة من كتب التفسير والسنة وكتب العربية ، بحيث أن نسبة المخطوطة الى فاس تشير غالبا الى صحتها واتقان ضبطها ، فنجد فى خزانة جامع الزيتونة نسخا فاسية كثيرة من صحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وكلها صحيحة معتمدة ، ونسخا كذلك من الموطأ ، وشيئا كثيرا من كتب الفقه المالكى القديمة : مثل التهذيب والبيان والتحصيل ، والحديثة المشرقية التأليف : مثل شرح الخرشى وشرح الزرقانى على المختصر ، فضلا عن التآليف المغربية الحديثة ، التى منها ما هو بخطوط المؤلفين ، ومنها المقابل على أصولهم .

التخطيط الفاسي

استتبعت العناية المرينية بتصحيح الكتب وضبطها عناية بتجويد الخط ، وتجميل الطوالع ، واظهار التراجم والمقاطع ، وابداع التزويق والجدولة والتلوين والتذهيب . وذلك ما ورد فى أخبار مصاحف السلطان ابى الحسن وما وغر لها من آيات الجلال والجمال .

وبذلك كان للوراقة مكانها السامى من بين مظاهر الحياة الفاسية . وأعانت سعة الحضارة وضخامة الدولة ، من جهة ، ورقة الذوق الفاسى من جهة أخرى ، وتأثير الخطاطة والوراقة الاندلسيتين ، من جهة ثالثة ، على أن أصبح الكتاب موضوع عمل فنى رقيق ، يبدو فيه الذوق السليم ، والصناعة الرشيقة والبذل الواسع . وقد اكتملت لمدينة فاس أسباب الاتقان الفنى للكتاب من جميع هذه النواحى حتى أصبحت تقصد لطلب الكتب من حيث جمال المجلدات ونفاستها ، كما تقصد لطلب التأليف المهم والضبط الصحيح ، حتى أصبحت الكتب المخطوطة بفاس ، على تفاوت مراتبها ، ذات كثرة غالبة على مخطوطات المكتبتين الزيتونية والعبدلية .

ولا عجب أن تتأثر صناعة الوراقة لما يرقيها ويفننها مما تأصل فى العهد المرينى ، وتتابع فى العهدين الشريفين السعدى والعلوى ، من الاجادة الفنية ، والبراعة الصناعية فى أشكال الزخارف ، واتقان وضعها ، وأناقة صنعها ، فى البناء ، والنسخ ، والترصيع ، لاسيما صناعة الدباغة ، وتنميق الجلود ، وتذهيبها ، التى طار صيت المملكة المغربية بها شرقا وغربا .

ولعل وفرة الذهب بالمغرب فى العهد المنصورى ، بعد فتح السودان قد أعانت على ذلك .

وكان القصد الى فاس فى استجادة النسخ المفننة من الكتب المعتبرة قد نشط هذه الصناعة وفتح لاربابها مناهج الاتقان ، وشحذ أذهانهم لمزيد الابداع . فانثالت على تونس ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الكتب الفاسية المبدعة فى التخطيط ، المعجبة فى التلوين

والتزويق ، الباهرة التذهيب ، الرائقة التجليد ، وبها ازدانت الخزائن التونسية فى هذين القرنين : من المصاحف الشريفة ، ونسخ البخارى وسائر الصحاح ، وكتاب الشمائل ، وكتاب الشفاء ، وكتاب دلائل الخيرات ، وكتب اللغة ، ودواوين الادب .

وانتشرت بتونس شهرة الكاتب المجيد المتقن محمد بن عبد العزيز الحلو ، فى صدر القرن الثالث عشر ، وتنافس الناس بتونس فى آثاره ، وشاركه فى شهرته رجال ونساء من آله عرفوا جميعهم بالخط الفائق المتحد حتى ان الواحد منهم يكمل عن الآخر فلا يتمايز الخطان . فأصبحت خطوط « أولاد الحلو » أنفس المكاسب عن أهل المكاتب .

وبالزيتونة نسخة من البخارى فى مجلد واحد برواية ابن سعادة عن الصدفى هى غاية فى الصحة ، وجمال الخط ، وبديع الطوالع والتزاويق ، وروعة التلوين والتذهيب ، كتبها محمد بن عبد العزيز الحلو سنة 1227.

واخرى بالعبدلية كتبها هو بنفسه سنة 1221 وكلتاهما مجلدة باتقان فى احكام الربط ، وحسن التجويف والتلوين والزخرفة وفنون الترصيع بالذهب الابريز الملون ، ومكتوب على لسان السفر فى كل منهما بالحرف البارز فى الجلد « الجامع الصحيح للامام البخارى » .

ولخطوط آل الحلو نسخ كثيرة من دلائل الخيرات فى قوالب مختلفة ، منها الصغير جدا ، وبخطوطهم أيضا مجاميع خفيفة المحمل فيها دلائل الخيرات والحصن الحصين والاربعون النووية واحزاب للشاذلى وغيره والحكم والبردة والمختصر الفقهى للشيخ عبد القادر الفاسى وغيرها ، يسعها الكف ، وتحمل بسهولة فى الجيب ، عندنا منها واحد ، تجليده فاسى ، مكتوب عليه بالبارز فى الجلد .

وبخطوط غيرهم كذلك نفائس : منها نسخة من الشفاء فى خزائن يجمعها مجلد واحد على طراز نسخة البخارى ، بجامع الزيتونة ، كانت من الخزانة الملكية بقصر باردو ، ونسخة من شرح القسطلانى على البخارى ، فى عشرة أجزاء ، نسخها الطاهر بن عبد السلام المدعو ابن

موسى الفاسى سنة 1281 ، به طوالع مزوقة وجداول مذهبة بالعبدلية ، ونسخة من شرح الحصن الحصين للشيخ **محمد** بن عبد القـــادر الفاسى بخط جميل ، لم يذكر اسم ناسخها ، ونسخة من شرح الشيخ المهـــــدى الفاسى على دلائل الخيرات فى جزءين ، **مذهبـــه** الطوالـــع والجـــداول وصورة الروضة المشرفة . فكفى بها لمحة شريفة فى المخطوطات التونسية.

تـــونـــس **محمد الفاضل ابن عاشور**

قصيدة الواعظ الأندلسي

عبد الله كنون

هذه قصيدة اخرى من اروع الشعر وابدعه ، الذى بقي منسياً ولم يعرف طريقاً الى النشر مطلقاً ، وحتى كتب التراجم ودواوين الأدب المخطوطة بله المطبوعة ، لم تتضمنه ولا اشارت اليه ، فيما نعلم ، بعد التتبع مدى طويلا ، وانما هي من الوجادات المنفردة التى عثرنا عليها فى بعض المجامع فألفيناها من الأعلاق النفيسة التى لا يصح أبداً أن تكون مهملة ويخلو ديوان العرب منها .

وهي قصيدة فى مناقب أم المومنين عائشة رضى الله عنها اشتملت على ذكر فضائلها وفضائل والدها أبى بكر الصديق ومجادلة الخصوم المبغضين لها المتقولين عليها . ومحاجتهم بالدليل من الكتاب والسنة فى ايمان صادق ودفاع حار . وبالواقع التأريخى الذى لا نزاع فيه من سيرتها العطرة وسيرة أبيها الخليفة الاول رضوان الله عليه ، وكل ذلك بأسلوب بارع وبيان رفيع ، ونظم محكم متين ، والى هذا وبقطع النظر عن كل اعتبار ، فالقصيدة تعبر عن عاطفة انسانية رفيعة لأنها تتخذ موقف المساندة بجنب سيدة شريفة أثناء ازمة هي أعنف ازمة تمر بها

امراة فى حياتها ، فتنافح عنها وعن كرامتها حتى تحتفـــظ لهـــا بسمعتها الطيبة وذكرها الجميل .

ومما ابر به صاحب هذه القصيدة انه جعلها على لســـان السيدة عائشة نفسها ، فبعد المطلع الذى يـــوذن بمقصوده تخلـــص فى البيـــت الثانى الى اعطائها الكلمة ، فجعلها هي التي تناظـــر وتفاخر وتدفـــع فى نحور الاعراء بسلاح الحجة والبرهان الذى يطوقهـــم الخـــزى والعار . فلو أنها رضى الله عنها نطقت فعلا بشعـــر فى الموضوع لما زادت على ما احتوته هذه القصيدة ، وهى من هى قوة بيان وشدة عارضة .

وهذا مما يدل على بلاغة منشئها ، ومقدرته البيـــانية وتمكنه من صناعة الشعر ، فضلا عن رسوخ قدمه فى المعرفة بعلم الحديث والسيرة النبوية والتاريخ وسائر العلوم الاسلاميـــة ، واذن فمـــن هى هـــــذه الشخصية العلمية الكبـــيرة ؟

صاحب القصيـــدة :

كما أهملت القصيدة أهمل صاحبها ، فلم نقف له على ترجمـــة فى كتاب مما وصلت اليه يدنا من كتب التراجم الاندلسية والعامة ، وغايـــة ما نجده مذكوراً مع القصيدة هو اسمه المجرد من كل تعريف أو تحديـــد لعصره بالوفاة أو غيرها ، وهو يقع فى كل النسخ التى سنذكرها من بعد بصورة واحدة هكذا : ابو عمـــران مـــوسى بن محمد بن عبـــد اللـــه الواعـــظ الاندلسى .

وقد أوحى لنا هذا الوصف من أول وهلة أنه ربما (ورب للتكثير) أطلق عليه فى المشرق لأنه لا يصح ان يعرف به وهو فى بلـــده الاندلس ، فالاندلسيون ينسبون عادة الى قبائلهم أو مدنهم وقراهم ، وقلما يجرى وصف الواعظ بينهم مقصورا على شخص بعينه . وبالعكس من ذلك فان الشخص اذا اغترب كثيرا ما ينسى اصلـــه وينسب الى قطـــره فقـــط ، والوصف بالواعظ معهود فى المشرق متداول منذ ان ترك وصف القاص الذى لم يستعمل هو ايضا فى الاندلس ولا فى المغرب عموما .

وعليه يكون صاحبنا قد رحل الى المشرق ، وزاول هناك مهمة الوعظ فعرف بها ونسب الى قطره الاندلس ، وتنوسي نسبه الاصيل ، بل تنوسيت ترجمته في بلده وفي المشرق . كما وقع لكثير غيره ممن رحل الى المشرق من المغرب أو الى المغرب من المشرق ، وقد كنا اشرنا الى هذه الحقيقة في تعريفنا بالواعظ البغدادى صاحب القصائد الوتريات الشهيرة . وقد تحقق لنا هذا الاحتمال عندما أطلعنا على نسخة شرقية من القصيدة كتبت في مصر وعليها سماع من الشيخ مرتضى الزبيدى شارح القاموس ، متصل بناظمها ، وقد جاء في آخر هذا السماع أن الافضل وزير مصر السنى ، أجازه عليها بمائة دينار لما بلغته . واهمية هذا السماع عظيمة جدا ، لأنه أفادنا برحلة المترجم الى المشرق أو مصر على الاقل حيث اطلق عليه اسم الواعظ الاندلسى على ما رجحناه آنفا ، وحدد لنا تاريخه أو عصره على الاصح ، وهو أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ، فان الوزير المشار اليه توفى سنة 515 هـ (1) وهو الافضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وزر للمستنصر والمستعلي والآمر ، من خلفاء الفاطميين بمصر ، واظهر الميل للسنة وابطل الكثير من مراسيم الشيعة وكان من العدل وحسن السيرة على صفة جميلة (2) . فلا غرو أن يجيز شاعرنا على قصيدته في مدح أم المومنين عائشة بتلك الجائزة السنية التي تفوق قيمتها المعنوية قيمتها المادية ، لاسيما اذا تذكرنا ان الدولة شيعية ، وأن راي الشيعة في عائشة وأبيها ليس بذاك . ولكن الزجل وان نشأ في هذه البيئة الشيعية ، وولي أعظم منصب للخلفاء الفاطميين ، لم يكن مغاليا في الانتصار لمذهب الدولة ، على ما ينبغي للوالي أن يكون ، بل انه كان يميل الى مذهب اكثرية الرعية وهو مذهب السنة ، فكانت اجازته للقصيدة تعبيراً عن هذا الميل فضلا عن تقديره لها ولصاحبها . وقد ثبت في تاريخه أيضا أنه أجرى على العالم أبى بكر الطرطوشى نزيل الاسكندرية دينارين في اليوم ، والطرطوشى من ائمة السنة المعروفين ، فهذا من اكبر الادلة على تفتحه وعدم تعصبه .

---

(1) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص 175 .
(2) المرجع السابق .

والخلاصة ان صاحبنا الواعظ الاندلسى زار مصرفى مدة وزارة الافضل ، وهى تمتد ما بين الثلث الآخر من القرن الخامس وأواسط العقد الثانى من القرن الذى يليه . ولعله أقام فيها طويلا ، مثل الامام الطرطوشى فان عبارة السماع القائلة ان الافضل أجازه على قصيدته « لما بلغته » تدل على ذلك .

ولا يبعد انه قام فى مصر بنشاط أدبى مما يرتبط بصفته العلمية ، ومن ثم اكتسب وصف الواعظ الذى صار حلية لازمة له ، فمصر حينئذ كانت بحاجة الى أمثاله ممن يقفون فى وجه الدعوة الفاطمية ويرفعون علم السنة كمواطنه الطرطوشى ، ولا شك انه عقد صلات مع رجالات مصر من أهل طبقته كما يؤخذ من نص السماع الذى ينتهى برواية القصيدة عنه من طرف واعظ مثله هو أبو طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزني الواعظ .

السماع :

لا يعنينا من السماع المذكور غير دلالته التاريخية ، ولذلك فنحن لا نهتم بغير هذا الجانب منه ، وقد ثبت عقب النسخة الشرقية من القصيدة الموجودة بآخر كتاب هدايات البارى على ثلاثيات البخارى لعلى الخلوتي ، مخطوط بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم 60 وهو بخط مصطفى الحكيم الذى وصف نفسه بخادم العلم بالازهر ناقلا له من خط من نقل من خط الشيخ عبد الوهاب الشبراوى الذى أنشده اياها هو وجماعة من المشايخ ، الشيخ مرتضى الزبيدى ، بجامع شيخو العمرى ، بالسند المتصل الى أبى طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزنى الواعظ قال : انشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الاندلسى لنفسه فى عائشة أم المومنين رضى الله عنها وأجازه الافضل وزير مصر السنى عليها بمائة دينار لما بلغته رضى الله عنها ورحم الله القائل : ... وفى السند الشمس الرملى وشيخ الاسلام زكرياء الانصارى والحافظ بن حجر ، وهو ما بين قراءة وسماع . ويليه تصحيح بخط الشيخ مرتضى قائلا فيه : ان الشبراوى المذكور سمع منه القصيدة هو ونحو ثلاثين نفسا ضبطت أسماؤهم على ظهر نسخة الاصل ، وذلك يوم الاثنين

لليلتين بقيتا من شعبان سنة 1186 ثم بخط الشبراوى سماعان لبعض من أخذها عنه احدهما بتاريخ ثانى شوال عام 1189 والثانى بتاسع محرم عام 1202 وبعدهما : كتبها لنفسه محمد احمد المرصفى الشافعى سنة 1255 ومن خط المرصفى نقل مصطفى الحكيم كل ما ذكر ، فهو أحدث تاريخا من هذا .

وعلى أى حال فان هذا السماع يبين القيمة الكبيرة للقصيدة ، وما تلقاها به هؤلاء الاعلام من حفاوة بالغة ، وهى جديرة بذلك .

نسخ القصيدة :

وقفت على اربع نسخ من قصيدة الواعظ الاندلسى (الاولى) منها والتى طالت صحبتى لها منذ أصبحت أقدر قدر هذه الكنوز الادبية هى نسختى الخاصة التى توجد ضمن مجموع خطى بمكتبتنا الكنونية وهى بخط مغربى جميل تغلب عليه الصحة ، ولا يتدنى تاريخها عن القرن الثانى عشر ، وقد نالت الارضة من أطراف الصفحات الثلاث التى كتبت عليها ولكنها لم تؤثر فى نصها تأثيرا يذكر .

(والثانية والثالثة والرابعة) هى من محتويات المكتبة العامة بتطوان ، وتقع ضمن ثلاثة مجاميع تحمل على الترتيب الارقام التالية : (656) و (830) و (60) والرقم الاخير هو رقم كتاب هدايات البارى على ثلاثيات البخارى الذى تقدم الكلام عليه ، وهو بخط شرقى وسط ، وكذلك القصيدة والسماع الذى يوجد عقبها ، وهى لا تخلو من تصحيف وتمتاز بزيادة بيت فى وصف الصديق خلت منه بقية النسخ .

أما نسختا المجموعين الآخرين فانهما بخط مغربى لا بأس به ، وترجعان فيما نظن الى القرن الماضى ، وتشتملان كذالك على هنوات ترجع فى الغالب الى ضعف الثقافة الادبية عندنا سخيهما ، كما يمكن أن يقال فى النسختين السابقتين . ولو أن من يهتم بهذه الآثار لا يكون من غير أهل العلم ، لكن العلم شىء ، والادب شىء آخر .

وقد قابلنا هذه النسخ بعضها ببعض ، واستخرجنا منها النسخة الصحيحة فى نظرنا ، ونبهنا فى التعليق على الخلاف الجوهرى الذى بينها ، وشرحنا كذلك ما يحتاج الى الشرح من معانيها والفاظها ولا سيما اشاراتها المتعلقة بنصوص الكتاب والسنة التى لا يتأتى لكل قارىء العثور عليها .

هذا وثم نسخة خامسة للقصيدة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية لم نطلع عليها ، لأنها عبئت منذ مدة مع بعض المخطوطات فى صناديق لضرورة ما . كما أخبرنا بذلك احد المسؤولين فى المعهد ، فلم يمكن الاهتداء اليها .

* * *

وهذا نص القصيدة :

ما شان ام المومنين وشاني ... هدي المحب لها وضل الشاني (3)

اني اقول منبهاً عن فضلها (4) ... ومترجما عن قولها بلساني

* * *

يا مبغضي لا تات قبر محمد ... فالبيت بيتي والمكان مكاني

اني خصصت على نساء محمد ... بصفات بر تحتهن معان

وسبقتهن الى الفضائل كلها ... فالسبق سبقي والعنان عناني

مرض النبي ومات بين ترائبي (5) ... فاليوم يومي والزمان زماني

---

(3) الشاني : المبغض .

(4) عن هذا بمعنى على كما فى قول الشاعر :

لاه ابن عمك لا افضلت فى حسب * عني ولا أنت دياني فتخزوني

(5) فى الحديث انه (ص) استاذن نساءه انيمرض فى بيت عائشة فاذن له ، وقالت عائشة : قبض رسول الله (ص) بين سحري ونحري .

زوجي رسول الله لم ار غيره (6) الله زوجني بـه وحباني

واتـاه جبريل الامين بصورتي وأحبني المختار حين رآني (7)

انـا بكره العذراء (8) عندي سره وضجيعه فى منزلي قمران

وتكلم الله العظيم بحجتي وبراءتي فى محكم القرآن (9)

والله خفرني (10) وعظم حرمتي وعلى لسان نبيه براني (11)

والله فى القرآن قد لعن الذي بعد البراءة بالقبيح رماني (12)

والله وبخ من أراد تنقصي افكا وسبح نفسه (13) فى شاني

اني لمحصنة الازار بريئة ودليل حسن طهارتي احصاني

والله احصنني بخاتم رسله واذل اهل الافك والبهتان

وسمعت وحي الله عند محمد من جبرائيل ونوره يغشاني

اوحى اليه (14) وكنت تحت ثيابه فحنا علي بثوبه وخباني (15)

من ذا يفاخرني وينكر صحبتي ومحمد فى حجره رباني

واخذت عن ابوي دين محمد وهما على الاسلام مصطحبان

---

(6) من المعلوم انها رضي الله عنها لم تتزوج بغيره صلى الله عليه وسلم .

(7) فى الصحيح قال (ص) لعائشة : اريتك فى المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك فى سرقة من حرير فقال : هذه امرأتك فقلت ان يكن هذا من عند الله يمضه .

(8) من المعلوم انه (ص) لم يتزوج بكرا غير عائشة .

(9) أنزل الله عز وجل فى براءتها عشر آيات هي قوله تعالى : (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم) الآيات 11 – 20 من سورة النور .

(10) بالتشديد امنني وحماني وفى نسختنا ونسخة خيرني بالياء .

(11) بتخفيف الهمزة .

(12) يشير الى الآية 22 من سورة النور وهي قوله تعالى : (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة) .

(13) يشير الى قوله تعالى : (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) وسبح نفسه هو ما فى نسخة 60 وباقي النسخ فيها : سبح شانه ولعلها تصحيف ،

(14) فى الصحيح قال رسول الله (ص) يا عائشة هذا جبريل يقرا عليك السلام ، الحديث

(15) بتخفيف همزة خباني .

وابي اقام الدين بعد محمد ... فالنصل نصلي والسنان سناني

والفخر فخري والخلافة فى أبي ... حسبي بهذا مفخرا وكفاني

وانا ابنة الصديق صاحب احمد ... وحبيبه فى السر والاعلان

نصر النبي بماله (16) وفعاله ... وخروجه معه من الاوطان

ثانيه فى الغار الذي سد الكوى(17) ... بردائه أكرم به من ثان (18)

وجنى العنا حتى تخلل بالغب (19) ... زهداً واذعن ايما اذعان

وتخللت معه ملائكة السما ... وأتته بشرى الله بالرضوان

وهو الذيلم يخش لومة لائم ... فى قتل أهل البغي والعدوان

قتل الالىمنعوا الزكاة بكفرهم(20) ... وأذل اهل الكفر والطغيان

سبق الصحابة والقرابة للهدى ... هو شيخهم فى الفضل والاحسان

والله ما استبقوا لنيل فضيلة ... مثل استباق الخيل يوم رهان

الا وطار ابي الى عليائها ... فمكانه (21) منها اجل مكان

ويل لعبد خان آل محمد ... بعداوة الازواج والاختان (22)

طوبى لمن والى جماعة صحبه ... ويكون من احبابه الحسنان (23)

بين الصحابة والقرابة ألفة ... لا تستحيل بنزعة الشيطان

---

(16) فى الحديث ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر .

(17) جمع كوة : يريد ثقبا كانت فى الغار سدها بقطع من ثوبه .

(18) يشير الى قوله تعالى : (ثاني اثنين اذ هما فى الغار) .

(19) يشير الى حديث نزول جبريل على النبي (ص) وعنده ابو بكر قد تخلل بعباءة وسؤال جبريل عنه واجابة النبي له بانه انفق ماله عليه يعني حتى افتقر وفيه ان جبريل أقراه السلام من الله عز وجل ، وقال له ان الله تعالى يقول لك : اراض انت فى فقرك هذا او ساخط ؟ الحديث . وقد ذكره هو وتخريجه المحب الطبري فى الرياض النضرة .

(20) بعد وفاة النبي (ص) ارتدت قبائل من العرب وامتنعت قبائل اخرى من اداء الزكاة فقاتلها كما قاتل المرتدين وبذلك حمى أحد أركان الاسلام من الضياع .

(21) فى نسخة (20) بمكانه بالباء وهو تصحيف .

صم كالاصابع فى اليدين تواصلا — هل يستوى كف بغير بنان

حصرت(24)قلوب الكافرين بوالدي — وقلوبهم ملئت من الاضغان

حب البتول وبعلها لم يختلف — من ملة الاسلام فيه اثنان

نسجت مودتهم سداً فى لحمة (25) — فبناؤها من أثبت البنيان

والله ألف بين ود قلوبهم — ليغيظ كل منافق طعان (26)

رحماء بينهم صفت أخلاقهم — وخلت قلوبهم من الشنئان

فدخولهم بين الأحبة كلفة — وسبابهم سبب الى الحرمان

جمع الالاه المسلمين على أبي — واستبدلوا من خوفهم بأمان

واذا أراد الله نصرة عبده — من ذا يطيق له على خذلان

من حبني فليجتنب من سبني — ان كان صان (27) محبتي ورعاني

واذا محبي قد ألظ بمبغضي — فكلاهما فى البغض مستويان

اني لطيبة خلقت لطيب — ونساء أحمد أطيب (28) النسوان

اني لأم المومنين فمن أبى — حبي فسوف يبوء بالخسران

الله حببني لقلب نبيه — والى الصراط المستقيم هداني

والله يكرم من أراد كرامتي — ويهين ربي من أراد هواني

والله أسأله زيادة فضله — وحمدته شكراً لما أولاني

---

(22) جمع ختن وهو زوج البنت وهو يسوي فى هذا بين من يعادي عائشة وعليا (ض) .

(23) هذا تاكيد لمذهب اهل السنة وهو موالاة الآل والاصحاب جميعا .

(24) ضاقت .

(25) فى جميع النسخ : لحمه بالهاء والتصحيح من نسخة (60) .

(26) فى نسختنا ونسخة 830 : طغياني وليس بشيء والطعان المراد به هنا كثير الطعن والعيب

(27) فى نسختنا ونسخة 830 : صافى وما أثبتناه هو ما في النسختين الأخريين وهو أولى

(28) هكذا فى نسخة 60 وفى باقي النسخ طيب .

يـــا من يلـــوذ ببيـــت آل محمد ... يرجـــو بذلك رحمـــة الرحمـــان
صل أمهات المومنين ولا تحـــــد ... عنـــا فتسلـــب حلـــة الايمـــان
انـــي لصادقـــة المقال كريمـــــة ... اي والذي ذلـــت له الثقـــلان

❋ ❋ ❋

خذهـــا اليك فانما هي روضـــة ... محفوفة بالـــروح (29) والريحان
صلى الالاه على النبـــي وءالـــه ... فبهـــم تتشم أزاهر البستان (30)

طنجـــــة ... عبد الله كنون

---

(29) فى النسـخ الثـلاث غير 60 : بالـــراح وهـــو خطـــا .
(30) فى نسخـــة 60 : تنـــم بالنـــون .

(الحاق) : بعد كتابة هذا الموضوع بمدة وقفنا على هذه القصيدة منشورة فى كتاب عائشة والسياسة لصديقنا العلامة سعيد الأفغاني وقد ذكر أنه نقلها من ورقة محزومـــة وأنها كتبت فى القرن الثامن تقديرا .
ويوجد بها زيادة بيت بعد رقم 37 يظهر أنه مقحم فيها وهذا نصه :
أكرم بأربعة أيمة شرعنا ❋ فهم لباب البيت كالأركـــان

من صلات الإخاء والصفاء والعلم والرواية بين رجالات تونس والمغرب

د. محمد الحبيب ابن الخوجة

بين القطرين الكريمين والمغربين العزيزين الأدنى والأقصى صـلات ود دائم وروابط تعاون قائم وعلاقات علميـة وثقافيـة مستمرة متجـددة غرست أصولها وزكت فروعها وحدات الجنس والدين واللغـة ودعمت زكاءها وغـذت نماءهـا المشاعر والعواطـف المشتركـة والتطلعـات والمطامح المتجانسة .

واذا كانت قد قصرت اليـوم المسافات وزويـت الارض واصبـح الاتصال يسيراً واللقاء ممكناً فى كل وقت لمن يرومه من الاشقاء الاصفياء فان للرحلة فى الازمنة السابقة المتقدمة ، بالرغم عمـا كان يكتـنفها من صعوبات ومشاق ، ويلابسها من وحشة واغتراب ، أثراً بعيداً واضحـاً فى عقد الصلات وتحقيق التعارف وتوفير التعاون مبـاشرة أو بواسطة ما تعين عليه من تراسل ومكاتبة . وقد كان أهل المغرب الاقصى أكثـر الناس رحلة ، وأوفاهم تقييداً لهـا وفى مقدمة هؤلاء ثلـة من الأئمـة المفسرين ، والحفاظ المحدثين ، والفقهاء المتبحرين منهم :

1) مفخرة الاندلس والمغرب القاضى الحافظ أبو بكـر ابن العربى المعافرى دفين فاس 943 . له رحلة مفيدة ممتعة لخصها من بعده شرف الدين المغيلى المالكى فى تقييد أسماه ترتيب رحلة ابن العربى .

2) تاج الحفاظ وأوسعهم رواية بالاندلس والمغرب فى عصره ابـــو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى السبتى 721 بفاس . لــــه ملء العيبة بما جمع فى طول الغيبة من الشام ومصر ومكة وطيبة .

3) فخر تلمسان الحافظ أبو القاسم القاسم بن يوسف بنمحمد بنعلى التجيبى السبتى 730 . له مستفاد الرحلة والاغتراب .

4) الامام العلامة المحدث الراوية أبو عبد الله وابو البركات محمد بن محمد بن علي العبدرى الجبحى دفين حاجة ، له الرحلة الواســعــة الشهـــيرة .

5) الامام العالم الكامل الكاتب الاديب أبو البقاء علم الدين خالــد بن عيسى البلوى توفى بعد 755 . له تاج المفرق فى تحلية علماء المغرب والمــشرق .

وأوسع هذه الرحلات وأعظمها فائدة رحلة ابن رشيد التى سماها تلميذه الحضرمي برنامجاً . فهي بحق سجل وثبت . ترجم فيـــه صاحبه لكل من لقيه من العلماء فى المغرب والمشرق مثبــتاً للروايات والكتــب والأسمعة والاجازات عارضا وناقلا محللا وناقدا ، وهذه الرحلة تقع فى سبعة أجزاء لم نقف الا على خمسة منها . ونصف ما بين أيدينـــا يتعلق بتونس . فقد تضمنت الاجزاء الثانى والسادس وبعض السابع الحديث عمن لقيه ابن رشيد بها من العلماء الاندلسيـــين (1) والافريقيـــين (2) والبجائيين (3) والجزائريين (4) والمغاربة (5) .

---

(1) وهؤلاء أكثر من ترجم لهم من اهل تونس منهم : ابن حبيش المرســي ، وابن الحـاج التجيبي ، وابن القصير الاشبيلي ، والطبيري الشريشي ، وابو العباس البطرني ، وابن حيان الشاطبي وابو جعفر اللبلي ، وابو البركات القمجي ، وابن عقاب الشاطبي ، وابن شوشن الطرطوشي ، والخلاسي البلنسي ، والاشعري المالقي ، وابن الغماز البلنسي ، وابو اسحاق الجزري ، وابن ديسم البلنســي ، وابن رزين التجيبــي ، وابن هــارون القرطبـــي

(2) أمثال ابن زيتون ، وعبد الواحد بن مبارك ، وابي العباس الكتاني ، وابي حفص ، وابي الفضـــل التيجـــانيـــــن .

(3) مثل ابي عبد الله محمد بن ابي تميـم الحميـري

(4) كالشـــــرف الجزائـــري

(5) كالســـــــــــلاوي

وقد اطال ابن رشيد المقام بها فى الورود والصدور . فمكث بتونس نحوا من سنتين اعانته على ادراك السر من قول العبدرى بعده فيها :

لولا انى دخلت مدينة تونس لحكمت بأن العلم فى أفق المغرب قد محي رسمه ، وضاع حظه وقسمه ، ولكن قضى الله بأن الارض لا تخلو من قائم له بحجة يرى سبيل الحق ويوضح المحجة ، وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به قائما ولا مورد من موارد المعارف الا رايت بها حوله وارادا وقائما . وبها من اهل الرواية والدراية عدد وافر يحلو الفخار بهم عن محيا سافر وينير علمهم وقد القت ذكاء يمينها فى كافر (6) .

فقد حرص شيوخ بنى حفص على تشجيع العلماء وتنشيطهم والمساعدة لهم . فاقاموا بذلك على أيديهم دولة باهرة وحضارة زاهرة . قال حازم القرطاجنى يخاطب المستنصر ويصور هذا المعنى :

رقد رفعت عمادا للعلا فغدا	يعلو قياما ويعلو قدره قيما
اقمتم وزن شمس العدل فاعتدلت	فلم يدع نورها ظلما ولا ظلما
فتونس تؤنس الابصار رؤيتها	وتمنح الامم الالآء والأمما
كأنما الصبح فيها ثغر مبتسم	وحوة الليل فيها حوة ولمى
فأقبلت نحوها للناس افئدة	ترتاد غيثا من الاحسان منسجما
فكلهم حضروا فى ظل حضرتكم	فاصبحت لهم الدنيا بها حلما

(6) العبدري : 42 .

قد ندفيها الاسى عن أهل اندلس والأنس فيها عليهم وفده قدما

وأبدلوا جنة من جنة حرموا منها، وقد بوؤوا من ظلها حرما(7)

فلا غرو بعد ذلك ان جرت بها مناهل العرفان سائغة هنية ، ووفد عليها طلاب العلم من كل صوب يكرعون من حياضها ويتنافسون مزدحمين على الورود من مواردها المشرعة العلمية .

فقد كان المسجد الجامع جامع الزيتونة الاعظم (8) ومساجد الارباض (9) ومدارس سكنى الطلبة (10) والمنتديات (11) ودور الاشياخ (12) ملتقى لاولئك الطلاب ، منها يتخرجون وفيها يسمعون ، وبحلقها ومجالسها يتلقون صنوف والوان العلوم والمعارف دراية ورواية . وكان من ابرز المشائخ والعلماء المجلين فى تلك الفترة التى زار فيها ابن رشيد مدينة تونس فى الذهاب والاياب :

الفقيهان الجليلان والعلمان البارزان ، مفتى تونس وقاضى الجماعة بها الامام العالم ابو القاسم ابن أبى بكر اليمنى شهر بابن زيتون (13) والقاضى ابو العباس احمد بن محمد بن حسن ابن الغماز الانصارى الخزرجى البلنسى (14) .

---

(7) حازم : 224 .

(8) راجع ترجمة الاشعري ، ابن رشيد : 1736 ، 66 أ 66 ب ، ابن الغماز ، واللبلي وابن بقي ، ابن رشيد : 1737 ، 5 أ ـ 25 أ ، 83 ب ـ 85 أ 99 ب وغيره .

(9) راجع ترجمة ابن عقاب ، ابن رشيد : 1736 ، 44 أ ـ 44 ب .

(10) راجع ترجمة ابن زيتون . ابن رشيد : 1737 ، 9 أ ـ 14 ب .

(11) راجع ترجمة ابن حبيش والكتاني . ابن رشيد : 1737 ، 33 ب ـ 54 ، 89 أ ـ 95ب التجاني . ابن رشيد 1735 ، 4 ب ـ 58 أ .

(12) راجع ترجمة ابن حبيش والخلاسي . ابن رشيد 1736 ، 1 أ ـ 9 ب ، 45 ب ـ 57ب وترجمة ابن الغماز واللبيدي وابن خارون القرطبي . ابن رشيد : 1737 ، 15 أ ـ 24 ب ، 26 أ ـ 32 أ ، 88 أ ـ 88 ب .

(13) ابن رشيد : 1737 ، 9 أ ـ 14 ب .

(14) ابن رشيد : 1737 ، 15 أ ـ 24 ب .

والفقيه الراوية المسند المقرىء ابو عبد الله محمد بن احمد ابن حيان الانصارى الاوسى الشاطبى (15) .

واللغويان المبرزان الاستاذ المقرىء اللغوى النحوى ابو جعفر احمد بن يوسف الفهرى اللبلى (16) والامام العالم المتفنن فى الوان المعارف شيخ الشيوخ وبقية أهل الرسوخ ابو اسحاق ابراهيم بن احمد بن محمد الانصارى الخزرجي الجزرى (17) والاديب الكبير والشاعر المبدع ، الفقيه الكاتب البليغ الناقد العلامة ابو بكر محمد بن الحسن بن يوسف ابن حبيش (18) .

والشيخان الصالحان المتصوفان ، الزاهد الفاضل أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسى (19) والفقيه الصالح المحدث الخير الاديب الابرع ابو العباس احمد بن محمد بن ميمون الاشعرى المالقى (20) .

والفقيه الجليل المتفنن الطبيب الماهر الاديب الحسيب ابو يعقوب يوسف ابن محمد بن احمد بن اندارس الاموى الاندلسى الاصل التونسى المنشأ (21) .

وقد كان لرحالتنا مع كل واحد من هؤلاء شأن يخصه :

فقد تردد كثيرا على بيت ابي القاسم ابن زيتون وعلى مجالسه بمدرسة الشماعين . لما وجد لديه من علم وفضل وبر واحتفاء ، ووصفه بسعة الرزق ، وعظيم الجاه ، وعلو المنزلة العلمية مصرحا بأنه ، وان

---

(15) ابن رشيد : 1736 ، 20 ب ـ 26 ب .
(16) ابن رشيد : 1736 ، 27 أ ـ 34 ب ، 1737 : 83 ب ـ 85 أ .
(17) ابن رشيد : 1737 ، 62 أ ـ 62 ب .
(18) ابن رشيد : 1736 ، 1 أ ـ 9 ب ، 1737 : 33 ب ـ 54 ب .
(19) ابن رشيد : 1736 ، 40 ب ـ 57 ب .
(20) ابن رشيد : 1736 ، 66 أ ـ 66 ب .
(21) ابن رشيد : 1737 ، 112 أ ـ 112 ب

كان قد فارق القضاء والتدريس ، لا يتأخر عن مجلسه كبير احد من كبراء طلبة تونس ولا من نبهاء فقهائها عدا الفقيه ابن الغماز وقاضي الجماعة ابى عبد الله بن يعقوب الشاطبى . وسمع عليه ابن رشيد عدة كتب منها :

كتاب الموطأ ، وابو الفضل يمسك اصل سماعه على ابى عبد الله ابن ابى الفضل المرسى ، ومختصر عز الدين ابى محمد عبد العزيـز بن عبد السلام ابن ابى القاسم السلمى لمقاصد الرعايـة للامـام الحارث بن اسد المحاسبى .

وقرأ عليه الجزء الذى املاه واسماه « كتاب امثلة التعارضات » ، بين فيه أمثلة للمسائل التى وضعها الامام الفخر فى المعالـم فى مدارات الاهمال بين النقل والمجاز والاضمار والتخصيص ، ولم يبين لها أمثلة .

وله معه مذاكرات كثيرة واشعار (22) .

وممن تجدد لقاؤه به كابن زيتون ايام انفصاله عن القضاء ايضا ابو العباس ابن الغماز . وهو كما قال فى ترجمته : « احد الفضلاء العقـلاء كان اذا ولى القضاء يصطلح الناس وتقل خصوماتهم » . وقد وجد عنده وعند ابنه ابى عبد الله من الوان البر ما أكـد الصلة بهم وسهـل عليه التردد عليهم . فكان يحضر مجالس الشيخ باسطوان منزله أين كان يقعد لاسماع الحديث . وقرأ عليه بلفظه كتاب التقصى لآثار الموطأ لابن عبـد البر ، بسند شيخه الجليل الخطيب الشهيد ابى الربيع سليمان الكلاعى ، وصدرا من كتاب الاستيعاب له ، وكتاب اسماء مشيخته .

وسمع عليه جميع الاربعين حديثا فى المواعظ والحكم تخريج القاضى ابى نصر ابن ودعان .

وكتاب مفاوضة القلب العليل فى معارضة ملقى السبيل ، انشـاء الكلاعى وكتاب الاربعين الثقفية المخرجة من سماعات الرئيس ابى عبد الله بن محمود الثقفى وبرنامج مشيخة ابى الربيع بن سالم .

---

(22) فى مكانـه من المرجـع السابـق .

وجميع الاربعين تصنيف ابى العباس الحسن بن سفيان الشيبانى .
وقطعة من الجامع الصحيح للبخارى .

وتناول من يده كتاب المدخل الى معرفة رجال الصحيحين لابى عبد الله الحاكم (23) .

ومما يلاحظ ان اتصال ابن رشيد بهذين العالمين كان فى وقت تخليهما عن التدريس لمواد اختصاصهما . ولو ألم بذلك بعض الالمام لوجد مجالا للقول أوسع وسبيلا للمذاكرة والدرس أمكن واكمل .

أما اتصاله بابن حيان الشاطبى فقد كانت له فيه البغية وحصول المنية . عرف ابن رشيد قدره ، فنوه به فى الرواية والاسناد ايما تنويه . وذلك حين قال : « احد المكثرين سماعا وتقييدا ، وتحصيلا لهذا الفن رتجويدا . سمع العالى والنازل ، واقتنى من الامهات والاجزاء كثيرا ، وكتب بخطه ما لا يحصى . واستجاز كل من ادركه شرقا وغربا . سمع من أهل افريقية والقادمين عليها من الاندلس وغيرها كأبى المطرف ابن عميرة وابى اسحاق ابن عياش وابى عبد الله الابار . واحرز من هذا الشأن ما شاء ، ولا يحصى عدد شيوخه . وله قدرة على مداخلة الشيوخ واستخراج ما عندهم » .

ولاشتراكهما فى الاختصاص تدابجا وسمعا معا على القاضى ابن الغماز . وقد روى عنه صاحبنا كثيرا . وقرأ عليه من مسلسلات القاضى ابى بكر ابن العربى مثل مسلسل المصافحة ، ومسلسل ذاك كذا ، ومسلسل اشتكت عينى ، ومسلسل انى احبك . وسمع منه ما افتقر فيه منها الى السماع .

وكتب ابن حيان أوراقا كثيرة لابن رشيد بخطه . فقرأها عليه وسمع منها بانشاد ابن حيان من لفظه قصيدة ابن عساكر فى علم الحديث وشأنه مسندة :

---

(23) فى مكانه من المرجع السابق .

واظب على جمع الحديث وكتبه	واجهد على تصحيحه فى كتبه
واسمعه من اربابه نقلا كما	سمعوه من اشياخهم تسعد به
واعرف ثقات رواته من غيرهم	كيما تميز صدقه من كذبه
وهو المفسر للكتاب ، وانما	نطق النبى لنا به عن ربه
فتفهم الاخبار تعرف حله	من حرمه مع فرضه من ندبه
وهو المبين للعباد بشرحه	سير النبى المصطفى مع صحبه
وتتبع العالى الصحيح فانه	قرب الى الرحمن تحظ بقربه
وتجنب التصحيف فيه فربما	أدى الى تحريفه بل قلبه
واترك مقالة من لحاك بجهله	عن كتبه او بدعة فى قلبه
فكفى المحدث رفعة ان يرتضى	ويعد من أهل الحديث وحزبه

وترجمة هذا المسند الراوية المكثر المقيد طويلة وبها نقص (24) .

والى جانب أمثال هؤلاء الفقهاء والمحدثين ركن ابن رشيد الى اعلام اللغة وايمة العربية . فحضر دروس ابى جعفر اللبلى المقرىء اللغوى النحوى احد مشاهير اصحاب ابى علي الشلوبين . اخذ عنه وعن الدباج وعن الاعلم البطليوسي والاونبى وابن خروف بالاندلس ، وبسبتة عن ابن رحمون وابى عبد الله الازدى ، وببجاية عن ابن السراج ، وبتونس عن البلاطى الحميرى ، وبالاسكندرية عن ابن الجرج وابى عبد الله المرسى ، وبمصر عن ابن التلمسانى وابى الفتوح ناصر بن ناهض ، وبالقاهرة عن ابى العباس محمد بن مفضل الانصارى ومحي الدين الشاطبى وكمال الدين بن سالم وعبد العظيم المنذرى ، وبدمشق عن علم الدين اللورقى والشرف الاربلى والعز بن عبد السلام .

---

(24) فى مكانه من المرجع السابق

واثبت للبلى فى ترجمته فهرستا حافلة جمع فيها اسمعته . بها نبــذ وأسانيد مشرقية لا يوجد اكثرها بالبلاد المغربية . وقد عد من مصنفاتــه شرحه الكبير المستوعب للفصيح واختصاره ، وكتاب البغية فى اللغــة ، وكتابا فى الافعال وكتابا فى التصريف .

وقد تكرر لقاء صاحبنا له فى الذهاب والعــودة بجامــع الزيتــونة ومجالس القاضى ابن الغماز ، وسمع منه العقيدة الفهرية فى الاعتقادات السنية وتسبيحه الذى طالعه :

سبحان ربى مبدع الاشياء ابدعهــا حقــا بــلا امتــراء

ونقلهمــا من خطــه (25)

وبمثل هذه العناية التى نلمسها من رحالتنا بأبى جعفــر اللبلى فى رسميه (26) ترجم ابن رشيد لابى اسحاق الخزرجى الجــزرى الــذى اقعده السن عن التصرف لضعفه ، وشهد له بصحة الذهــن والعقــل . وذكر انه ترك التدريس . وقال فى ترجمته « وعنه أخذ عــلوم العربيــة والبيان واصول الدين واصول الفقه والمنطق وغير ذلك علماء افريقيــة ونجابها . وكان يضرب فى كثير من العلوم بنصيب وافر .

وله فى ذلك تصانيف وتعاليق عد لــه منها :
كيفيــة السباحة فى بحرى البلاغة والفصاحة .

ورفع المظالم عن كتاب المعالم للامام الفخر ابن الخطيب ، انتصب مدافعا عن مؤلفه رادا على مآخذ ابى المطرف عليه .

وايضاح غوامض الايضاح .
والمنهج المعرب فى الرد على المقرب .
وتقصى الواجب فى الرد على ابن الحاجب .

(25) فى مكانــه من المرجــع السابــق
(26) فى مكانــه من المرجــع السابــق

وتحرير القواعد الكلامية فى تقرير العقائد الاسلامية .
ومنتهى الغايات فى شرح الآيـــات .
والاغراب فى ضبط عوامل الاعراب .
وايجاز البرهان فى مجاز القرآن .
وتحرير الدلالات فى اثبات النبوات .
وترغيب العباد فى الحض على الجهاد .
والقوانين الجلية فى الاصطلاحات الجدليـــة .

والتنبيه على ما تصرف من التمويه فى علم البيان المطلع على اعجاز الــقــرآن .

وهذه الوفرة من الكتب أو الرسائل والتحقيقات تشهـد للخزرجى بالدور العلمى الذى كان يقوم به بافريقية وبشمول علمه واتساع نظره فى العلوم اللغوية والشرعية جميعا ، وان عد عند اصحاب التراجم مبرزا فى اللغة خاصة واماما فيها (27) .

فاذا تحولنا بعد ذلك من الحديث عن أهل العلـم والروايـــة الى الاشتغال برجال الآداب من كتاب وشعراء ، الفينا مثلا عجيبا وعلما بارزا هو الفقيه الاديب الكاتب البليغ الحافظ الناقد العلامة المسند ابو بكر بن حبيش . اصله من مرسية بها نشأ وولى بها الانكحـــة ، وتجول ببـــلاد الاندلس ثم انتقل الى بجاية ومنها الى تونس واستقر بها .

كانت لابن رشيد لقاءات كثيرة معه . أولها بمنزله . زاره أول وصوله الى تونس ليعوده من مرض ألم به . فكان احتفاؤه به كبيرا وتقديره لـــه عظيمـــا .

وقد أفاض رحالتنا فى ترجمته فى الرسمين الذين خصهما باسمـــــه وقال عنـــه :

---

(27) فى مكانـــه من المرجـــع السابـــق

« كان متفننا فى العلوم ، منصفا فيما يعن من المفهوم ، متقدم القدم فى صناعة البيان ، متمكن اليد من ناصية الابداع والاحسان ، تلـــج درر كلمه اصداف الآذان من غير استئذان . فريد فى دهـــره ، أمـــير فى نظمه ونثره . أما النظم فبيده عنانه ، واما النثر فان مال اليه توكف عنانه ، مع تواضع زائد على صلة مجده عائد . جيد الفكـــر حاضر الذكـــر . كان أيام طلبه مصروف العناية الى الدراية ولكن مع ذلك لم يخل من السماع والرواية ولو تشاغل بالرواية لا تسع له فيها المجال ، فانه لقى اعلامـــا من الرجــــال » .

وقد عد من شيوخه معتمدا على الفهرسة التى ألفها له اقرب طلابه اليه الفقيه ابو العباس الاشعرى عددا من الرجال الفحول منهم :

ابن الولى ، قرأ عليه بالقراءات السبع ، والرفاء تأدب به وسمع عليه كثير ، وابو عبد الله محمد بن احمد بن نعمة الشاطبى قـــرأ عليه القرآن وكتب عنه كتاب التقريب والحرش فى روايــــتــــى قالـــون وورش للهاشمى ، وابن محرز تفقه به وصحبه وسمع عليه ، والوزير الخطيب ابو الحسن سهل بن مالك سمع عليه كثيرا وتأدب به ، وجماعة كثـــيرة كالفقيه ابن عسكر المالقى ، وابن قطرال ، وابن ابى الســـداد ، وابـــن الحاج القرطبى وابى بكر محمد بن عتيق التجيبى ، وابى الحسن احمد بن واجب القيسى ، وابن ابى الغصن اللخمى ، وابن القرشية ، والخطيـــب القاضى ابى محمد بن برطله ، وابى المطرف بن عميرة ، وابى القاسم بن ابى الخير الشاطبى ، والزاهد ابى اسحاق بن ابى غالـــب والمقـــرىء الجليل ابى محمد قاسم بن الاصفر الحارثى ، وابن صهيب

واجاز له عدد ممن لم يلقه منهم الشلوبين ، والدباج ، وابن عاصم الرندى ، وابن الطيلسان وابن حريرة المالقى ، وأبو عبد الله المومنانى ، وابن البراء ، وابن طلحة .

أما سمعته فكثيرة نعد منها فى العلوم الشرعية :

التيسير للدانى ، وحرز الامانى للشاطبى ، والقصيدة الحصرية ، وتفسير ابن عطية ، والجامع الصحيح للبخارى ، والمسند الصحيح لمسلم ، والسنن لابى داود ، والجامع للترمذى ، والموطأ لامام دار الهجرة ، والملخص للقابسى ، والمنتقى لابن الجارود ، والمسند الكبير للبزار ، وسيرة ابن هشام ، وشمائل الترمذى ، وكتاب الاربعين المخصوصة بالتعيين لرواية سيد المرسلين عن رب العالمين لابى الحسن المقدسى ، والاربعين فى ارشاد السائرين الى منازل المتقين لابى الفتوح الطائى ، والاربعين للفراوى ، وشرح الحكم والامثال المروية عن رسول الله لابى احمد العسكرى ، وتسبيح البارى لابى الحسن سهل بن مالك ، ومعراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب لابن ابى الخصال ، والاستيعاب والاستذكار لابن عبد البر ، والاشراف لابن المنذر ، والجهاد لابن الحاج ، والتبصرة للخمى ، ورسالة ابن ابى زيد ، والمستصفى للغزالى ، وفهرست ابى القاسم ابن حبيش .

ونذكر من اسمعته فى العلوم اللغوية والآداب .

الايضاح والمجمل للفارسى ، والمفصل للزمخشرى ، والفصيح لثعلب، واصلاح المنطق لابن السكيت ، وادب الكاتب لابن قتيبة ، والامثال لابى عبيد ، والكامل للمبرد ، والامالى للقالى ، والمقامات للحريرى ، والاشعار الستة ، وشعر المتنبى ، والحماسة لحبيب ، وشعر ابن وضاح ، وشعر ابن خفاجة ، والمسلسل فى اللغة للتميمى ، ونزهة الالباب فى محاسن الآداب ، والمقاصد الكافية من علم لسان العرب لابن الحاج .

وقد كان مع سعة علمه وعظيم فضله كما قال ابن رشيد عنه : « غاية فى التواضع عن رفعة ، بعيدا عن الرياء والسمعة . ومن مآثره على كثرتها ، وتعددها وشهرتها انه لم ينظم بيت هجو قط . وكان ينتهى من تواضعه الى قصد زيارة اصحابه وتلامذته فى دورهم ويقيد ما يصدر عنهم بخطه اعتناء بهم وتنشيطا لهم » .

وقد سمع منه ابن رشيد جميع ملخص القابسى بمنزل رفيقه ابن الحكيم ، وكتاب الامثال لابى احمد العسكرى وغيرها من المصنفات الهامة والكتب .

وانا لنجزم ان ابا بكر بن حبيش كان يتمتع من اجل ما قدمنا عنـــه بمنزلة عالية فى تونس كتبت له الشهرة والمحبة والاقبال . وهو مع ذلك كثير الانتاج جيده . له منه ما يصور عصره وبيئـــته وعلاقاتـــه بالناس ، وذلك كالمقطعات الكثيرة التى أوردها له ابن رشيد فى رحلته ، كما ان له منه اشعارا وقف عليها نفسه فترة من الزمن عنى بتنميـــقها وتهذيبـــها وتحسينها وتجويدها ، وهى التى نسميها اشعار الجد ونعد له منها :

الحدائق البيانية والطرائق الحسانية .
وفوائد الزمان وفرائد الجمـــان .
والعقيلة الحالية والوسيلة العاليـــة .
وسحبانية النجار ورحمانية المستجار .
وثراء العديم وشفاء السقيم فى الجمع بين التسبيح والتسليم .
وبراعـــة المطنب وضراعة المذنب
والتحيات الاعجازية والاريحيات الحجازية .
وسقيا السحابة فى علياء المصطفى والصحابة .
والجواهر المنتظمة لاسمى حلي الزواهر المبتسمة باهمى ولي .
والقربى المرضية فى تخميس القصيدة النحوية (28) .

أما الشيخان الوليان المتصوفان المسندان فهما كما ذكرنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الخلاسى وابو العباس احمد بن محمد الاشعرى .

الاول منهما بلنسى الاصل ، وهو كما قال عنه رحالتنا :

((احد الصلحاء الفضلاء الاولياء الاتقياء مع التواضع والخمول ، على معرفة الناس بقدره وفعله وتكاثرهم عليه وقصدهم اليه)) . كان يلزم بيـــته لا يبرحه بعد استقراره بتونس اثـــر عودته من الحج . سمع عن الكثيرين ، منهم :

---

(28) فى مكانـــه من المرجـــع السابـــق

أبو الربيع ابن سالم وابو اسحاق البلفيقى وابو العباس بن عثمان بن عجلان القيسى .

يروى عوالى ابن الدباغ قرأهـا على ابن لـب الانصارى بجامـع الزيتونة ، وفرائد مسلسلات الاسانيد كمسلسل شهدت ، ومسلسـل الاسودين التمر والماء ، ومسلسل أطعمنا وسقانا ، ومسلسل الجبـن والجوز ، ومسلسل لقمنا لقمة لقمـة ، ومسلسل احتفـى فى الضيـافة واحتفل ، ومسلسل الوتر ، ومسلسل انى أحبك واوصيك يـا معاذ . وهو يحدث بها عن جمال الدين ابى المكارم محمد بن مسدى قرأها عليه من تخريجـه .

وقد قرأ عليه ابن رشيد كثيرا من الكتب الحديثية ، وسمع منـه وكتب عنه المقدمة المحسبة المحتسبة بتوصيـة ذوى الخـرق المنـتسبة لصاحبها ابن مسدى . وقال بعد ان اثبتها فى برنامجه : « قرأت جميـع هذه المقدمة على سيدنا الشيخ الصالح ابى محمد الخلاسى نفعنـا الله بصالح دعواته ومتع بحياته واعاد من عميم بركاته (29) .

والثانى وهو المحدث الخير الاديب الابرع صديق ابن رشيد ، لقيه أول ما لقيه بمنزل ابن حبيش . وأخذ عنه الفهرست التى وضعها لشيخه ابى بكر . اصله من مالقه . وكان انتقاله الى تونس مـع ابيـه وهو ابن اثنتى عشرة سنة فبافريقية نشأ وبها قرأ وتعلم وتفقه وتأدب . واسـع الرواية محب للحديث واهله . سمع على ابن الحجام وابن الغماز وابن مناد ، وتعلم العربية على ابن ابى رقيقه ، واخذ عن حـازم والتوزرى وعن عدد لا يحصى من الرجال ، ولزم طويلا ابا بكر بن حبيش ، وكان غالب وقته ببيت له ، به كتبه ، فى مسجد لم يسمه لنـا ابن رشيـد . وهناك كان يتردد عليه جملة من اصحابه ورفاقه . وقد شرع فى تكميـل كتاب ابى الربيع سليمان بن سالم : ميزان السابقين وحليـة الصادقين المصدقين فى ذكر الصحابة الاكرمين ، الان واضعه لم يتـمه . وهو الى ذلك رقيق الشعر مهذبه (30) .

---

(29) فى مكانـه من المرجـع السابـق

(30) فى مكانـه من المرجـع السابـق

ولا أريد أن أغفل فى عداد هذه العينات التى ذكرناها رجلا كابن اندارس الطبيب الشاعر . فهو طراز مستقل كما ألمعنا الى ذلك ، يجمع الى المرويات والعلوم النقلية جانبا غير قليل من العلوم العقلية . يقول ابن رشيد عنه : « هو اندرسي الاصل تونسى المنشأ ، احد فضلاء اصحابنا ونجابهم ومن ذوى المروءات . . . وممن جمع له فضل الذات والادوات . له مشاركة حسنة فى الرياضيات والمعقولات مع حظ من المنقولات . كان بيته مألف الفضلاء اصحابه لما الفوا من حسن بره ، به يبيتون ويتذاكرون فى انواع العلوم فى فنون المنثور والمنظوم (31) .

وهو فى ذلك من اقبال الناس على بيته وترددهم عليه كالكتانى وابن همشك الجماعين للكتب والمقصودين للرواية واستنساخ ما عندهما مما توفر لهما من مصنفات انفردوا بها (32) .

ونحن حين نعرض لهؤلاء الجلة من العلماء الذين ارتبط بهم ابن رشيد فى تونس واعتبرهم من خير من عرف من أهل الفكر والورع والعلم والادب فى رحلته الطويلة لا ننسى صديقا حميما له كان به اتصاله وعليه اعتماده وبه انسه واليه مفزعه ، وان شطر الجزء الاخير من الرحلة ليكاد يكون مخصوصا به موقوفا على الحديث عنه . ذاك هو الكاتب البارع المتفنن الفاضل الكامل ابو الفضل محمد ابن ابى الحسن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابى القاسم التجانى (33) . رجل برز فى ميدان الترسل والنظم ينحدر من آل التجانى المشاهير الذين نجب منهم — كما قال الفقيد حسن حسنى عبد الوهاب — غير واحد من الفحول الذين اكسبوا القطر الافريقى مدة طويلة صيتا بعيدا وسمعة شريفة فى العلوم والآداب (34) .

وقد ترجم له ابن رشيد بقوله :

---

(31) فى مكانه من المرجع السابق

(32) فى ترجمة ابن حبيش المرجع السابق ، 1737 : 100 أ

(33) ابن رشيد : 1735 ، 4 ب — 50 أ .

(34) راجع التجاني : 7 م — 17 م .

« وافق اسمه مسماه ، واشتملت كنيته على معناه . ابرع الجماعة ادبا ، واوسعهم طلبا ، مفخم فيهم ، ذو محاسن يعجز عن مجاراتهـــا ومباراتها المفاخر والمحاسن ، جمع انواع الحسن اجمعها اكتعها ، وحاز من كل فضيلة ابدعها وابرعها . . . خط رائق ، ولفــظ فائــق ، وخــلق وخلق ، تروقك ذاته وتشوقك ادواته » .

ثم يمضى فى تفضيله على كل من خالطه من أهل تونس أو عرفــه فيقــول :

« ما رأيت فى نجباء ابناء الافريقيين اجمع منه لفضيلة ، ولا ابرع فى كل خصلة نبيلة وخلة جليلة ، مع عفاف وكفاف ، يتصرف كيف يشاء فى الروية والارتجال ، مديد الباع فسيح المجال » .

ولتأكيد هذه الاوصاف لمترجمه وتزكية شهادته فيه يقول عن العلم السابق راس الادباء الاندلسيين المقيمين بتونس : « وكان شيخنا أبو بكر بن حبيش يظهر العناية به ويثني على بديع ادبه ورفيع طلبه ، ويسميه واصل الغايـــة » .

أما ميادين اختصاص ابى الفضل التجانى ومجالات تصرفاته العلمية والادبية فهى : النحو واللغة والبيان وصناعتا الكتابة والخطابة وافانين النظم واغراضه . جمع بين الرواية والدراية واخذ عن مشائخ بلـــده ، واستجاز من نأى افقه عنه . وكتب الكثير من الرسائل المحبرة والقصائد البديعة . وصنف فى التاريخ بل فى التراجم والادب كتبا عديدة منها :

حشر الامم الخالية ونشر الرمم البالية ، ترجم فيه لسبعمائة علم من اعلام افريقية ثم لم يتجاوز ذلك العدد قائلا فى الاعتذار عن ذلك انه لم يبق بعدها من يصلح للتخليد والتدوين .

ومن كتبه ايضا الحلل المضمخة فى حلى المشيخة ، ضمنه اسمـــاء من لقي من الشيوخ ومن كتب له منهم .

وكتاب شرف الطرف فى طرف الشرف ، وهو تقييد لما استفاده من الاناشيد واللطائف والملح من الشيخ شرف الدين ابن الامام الجزائرى

وكتاب الدر المنظوم وهو جملة نصوص ادبية ومقطعات وقصائد رائعة فنية .

يذكر ابن رشيد هذا الاديب اللامع كما قدمنا فيطنب فى ترجمته ويخصه من بين التراجم باعلاها واكملها واوسعها واحفلها ويقول عن ملازمته له وعلاقته به : « صحبته ـ جزاه الله خيرا ـ ايام مقامى بتونس بعد رجوعى من الحجاز . وبايته كثيرا وذاكرته وشاعرته ، واستفدت منه ، واخذ عنى واخذت عنه ، وسمع بقراءتى وسمعت بقراءته ، وأولانى من بره المبر ما يعجز عنه شكر الشاكر ويعد مختصرا وان اطال ذكره الذاكر . وكان لى صفيا وبجانبى حفيا . . . وبالجملة فمن افضل من صحبتهم وجالستهم وبايتهم وذاكرتهم وحاضرتهم اخوانا بتونس ، جزى الله خيرا جميعهم ووالى برهم وترفيعهم (35) .

ونحن لا نعجب من هذا التقدير الكبير والتنويه العظيم بالتجانى فان مقام ابن رشيد بتونس عند العودة لم يطب ولم يطل ولم يزك ولم يثمر الا بفضل تلك الصحبة وسبب تلك الملازمة الشديدة التى هيأت لرحالتنا الاتصال بعدد كبير من الاشياخ عن طريق ابى الفضل وفى معيته . فهو الذى قدمه لعديد من علماء تونس وحضر معه مجالسهم ، وتراسل معه فى مناسبات عدة وانشده الكثير من اشعاره وبادله محبة بمحبة واكبارا باكبار يدل على ذلك قوله من ابيات يخاطبه ويقرن معه رفيقه الوزير ابن الحكيم :

يمينا لقد كنت فى تونس	اخا وحشة قط لم يؤنس
غريبا وان كنت فى بلدتي	كئيبا لفقد فتى مؤنس
فلما لقيت محيا وبدرا	آنست وزايلنى حندسى
ولم لا وهذا يطب القلوب	وهذا يجلي دجى الانفس

(35) فى مكان ترجمته . انظر اعلاه .

ولو تتبعنا ترجمة ابى الفضل من القسم الاخير من الرحلة لوجدنـا اوصافا لمجالس أدبية جرت بها مساجلات شعرية بين الرجلين ومن ضمه مجلسهما من امثال ابي محمد ابن مبارك وغيره من اعيان آلادباء ورجال البيان .

أما المسائل العلمية من حديثية وفقهية ولغوية فقد كانت نهبة الناهب فى كل حلقة ذكر ومجلس درس أو لقاء طلب يحضره ابن رشيد مع صاحبه ، يكفى لادراك ذلك ان نتتبعهما فى كل اتصال كان لهما أولا بن رشيد بمفرده بابن حبيش أو بابى العباس الكتانى أو بابن الغماز وابن زيتون وامثالهم .

وقد كان من حق التجانى على ابن رشيد الذى علمنا منزلته منه ومكانته لديه ان يحظى بربط صلات العلم والمودة مع اهل المغرب عن طريقه . وقد صرح ابو الفضل التجانى برغبته تلك فى قوله عند توديعه لصديقه ابن رشيد :

مأربتى منكم ان لا تبقوا احدا من اشياخكم واصحابكم الا تستجيزونه لى . وقد حمله الى جمهرتهم استدعاءا يقول فيه :

بسم الله الرحمان الرحيم اللهم صل على نبيك محمد وآل محمد

ايها السادة الاباعد عنا ... اقبسونا من نوركم بالاجازة

صلتى عائد السؤال مجانا ... فأجيزوا لكى تجوزوا مجازه

لم يحصل الا حقيقة علم ... قربكم ، فابعثوا الينا مجازه

وعدتنا آمالنا بلقاكم ... ولعل آلايام تدنى نجازه

وعلى الفكر ان يقوم بمدح ... فيه ارضى تقصيده وارتجازه

مع انى حرمت مدح بني الدهر ... فشعرى مذ جازه ما اجازه

وعلاكم تقضى امتداد امتداحى   واعتلال الافكار تقضى الوجازة

انتم — اعزكم الله — العلماء بأن هذه الصناعة عند القوم من اصلح مفاخر المفاخر ، واعظم مطالب الطالب ، وان هذه البضاعة فى العلم من اربح متاجر التاجر واسلم مكاسب الكاسب ، ولما كانت بهذه الرتبة ، وفى هذه النسبة ، تشرف بالتخلق بخلائق اهلها ، وتشوف للتعلق بعلائق حبلها ، مخاطبكم وخاطبكم محمد بن علي بن ابراهيم بن محمد ابن ابي القاسم ابن محمد ابن ابى القاسم التجانى التونسى ، وفقه الله .

واليكم طمحت هماته ، وفى الاخذ عنكم والاقتباس منكم قد انحصرت مهماته . وها هو سدد سهمه للاصابة فوفروا اسهمه من الاجابة ، مرغوبين غير مأمورين مثابين خير الثواب جزاء على اجازاتهم مأجورين . والله تعالى يجعل مطالبنا له خالصة ، وافعالنا كلها تامة لا ناقصة ، بمنه .

ولما وافى ابن رشيد سبتة عرض هذا الاستدعاء على جماعة من اشياخه واصحابه من العلماء والادباء . وأجاب ابا الفضل التجانى عدد كبير نخص بالذكر منهم طائفة أورد الرحالة السبتى نصوص اجازاتهم فى برنامجه :

1) الكاتب البليغ الفاضل ابو القاسم القبتورى وهو الشاعر المفن الذى كان له فى هذه الصناعة القدم والقدم والتقدم والرسوخ (36) .

2) الفقيه الجليل المتفنن صدر الفضلاء والاصحاب وقدوة أهل الاداب الآخذ من كل فن من العلوم باللباب ابو القاسم بن عبد الله بن محمد الانصارى المعروف بابن الشاط (37) .

---

(36) المقري : النفح 3 ؛ 462 عدد 304 .

(37) كان عارفا بالاصلين والفروع والفرائض والحساب والعربية ، اخذ عن ابن الربيع والمحاسني واجاز له ابن ابي الدنيا وابن البراء وابن الغماز وابن الطباع ، وابن فارس ، وابن الحباب . وله أنوار البروق فى تعقب مسائل الفروق ؛ وغنية الرائض فى علم الفرائض ، وتحرير الجواب فى توفير الثواب ؛ وفهرسة حافلة توفي 723 هـ / 1323 م . ابن القاضي : الدرة : 2 ؛ 456 عدد 1304 .

3) الاديب البليغ الناظم الناثر ذو الفضائل والمآثر ابو الحجاج يوسف بن ابى الحسن علي بن محمد الانصارى الطرطوشى (38) .

4) الاستاذ المقرىء والاديب النحوى البارع ابو بكر محمد بن عبيدة الانصارى (39) .

5) شيخ الادباء وامام الشعراء البارع الفارع ابو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل (40) .

6) امام النحاة وصدر العلماء السراة ابو الحسن ابن ابى الربيع(41)

7) الشيخ الاديب الفرضى البليغ المحقق الفاضل ابو اسحاق ابراهيم ابن ابى بكر التلمسانى (42) .

8) الاديب الكاتب البليغ ذو الفضل الذائع والخط الرائع المتقن المتفنن ابو عبد الله محمد بن عمر بن الدراج .

ولعل جميعهم يصدر عن مثل قول ابن المرحل مجيبا ابا الفضل التجانى على لسان شيخه ابن ابى الربيع .

اكرم الله مستجيزا أتانا   منه شعر سامى السماك وجازه
صدرت عنه قطعة سحرتنا   اى سحر أحله واجازه

---

(38) ترجمته فى الاكليل . راجع المقري : النفح : 6 ، 362 عدد 66 .

(39) السيوطي : البغية : 1 ، 170 عدد 285 .

(40) المقرىء ، العالم الاديب : 604 / 1207 ـ 1208 مالقة . اخذ عن ابن الفحام وابن بقي والدباج والشلوبين . له كتب كثيرة منها : التبيين والتبصير نظم اختصارا اصلاح المنطق لابن العربي ، توفي بفاس 699 /1299 ـ 1300 . راجع ابن القاضي : الدرة: 323 عدد897 .

(41) بالاصل ابو الحسين ، وفى ترجمته ابو الحسن ، وهو الفقيه الفرضي النحوي . اخذ عن ابي القاسم الحوفي. 687/1288 ـ 1289 . ابن القاضي:الدرة:128 عدد 353

(42) هو الامام الفقيه المبرز فى الفرائض ، اخذ عن الشلوبين وابن عصفور وابن عميرة وابن محرز . له التلمسانية المنظومة الشهيرة فى الفرائض وله شعر فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم . 609 / 1211 ـ 699 / 1300 . مخلوف : 2 : 202 عدد 695

اطلعت سبعة كمثـل الـدارى حقرت عنـد رؤبـة ارجـــازه

يا ابا الفضل ، يا فتى آل تجـا ن عنيـنـا بما طلبـت نجـازه

ان تكـن تؤثـر الاجازة فاقبـل عن عبيـد الالاه هذي الاجـازه

هو ينمى الى قريـش ، ويكنـى جـده بالربيـع ، فاغـد مجازه

فمن السماع والرواية والاستجازة والاجازة التى تبرز واضحة من خلال ما اوردناه من الماعات خاطفة عن اهل تونس والمغرب يظهر كمال الاتصال العلمى وشريف العلاقات الاخوية بين رجـال المغربيـن واهـل الصقعين الشقيقين . وهذه الظاهرة العريقة بين رجال الزيتونة وعلمـاء القرويين هى التى تتجدد مع العصور والاجيال بين علماء وفقهاء البلدين وكتاب وادبـاء الداريـن .

تـونـس د . محمد الحبيب ابن الخوجة

المـصـــادر

التجاني (ابو عبد الله محمدة الرحلة . تقديم حسن حسني عبـد الوهاب . تونس 1958/1378 .

حازم القرطاجني (ابو الحسن) . قصائد ومقطمات . تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة . تونـس 1972 .

ابن رشيد (محمد بن عمر الفهرى السبتى) . ملء العيبة ، مخط . الاسكوريال 1735 ، 1736 ، 1737 .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) . بغية الوعاة . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . جزآن — القاهرة 1964/1384 .

العبدرى (ابو عبد الله محمد الحيحى) . الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط 1968 .

ابن القاضى (ابو العباس احمد بن محمد) . درة الحجال — تحقيق ب . س — علوش ، جزآن . الرباط 1936/1354 .

مخلوف (محمد بن محمد) . شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية . جزآن . القاهرة 1349 .

المقرىء (ابو العباس احمد) . نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس . 8 اجزاء — بيروت 1968/1388 .

د : م . ح . خ

طريقُ الضّيعَة

الى أولئك الذين يسيرون بثبات فى طريق العودة . . . الى بنات فلسطين وأبنائها .

محمد العربي الخطابي

أليست هذه الخيمة وطنك ؟

وهذا الشيخ الظريف المتفائل . . . ألا يقوم مقام أبويك اللذين ضاعا فى متاهات الطريق والغربة ؟

لك البرد والسيول حينما تهطل الامطار فتحفر فى الارض أخاديد وتحيل التربة اليابسة المتشققة الى وحل رطب اسود .

لك الشمس حينما تلفح ، وضوء القمر فى الليالى العارية ، والنجوم فى أبراجها تنطق بخفى الاسرار .

لك الخريف والشتاء . . . والصيف .

أما الربيع فلا بأس أن تحرم من زهوره الندية ، وخضرته التى تريــح العين والنفس ، وأماسيه الصافيــة التى تذكــر بالدار والحبيب . فالربيع فصل يتيم على كل حال !

سكان الخيام لا ينادوك باسمك . فهــم حينما يتوجهون اليك بالخطاب يصيحون : يا ولد ! يا أنت أو يــا هذا !

أنت كبعض الزهور البرية فى متاهات الطريق يمر بهــا الغريب فيؤنسه منظرها غير أنه لا يهتم بمعرفة أسمائها .

واذا لم يكن هذا الشيخ أبــاك فقــد جمعتكما الاقــدار والخيمة وصاع الأرز .

انه شيخ قد وهن بصره وييس عوده . وأنت تأخذ بيده وتقوده الى حيث يريد . فاذا ما الليل سجا أخذ يقص عليــك أحلام ماضيه ، ويحاول أن يقاسمك ذرات من أمــل ما تزال تتطاير بين عينيه وتتراءى له من خلال أشعة بعيدة .

أمس ، خاطبك الشيخ قائلا : يــا ولــدى ! انه دائمــا يخاطبك هكذا فلا ينطق باسمك ولا يهتم بمعرفته .

ألست ولد من لا ولد له من سكان هذه الخيــام ؟ أليس الشيخ والد الكبار وجد الصغار بين هؤلاء جميعا ؟

وبعد هذا وذاك أيكون لمــن فصلوا عن جذورهم أسماء وألقاب وأصول ؟ ألا توضـــع فى عنـــق هــؤلاء مجرد أرقـــام وعـــلامـــات ؟

قال لك الشيـــخ :

يا ولدى ، حينما كنت صغيرا كانت لأبوى ضيعة . وكانت لنا أبقار وخرفان وحمام ودجاج . وكانت لنـــا أشجار برتقال وليمون وتين وزيتون . وكانت لنا طاحونة وبئر وساقية .

كان أبى مزارعا يحب التربة ، نبتـــها وحصاها ودودها . وكان يحب الحيوان ، ويستيقـــظ مـــع الدواجن والعصافير ، وينام فى البيدر بعد الحصاد والدرس ، ويحلم أمام الطاحونة ، ويحنو على المحراث كما تحنو الطفلة على دميتها الأثيرة .

وكان أبى يعرف أبقاره من خلال عيونها ويتنـــبأ بأحوال الطقس . وكان فوق ذلك يحبنا نحن أولاده .

وذات ليلـــة قال لى :

ولدى ، هذه الضيعة ستصبح يوما لك . فتعهدها بالخدمة والعناية ، وارع اخواتك والماشية والدواجن . كن رجـــلا وكن صبـــورا حليمـــا !

كبرت مع أحلام والدى . وكان لى ثلاث أخوات تزوجن الواحدة تلو الاخرى .

وذات يوم ، فى الفجر ، مات والدى كما يموت جل رجال قريتنا . مات وبصره شاخص الى الحقول ، وفى يديــه آثــار الفأس والمحراث والتراب ، ومن ملابسه يفــوح خليــط من روائح اليمون والريحان واللبن وريش الطيور وصوف الضأن .

صرخت أمى وبكت ، وشاطرتها نســاء القريــة بالعويل والبكــاء .

وقال الرجال : ما مات من ترك خليفته !

وكنت أنــا الخليفة ، لذلــك أحببت التربــة والــزرع ، وخالطت الأبقــار والدواجن ، وحنوت على المحراث والمذراة كما كان والــدى يفعــل .

فى طور الشباب كانت أحلامى أوسع من طاقتى ، ولــو أننى كنت أفعل ، فى الغالب ، ما يفعله أهل القرية : فى الصيف نرمم بيوتنا ، ونستسلم للراحة فى القيلولة ، ونسمر فى الليــل على الاحاديث والرقص والاهازيــج .

وفى بداية الخريف نخــزن الحطب ، ونتعهــد النواعير والسواقى بالصيانة والتــنقيــة .

وفى الشتاء ننتظر الغيث بلهف ورجاء ، ونلتمــس الدفء قريبا من ماشيتنا ، ونقص على أولادنــا فى الليــالى الطويلة أغرب الخرافات .

وفى الربيع نغنى ونرقص ، وتتفتح قلوب فتياتنا وفتياننا على الحب والحياة . وفى كل الفصول نلغو ونثرثر فى سويعات الفراغ ، ونصمت فى أوقات المشقــة . وقــد يتشاجر بعض الرجال مع بعض فترتفــع أصواتهم ، ويتدخل رجال آخرون لفض النزاع واصلاح ذات البين .

* * *

لم أكن أحس بتعاقب السنين . وذات يوم أدركت فجأة أن عمرى بدأ يركض فى اتجــاه المنحــدر . كنت قد تجاوزت الخمسين ، فبدأت أحلامى تتركز فى الضيعة ومصيرها . وفى مساء يوم قلت لولــدى الكبير :

هذه الضيعة ستصبح يوما لك . . . قلت لولدى ما سبق أن قاله لى أبى قبل أن يودع الدنيا . غير أن الحياة امتدت بى

أنا حتى لم تعد الضيعة الا حلما ثقيلا يتردد من حين لآخـــر في ذاكرتي الواهنة .

في ذلك اليــوم الرهيب . . . بعــد أن فتــك الرصاص بالرجال والنساء والاطفال ، ودمرت القنابل البيوت ومخازن الزرع وسلال الزيتون ، وجدت نفسي في الفجــر واحــدا من أفراد قافلة تتلمس طريقها الى . . . الى أيــن ! ؟

الرصاص يعوي كالذئاب الجائعة في الشتــاء ، ومنظــر الخناجر تبقر البطون ما يزال طرياً في أعينــنا ونحن سائرون بأرجل متحجرة ورؤوس ثقيــلة .

وهناك . . . ورائي ، قريبا من تلك التلة ، تركت بيــتي المهدوم وولدي الأوحد وبنــاتي الثــلاث . . . تركتهــم تحت الانقاض وأنا أردد بشفتين مرتعشتين وأمل مهزوم :

ولدي . . . هذه الضيعــة ، لك .

نعم ، لقد وارى تراب الضيعة التي كانت لنا جثــة ولدي وبناتي كما راوى أحقابا وأجيالا من الجهد والحنو والعطاء .

كانت لنا ضيعــة فأضعناهــا .

وها أنا الآن ، يا ولدى ، بين الخيـــام أحلم بالصباح فى المساء ، وأحلم بالدفء فى الليــل . وصورة الضيعـــة فى ذهنى وأولادى فى ترابها حبات شهادة وذرات أمل فى العودة . وأنـــا هنا ، يا ولدى ، فى هذا الوحل الاسود شيـــخ كبـــير شاخت أحلامه ، وارتخى عوده ، وشطت داره .

قد تفهم ، يا ولدى ، وقد لا تفهم لماذا أصر على أن أنظر بعينيك المشتعلتين القويتين وأن أحلم من خلال أحلامك . ذلك أننى لم أكن ، يا ولدى ، الا فلاحا عالمه حدود قريته ، وعروقه ضاربة فى تربتها كجذور تلك الزيتونة التى طالما اقتعدت ظلهـــا كما كان يفعل أبى وجدى من قبلى .

فى صباح اليوم التالى مات الشيخ كمـــا يموت شيـــوخ المخيم وعجائزه وأطفاله . مات فوق الوحـــل وبصره شاخص الى جهـــة مـــا . . .

* * *

ومضى الفتى ، ابن الخيام ، يكبر وصورة الضيعة الضائعة تكبر فى أحلامه وخياله يرسم لها طريق العودة .

وأصبح الفتيان والفتيات يتنادون بأسمائهم : حـــازم ، أبو وفاء ، نجدة ، أبو علم ، فاتحة ، أبو نصر ، عائدة . . .

وأحس فتانا بنشوة غريبة تسرى فى دمه وعظامه حينما نادته « نجدة » لأول مرة باسمه : حـــازم !

شعر بالزهو ، ولكنه أحس فوق ذلك بخفقان شديـــد فى قلـــبـــه .

عينان صارمتان تلمعان ، وبشرة سمـــراء لم تؤثـــر فى صفائها قسوة الحياة وشظف العيش فى المخيـــم . وشفتـــان مرهفتان ترتسم بينهما وبين الخدين ابتسامة بعيدة الدلالة ، يمتزج فيها الامل الوثاب بالعزم العنيد . وقوام متناسق تتألق فيه طراوة الفتوة وعذوبة الحركة وحرارة التطلـــع . وصوت تمتزج فى مخارجه رقة الانوثة ورنة الثقة بالنفس .

تلك هى « نجدة » التى كلف بها « حازم » وخفق لهـــا قلبه ، وترنمت بوجودها شفتاه . فقـــد كانت مـــلء النفس ، ملء القلب ، ملء المكان ، فنفخت فى « حـــازم » روح التوثب كما أضرمت فى أحشائه نـــار الحب .

* * *

لم يتردد « حازم » لحظة فى الاختيـــار .

فهناك . . وراء التلة البعيدة ضيعة الشيخ الذى لم يكن يناديه باسمه ، وقريبا منها توجد ولا ريب ضيعة أبيـــه الذى مات فى الطريق ، مات وابنه حازم طفل رضيع .

وذات ليلـــة ، حينما ساد الظلام ، جلس حـــازم ونجدة يسمران على ضوء سراج خافت .

قالت نجـــدة :

انى لأسمع فى داخلى نداء كأنه يأتى من بعيـــد . نـــداء يدعونى الى التحرك والانطلاق . ان طريـــق العـــودة ممهـــد بارادتنا ، فليس لنـــا الا أن نسير فيه بعزم وقـــوة . الأرض تنادينا . والتربة تهتز شوقا الينا . فلنحطم خيام العار .

خفق قلب « حازم » وفار الدم فى شرايـــينه ، ونظر فى عينى نجدة على ضوء السراج الخافـــت فـــرأى فى سوادهمـــا وجهه الطافح بالبشر والأمل . وود لـــو يبوح لنجدة بحبـــه الكبير ، الا أنـــه فضل أن يكون ذلك البوح فوق التلـــة البعيدة على مشارف الضيعة التى طالما حدثـــه عنها الشيخ فى أسمار المخيم . وكان النـــداء يتردد فى جنبـــات نفسه ، فسكت ولم يقـــل شيئـــا .

وفى الصباح شاهد حازم – على غير عادتـــه – شروق الشمس ، فرأى فى قرصها احمرارا لم يألفه من قبل ، ورأى الافق يمتد أمامه شاسعا رحيبا لا متناهيـــا . وفجـــأة سمـــع صوت الشيخ يتردد فى نفسه خافتا متقطعا :

– هذه الضيعة ستصبح يوما لك ، فصنهـــا . . . وارع الماشية والدواجـــن . . .

وكان طريق الضيعـــة ، هذه المـــرة ، محفوفـــا برصاص البنادق ، ونيران المدافع ، وصلصة القذائف . فما هـــو الا أن تجمع الفتيان والفتيات فى معسكر أقاموه فى الاحراش بعيـــدا عن المخيم . وهناك بـــدأوا يخطون كتاب المستقبـــل ، بعد أن طووا صحيفة الماضى .

شعر « حازم » بالزهو وهو يحمل رشاشته فوق كتفه . وقال فى نفسه :

يا نجدة . . . اذا امتدت بى الحياة أو كتبت لى الشهادة فسوف أنال حبك وأملك قلبك عن جدارة ، فداك نفسى يا نجدة !

فأنت الحب الذى يرتبط بالتربة . فيكما معا معنى الأمل . . .
الامل الذى لا يمكن الا أن يتحقق لأن وراءه أحقابــاً تطوى ،
وخيامــاً للذل تحترق ، وقدامه قلوب تخفق ، ونفوس تتطلع .
فموعدنا ، اذن ، هناك . . . فـــوق التلـــة المشرفـــة على أرض
الضيـــعـــة .

الـــربـــاط **محمد العربى الخطابى**

العربية لغة العلم والتكنولوجيا (*)

د. ابراهيم مذكور

أشكر للسيد وزير الدولة لشؤون الثقافة ان أتاح لي فرصة هــذا اللقاء ، وانا سعيد كل السعادة ان أراكم وان أتحدث اليكم . سعيــد بأن أزور بلدكم هذا ، وان أقف بينكم ، وهذه هي زيارتي الثانية . وأشهدكــم على اني اباهي بنهوضكم واعتز بعروبتكم ، وانكم لتضربون مثلا رائعــا فى الجمع بين القديم والجديد ، فى ربط الماضي بالحاضر ، وهذا هو النهوض الاصيل الذي يقوم على اساس متين .

وبودي ان أحدثكم الليلة عن العربية ووفائها بمتطلبات العلم والحضارة وليس ثمة شيء أكثر ورودا فى عصرنا الحاضر من لغة العلم والتكنولوجيا، نعيش معها فى الحقل والمنزل ، ونرى آثارها فى المصنــع والمتجــر .

---

* محاضرة القيت بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مساء يوم الاربعاء 1976/1/21

يرددها الاطفال فى مدارسهم ، ويعنى بها الشباب فى جامعاتهم ، ويسجلها العلماء فى درسهم وبحثهم . وأود ان ابين الى أي مدى استطاعت العربية بالامس ، ونستطيع اليوم ، ان نسد حاجة العلم والتكنولوجيا ، وهو موضوع لم يخل من خلط ولبس ، بل من بلبلة أحيانا .

* * *

وللعلم لغة يؤدى بها ، ولا حياة له بدونها . بها يشرح ويعلم ، وبها يكتب وينشر . وتحيا اللغة العلمية بحياة العلم نفسه ، وتسير بسيره . ولا سبيل لان تحيا فى مجتمع لا يغذيه ولا يتعهده . والنهوض العلمي مقترن دائما بنهوض حضاري ، هكذا كان وهكذا يكون . فالعلم اليوناني وليد نهضة اثينا فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . والعلم الاسلامي ثمرة من ثمار العصر العباسي الاول . وهو قمة الحضارة الاسلامية . والعلوم الاوربية امتداد للنهضة الحديثة ، وصدى لما قام به الاوربيون من كشوف ورحلات وقد بلغت هذه العلوم قمتها ، وأصبحت توافينا كل يوم بالجديد والعجيب . وحركات العرب العلمية المعاصرة أثر من آثار يقظة القرن الماضي ، ونتيجة من نتائج ذلك الوعي الذي ينشد النهوض والتقدم .

ولغة العلم صنيع أهله ، فالعالم الذي يكشف الظاهرة او يخترع الفكرة ، هو وحده الذي يحس بها ، ويحسن التعبير عنها ، ويحكم اداءها . ومن الخطأ ان نفرض عليه لفظا ، او نلزمه بصيغة معينة ، وكلما كان متمكنا من لغته القومية ، استطاع ان يختار منها اللفظ الملائم والصيغة الدقيقة . وما نشكو منه اليوم من اضطراب او قلق فى لغتنا العلمية ، يرجع فى قدر كبير منه الى عدم تمكن المشتغلين بالعلم من لغتهم . ولغة العلم فى تطور مستمر ، شبيه بتطور اللغة الوطنية نفسها ، تتقدم بتقدم البحث ، وتنمو بنمو المادة العلمية . وتاريخ كل عام يكاد يتلخص فى تاريخ مصطلحاته ، ولكل عالم قدر من الالفاظ ابتكره والتزم به ، وكثيرا ما يرجع خلاف العلماء الى اختلاف مدلول الفاظ تباينوا فى فهمها وشرح المقصود منها . وهناك مصطلحات تبدو قلقة عند نشأتها ، ثم لا تلبث ان تتركز وتستقر ، واخرى

تموت في مهدها ، ولا تقدر لها حياة . وانا لنحس اليوم احساسا قويا بتطور لغة العلم في أوربا وامريكا ، تبعا لذلك السيل الذي لا ينقطع من كشوف ومخترعات .

* * *

ومن اليسير توضيح هذه القضايا في ضوء الماضي والحاضر ، فلم تنشأ لغة العلم في الاسلام دفعة واحدة ، بل تمت على مر الزمن . بذرت بذورها في القرن الاول الهجري ، وفيه ظهرت مصطلحات في الفقه والتشريع ، والتفسير والحديث ، والفرق وعلم الكلام . وتلتها في القرن الثاني مصطلحات في الادب واللغة ، في التاريخ والسياسة ، في الاخلاق والاجتماع ، في الطب والكيمياء ، في الفلك والهندسة . ولم تجد هذه العلوم غضاضة في ان يأخذ بعضها عن بعض ، وان يستعين لاحقها بسابقها. وسبق لنا ان أشرنا مثلا الى ان لفظي « القضية » و « الحكم » عرفا في التشريع قبل ان يعرفا في المنطق . وهناك ألفاظ استعملت في عدة علوم، ولكن بمدلولات مختلفة . وفي القرن الثالث الهجري استكملت العلوم الاسلامية لغتها ، وانتشرت هذه اللغة في العالم الاسلامي بأسره ، فرددت في قرطبة والقيروان ، كما رددت في الفسطاط ودمشق ، واخذ بها في البصرة والكوفة ، كما أخذ بها في الري واصبهان . وفي القرن الرابع الهجري اصبحنا أمام علم اسلامي مكتمل له آراؤه ونظرياته ، وله لغته ومصطلحاته . وقد سجلت هذه المصطلحات في مفردات ومعجمات مختلفة ، مثل : « كتاب الحروف للفارابي » ، « مفاتيح العلوم للخوارزمي » منذ عهد مبكر . وتلاهما « كتاب التعريفات للجرجاني » ، « وكليات ابي البقاء » ، و « دستور العلماء لابن عبد الرسول » ، و « كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي » . واستطاعت هذه المصطلحات ان تغذي لغات أخرى ، فانتقل قدر منها الى الفارسية والتركية والاردية ، واستمسك ببعضها من ترجموا من العربية الى اللاتينية ، وامتد صداها الى بعض اللغات الاوربية الحديثة كالفرنسية والاسبانية ، والانجليزية والالمانية .

واستعان العرب على وضع هذه المصطلحات بوسيلتين هامتيـــن : اولاهما النقل ، وهو منهج مالوف فى اللغات جميعها ، فتنتقل الكلمـــة من مدلولها الاصلي الى مدلول جديد له به صلة ، وتستقر فيه بحيث تصبــح حقيقة عرفية . وقد ينسى المدلول القديم ، ويحل محله المدلول الجديد وحده . والامثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها الصلاة والصيام والزكـــاة فى الفقه ، والتميز والاستثناء فى النحو ، والجامد والمشتق فى الصرف . والفرق بين الدلالة اللفظية والدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمـــات واضـــح معروف ، وقد درج المؤلفون والشراح فى التراث الاسلامي على ان يبينوا اولا المدلول اللفظي للمصطلح ، ثم ينتقلون الى دلالته الفنية . والوسيلــة الثانية من وسائل تكوين المصطلح العلمي هي الوضع ، ويراد به خلق لفظ جديد لاداء معنى خاص بالنحت والاختزال ، او التركيب والمزج . وأوضح صورة الاشتقاق ، ولا شك فى ان العربية لغة اشتقاقية ، يمكن ان يؤخـذ فيها من مادة واحدة عدة الفاظ لدلالات مختلفة ، كالفاعلية والمفعوليـــة ، والصفة المشبهة وصيغة المبالغة ، واسم الزمان والمكان ، واسم الآلة ، والمصدر الصناعي . واستطاعت الصيغة الاخيرة ان تسعفنا فى مواقـــف متعددة ، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة على المذاهب والنظريات ، كالقدرية والجبرية ، والمادية والمثالية . وفى وسعنا ان نقرر ان الاشتقاق العربي اهون وأمـــكن فى خلق ألفـــاظ جديـــدة من السوابـــق واللواحـــق Préfixe et Suffixe فى اللغات اليونانية واللاتينية ، والمهـــم ان نؤمن بحقنا فى هذا الخلق ، وان نتصرف فيه دون خروج على اصول اللغة.

ولم يقف علماء العربية عند النقل والوضع ، بل سلكوا سبيل التعريب عند الحاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عربـــوا عن السريانيـــة واليونانية . والامثلة على ذلك كثيرة ، واستطاع الخوارزمي ان يقدم منهـــا فى كتابه « مفاتيح العلوم » نماذج لا باس بها . ويمكن ان يلاحظ بوجه عام أن الفارسية كثيرة الورود فى المستحدثات الحضارية والنظم الادارية ، مثل « الزرمانة » ، وهي مسك حساب الخراج ، و «الدفتر» و «الفهرست» من مستلزمات الديوان ، و « البريد » الذي كان فى الاصل دابة تحمـــل الرسائل ، ثم اتخذ المعنى الجديد الذي نعرفه الآن ، و « الدستور » الذي نسي معناه القديم ، واصبح لا يراد به الا دلالته القانونية الخاصة . ويلاحظ

ايضا ان الالفاظ اليونانية والسريانية كثيرة الورود فى العلوم والفلسفة ، فمن اليونانية أخذ مثلا لفظ « الناموس » و « السفسطة » فى الفلسفة ، و « الأرثماطيقي » ، و « الأسطرلاب » فى الرياضة والفلك ، و « القولون » وهو المعى الغليظ و « الترياق » وهو دواء السم فى الطب ، وعن السريانية اخذ « الكيان » بمعنى الطبيعة فى الفلسفة ، و « البحران » فى الطب ، وهو انخفاض فى درجة الحرارة بصحبة عرق غزير .

* * *

وللعلوم الاسلامية تاريخ طويل يبين نشأتها وتطورها ، ويوضح مناهجها ونظرياتها ، ويشير الى كبار رجالها وما خلقوا من ثمارها ونأسف لان هذا التاريخ لم ينل بعد حظه من الدرس والبحث ، ولم يكشف تماما عن معالمه ومخلفاته . ولا سبيل لان نقف هنا عند هذا التاريخ جميعه ، ويكفي أن نشير فى إختصار الى علمين اثنين بدا فيهما نشاط علماء العربية واضحا ، وكان لهما شأنهما فى القرون الوسطى لدى العرب واللاتين على السواء ، وهما : الكيمياء والفلك . ونأمل أن يكون فى هذه الاشارة ما يوضح الازدهار الذي حظى به البحث العلمي فى الاسلام .

وقد عنى المسلمون بالكيمياء ، او علم الصنعة كما سموه ، عناية خاصة منذ عهد مبكر ، فشغل به فى آخريات القرن الاول الهجري خالد بن يزيد ، وهو من بيت الملك . وتفرع له فى القرن الثاني جابر بن حيان ، وكون مدرسة خاصة عرفت فى الشرق والغرب . وقامت بتجارب متعددة عالجت فيها بعض الفلزات والقلويات ، وفرقت بين الترشيح والتقطير ، ووصلت الى البلورة والتصعيد . واستخدمت بعض الآلات كالكور ، والانبيق ، والميزان ، وسمى علم الكيمياء « علم الميزان » . وكان لهذه المدرسة شأن وتأثير على البحث الكيميائي لدى المسيحيين فى القرون الوسطى والتاريخ الحديث .

وفى أخريات القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري توسع ابو بكر الرازي فى الدراسات الكيميائية، وصبغها بصبغة علمية دقيقة، وهو دون نزاع

اكبر كيميائي فى الاسلام . عرف كيف يربط الكيمياء بالطب،ذلك الربط الذي اصبح واضحا اليوم كل الوضوح ، واستطاع ان يجعلها علما تجريبيا دقيقا ، فسبق بذلك التاريخ الحديث . عنى بتحليل العقاقير ، وهي عنده متعددة ومتنوعة : نباتية وحيوانية ، أحجار وأملاح ، فلزية ومعدنية . وصف الآلات المستخدمة فى الكيمياء وصفا دقيقا ، كالمنفاخ ، والبوتقة ، والقدح ، والقنينة . وقد توفر لديه منها نحو 25 آلة . وقام بتجارب شبيهة بالتجارب الحديثة فى التقطير والتصعيد ، فى التكليس والاحتراق ، وحضر بعض الاحماض بالتسخين ، كما حضر الكبريت وبعض الكحول بالتقطير .

ثم تلاه كيميائيون اسلاميون آخرون ، ويطول بنا الحديث ان وقفنا عندهم . والمهم ان هؤلاء الكيميائيين كانت لهم مصطلحاتهم ، فعرفوا الكبريت والزرنيخ ، والزئبق والنوشادر ، والراتنج والمغنيسيا ، والمغناطيس والاسفيداج . ولم يجدوا غضاضة مطلقا فى ان يستعملوا بعض الكلمات الاجنبية ، المأخوذة عن الفارسية ، او عن السريانية واليونانية ، وفى الاسماء السابقة امثلة من ذلك ، ولا تزال هذه الاسماء مستعملة بيننا الى اليوم . واخذ منها اللاتين والاوربيون قدرا أقروه واحتفظوا به ، ومنه على سبيل المثال Alanbic للانبيق ، Tutia للتوتياء المعروفة .

أما الفلك فهو أحد علوم ثلاثة عنى بها المسلمون عناية خاصة ، وهي : الطب ، والكيمياء والفلك . ولا شك فى انه كان للعرب فى الجاهلية بعض ملاحظات فلكية ، تتصل بالانواء والعواصف ، وتقيس الزمن بطلوع الشمس وغروبها . ونرجح انهم أفادوا من فلك البابليين والكلدانيين . وقد بدات دراسة الفلك الاسلامي فى اوائل العهد العباسي ، ولعلها كانت مرتبطة بالعرافة والتنجيم وأولع بها خاصة رجلان من كبار خلفاء العباسيين ، أولهما المنصور الذي اتجه نحو الفلك الهندي ، ودعا الى ترجمة كتاب « السند هند » ، وكلف بذلك ابراهيم الفزاري اكبر الفلكيين فى عصره . وثانيهما المأمون الذي اتجه نحو الفلك اليوناني ، وشجع على ترجمة كتبه ،

وله ابحاث فلكية متعددة من اهمها محاولته قياس محيط الارض ، وقد وصل فيه الى نتائج مدهشة بالنسبة لعصره .

وفى الاسلام فلكيون كثيرون تعاصروا وتنافسوا تلاحقوا جيلا بعد جيل ، وكانت لهم أعمال فلكية عرفت بهم - فظهر منهم فى القرن الثالث الهجري الكندي وابو معشر البلخي ، وفى القرن الرابع البتاني وابن يونس المصري ، وفى القرن الخامس ابن الهيثم والبيروني ، وفى القرن السادس ابن باجة والبتروجي ، وفى القرن السابع الطوسي والقزويني . واقام المسلمون ما أقاموا من مراصد ، ومن أشهرها مرصد بغداد ، ومرصد الحاكم بالمقطم ، ومرصد المراغة . وزودوها بآلات رصد خاصة ، فاستخدموا الاسطرلاب ، وذات الاوتار ، ووردة الرياح ، والبوصلة .

واستطاع الفلكيون الاسلاميون ان يتنبئوا فى دقة بالكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي . وضبطوا حساب السنة الشمسية بما لا يقل عما انتهى اليه العلم اليوم الا بنحو دقيقة وثلاث وعشرين ثانية . وقدروا محيط الارض عن طريق قياس مساحة كبيرة بما لا يبعد عن الواقع كثيرا . وهنا أيضا عولوا فى لغتهم الفلكية على الالفاظ العربية اولا ، فان لم تف بحاجتهم استعاروا بعض المصطلحات الاجنبية ، كالاسطرلاب من اليونانية ، والاوج والزيج من الفارسية . وكان للفلك العربي شأن فى العالم اللاتيني ، قدره اللاتين حق قدره ، واعجبوا برجاله، ورغبوا فيه وترجموا معظم كتبه .

وفى وسعنا أن نقرر انه كان للعرب علوم اولعوا بها ، وانه ازدهرت لديهم حركة علمية لها منزلتها بين الحركات العلمية العالمية الكبرى ، ففي القرون الوسطى علم عربي مزدهر ، تعهده المسلمون ، وغذوه طوال عدة قرون . وانشئوا له لغة خاصة به ، وقامت هذه اللغة على أساس متين من العربية ، وما اخذته عن اللغات الاخرى تبنته ، واصبح جزءا منها . وبوجه عام كانت العربية لغة العلم الوحيدة فى العالم بأسره ، فيما بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر الميلادي . ثم انضمت اليها اللاتينية بعد لك ، وقد أخذت عن العربية ، وافادت منها . فترجم اللاتين قدرا من كيمياء

جابر بن حيان وابي بكر الرازي ، وعنوا برياضيات الخوارزمي وبصريات ابن الهيثم ، وفلك البتاني والبتروجي ، وطب ابن زهر وعلي بن رضوان . شغلوا بالترجمة العربية نحو قرنين ، الثاني عشر والثالث عشر الميلادي . واستعاروا بعض الالفاظ العربية كما استعار المسلمون من قبل بعض الالفاظ الاجنبية ، ولا تزال الالفاظ العربية المستعارة باقية الى اليوم فى اللاتينية ، وعنها انتقلت الى بعض اللغات الاوربية المعاصرة ، فأدت العربية رسالتها نحو العلم فى الماضي .

* * *

ولا يعز عليها ان تؤديها فى الحاضر ، وهي مهيأة لذلك تهيؤ اللغات العالمية الكبرى . حقا ان القدر شاء أن تركد حركة البحث العلمي فى العالم العربي بعد القرن الثالث عشر الميلادي ، وبقيت على ذلك نحو خمسة قرون . واكتفت المعاهد العربية التقليدية الكبر أساسا بالدراسات الدينية واللغوية ، وفى مقدمتها الازهر ، والزيتونة ، وجامع القرويين ، وفى اخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ظهرت بواكير نهضة علمية فى العالم العربي ، وبخاصة فى مصر ولبنان . فاستيقظت مصر أولا بدافع من الحملة الفرنسية ، وبغذاء لم يستمر طويلا فى عهد محمد علي ومن جاء بعده من خلفائه الاقربين . فأنشئت فى عهده مدارس للطب والصيدلة والهندسة ، ودرست فيها هذه العلوم بالفرنسية ومعها ترجمتها العربية ، ولا تزال بين أيدينا صور من هذه الترجمات التي حاولت ان تحل العربية محل الفرنسية . ولو قدر لهذه المدارس ان تبقى وتستمر فى اداء رسالتها لكان لتاريخ الحركة العلمية المصرية الحديثة شأن آخر . وحاول رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ان يعززوا هذه الحركة ما وسعهما ، ولكنها لم تلبث ان ركدت ، واكتفى فى اخريات القرن الماضي بانشاء بعض المعاهد العليا للدراسات الانسانية كمدرسة الحقوق ، ودار العلوم ومدرسة المعلمين العليا . أما لبنان فقد غرست فيه منذ أكثر من مائة سنة نواتان لقيام جامعتين : احداهما امريكية والاخرى يسوعية ، وكانت لهما معا رسالة شبه دينية ، باطراد الطابع الغربي ، وقام التعليم فيهما أساسا على الانجليزية

او الفرنسية ، ولم يعبرا فى الحقيقة عن علم عربي . وفيما عدا هذين القطرين ، وقف الاستعمار فى وجه كل تطور او نهوض علمي فى العالم العربي .

ولم تبدأ الحركة العلمية العربية الحديثة حقا الا فى القرن العشرين ، فأنشئت فى فجره الجامعة المصرية القديمة ، وهي مدينة بنصيب كبير لحركة الاستشراق . وتلتها فى مصر جامعات متعددة ، تتزايد باطراد ، وهي اليوم عشر ، ويخطط لجامعات جديدة . وتدرس فيها العلوم المختلفة من طب وصيدلة ، وكيمياء ، وطبيعة ، ونبات وحيوان ، وجيولوجيا وبترول، ورياضة وفلك . ولها معاملها ومخابرها ، ومراصدها ومشاتلها ، ومحاجرها وحفرياتها ، وأجهزتها وآلاتها . ويؤدى معظم المواد التعليمية باللغة العربية، ولا يزال قدر منها يعلم باللغة الانجليزية . وعلى غرار مصر سارت الاقطار العربية الاخرى ، ولكل بلد عربي تقريبا جامعته او جامعاته الخاصة ، وتتبادل هذه الجامعات فيما بينها الاساتذة والمدرسين ، ويغذي بعضها بعضا . وفى بلدكم هذا عدة جامعات تنشىء اجيالا على العلم والمعرفة ، وتحاول التخلص من ربقة الاستعمار وطبع العلم والبحث بطابع عربي صريح.

والواقع ان لغة العلم العربي تعد من مشاكل الساعة ، أثيرت منذ نصف قرن أو يزيد ، ولا تزال تثار حتى اليوم ، وعبر عنها بما يسمى قضية تعريب التعليم – وهي قضية كثر فيها الاخذ والرد ، وتباينت فيها الآراء . فمن قائل بضرورة تعريب التعليم فى مراحله المختلفة ، لا فرق بين ابتدائية ومتوسطة ، ولا بين ثانوية وعالية ، ذلك لانه لا حياة للعلم فى أمة الا ان درس وكتب بلغتها الوطنية . ونحن نريد للامة العربية ان تسهم فى ميدان العلم والحضارة اليوم ، كما اسهمت فيهما بالامس . ومن مدع ان اللغة العربية لا تستطيع ان تواجه متطلبات العلم المعاصر ، وان الاولى بنا ان ندرسه بلغة أهله فرنسية كانت او انجليزية ، وفى هذا ما يربطنا بركب الحضارة ، وما يمكننا من متابعة الكشف والاختراع . وكأنما يراد ان يقال : انا لسنا أهلا للبحث والدرس ، ويكفينا أن نعيش عالة على غيرنا .

وكم تذكرني هذه القضية بقضية أخرى اثيرت فى العشرينات الاولى من هذا القرن ، وهي قضية الثنائية بين العامية والفصحى . فذهب فريق الى الاخذ بالعامية ليسرها وانتشارها ، ويظهر انه نظر الى الموضـــوع من زاويته الخاصة ، ونسي أن هناك عاميات لا عامية واحدة ، فكيف نجمعهـا ونؤلف بينها . ورأى فريق آخر بحق أنه لا بد من الاستمساك بالفصحى ، ابقاء على تراث ليس من اليسير تعويضه ، وحرصا على جمع العروبة على لسان واحد . ولم يخل هذا الحوار من خير وبركة ، فقد قاد الى فصحـى جديدة هينة لينة تعنى بالجلاء والوضوح ، وتنفر من الشاذ والغريـــب ، وتمقت الصنعة اللفظية ، وتأخذ من العامية كل ما كان عربـــي الاصـــل . فضاقت مسافة الخلف بين الطرفين ، واصبحنا لا نحس بتلك الثنائية التي كنا نحس بها بالامس . وتوفرت لدينا فصحى معاصرة رقيقـــة تعبـــر عن مشاعر العصر وروحه ، وتنفر من العبارات الضخمة والجمل الطنانة . وفى نشر العلم والثقافة الشعبية والنهوض بوسائل الاعلام من صحافة واذاعة ما يقضي على هذه المشكلة ، ومن العبث ان نعود مرة اخرى الى هذه الثنائية، فقد ذهب زمنها ، وأصبحت غير ذات موضوع .

ولا نزاع فى أنا سائرون فى طريق تعريب التعليم على هذا النحـــو ، واسمحوا لي ان أستعرض معكم فى اختصار تجربة مصر فى هـــذا الشأن ففي مطلع هذا القرن شاء سعد زغلول وزير المعارف حين ذاك ، وقد كان مصلحا اجتماعيا قبل ان يكون زعيما سياسيا ، شاء ان يعرب التعليم العام فى المدارس الاميرية ، وكانت الانجليزية دعامته . وقضينا فى ذلك نحو أربعين سنة ، فعربنا المعلم ، وعربنا الكاتب ، ولم تقصر لغتنا ازاء هـــذا التعريب فى شيء . واحتفظنا طبعا بدروس اللغة الاجنبية ، بل لم نعارض فى قيام مدارس خاصة تعني بهذه اللغات عناية أكبر ، كالمدارس الفرنسية والايطالية ، او الانجليزية والالمانية . وفى عام 52 خطونا خطوة أفســـح ، وحاولنا ما استطعنا ان نمصر هذه المدارس الخاصة ، وواضح ان اللغـــة العربية تسد اليوم حاجات التعليم العام كلها ، وتفي بجميع متطلباتـــه فى العلوم الطبيعية والرياضية ، فضلا عن العلوم الانسانية .

وسرنا فى تعريب التعليم العالي والجامعي على نحو شبيه بذلك ، بدأناه ايضا فى العقد الاول من هذا القرن فى الجامعة المصرية القديمة ، التي درس فيها بالعربية نفر من المستشرقين أمثال نللينو وماسنيون ، وللاخير مخطوط فى المصطلحات العربية من ثمار هذه الدروس ، ونرجو ان ينشر قريبا . وقد سبق لمدرستي المعلمين العليا ودار العلوم ان فتحتا فى أخريات القرن الماضي باب الدراسات العليا باللغة العربية . وقطعنا فى هذا الطريق شوطا طويلا ، وما ان بلغنا العقد الثالث من هذا القرن حتى سلكت مصر مسلك التعليم الجامعي فى تدرج وتوسع . فانشئت جامعة القاهرة ، وتلتها جامعات أخرى ، وفى القاهرة وحدها الآن ثلاث جامعات وافرة العدد .

وفى البداية درست العلوم الانسانية فى هذه الجامعات بلغات أجنبية ثم تحولت فيما بعد الى العربية ، ولدينا مكتبة عربية متنوعة الالوان ، أعدها الاساتذة المختصون ، وأسهمت فيها الرسائل الجامعية . وأصبح لدينا فيها بالعربية مراجع لا تقل عن نظائرها فى اللغات الاجنبية . ولا يختلف الامر فى العلوم الرياضية عن ذلك كثيرا ، فيدرس فى كليتي العلوم والهندسة قدر غير قليل من الحساب والجبر والهندسة باللغة العربية ؟ وفى الفلك والارصاد الحديثة مؤلفات عربية متخصصة . والواقع انه الى جانب ما ورثناه من تراثنا العربي القديم فى الفلك والعلوم الرياضية ، قد أضفنا اليه جديدا منذ أخريات القرن الماضي بما حاولناه فى مدارسنا العليا . وفى وسعنا ان نقرر انه لا توجد اليوم صعوبات تذكر تحول دون تعريب العلوم الرياضية فى العالم العربي بأسره .

وبذلت جهود متصلة منذ نصف قرن او يزيد فى تعريب العلوم الطبيعية من نبات وحيوان ، وطبيعة وجيولوجيا ، ويلاحظ هذا بوضوح فى كليات الزراعة والطب البيطري التي تكاد تدرس فيها العلوم كلها باللغة العربية . ولم يبق فى الحقيقة الا الطب والكيمياء اللذان يترددان بين العربية والانجليزية ، او بين العربية والفرنسية ، ويمكنني ان اقول ان تدريسهما فى الجامعات المصرية أصبح مناصفة بين العربية والانجليزية ، وقد آن

الاوان لان يدرسا دراسة كاملة بالعربية ، وكل ما أرجو ان يتسع فيها باب التأليف بالعربية على نحو ما صنعنا فى العلوم الاخرى .

وقد اسهم مجمع القاهرة فى حركة التعريب هذه اسهاما كبيــــرا ، واستطيع ان أقرر ان لغة العلم تحظى منه بعناية لا نظير له وتفوق عنايتــه بالمشاكل اللغوية الاخرى ، ايمانا منه بأنها حاجة ماسة وضرورة عاجلة فى عصر العلم والتكنولوجيا . شغل بها منذ نشأته ، ووقف عليها جل جهوده طوال أربعين سنة مضت ، فتوسع فى الوضع والنقل ، واستحدث صيغا عربية جديدة تسد حاجة العلم والحضارة . واقر التعريب ، ونظم طرقه ، فاستساغه فى اعلام الجنس كالاكسجين والهيدروجين ، وفيما يعبر عــــن فصائل من الحيوان والنبات ، وفى المصطلحات ذات الطابع الدولي التي اخذت عن اليونانية او اللاتينية . واقر عشرات الآلاف من المصطلحات ، واخرجها فى مجموعات قائمة بذاتها ، او فى معجمات متخصصة . ومن بين ما اخرجه فى هذا الباب الجزء الاول من « معجــــم الفيزيقـــا النوويــــة والايلكترونات » ، ويشتمل على نحو 1200 مصطلح ، ليس للتعريب فيها الا نصيب ضئيل ، ونرجو ان يليه قريبا الجزء الثاني المتمم له . فهل نشـــك بعد هذا فى قدرة العربية على الوفاء بحاجات العلم والتكنولوجيا ؟ ويسعدنا ان نلاحظ أن العلماء والمتخصصون يقبلون على مقررات مجمع القاهــــرة ويأخذون بها ، ومن أقرب الامثلة على ذلك « معجم المورد » ، و « معجــــم حتى » الطبـــي .

وقد سار العالم العربي على هذا النهج ، فحاول تعريب التعليـــم فى مراحله المختلفة ، وان تلكأ فى ذلك بعض البلاد ، وخير لها الا يتخلف بها ، وتتنافس الجامعات العربية بعضها بعضا ، وتحاول أن تحــل العربيــة محل اللغات الاجنبية . ولا يمكن ان يقوم تعليم جامعي عربي الا ان غذتــه مدرسة ثانوية عربية حقا ، وقام على أمره أساتذة متمكنون من لغتهم القومية والى جانب مجمع القاهرة مجمعان آخـــران ، أقدمهمـــا فى دمشـــق ، وأحدثهما فى بغداد . وهناك تفكير فى انشاء مجامع اخرى ، وانا لنرحب بكل نشاط يبذل فى هذا السبيل ، على الا يؤدي الى تشتت او بلبلة .

وفى العالم العربي هيئات علمية متعددة ، من جمعيات واتحـــادات ، ومراكز بحث ومجالس علمية ، بل عمدت بلاد الى انشاء وزارات للبحـــث العلمي والتكنولوجيا . وتعني هذه الهيئات كلها بمادة العلم ولغته ، فنحاول ان ندفع البحث العلمي دفعة قوية ، وتدعو الى تطويع اللغة بعامة للباحثين والدارسين ، كي يستمدوا منها لغتهم الخاصة . ولا بد لهذه اللغة العلمية من ان تستقر وتتمكن ، وان تنتشر وتتداول وان يتلاقى عندها الباحثون العرب أجمعون . وقد أخذت هذه الهيئات العلمية نفسها بنشر صحـــف ومجلات تشمل على بحوث قيمة بلغـــة عربيـــة سهلة ، ونظمـــت ندوات ومؤتمرات تجمع المتخصصين فى صعيد واحد ، وتربط جهودهم بعضها ببعض ، ان فى البحث والدرى ، او فى تكوين لغة العلـم ومصطلحاتـــه . وأصبح لدينا من هذا زاد كفيل بأن يسد الحاجة ، وبأن يسمح بمتابعـــة السير . وفى العشرينات الاخيرة نلحظ نشاطا ملموسا فى نشر المعجمات العلمية والفنية المتخصصة . وكم يذكرني ذلك بما حدث فى القرن الرابع الهجري من ولوع بنشر المعجمات اللغوية والعلمية ، وأصبحنا لا نشكو من نقص المصطلح العربي بقدر ما نخشى قلقه وبلبلته ، ونأمل ان يكـــون فى جهود اتحاد المجامع ، ومكتب التعريب بالرباط ، والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ما يدرأ هذا الخطر ، وباسم العلم ولغته حرصنـــا على ان نتردد على بلدكم الكريم ، ورحبنا بأن نسهم فى جهود مكتـــب تنسيـــق التعريب . وأخشى ما نخشاه ان تؤدي هذه الجهود الى بلبلة لا الى تنسيق، وهذا ما نحرص على ان نتلافاه . ويسعدني ان أقرر انكم بدأتم هنا حركـــة تعريب مباركة ، لمسنا بعض آثارها خلال ثلاث سنوات مضت ، ونرجو لها ان تنشط وتمتد . والقول بالتعريب لا يعني مطلقا ان يقف العالـــم عنـــد العربية وحدها ، بل لا بد له ان يتمكن من لغة عالمية كبرى على الاقل ، كي يربط باستمرار العلم العربي بالعلم الاجنبي ، والبحث العلمي فى حركة لا تنقطـــع .

* * *

وفى ضوء ما تقدم نستطيع ان نقرر ان العربية برهنت فى الماضـــي والحاضر على أنها ليست أقل استعدادا من اللغات العالمية الكبرى لمواجهة

متطلبات العلم والتكنولوجيا . آمن بذلك فى الماضي الشرق والغرب معا ، وعرفا للعلم العربي منزلته ، وللعربية قدرتها على التعبير والاداء . وها هما يعترفان به الحاضر ، ويفسحان للعربية مجالا فى المؤتمرات والهيئات الدولية . وفى حديث ذكي لجلالة ملككم المعظم بالاذاعة البريطانية فى العام الماضي اشارة الى ان الغرب سيضطر لتعلم العربية كي يستطيع ان يتصل بالعالم العربي اتصالا أوثق . والملاحظة صادقة كل الصدق ، ويؤيدها الحرص على تدريس العربية فى بعض المدارس والجامعات الاوربية ، وما يظهر كل عام من معجمات ثنائية تقابل بين المصطلح الاجنبي والمصطلح العربي ، وبخاصة فى العلم والتكنولوجيا ، ولروسيا بالذات فى هذا انتاج متصل .

والامر يتخلص فى كلمة واحدة ، هل نحرص على أن يكون لنا اليوم اسهام فى نهضة العلوم وتقدمها ؟ لا أظن ان عربيا مؤمنا بعروبته يتردد فى ذلك . ونحن على يقين من ان العالم متى تمكن من لغته وجد فيها وفاء لكل ما يجول بخاطره ، وتعريب التعليم الجامعي فى الخمسين سنة الاخيرة خير شاهد على ذلك . واذا قعد بعض الباحثين فى هذا ، فما ذاك الا لانه لم يتمكن من لغته كل التمكن ، ويؤثر عليها الانجليزية او الفرنسية . ولا أريد بهذا مطلقا ان انتفض تعلم اللغات الاجنبية ، بل ادعو اليه وأحبذه . ذلك لانا نعيش فى عصر لا يستطيع باحث ان يقنع فيه باللغة الوطنية وحدها ، ولا بد له ان يضيف اليها لغة او اكثر من اللغات الاجنبية . وتستمسك الجامعات الكبرى بذلك وتطبقه فى دقة . والعلم لا وطن له ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها ، وبين العرب علماء يجيدون لغتين أجنبيتين او اكثر الى جانب لغتهم الاصلية ، وعلى امثال هؤلاء نعول فى ادعام حركة التعريب وانهاضها . ولكن لنقلها فى صراحة : اننا ننزلج فى منحدر بغيض فى تعليم اللغات وتعلمها ، واصبحت غالبية الشباب العظمى لا تجيد العربية، وقل منهم من يتمكن من لغة اجنبية . لنبدأ من هنا ان كنا نريد اصلاحا على اساس متين ، ولا سبيل بدونه لا الى تعليم ولا الى تعريب .

الربـــاط   د . ابراهيم مذكور

أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي

عمدة الشيخ مرتضى الزبيدي

محمد الفاسي

ولد أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن موسى الصميلي الفاسي المعروف بالشرقي بمدينة فاس سنة 1110 هـ . (1698 م) . ويعرف عند علماء المغرب بابن الطيب الشرقي وهي نسبة الى قبيلة عربية منازلها بشرقي مدينة فاس وتدعى شراقة بقاف معقودة . وقد استوطن أسلافه مدينة فاس حيث عرفوا ولا زالوا يعرفون الى الآن باسم الصميلي (1) . وقد لقب بالمشرق شمس الدين لان المشارقة يجعلون لكل اسم لقبا فلمحمد شمس الدين فى الغالب ولاحمد شهاب الدين ولابراهيم برهان الدين وهكذا ، كما ان المغاربة يجعلون لكل اسم كنية ، فمحمد أبو عبد الله وأحمد أبو العباس وعبد الرحمن أبو زيد وهكذا فى الغالب ايضا .

وكانت دراسته العالية الاولى بجامعة القرويين وقد أخذ عن مشاهير علماء وقته خصوصا عن أبي عبد الله امحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وعن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي الدلائي وعن القاضي أبى عبد الله محمد بردلة وعن عبد السلام جسوس وعن شيخ

(1) قال تلميذه عبد المجيد الزبادي فى رحلته عندما وصل الى مكة المكرمة : ((ولقيت هناك شيخنا العلامة أبا عبد الله سيدي محمد بن الطيب الصميلي نزيل الحرمين الشريفين)) ولم يسمه بسوى الصميلي ولقيه سنة 1158 هـ .

الاسلام ابي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي وغيرهم . وتولـــع من صغره بالدراسات اللغوية فقرأ على شيخه المسناوي كتـــاب القامـــوس المحيط قراءة بحث وتمحيص . وسمع كثيرا من مباحثه وفوائـــده على ((نحوي العصر ولغويه)) أبي العباس احمد بن علي الوجاري الأندلســـي . وقرا خطبته واكثر مواده بحث على شيخه الامام العلامة أبي عبد الله محمد ابن احمد بن الشاذلي الدلائي .

وبعد تحصيله اقبل على التدريس بدوره وتخرج عليه نخبة من علماء القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) نذكـــر من بينهـــم بالخصوص الشيخ عبد المجيد بن علي الزبادي الفاسي لانه يرجع له الفضل فى تاليف شيخه ابن الطيب لحاشيته على القاموس ، فقد اقترح عليـــه فى رسالة طويلة اثبتها المؤلف فى طالعة حاشيته ان يلبي كما قال ((ما كنـــا سالناه منه نحن وجميع من شملته هذه الحضرة الفاسية من أعيان الافاضل السراة ذوي العدد)) وأن يضع كتابا يكون بمثابة تعريف شامـــل بالقاموس المحيط واصطلاحاته وبيان المواضع المنتقدة فيه وهل اعتراضاتـــه على الجوهري صحيحة أم لا .)) الى غير ذلك وقال : ((والحاصل أنا وجميـــع أهل العلم فى غاية الحاجة الى هذا التاليف . وقد رجونا ان تأتي فيه بما لا مزيد عليه من الاتقان والحسن وكثرة الفوائد)) .

وهكذا كان هذا الحافز من التلميذ لشيخه السبب فى وضع هـــذه الحاشية التي خلدت ذكر ابن الطيب الشرقي شرقا وغربا كما سنبينه .

وكان ابن الطيب كثير الاسفار وسنتعرض بتفصيل لرحلته الحجازية الثانية الموجود منها مخطوط فريد بخزانة جامعة لايبتسك بالمانيا . وقد بلغ من طوافه فى اقطار المغرب ان إشار فى ديباجة حاشيته الى انه مـــا املى سطرا منها الا فى شطر من الارض . كما قال عن رحلاته داخل المغرب هذيـــن البيتيـــن :

يوما بفاس وفى مكناسة زمنـــــا	وتارة فى زوايـــا العلم والخـــال
وبرهة سفري صفـــرو وآونـــــة	تازا وطورا أرى أفلى الفلا الخال

وفى سنة 1139 هـ قصد الحجاز لقضاء فريضة الحج ورجع فى السنة بعدها الى فاس . وقد لقي جماعة من مشاهير علماء الديـار المشرقيــة خصوصا بمصر . وأخذ عن عدد كبير من الشيوخ بالمغرب وبالمشرق فى رحلته الاولى وبالاخص فى الرحلة الثانيــة حتى ان صاحــب فهــرس الفهارس روى أن عددهم بلغ نحو ثمانين ومائة شيخ (2) .

ولما رجع الى فاس انكب على التدريس والتأليــف وقد اشتهــر وانتشر ذكره وقصده الطلاب من كل حدب وصوب . وكان أكثر اشتغالــه بعلوم اللغة وقد صار امامها المتفق على علو كعبه فيها وتبحره فى أصولها وفروعها . وقد أعانه على هذا التفوق زيادة على ذكائه الفطري والمجهودات الكبيرة التي بذلها فى هذا التخصص حافظة قوية يسرت عليه استحضار القواعد والجزئيات والشواهد والنصوص من كلام العرب فى الجاهليــة والاســـلام .

وفى هذه الاثناء قبل ارتحاله نهائيا عن موطنه بدأ فى وضع مؤلفاته التي سنتعرض لها من بعد ، خصوصا حاشيته على القاموس المحيط وقد جعلت معاصريه يقدرونه كبير التقدير حتى قال عنه محمد بن الطالب ابن الحاج : ((لم يكن فى زمانه أحفظ منه بالنحو واللغة والتصريف والاشعار اماما فى التفسير والحديث والتصوف والفقه)) (3) .

ويظهر انه رغم اقبال مواطنيه عليه وتقديرهم لمكانته العلمية ، لــم تسعه البلاد المغربية . فقصد مرة ثانية المشرق وطاف بالشام والعـراق والحجاز ومصر وأقام بمكة سنتين وختم بالمسجد الحرام الصحاح الستة

وغيرها من الاصول الحديثية . ولا ندري هل كان ينوي عند مغادرته وطنه للمرة الثانية الاستيطان ، او المقام مدة بالديار المشرقية ثم الرجوع الى المغرب ولكن الواقع انه بعد ان طاف بجل مراكز العلم استقر فى النهايــة

(2) فهرس الفهارس ج 2 ص . 396 قال : ((كما عندي بخطه فى اجازته لابن عبد السلام بناني . وهذا ما بعد العهد به عن اقرانه فى المغرب منذ قرون)) .
(3) أنظـر فهـرس الفهـارس ج 2 ص. 396 .

بالمدينة المنورة واتخذها وطنا . ومنها انتشر صيته وأقبل على دروسه وسعى فى الالتقاء به والرواية عنه كل من يقصد الحجاز لاداء فريضة الحج من علماء الاقطار الاسلامية .

وقد اخذ عنه بالشام وبالحجاز وبالعراق وبمصر واشهر تلامذته الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس وهو عمدته فى كتابه العظيم كما صرح بذلك فى مقدمته حيث قال فى اثناء كلامه على من شرح القاموس من المتاخرين : ((ومن أجمع ما كتب عليه مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الامام اللغوي ابي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المتولد بفاس سنة 1110 والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1170 وهو عمدتي فى هذا الفن والمقلد جيدي العاطل بحلي تقريره المستحسن . وشرحه عندي فى مجلدين ضخمين (4))) . اهـ . ثم قال عنه فى نفس المقدمة بعدما اشاد بعمله فى تاج العروس : ((وأنا مع ذلك لا ادعي فيه دعوى فأقول شافهت او سمعت شددت او رحلت او اخطأ فلان او أصاب او غلط القائل فى الخطاب ، فكل هذه الدعاوي لم يترك فيها شيخنا لقائل مقالا ولم يخل لاحد فيها مجالا .. الى ان يقول : ولعمري لقد جمع فأوعى وأتى بالمقاصد فوفى)) (5) وناهيك بهذه الشهادة الصريحة من الشيخ مرتضى الزبيدي نفسه بفضل الشيخ أبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي . وهذا الاعتراف ان دل على علو مقام ابن الطيب ومكانته العلمية فانه يشرف أكثر من ذلك الشيخ مرتضى الزبيدي الذي بلغت به الامانة العلمية الى هذه الدرجة من السمو الاخلاقي . ومن المعلوم أنه كلما قال الشيخ او شيخنا الا ويعني به ابن الطيب الشرقي .

وقد اثنى عليه الكثيرون من العلماء الذين اخذوا عنه أو التقوا به وعرفوه كالمرادي صاحب سلك الدور حيث قال : ((كان فردا من أفراد العالم فضلا وذكاء ونبلا . وله حافظة قوية وفضله أشهر من ان يذكر)) (6) وكتلميذه اللغوي الشهير ابي العباس أحمد الهلالي السجلماسي وقد قرا

(4) تاج العروس ج 1 ص . 3
(5) تاج العروس ج 1 ص . 5
(6) انظر سلك الدور فى أعيان القرن الثاني عشر لابي الفضل محمد خليل المرادي ج 4 ص 94

عليه خطبة القاموس قراءة بحث وتحقيق وذلك فى خلوته تجـاه البيـت العتيق وقد وصفه بقوله : ((اشد من رأيته عناية بعلم اللغة واحرصهم على مدى سوابقها ان يبلغـه)) (7) .

وكما كان له ذلك العدد الضخم من الشيوخ فقد اخذ عنه كذلـك فى المشرق والمغرب جماعة ممن صار لهم ذكر بعـده خصوصا فى ميـدان العلوم اللغوية والحديث ونشروا فضله فى الآفاق مما جعل صاحب فهرس الفهارس يقول عنه : ((كان هذا الرجل نادرة عصره فى اتساع الرواية وقوة العارضة ورزق فيها سعدا مبينا واخذ عنه بالشام والحجاز والعراق ومصر وغيرها من البلاد . وقال فيه تلميذه الحافظ الزبيدي فى الفية السند :

محدث العصر الفقيه الماهـر   وكم له بين الوردي مفاخر)) (8)

اما تآليفه فانها تنيف على المخمسين واهمها على الاطـلاق شرحـه للقاموس المحيط المسمى : ((اضاءة الراموس واضافـة الناموس على اضاءة القاموس)) ويعرف بحاشة ابن الطيب على القاموس . ولاظهار فضل هذا الكتاب ننقل ما قاله عنه صاحب فهرس الفهارس وهو : ((ومن طالـع حاشيته على القاموس بالدقة يجد امرا مهولا من سعة حفظه واستحضاره وكثرة تآليفه وواسع رحلته واعجب ما تجد فيها ما فى اولها من انه الفهـا حالة مفارقته لاصوله وكتبه قال : ((الا ما علق بالبال او علق فى طرس بال)) وقال بعد شرح الخطبة : ((قد اشرت فى الخطبة الى ان هذا الكتاب طلب مني ونحن فى اثناء اسفار ليس معنا من مواده ورقة فضلا عن اسفار)) (9)

وقال عن هذه الحاشية الاستاذ العلامة المرحـوم محمد العابـد الفاسي : ((اما حواشيه هذه فهي فى مجلدات اربعة وهي لعمري المعجزة الوحيدة للمغاربة عموما ولاهل فاس خصوصا . وناهيك بمرتبة القاموس

---

(7) انظر مقالا للاستاذ محمد المنوني فى دعوة الحق نشاط الدراسات اللغويـة فى المغرب العربي سنة 11 عدد 4 ص . 53 .

(8) فهـرس الفهـارس ج 2 ص . 396 .

(9) فهـرس الفهـارس ج 2 ص . 397 .

عند العلماء في كل البلاد واعتمادهم عليه فهو عندهم بمنزلـــة المختصـــر الخليلي في الفقه استنادا اليه واحتجاجا به ، وقلما نجـــد في العصـــور الماضية ببلادنا عالما يعرف معنى العلم ولا يكتب نسخة من القاموس بخط يده مع مزيد الاعتناء وضبط الكلمات وربما ذكروا حتى اختلاف الروايات عن المؤلف في بعض الاحيان ، وكم من نسخة وقفنا عليها مكتوبـــة بخط أعيان المغاربة وباول صحيفة منها سندهم لصاحب الكتاب » (10) وهذه الموسوعة اللغوية الفريدة رغم قيمتها الفذة لا تزال مخطوطة ويتعين الان اخراجها للوجود وتوجد منها نسخ متعددة بخزانات المغرب وفي الخزانة الملكية وحدها تسع نسخ منها (11) .

ولهجة ابن الطيب الشرقي في هذا الكتاب لهجة العالـــم المعتـــد بعلمه الذي لا يحجم عن انتقاد الفيروز ابادي والحمل عليه حتى انه ينسبه للقصور والتقصير ، وقد قال في مادة « بت » « والمصنف اغفل ذلك كله اعراضا عن العلوم الصرفية لانه لا عارضة له فيها » . وقال في محل آخر : « وبه تعلم ما في كلام المصنف من التقصير والقصور والتخليط » . الى غير هذه العبارات التي لا يبيحها الا ما كان عليه ابن الطيب من مقدرة فائقة وشدة الحفظ واتساع الاطلاع مما يظهر في كل مؤلفاته التي لم يات عليهـــا الضيـــــاع .

ومن تآليفه اللغوية « المسفر عن خبايا المزهر » للسيوطي ، ومنـــه مخطوطان بالزاوية الحمزوية بالاطلس المتوسط بالمغرب .

ومنها « موطئة الفصيح لموطاة الفصيح » وهو شرح لمنظومة الشاعر المغربي الكبير مالك ابن المرحل السبتي التي نظم فيها فصيـــح ثعلـــب وسماها الموطاة . والموطئة توجد منها نسخة غير تامة في الخزانة الملكية من أصل الخزانة الزيدانية المكناسية وهي تحمل الان رقم 1563 .

---

(10) انظر مقالنا في دعوة الحق السنة 6 عدد 10 سنة 1960 ص. 39

(11) وهي المسجلـة تحـت الاعـداد التاليـة : 244 – 246 – 544 – 1071 – 1658 – 2522 – 4976 – 6111 – 7991 – كما اثبت ذلك الاستاذ محمد المنوني في بحثـه المشـــار اليـــه آنفـــا

ومنها « شرح كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ » لابي اسحاق ابراهيم ابن اسماعيل الاجدابي وهو كتاب فى اللغة توجد منه عدة نسخ فى خزانات المخطـوطـات .

ومنها « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » .

ومنها « حاشية على درة الغواص فى اوهام الخواص » للحريري .

اما كتبه فى الفنون الاخرى فهي متعددة بلغنا منها خبر ما يذكر وان كان اكثرها قد ضاع وهي :

حاشية على شرح القسطلاني لصحيح البخاري

حاشية على الشمائـل للترميـذي

شرح لسيـرة ابن الجـزري

شـرح لسيـرة ابن فـارس

سمط الفوائد فى ما يتعلق بالبسملة والصلاة من الفوائد

اقرار العين باقرار الاثر بعد ذهاب العين ـ وهي فهرسته الكبـرى والفهرسة عند المغاربة هي ما يسمى الثبت بالفتح عند المشارقة والبرنامج عند الاندلسيين وهي الكتاب الذي يثبت فيه المحدث سماعه مع اسمـاء المشاركين له فى السماع ثم امتدت الى كل ما يتعلق بالرواية بذكر اسانيد كل كتاب من الشيخ الماخوذ عنه الى المؤلف مع تراجم الشيوخ الى غيـر ذلك من الفوائد المتعلقة بذلك .

ارسال الاسانيد وايصال المصنفات والمسانيد وهي فهرسته الصغرى

الانيس المطرب فى من لقيته من ادباء المغرب ـ وقد توافق فى هذه التسمية مع كتاب معاصره ابي عبد الله محمد العلمي الفاسي دفين مصر . وهذا الكتاب المطبوع طبعة فاسية من أهم المراجع عن الحركة الادبيـة

بالمغرب فى القرن الثاني عشر الهجري . أما كتاب ابن الطيب الشرقي فيعتبر الان ضائعا .

الافق المشرق بتراجم من لقيناه بالمشرق .

ومن اغرب أوضاعه كتابه المعنون الاستمساك بأوثق عروة فى الاحكام المتعلقة بالقهوة . وذلك ان علماء المغرب عندما وصل الى آفاقهم هذا المشروب الشائع اليوم فى العالم كله باسمه العربي قهوة ـ كافي : Café

أخذوا يتساءلون عن حليته لان الاسم الذي اعطي له باليمن حيث ظهر لاول مرة هو أحد أسماء الخمر . فلذلك لا تخلو مثلا رحلة مما وضعه الراحلون في القرون المتأخرة من مناقشة هذا الموضوع . فارتأى ابن الطيب ان يأتي فيه بالكلام الفصل فوضع هذه الرسالة .

ومن أهم مؤلفاته رحلاته وقد حوفظ على واحدة منها فى نسخة فريدة مخطوطة بخزانة جامعة لايبسك بألمانيا تحت رقم 746 من فهرس فوارس Vollers كنت وقفت عليها سنة 1934 ولخصتها وقد ضمنها أخبار سفره الى مكة على طريق البر . فى هذا الفن وتظهر فيها عارضته اللغوية فهو يهتم بالاشتقاقات اللغوية للاعلام الجغرافية ويصححها وينبه على أغلاط الراحلين الذين كتبوا قبله .

واليكم ملخص هذه الرحلة لما فيه من الفائدة للمشتغلين بتحقيق منازل الحج من المغرب الى الحجاز ولم يسبق لي ان نشرته . قال بعد الخطبة فى معنى أداء فريضة الحج والاشتياق الى تلك البقاع المقدسة : « وكنا جمعنا فى طريقنا نبذة تحتوي على ما سلكناه من المراحل وتعداد ما نزلناه من المنازل ، وتشتمل على ذكر من لقيناه او تكلمنا معه فى نازلة من النوازل ، وفى ضمن ذلك أبيات كان يقتضيها الحال ، وقصائد شرفناها بذكر تلك المحال وفوائد مهمة يعتني بها ذو الهمة فاستولت على ذلك كله يد الضياع وسرقها سارق مع ما كان لدينا من كتب ومتاع فلم يسعنا الا الصبر الجميل ... لكن حصل لنا أسف شديد على تلك الرحلة التي ليس لها فى

صنعها فديد مع اشتمالها على تلك القصائد الفائقة . وحيث القينا عصـــا التسيار ، واستقرت بنا من الحجاز فى مصر الدار ، طلب منا بعض من يجب علينا اسعافه)) فى استرجاع الفكرة الخامدة لعلها ان تتذكر تلك الرحلـــة البديعة . ((فقبل بعد الحاج صاحبه وقـــدم الكـــلام بعـــدة مقدمـــات

1 ـ فيما ورد من الآيات الصريحة والآثار الصحيحـة فى فضـــل الحـــج والعمـــرة .

2 ـ فى فضل زيارة النبي صلى الله عليه وسلم .

3 ـ فى السفر وفوائده . وذكر فوائد جمة منها تحصيل العلوم .

4 ـ فيما ينبغي للمسافر ارتكابه اذا اجمعت على النص ركابـــه . ذكر فى هذه المقدمة عدة نصائح أولها الاستشارة قبل السفر ثم ان اشير عليه به الاستخارة ثم السعي فى تحصيل مال حلال ، وغير ذلك كاختيـــار الرفيق وترك ما يلزم لعائلته ـ ثم اتى بخاتمة لهذه المقدمات فيها مسائل تتعلق بالسفر أيضا وفيها نصائح عملية طبية صحية والرفق بالراحلة الخ . ثم ذكر ابتداء العزم على السفر)) .. وذكر هنا تشوقه الى الديار الحجازية وما قال فى ذلك من الشعر ـ (ذكر خروجنا من فاس) . (خرجنا مـــن

فـــاس الغراء التي لم ينظر لها نظير سوى الحرمين الشريفين فيما أظلت الخضراء واقلت الغبراء) . ثم أطال فى مدح فاس وذكـــر تاريـــخ خروجه صبيحة الاربعاء 4 رجب عام 1139 هـ وذكر زيارته لمولاي ادريس قبل الخروج وذكر إبياتا له فى المفارقة والبين . خرج على باب الفتـــوح واتى عدد من الاعيان ومن اصحابه لتوديعـــه ومنهـــم من رافقـــه الى

عنـــق الجمـــل ((وطريقه لا تسلك لكثرة الطين والاوحال)) فاخـــذ ذات اليسار وعدل عن الطريق المالوفة فنزل

بالنخيلـــــة وصعـــــد

عقبـــــة بني حجـــارة وكان مع الركب النبوي ونزل

تـــــازا زوال يوم الجمعة وتكلم على تازا ثم ساروا وباتوا على

ملويـــــة ثم ساروا الى ان وصلو وادي

دبــــدوا ثـــم دخلـــوا

فـــم بلـــزوز « الوادي العجيب الذي يفضي من شدة تمنعـــه العجـــب استدار كالافعوان بين الجبال يمينا وشمالا » ثم دخـــل

الظهــــرة « فألفيناها تفصم عرى سالكها وتفصم ظهرة » ثم وصلوا

وادي بنـــي مطهـــر

فالمنقـــــوب « وهو واد عظيـــم »

فبيـــار السلطـــان « وهي آبار عديدة ذات مياه ابحرها وافرة مديدة »

فعيـــ نالحسنـــى

فالقصــــاع « وهو موضع سمي كذلك لاشتمال حجارته على نقر عظـام تشبه القصـــاع »

فعيــــن الحجــــر فقريـــة

المشـــريـــــة

فالنخيلـــــي « ورايت فى بعض الرحل إنه مخيليف ... كانه تصغيـــر مخلاف وهو الكورة ومنه مخاليف اليمن كما فى القاموس وغيره ... وهذا الموضع فيه يجتمع طريق الركب الفاسي مع السجلماسي»

فـــوادي الطرفـــا ثـم

وادي الاشبـــــور ((وهو واد عظيم لا ماء به فضلا عن السمك، والاشبور نـــوع من السمـــك))

فعيـــن ماضـــي ((وأما نساؤها فانهن من ازهر النساء وأزهاها وأبهرهـــا سنا وأبهاها عيون فواتر أمضى في القلوب من السيوف البواتر . . . وقد بالغ أرباب الرحل فى مدح ذلك الجمال . . . غير انا اخبرنـــا أنهن لا يستعملن الماء فى الاغتسال ، لانه يضر بابدانهن مهما قطر عليهـــا وســـال))

فبخمـــــوت ((قريـــة حافلـــة))

فالاغـــــواط ((البلدة المحمودة الانجاد الممدوحة الاغواط . . . وورد علينا هنالك جماعة من الطلبة فيهم آخونا فى الله ومحبه شيخنا ووسيلتنا الى ربنا والواسطة بيننا وبين نبينا الامام أبو العباس احمد بن ناصر)) وبهذه المناسبة أورد عدة مسائل علميـــة .

فـــــوادي الحـــــوت فقريـــة

دمـــــــت ((وبعضهم يسميه دمد)) ثم ساروا ((فى غدران غادرتهـــا الامطار . . . وهذه المسافة من أول عبد المجيد الى انتهاء وادي سيدي خالد ، من المفاوز التي ما زال يتحدث بعضهم مشتقهـــا وبعد شقتها الولد عن الوالد ، كلها وعرة مخوفة معطشة مجهلة)) ثم أورد كلام ((جماعة من أرباب الرحل)) فى تعب هذه الطريق .

فـــوادي سيـــدي خالـــد (يسميه نبي الله سيدي خالد بن سنـــان) ونقل ما يتعلق بهذا النبي عن رحلة شيخه العياشي .

فبسكـــــرة وزار مسجدها الجامع والتقى بجماعة من تلاميذ ابن ناصر وتكلم على المسجد واورد كلاما من رحلة العياشي يتعلق ببسكرة

(قاعدة بلاد الزاب) ثم سيدي عقبة (إشرفوا عليـــه فقط ولـــم يمكنـــه زيارتـــه) .

فـــــوادي كشطـــــان ببلاد المصامدة ((وهم اعراب تلك الارض))

فـــــوادي الحميـــــدات

فـــــوادي الاعـــــراب ((المقابل لزاوية سيدي ناجي))

فـــــوزرا ((سبخة عارية من النبات والاشجار فدخلوا)) المفازة العظيمة المعـــروفـــة

بالنفيضـــــــة ونزلـــوا

غـــــران ((وهو جبل)) ثم نزلـــوا قبالـــة

قريـــــة الشبيكـــــة ((وقد وصفها ... أبو سالم وشيخنا ابن ناصر وغيرهمـــا)) ثـــم

الحـــامـــــة ((التي منفعة مائها السخن في تلك النواحي عامة))

فتـــــــوزر ((فاذا هي من قواعد مدن الجريد)) والتقى ببعض علمائهـــا ((وبها خلوة الامام الاكبر ابي الفضل ابن النحوي صاحب المنفرجة وذكر ان بها ايضا قبـــري عبد الله بن يحيـــى السقراطيســـي (وسقراطس قصر قديم من قصور نفطة) وابنه أبي محمد)) وذكر قصيدته اللامية (ولهم اهتبال كبير بها في تلك النواحي) . فقرية

كـــريـــــز

فحامـــــة قـــابـــــس ((وهي قرى متصلـــة

فقابس ثم نزلوا قبالة جربة (وبقينا نتامل على بعد فى بحرها المواج)

فنبش الذيب . وساروا ومروا بقرى ومفاوز حتى وصلوا قرية

زواغة . ثم ساروا الى

قرقارش « ذكر دخولنا طرابلس » دخلنا

طرابلس « الظريفة ذات الفواكه المنوعة والظلال الوريفة صبيحة يوم الخميس والعشرين من شعبان فالفيناها ازهى من دمشق وشعبان ... ولها بابان باب الى البر وباب الى البحر ... ولا سيما المسجد المعروف بجامع الترك فانه ما ترك شيئا من المحاسن البديعة » ثم ذكر من التقى بهم ثم « ذكر خروجنا من طرابلس وتوجهنا بجبال برقة » خرج فى 4 رمضان فمر

بوادي الرمل ثم

وادي المسير

فقصر النبات ثم تكلم على الجبال التي هناك : وقال ان اصلها فى السوس الاقصى وتمتد الى ان تنتهي هناك . ثم تكلم على آثار مدينة قديمة ونقل كلام الجغرافيين والرحالة كالعبدري فيها ثم دخل

مسراتة وزار قبر سيدي احمد زروق ثم دخلوا مفارة برقة . ثم اورد خلافهم فى ما يطلق عليه لفظه برقة (العبدري ـ العياشي ـ البكري) .

فالهايشة

فوادي الملح ثم دخلوا بلاد

سرت فوصلوا

النعيم

فبئر العويجة

فالحدادية ثم

مقطع الكبريت (وهناك معدن للكبريت منها يحمل الى طرابلس وكذلك الى مصر والاسكندرية) ثم نزلوا

المنعم

فآبار الجديد

فالاجدابية (قال ولعلها هي التي كانت تسمى مدينة برقة لان فى وقته برقة عبارة قن قطر لا غير) ثم وصلوا

الشبان ثم دخلوا مفازة السروال « الموصوفة بشدة الاهوال » ثم باتوا

بابن قردان

فالمزرب

فوادي سمالوس

فالتميمي ثم ساروا على ساحل البحر فوصلوا

عين الغزالة ثم ساروا ومروا بقرى وآثار قديمة حتى وصلوا

الــــــدفنــــــــــة وأصبحوا بم يوم الجمعة مهل شوال . « وكـــان شيخ الركب طلب مني ان أنوي الصلاة والخطابة فرأيت ان أمـــلأ بالموعظة لاحتياجه اليها وطابه « وكان أثبتها فى الرحلة الضائعة ـ ثم صـــاروا ووصلـــوا

العقبـــــة الكبيـــــرة

فابـــو خــــــــــلاق

فـــوادي الـــرمـــــل

فـــوادي نصـــــــر اللـــه

فقصبـــات المـــــدار « وهي آثار أبنية قديمة » وظعنا يوم الجمعـــة آخذين الحذر من الاعراب وهم السلالمة وخويلة الذين أغربوا فى التلصص والغدر غياة الاغراب » وذكر مناوشتهم معهم ثم وصلوا

الشمـــامـــــة وتناوشوا مع الاعراب ثانيا ثم وصلـــوا ربوة تسمـــى

العـــرجـــــــف « فى فلاة قرعة » ثم ساروا وتياسروا عن وادي الرهبان « سمي كذلك لان فيه رهبان النصارى يتعبدون فى ديور أربعـــة كل طائفة فى دير ولا يدخل اليهم أحد من غير جنسهم وليس لهم زرع ولا ضرع وأهل الذمة من نصارى مصر يعاملونهم ويوجهـــون اليهم بالصدقات والنذور » « وارتحلنا يوم الخميس فظلنا قبالة الاهرام التي رمت الدهر بالمشيب واشرفته على الاهرام وقـــد جمع السيوطي فى وصفها ما قصد ورام » واجتمـــع الناس على شاطىء النيل مواكب مواكب وأخذوا يعبـــرون فى المراكـــب » وحيث عبرنـــاه ونزلنـــا

بــــــــــولاق « القينا عم رفيقنا سيدي محمد وهو السيـــد الحـــاج مسعود جاءنا بقصد التلاق . » ذكر دخولنا

مصـــر القاهـــرة ثم تكلم عنها وخرج منها يوم الاثنين 26 شوال على بــاب
النصـــر ونـــزل

بالبـــركـــــة (وبعد هذا بياض نصف صفحة وصفحــة .) ـ وساروا
الى ان وصلوا الخضراء وهو اخبث مكان على وجه الخضـــراء ـ
(يقال ايضا الخضيراء) ثم وصلوا بندر

الينـبـــــع ثم ساروا فى رمال الى السقايف (وتكلـــم على اخراج
المصريين بالينبع المخاريق والمدافع على عادتهم) ـ ثم

بـــــــدر (ونقل عن البكري شيئا يتعلق ببدر وحنين) ـ ثم

الفـــــــاع (وهو قاع البزوة) (وهو الذي فى جل الرحل ولكنـــه
لا وجود له فى امهات اللغويين ولا فى الكتب المصنفة فى ضبط
اسماء المواضع بل الموجود فيها البزواء) ثم

الجحفـــــــة الى ان دخـــل

مكـــــــة واطال الكلام فى مقامه بمكة ثم خرج قاصدا

المدينــــــة المنورة للزيارة وتكلم بتطويل عن زيارته ، ثم خرج مـــن
المدينة قاصدا القاهرة وكان خروجه بعد ان قضى بها ثلاثة ايـــام
فقط . ثم سار فوصل الجديدة ثم سار الى ان دخل القاهرة صباح
يوم الجمعة 10 صفر سنة 1140 . ثم تكلم على من لقي بمصر من
المشاهير . ثم ذكر خروجنا من مصر الى المغرب يوم الاحد 26
جمادى الثانية وخرج جماعة لتوديعه كسيدي عبد الرحمن ابـــن
جلون وسيدي محمد السقاط وسيدي الحسين الهواري . وسافر
الى ان وصل فاسا صبيحة الثلاثاء 6 من ذي القعدة الحرام وتوجه
للحرم الادريسي كما فعل قبل خروجه (12 .

(12) وهذا المخطوط مكتوب بخط مشرقي لطيف واضح معتدل غير دقيق ولا غليظ والكتاب يقع فى 133 ورقة كل صفحة منها فيها 27 سطرا وحجمه متوسط للطول أميل .

وبمناسبة هذه الرحلة الموجودة بلايبسك بالمانيا ننبه الى غلط وقع فيه بعض المستشرقين حيث جعل من ابن الطيب الشرقـــي شخصين ، وتبعه فى هذا جرجي زيدان فى كتابه تاريـــخ الآداب العربيـــة (13) . حيث ورد أن لابن الطيب نور الله رحلة من فاس الى مكة وسبب هذا الفلط هو انه وجد على مخطوط لايبسك هذه العبارة : « هذه رحلة السيد ابـــو (كذا) عبد الله الشهير بالطيب نور الله ضريحه وفتح علينا ببركاته » فظن بعضهم ان « نور الله » اسم وتبعه غيره فى ذلك . وليس هنـــاك الا ابن الطيب الشرقي رحمه الله ونور ضريحه .

وله رحلة ثانية وصف فيها تنقلاته بالبلاد المشرقيـــة ما بين القاهرة ودمشق واسطنبول وبغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة . الا ان هـــذه الرحلة تعتبر الى حد الآن ضائعة .

ونختم هذا البحث بايراد فقرة من كلامه تبرهن على انه كان معتـــدا بنفسه ويعرف تضلعه فى علم اللغة حيث قال فى خطبـــة حواشيـــه على القاموس : « وقد كنت ممن نبغ فى هذه العلوم الشريفة ونبع بعيونها الفائقة وتفيا ظلالها الوريفة وغاص قاموس بحرها وصاغ قابوس نحرهـــا وتعـــرف الوحشي منها والمتداول وتصرف فى المختصر من دواوينها والمتطاول ولم يزل معاني معانيها دهرا حتى قالوا : تحبها ؟ قلت بهرا » .

هذا هو ابن الطيب الشرقي الفاسي عمدة الشيخ مرتضى الزبيـــدي رحمهما الله ونور قبريهما .

الربـــاط　　　　　　　　　　　　محمد الفاسي

(13) جورجي زيدان : تاريخ الآداب العربية جزء 3 ص 325 .

المراجع

محمد الزبادي : سلوك الطريق الوارية فى الشيخ والمريد والزاوية (مخطوط)

عبد المجيد الزبادي : الرحلة الحجازية مخ الخزانة العامة ك 398 و د 1808

الشيخ مرتضى الزبيدي : تاج العروس الفية السند

جرجي زيدان : تاريخ الآداب العربية الجزء الثالث

عمر رضى كحالة : معجم المؤلفين الجزء العاشر

الكتاني : فهرس الفهارس الجزء الثاني

أبو الفضل المرادي : سلك الدرر الجزء الرابع

محمد المنوني : نشاط الدراسات اللغوية فى المغرب العلوي. دعوة الحق ، السنة 11 ، عدد 4

محمد الفاسي : تاريخ الدراسات اللغوية فى المغرب الاقصى. دعوة الحق ، السنة 3 ، عدد 10 .

م. ف.

التضام وقيود التوارد

د. تمام حسان

كشف النحاة العرب عن صلات خاصة تربط بين بعض الابواب النحوية وبعضها الآخر ، واتضح ذلك منهم أحيانا بالتصريح ، كما فى قولهم : « ان المضاف والمضاف اليه كالكلمة الواحدة » ، وأحيانا بالتلميح كاضافة الفاعل الى الفعل بقولهم : « زيد فاعل ضرب » ، وكذلك الاضافة التى فى « صاحب الحال » ، « خبر المبتدأ » ، «مدخولات الافعال»، « مدخولات الاسماء » ، « جواب الشرط » ، ونحو ذلك ؛ مما يشير الى فهمهم للعلاقة الخاصة بين الفعل والفاعل ، والحال وصاحبه ، وهلم جرا . وكذلك فطن النحاة الى التنافر بين بعض الابواب وبعضها الآخر ، كقولهم : لا يخبر بالزمان عن الجثة ، ولا يوصف الضمير ولا يضاف ، ولا يدخل حرف الجر على الفعل ، ولا تدخل حروف التنفيس على الاسماء ، وهلم جرا .

ولقد حاولت فى كتابى « اللغة العربية ــ معناها ومبناها » أن أكشف عن قيمة هذه الظاهرة « ظاهرة التضام » فى النحو العربى ، فاتضح لى أنها واحدة من القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحوى ،

شأنها فى ذلك شأن العلامة الاعرابية ، والمطابقة ، والربط بالضمير او بالحرف ، والرتبة ، والأداة ، والنغمة فى الكلام المنطوق . ومن هنا كان منى أن اعطيت هذه الظاهرة لفظها الاصطلاحى الذى دللت به عليها : « التضام » ، وقسمتها الى ثلاثة أنواع :

ا — التلازم : لقد جعل النحاة لكل فعل فاعلا ، فان لم يظهر هذا الفاعل قدروه ضميرا مستترا ، وجعلوا للموصول صلة هى جملة مشتملة على ضمير يعود على الموصول ، وربطوا بين المضاف والمضاف اليه حتى جعلوهما متلازمين ، وجعلوا حرف الجر ومجروره مترابطين متلازمين ، وفرضوا أن تدخل ان على اسمها فلا يتوسط بينهما شيء الا ان يكون ظرفا أو مجرورا هو فى معنى الخبر . وكل حالة من هذه الاحوال تتمثل فى تلازم طرفين اطلق النحاة عليهما لفظ « المتلازمين » ، وهما اللذين أفضل فى بعض الحالات أن أطلق عليهما اصطلاح « الضميمة » ، لأدل على التركيب الحاصل منهما . ولقد ترتب على فهم النحاة للمتلازمين افكار منهجية متعددة فى تناول حقائق النحو . من هذه الافكار فكرة « الحذف » ، اذ لا ينسب الحذف الا الى عنصر من العناصر الاساسية فى « الضميمة » . فاذا ذكر أحد طرفى الجملة الاسمية دون الآخر ، فالذى لم يرد ذكره محذوف ، واذا لم نتبين مفعولى « علم » بعدها لوجود « أن » وما دخلت عليه ، فليست « ان » ومدخولها اصيلين فى هذا الموضع وانما جاءا ليسدا مسد مفعولى « علم » . واذا لم نجد نائبا عن الفاعل بعد المبنى للمجهول ، كما فى قوله تعالى : « ونفخ فى الصور » تصيدنا له مصدرا من مادة الفعل ، وقلنا انه النائب عن الفاعل ، أو بعبارة أخرى ، اعتبرنا هذا المصدر مستحق الذكر ولكنه لم يذكر .

والفكرة الثانية المترتبة على القول بالتلازم هى فكرة الفصل ، اذ من صور التلازم ما يكون من حق المتلازمين فيه فى نطاق الضميمة أن يتجاورا ؛ فان فصل بينهما فاصل لم يكن ذلك الامر مقبولا اذا كان الفاصل اجنبيا عنهما ، اما اذا كان الفاصل غير اجنبى فالامر يقبل مع تسجيل ملاحظة الفصل باعتبار هذا الفصل رخصة لا قاعدة . فمن المقبول أن نفصل بين « ان » واسمها بخبرها الظرف او الجار والمجرور ، لأن

الخبر ليس اجنبيا عنهما نحو « ان فى الدار لزيدا » ، ولكن ليس من المقبول أن نفصل باجنبى بين حرف الجر ومجروره ، وهذا هو موقف النحاة من قول الشاعر :

سراة بنى أبى بكر تسامى   على كان المسومة العراب

والفكرة الثالثة المرتبطة بالتلازم هى استتار الضمير ان لم يظهر فى اسناد الفعل . وقد فرقوا بين الاستتار والحذف بان جعلوا الاستتار خاصا بضمائر الرفع المتصلة فقط ، وأطلقوا « الحذف » على غياب ما غاب من ضمائر الرفع المنفصلة ، وضمائر النصب والجر بانواعها ، والاسماء الظاهرة ، والافعال ، والادوات . ويلاحظ أن التعبير بالاستتار لا يفيد « الانعدام » وانما يفيد الوجود مع « الاختفاء » ، وقد أصاب النحاة فى هذا التفريق لأننا فى جميع حالات الاستتار الثمان « يوجد » الضمير مختفيا اما وراء المطابقة كما فى « زيد قام » أو « يقوم » و « هند قامت » أو « تقوم » ، واما وراء حرف المضارعة كما فى « أقوم » و « نقوم » واما وراء تخصيص صورة الفعل باسناد معين كما فى « قم » . ولكن دعاة المنهج الوصفى يودون أن يتناسوا وجود الضمير هنا ، ويتكلمون بدلا منه عن المطابقة ، وحرف المضارعة ، وخصوص الاسناد ، فمذهبهم ظاهرى ان صح هذا التعبير . وكذلك كان ابن مضاء القرطبى .

والفكرة الرابعة المرتبطة بالتلازم فكرة « الرتبة » ، فلا نكاد نجد متلازمين فى اللغة العربية الا وبينهما رتبة اما محفوظة عند ضرورتها للمعنى او غير محفوظة عندما يمكن الترخيص فيها ، وهذه الرتبة غير المحفوظة نفسها تحفظ عند خوف اللبس . فالرتبة محفوظة بين الفعل وفاعله ، والفعل ونائب فاعله ، والموصول وصلته ، والمضاف والمضاف اليه ، والحرف وما دخل عليه الحرف ، والتابع والمتبوع ، والرتبة غير محفوظة بين المبتدأ والخبر بصورة عامة ، وبين الفاعل والمفعول ، وبين الفعل المتعدى والمفعول ، وهلم جرا ، حتى ليبدو أن الرتبة ملازمة « للتلازم » ، وواحدة من خواصه الاساسية فى النحو .

والفكرة الخامسة المرتبطة بالتلازم هى فكرة « التقديـــر » . وعلى الرغم من ان التقدير فى النحو ليس مقصورا على جبـــر مـــا غـــاب من الضميمة ؛ اذ نجـــد تقديـــرا للعلامة الاعرابيـــة ، والموضع الاعرابى ، وارجاع المعتل الى أصل صحيح ، وهلم جـــرا ؛ فان تقديـــر واحـــد من الفاظ الجملة دليل على أنه عنصر من ضميمة ، وان احد عنـــاصر هذه الضميمة موجود يتطلب تقدير رصيفه الذى لم يذكر . وتمتد فكرة التقدير على كل ما سبق من الامور ، فهناك تقدير الحذف ، وتقديـــر الفصل ، وتقدير الاستتار ، وتقدير الرتبة . وهكذا يبدو أن قرينة التلازم قرينـــة موافقة ، اذ تسعى الى ضم اللفق للفقـــه حفاظا على المعنى النحوى ، وابانة له ، ورجوعا بالجملة الى الاصول الثابتة التى قررها النحاة .

ب ــ التنافى : واذا كان التلازم قرينة وجودية ، فان التنافى قرينة عدمية . ويرتبط هذا التنافى بفكرة أساسية هى مـــا يمكن أن نطلق عليه « نمطية التركيب النحوى » ، وفكرة أخرى هى فكرة « امتناع المعاقبة » . فاذا كان عندنا عبارة مثل : « كتاب زيد » فان لفظ كتاب فى هذا التركيب الاضافى لا يعاقبه (اى لا يحل محلـــه) فعـــل ولا ضمير ولا اداة شرط ولا تنفيس ولا تحقيق الخ ، اذ يمتنع أن تحل الالفـــاظ المذكـــورة فى هذا الموضع ، واذا تخطينا الصورة الى المعنى فاردنا الاحتفاظ بفكرة الاضافة المحضة ، امتنع على الوصف أيضا أن يعاقب لفـــظ الكتاب ، ومن هنا تصبح الاضافة فى «قاتل زيد» ذات معنى مختلف عن المعنى فى «كتاب زيد» ، وكذلك تمتنع معاقبة حرف الجر للكتاب . ومعنى هذا ببساطة أن هناك تنافيا بين كل من الفعل والضمير والأداة من جهة وبين المضاف اليه من جهة اخرى . أو بعبارة اخرى : يمتـــنع فى الفعـــل والضمير والاداة ان يكون مضافا ، أو بعبارة ثالثة ، ينبغى فى المضاف ان يكون اسما ويمتنع فيه ما عدا ذلك . وهذه العبارة الاخيرة هى الصيغة المفضلة فى تقريـــر القواعد النحوية . أى ان النحـــاة فضلـــوا ان ينصـــوا على الواجب ، وندر فى كلامهم أن ينصوا على الممتنع ، لأن النص على الممتنع ربما تطلب التطويل فى صياغة القاعدة ، واختصار القواعد مطلوب لذاتـــه . فاذا قالوا ان « قد » تدخل على الماضى والمضارع فتلك عبارة أخصر وأوقـــع وأسهل على الذاكرة من قولهم : يمتنع فى قد أن تدخل على الامر وعلى

الاسماء والضمائر والحروف كما تمتنع فى الجمل الانشائية ، وهلم جرا . واذا قالوا ان ((الا)) تدخل على المستثنى فذلك أخصر من النص على امتناعها مع ما عداه . ومع ذلك فان فكرة التنافى فى النحو ، وهى الوجه الآخر لفكرة التلازم ، تمثل قرينة من القرائن النحوية اللفظية الدالة على المعنى .

د ـ التوارد (*) : وفكرة التوارد هى الضلع الاخير فى مثلث التضام، وهو الضلع المرتبط بالمقام من بينها . وهذا الارتباط بين التوارد والمقام يجعل التوارد نحويا فى بعض صوره فقط ، على حين تنطبق صوره الاخرى على الاسلوب البلاغى ، ومن هنا لم أشأ فى كتابى المذكور ان أعول عليه فى نظام القرائن تعويلا تاما . وسأحاول فيما يلى أن أشرح افتقاد الصلة بين التلازم والتنافى وبين المقام من جهة ، ثم أن أشرح الصلة الوثيقة بين التوارد والمقام من جهة ثانية .

المقصود بالمقام اعم مما فهمه البلاغيون من هذا المصطلح . فهو فى اصطلاحى يوازى ما يسميه علماء اللغة المحدثون context of situation، فهو يشمل كل الظروف المحيطة بالنص ماديا ومعنويا . فمن عناصره المتكلم ، والسامع أو السامعون ، والعلاقة بينهما ، والنص المنطوق ، والمناسبة التى تم فيها النطق ، والأثر الذى ترتب على هذا النطق الخ . فاذا سألك انسان عن الوقت احتمل هذا السؤال معانى مختلفة بحسب المقام : فاذا كان هذا الانسان عابر سبيل فالمعنى مجرد استفهام تجيب عليه دون أن يرد على ذهنك معنى آخر ، أما اذا كان هذا الانسان معك فى المطار وسألك عن الوقت فالسؤال يحمل معنى استبطاء قدوم الطائرة ، واذا كان فى زيارتك وسألك عن الوقت فمعنى ذلك اظهار الرغبة فى الانصراف ، ويترتب على ذلك انك اذا طلبت منه أداء عمل ما فسألك عن الوقت قبل اتمام العمل دل ذلك على عدم رغبته فى هذا العمل ، ولك الحق عندئذ أن تغضب لهذا السؤال . فكل مقام مما تقدم يعطى معنى جديدا ، والسؤال هو هو لم يتغير .

(*) افدت فى عرض فكرة التوارد من أفكار اصحاب النحو التحويلي وان كانت الفكرة فى اساسها لصاحب هذا المقال .

ويمكن فى ضوء هذا الكلام أن نقول ان القاعدة النحوية التى تتطلب فى الجملة المذكورة أن تبدأ بأداة استفـهام وأن تدخـل هذه الأداة على اسم هو لفظ ((الساعة)) فى قول السائل ((كـم الساعـة ؟)) ، هذه القاعدة النحوية غير مرتبطة بالمقام . فدخول أداة الاستفهام على الاسم المستفهم عنه قاعدة صادقة مهما تعدد المقام ، ومن هنـا كانت قاعـدة نحوية لا بلاغية ، وكان ارتباطها بالنحـو دون البلاغة بسبـب عـدم ارتباطها بالمقام . أما العنصر المرتبط بالمقام من هذا السؤال فليس قاعدة نحوية ، وانما هو قرينة حالية ، يكون الكلام بحسبهـا مناسبـا أو غير مناسب لمقتضى الحال كما يقول البلاغيون . بهذا نرى الفارق بين الصحة النحوية ، والمناسبة البلاغية ؛ الاولى لا تتوقف على المقام ولكن الثانية تتوقف . وكل ما تقدم ذكره عن التلازم والتنافى ينتمى الى هذا النوع من القواعد التى لا ارتباط لها بالمقام . أما التوارد فله شأن آخر .

ومعنى التوارد أن تصلح ألفاظ متعددة أن تحل فى موقع نحوى ما ، فأنت بالخيار بين أن تستعمل واحدا منها أو الآخر بحسب المقـام . فاذا قلنا ((جاء الربيع)) فاننا نستطيع أن نضـع فى مكان ((جـاء)) أفعالا أخرى مثل ((حـل)) ، ((وفـد)) ، ((أتى)) بحسب الاختـيار ، فهذه الافعال جميعا صالحة لأن ((تـرد)) مع لفـظ الربيـع ، وسنجـد أن ((تواردها)) مع هذا اللفظ أمر اختيار يرتبـط بتفكير المتكلـم فى اللفـظ المناسب للمقام . وكذلك نستطيع ان نجعل فى مكان ((الربيع)) أى اسم فى اللغة يصح فى مدلوله أن ينسب اليه الاتيان أو الوفادة الخ . .

ومعنى هذا أن الجانب الذى يتعلق بالقاعدة النحويـة من هـذه الجملة هو جانب تلازم الفعل والفاعل بحيث لو لم يذكر أحدهما لدعت القاعدة الى تقديره ، وهذا أمر لا يتوقف على المقـام ، وأمـا الجانب الخاص بالتوارد فليس يتعلق بالفعل والفاعل فى عمومهما ، وانما يتعلق باللفظين : ((جاء)) و ((الربيع)) بخصوصهما ، واذا كان الامر يتعلق بالالفاظ لا بالابواب فذلك أمر بلاغى لا نحوى . من هنا لم أشأ أن أضع التوارد فى نظام القرائن النحوية اللفظية ، ولكننى لم أشأ كذلك أن أهمله لأنه يحمل فى طيه تطبيقا نحويا فى بعض صوره ، فيقرب ما بين القاعدة

النحوية وبين المقام . وحينئذ يربط النحاة بين هذه القاعدة وما يسمونه « امــن اللبــس » .

ومادام التوارد مرتبطا بالمقام فلا بد ان يخضع لطائفة من « قيــود التوارد » ، سواء اقترب من النحو ام كان بلاغيا صرفا . وسنحاول فيما يلي ان نشرح « قيود التوارد » من هذين الجانبين :

ثمة طائفة من القواعد النحوية التي يعتبر « أمن اللبــس » شرطا من شروطها ، ويغلب في هذه القواعد أن تكون فرعية ، فتكون من ثــم خروجا على « الاصول الثابتة » التي قررها النحاة . ويعتبر الخروج على الاصول الثابتة ترخصا في هذه الاصول لا يبرره الا « امن اللبــس » في العبارة بعد الترخص . وبهذا الفهم يعتبر أمن اللبس هو أساس قيــد التوارد . ويتضح ذلك في الامثلة الآتيــة :

ا ــ الدليل قيد الحذف : مما قاله النحاة أنه « لا حذف الا بدليل » ، فاذا ورد الدليل مع رصيف المحذوف امكن الحــذف . وفي ذلــك يقــول ابن مــالــك :

وحذف مــا يعلـم جائــز كمــا تقــول زيــد بعــد من عندكمــا

وفي جواب كيف زيد قــل دنــف فزيــد استغنى عنــه اذ عــرف

وانما جاز ان نكتفي بقولنا : « زيــد » عن ايــراد العبــارة التامــة : « زيد عندنا » لأننا عرفنا المحذوف وهو « عندنا » من الدليــل الذي دل عليه في السؤال السابق على الجملة والتي اجابــت عليــه هذه الجملة : « من عندكما » . فحين ورد لفظ « عند » في السؤال ، استغنى عنه في الجواب . وكذلك أمكن ان نحذف لفــظ « زيــد » من الجملــة التامة : « زيد دنف » لأن هذا اللفظ نفسه ورد في السؤال : « كيف زيد » فكان دليلا على المحذوف . وهكذا قدم المقام لنا دليــلا أمكن أن نعتمد عليه في حذف احد المتواردين . ومعنى أن الدليل قيد انه لولاه ما جاز الحذف ، لأن الحذف بلا دليل يؤدي الى اللبــس .

ب ـ الافادة قيد الابتداء بالنكرة : من قواعد النحاة مـا عبر عنه ابن مالك بقوله :

ولا يجـوز الابتـدا بالنـكـرة ما لم تفـد كعنـد زيـد نمـرة

وهل فتى فيكـم فما خـل لنـا ورجـل مـن الكـرام عنـدنـا

والمعروف أن المبتدأ هو المتكلم عنه . والنكـرة غير معروفة على وجـه التحديد ، والكلام عن موضوع غير معروف نوع من التخبط غير المفيد . ومن ثم جعل النحاة الجملة بعد النكرة صفة لها تعين على تخصيصها ، ولم يجعلوها حالا منها لأن المجهول لا حال له ، أى أنه لا تنسب اليـه حالة معينة . والابتداء بالنكرة فى عمومه مؤد الى اللبس لهـذا السبب . ولكن ثمة أنواعا من المقام عدها النحاة فى بـاب المبتـدأ والخبر تجعل النكرة مفيدة فى هذا الموضع . فاذا كان القصـد الاساسى فى الكلام هو التعميم فخير ما يناسب المبتدأ فى هذه الحالة ان يكون نكرة كقوله تعالى : « وكل فى فلك يسبحون » . وقد توصف النكرة فتخصص ، وقد يتقـدم عليها ظرف أو جار ومجرور فتكون كالفاعل لما تعلقا بـه ، وقد تضاف الى نكرة اخرى فيصيبها التخصيص ايضا ، وقد تكون جوابا عن سؤال فتصبح مفيدة فى ضوء هذا السؤال مثـل : « من عنـدك ؟ » فتقـول : « رجل » أى رجل عندى ، وهلم جرا . فقيد التوارد بين لفـظ النكـرة ولفظ الخبر هو الافادة .

د ـ المقام قيد توارد الحرف مع الفعل اللازم : يقسم النحويون الفعل الى متعد ولازم ، ويقولون ان اللازم يتطلب حرفا من حروف الجر يصل به الى مفعوله . وليس كل حرف صالحا لكل فعـل . فمن الافعال ما يتخصص بحروف خاصة ترد معه ومنها ما يصلح لطائفة منها ، ومنها ما يصلح لها جميعا . وانما يكون توارد الفعل والحرف مقيدا بالمقام فى جميع الحالات . فاذا اخذنا الفعل « رغب » مثلا ادركنا فارق المعنى بين اقترانه بالحرف « فى » أو « الى » أو « عن » ، مما يـدل على ان كل واحد من هذه الحروف يرد مع الفعل فى مقام بعينه . واذا اخذنا الفعل « جلس » وجدنـاه صالحا للتوارد مع طائفـة كبيرة من الحروف كمـا يبـدو فيمـا يـلى :

جلــس منه مجلــس التلميــذ
جلــس اليه يومــا كامــلا
جلــس على كرسيــه
جلــس فى منــزله
جلــس بمنــزلــه

ولكنه لا يرد مع « عن » الا لمعنى زائد على مجرد التعدية ، كالسببية فى قولك : « جلس عن تعب شديــد » ، ولا مع « الــلام » الا على معنى الظرفية أو السببية أيضا نحو « جلس لساعة أو نحوها » و « جلــس لتعب ألم به » . حتى الظروف تتخصص مع الافعال فيتــقيد تواردها ، فنحن نقول : « جلس عند باب البيــت » أو « عند الظهــيرة » ، ولكن لا نقول جلس حول كذا ، ومغزى كل ذلك أن هنــاك قيــودا لتــوارد الافعال اللازمة مع الحروف والظروف ، وأن هــذه القيــود ترجــع فى جملتهــا الى المقــام .

ء ـــ الافادة قيد اضافــة « اى » الي المعرفة : وفى ذلــك يقــول ابــن مــالــك :

ولا تــضــف لمــفــرد معــرف	أيــا وان كــررتهــا فــاضــف
أو تنو الاجزا واخصصن بالمعرفة	موصولة أيــا وبالعكس الصفــة
وان تكن شرطــا أو استفــهاما	فمطلقــا كمــل بهــا الــكــلاما

فالافادة تتحقق بالتكرار ؛ لأن التكرار كأنــه يمثــل تعداد الاجزاء . فكأن « أى » قد دخلت على مالــه أجزاء ، واذا نويــت الاجزاء تحققت الافادة لأن أى هنا لتعميم الحكم على الاجزاء فتكون على معناها الاصلى ، واذا كانت موصولة فهى مضافة الى كلى يمكن لكل من أفراده أن يوصف بالجملــة التى حــذف صدرهــا بعــد « أى » . واذا كانــت للشرط فمدخولها هو جملة الشرط كلها وليس الكلمة التى اضيفت اليها فحسب ، وكذلك الاستفهام . وهكذا تتحقق الافادة فى جميع الاحوال . أما اذا لــم تتحقق الافادة على النحو السابــق ، فان اضافــة « أى » الى المعرفة

ممتنعة وواضح أن الافادة معناها الارتباط بالمقـام ، وارتبـاط القاعدة بالمقام دليل على أنها قاعدة فرعية ، وأن الاصل فى « أى » أن تضـاف الى النكرة ، وأن لتواردها مع المعرفة قيود :

هـ ـ للاخبار بالزمان عن المحسوس قيود : وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ابن مالك بقوله :

ولا يكون اسم زمان خبـرا   عن جثة وان يفـد فأخبـرا

ذلك بأن الخبر والحال والنعت جميعا وصف لصاحبها فى المعنى ، وكذلك تكون وصفا من حيث اللفظ فى الاصل . ومعنى وصفيتها من حيث اللفظ أنها بحسب الاصل أحد الاوصاف الخمسة (اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وصيغة المبالغة وأفعل التفضيـل) . واذا كان المبتـدأ يتطلب وصفا فى اللفظ والمعنى كما ذكرنا فان « الزمان » لا يحقق ما يطلبه المبتدأ الحسى ، ولذلك لم تكن عبارة « زيد اليوم » مفيدة افادة « زيـد عندك » ، لأن « عند » ظرف مكان ، والمكان حسى ينـبىء عن علاقـة حسية ، ومن ثم تكون جملة « زيد عندك » فى قوة قولنا « زيـد مجاور لك » . أما الزمان فهو وعاء الاحداث وليس كالمكان وعاء للاجسام . ومن ثم رأينا الزمان يخبر عن المصدر كما فى قولنا « الامتحان غـداً » ، لأن المصدر اسم الحدث . وهذه النقطة بالذات هى مناط الافادة التى تتحقق أحيانا فيخبر بالزمان عن الجثة ، اذ قد يكون اسم الجثة على تقدير مضاف محذوف ، وهذا المضاف مصدر ، فيكون الاخبار بالزمان فى الحقيقة عن المصدر المقدر . فاذا قلنا : « الليلة الهلال » أو « اليوم خمر وغدا أمر » فان المعنى « الليلة طلوع الهلال » و « اليوم شرب خمر » . ولكن هذه الافادة لا تتحقق دائما ، وانما تخضع لقيود التوارد .

و ـ توارد الفاء مع جواب الشرط : ليس كل جواب شرط يصلح للفاء ، وليس كل جواب شرط يستغنى عن الفاء . دعنا أولا ننظـر الى جملة مثل : « ان يقم زيد يقم عمرو » . فاذا ألحقنا الفاء بالجواب هنـا كانت الفاء عرضة لمعنى العطف ، وبذلك تصبح الجملـة ناقصة تتطلب

الجواب . وكذلك الامر فى « ان قام زيد قام عمرو » . ثم دعنا بعد ذلك ننظر فى جملة مثل « من جاءنى فله درهم » ، مع تصور حذف الفاء من الجواب . فلو حذفت الفاء هنا لتعرضت جملـة الجواب لمعنى الحال ، وبذلك تصبح الجملة ناقصة أيضا تتطلب الجواب . من هنا وضع النحاة « قيود توارد » للفاء نظمها بعضهم لبيان الاجوبة التى تقترن بها فقال :

اسميـة طلبيـة وبجامـد وبما ولن وبقدو بالتنـفـيس

فايما جملة من هذه الجمل وردت فى جواب الشرط وجب اقترانها بالفاء .

ز ــ « حتى » لا تجر الا آخرا أو متصلا بالآخر : وهذا هو قيـد تواردها مع مجرورها . فلا نقول « مشيت حتى منتصف الطريق » وانما تقول « حتى نهاية الطريق » . أو تقول « الى منتصف الطريق » ان توقف سيرك عند منتصفه . وفى هذا ربط بين القاعدة والمقام ، كما كانت الحال فى كل مـا سبـق .

هذه امثلة قدمتها لقيود التوارد فى اطار القواعد الفرعية فى النحو ، وليس هذا هو المجال الرئيسى لقيود التوارد . فالمجال الواسع لملاحظة سلوك الكلمات بالنسبة للقيود المذكورة هو حقل البلاغة ، و « البيان » من بين فروعها بصفة خاصة . فالمعروف أن الكلمات ذات معان أصلية أعطيت لها بأصل الوضع ، يضاف الى ذلك أن كل لغة تنتشر على حقول مختلفة من المسميات يتناسب كل حقل منهـا مع طائفـة من الاحداث ، وربما تنافر مع غيرها من الطوائف ، وهذه هى الناحية التى تمثل الرابطة بين اللغة من جهة وبين الدراسات الرمزية والنفسية والأنثروبولوجية من جهة أخرى . والذى يبدو لى أن فى اللغة من الناحية النحوية حقولا ثلاثة كبرى هى المسميات والاحداث والعلاقات ، وفى كل حقل منها اطارات فرعية يترابط بعضها مع بعض بحيث يترابط اطار من حقل « المسميات » مع اطار آخر من حقـل « الاحداث » بواسطة « علاقـات » خاصة . ويمكن التعبير عن الاحداث بواسطة الافعال والصفات أساسا ثم بالمصادر احيانا ، وعن المسميات بالاسماء ومنها المصادر تعبيرا صريحا ، وبالضمائر تعبيرا كنائيا ، وأما العلاقات فتعبر عنها الادوات والظروف غير المتصرفة ،

كما يمكن التعبير عنها بالمعانى الصرفية العامة التى تنسب الى الصيغ كالتعدية واللزوم والمطاوعة والصيرورة والتكلف والتجنب وهلم جرا . فاذا نظرنا الى جملة مثل : « جلس زيد على الكرسى » وجدنا « جلس » تنتمى الى حقل الاحداث ، ووجدنا « زيد » و « الكرسى » ينتميان الى حقل المسميات ، ثم وجدنا اللزوم الذى فى « جلس » والاستعلاء الذى فى « على » من قبيل العلاقات . وستبقى هذه العلاقات قائمة عند تغيير الجملة الى صور اخرى مثل : « زيد جلس على الكرسى » ، « على الكرسى زيد جلس » ، « على الكرسى جلس زيد » ، « زيد جالس على الكرسى » ، « الكرسى جلس زيد عليه » ، وهلم جرا . والحدث فى كل ذلك مطية العلاقة أو مسرحها ، ولكن زيدا والكرسى طرفاها ؛ ومعنى ذلك أن العلاقة ثنائية بين زيد والكرسى . وقد تكون العلاقة ثلاثية كما فى « اعطى زيد عمرا هدية » فالمسرح هو الاعطاء والعلاقة هى التعدية والاطراف هى زيد وعمرو والهدية .

هذا النوع السابق من العلاقات يفهم فى نطاق النحو ، وهناك نوع آخر منها يقوم بين الكلمات فى المعجم . فقد يكون بين الكلمتين علاقة الترادف ، أو علاقة التضاد ، أو التناقض ، أو العكس ، أو الكلية والبعضية ، أو مجرد المغايرة الى غير ذلك مما لا يمكن ضبطه فى عجالة كهذا المقال . ومن التشابك بين العلاقات النحوية والمعجمية تنشأ شبكة وثيقة الاحتباك من احتمالات التعبير ومحاذيره ، بعض حلقاتها واضح المعالم ، وبعضها يحتمل الترخص على نحو ما يبدو فيما بعد .

فأما من الناحية الحقيقية فان كل حقل من الاحداث يناسبه حقل آخر من المسميات . « فالقول » ، وهو حدث ، يسند الى حقل المسميات « الناطقة » . ومن هنا يصح « قال زيد » ولا يصح « قالت الصخرة » ولا « قالت المروءة » . و « للركوب » ، وهو حدث ، حقل يناسبه من المسميات أيضا ، فلا يصح « ركبت السماء » ولا « ركبت البئر » . ومن حق « النوم » أن يسند الى من يصح منه النوم ، كما أن من حق كل حدث ان يسند الى من يصح منه أيضا . هذا هو الاسناد على سبيل الحقيقة ، فلو ان التعبير الحقيقى كان الممكن الوحيد فى اللغة لضاقت

فرص التعبير الى حد كبير ، ولضاعت على الابداع الادبى فرصته الثمينة فى الترخص بالمجاز . نعم ، المجاز . فالمجاز هو الذى مكن الشاعر محمود حسن اسماعيل من قوله يخاطب النيـــل :

سمعـــت فى شطك الجميـــل ما قالت الريـــح للنخيـــل

وهو الذى مكن المتنبى أن يقول فى ملك الروم :

ويمشى به العكاز فى الديـــر تائبـــا وقد كان يأبى مشى أشقر أجردا

وهو الذى يبرر للنفس أن تسيل كما يسيل الماء فى قول الشاعر :

تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل

هنا يأتى دور علم البيان فى الشرح والتبرير . سيقول علم البـــيان ان فى البيت الاول استعارة تبعية فى الفعل « قالت » أو مكنية فى قرينة التبعية وهى « الريح » ، وقد بررتها فى الحالتين علاقة المشابهة التى اخترعهـــا الشاعر اما بين هزيم الريح وبين القول فى الحالة الاولـــى ، وامـــا بين الريح نفسها وبين انسان يقول فى الحالة الثانيـــة . وفى كلتـــا الحالتين امتنع اللبس أن يتسرب الى الفهم بسبب قرينة مانعـــة من ارادة المعنى الحقيقى . وهذه القرينة هى نفسها التى شرحناها منذ قليل بقولنا « من حق القول أن ينسب الى الناطق » . وسيقول البيان فى عبـــارة « يمشى به العكاز » انها مجاز عقلى لاسناد المشى الى غير من يصح منه المشى لعلاقة بين العكاز والماشى ولقرينـــة مانعـــة من ارادة المعنى الحقيقى للجملة . فالمعنى الحقيقى هنا تخريف من التخريف لا يصدر عن عاقـــل . وسيقول فى اسناد « تسيل » الى النفوس انه مجاز مرســـل وان الذى سال فى الحقيقة هو الدم الذى يعتبر سببا فى حيـــاة النفوس . فالعلاقة السببيـــة والقرينة واضحة فى ضوء ما سبق .

ولكن الخروج من الاستعمال الحقيقى الى الاستعمال المجـــازى محدود بما جعلناه موضوعا لهذا الكلام ، وهو ما أطلقـــنـــا عليه « قيود

التوارد » . فعلى الرغم من أن المتكلم أو الاديب هو الذى يخترع علاقة المشابهة ، وهى علاقة ذاتية تخيلية ، فهو ليس كامل الحرية فى هذا المجال . ومن هنا نجد القصة الشهيرة عن أبى تمام حين قال :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

فأرسل اليه أحد نقاده بغلام يحمل قدحا فارغا ويقول لأبى تمام : سيدى يقرئك السلام ، ويطلب اليك أن تملأ له هذا القدح من ماء الحياة . فقال أبو تمام : أبلغ سيدك أننى لن أملأ القدح حتى يأتينى بريشة من جناح الذل ، (يشير بذلك الى قوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ») . ولو كان علم البيان معروفا فى عهد أبى تمام لحرمنا ذلك من هذا الرد الذكى ، ولكان رد أبى تمام فى صورة تبصير للسائل بالقاعدة البيانية .

وأما « قيود التوارد » فى نطاق المعجم فهى التى تجعل من الاحالة أن نقول : « الشمال الجنوبى » ، أو أن نكتب فى بيانات بطاقة التعريف « أعزب وله ثلاثة أولاد » ، أو أن نقول : « أحمر مائل الى الحمرة » . وهذه القيود نفسها هى التى تضحكنا مع قول القائل :

ان الكسائى وأصحابه يرقون بالنحو الى أسفل

مثل هذه المخالفة لقيود التوارد لا يمكن تبريرها ولن ينشأ للدفاع عنها علم كعلم البيان .

الرباط د . تمام حسان

العلاقات الثقافية بين المغرب الشقيق وتونس عبر التاريخ

عثمان الكعاك

تتبع العلاقات التاريخية المغربية التونسية فى خط موازن الاطوار التاريخية التى مر بها القطران .

ا ـ ما قبل الاسلام

اولا : البربر : اى مدة 6 آلاف سنة اذا اعتبرنا ما ذهب اليه الباحثون فى النقوش الصخرية (*) البربرية اللوبية Inscriptions rupestres والتى اثبت بعض العلماء الاوروبيين أنها ترجع الى 50،000 قبل المسيح عليه السلام ، وهى توجد فى ليبيا ، وتونس ، والجزائر والمغرب والاندلس .

فالخط خط واحد والصور المفسرة له ، او التى هو مفسر لها واحدة ، ووحيدة فى اتقانها وبراعتها وقوة تعبيرها وارتفاع تقنياتها ، فكأنها نطاق فولاذى يربط المغرب موجوده ومفقوده بما لا تنفصم عراه .

ولا شك أن الحضارة البربرية القديمة جدا التى اكتشفت العجلة المستديرة ، والأشعة ، والمحور ، وراس المحور ، والتى اكتشفت الخط

بالحروف المنفصلة الصوتية قبل الفنيقيين والتى كانت لها اهــرام ومبان قبل أهرام مصر ، هذه الحضارة العربية القحطانية الحميرية هى قاسم مشترك بين الجميع (**) .

وسيتصل تاريخ البربر الناس فى تشارك واندماج مع تاريخ العرب والترك والاندلسيين بالمغــرب العربى الكبــير = موجــوده ومفقوده ، (أعنى الاندلس والبرتغال وصقلية وسردانيا ومالطة وقومرة Pancellarice)

اذ أن معالم حضارتنا لا تزال ولن تزال هناك فى المعمار والمصانع وفى عظماء الرجال الذين لن يمحى ذكرهم .

تبين هذه العلاقات فى النقوش الصخرية الموجودة فى سلاسل جبال الاطلس من الاندلس الى المغرب ، الى الجزائر (الهكار) ، الى تونس (جبال مطماطة)

Melle Metral Les Inscriptions rupestres de Matmata

وجبال السودا والتيبستى بليبــيا (1)

L'hôte : Inscriptions rupestres et Jebel Souda et du Tibesti en Libye.

وهذا الكتاب مترجم الى العربية أحسن ترجمة ، بحيث يسهــل على المطلع العربى أن يتناوله .

وتتبين لنا من هذه النقوش ظاهــرات حضرية أو أدبيــة ، فهى فى الغالب فى بيان طريق الصيد ، واتجاهات الطرائد بين الجبــل الأشكل قرب بنزرت بتونس ، الى سوق أبى الحيوان بالسودان ، أيام الحضارة النوبية الكوشية . ويبــين من صور النساء نقصان النسل فى القبائــل ، فهن يطلبن زيادة العمــران .

واذا صح أن هذا الخط الذى غالبــه حروف ذات صــوت واحدة منفصلة يرجع الى آلاف السنين قبل هذا ، فقد صح أن البربر اللوبيين ، هم الذين اخترعوا الخط الصوتى المنفصل لا الفينــيقيين ، وأن الخــط

الفينيقى الشبيه به آت من الخط البربرى لا العكس . وهذا الخط يسمى تيفيناغ ، ولا يزال مستعملا عند الطوارق ، وقد اختصت المرأة فى الكتابة به ولا يعرفه الرجال الا من قل منهم ، وهذه ظاهرة حضارية غريبة تدل على رقى المرأة البربرية الثقاف التى سبقت بـــه أختهـــا من هذه الوجهة فى الخافقـــين .

واستمرت الآداب البربرية سواء الدينية أو الشعرية أو القصصية مستمرة بين الطرفين الى حد الآن . (2)

Henri Basset : Essai sur la littérature Berbère.

2 ـــ الفينيقيون : انظر رحلة حنون للكاتب

3 ـــ القرطاجنيـــون :

أهم معلم أدبى وسياحى وارتيادى مشترك بين تونـــس والمغرب ، هو رحلة حنون الملاح القرطاجنى الذى رحل فى القـــرن السادس قبـــل الميلاد ، لارتياد السواحل المغربية الافريقية للمحيط الاطلسى ، وتأسيس مدن جديدة ، فخرج من قرطاجنة ، ومـــر بالمغـــرب وصحح الاوضاع فى المراكز الموجودة ، وأسس مدينة عكرة عاصمة غانـــة ، وألف فى ذلـــك رحلة مفصلة علقت فى معبد آشمون بجبل بيرس بقرطاجنة ، ثم ترجمت الى اليونانية ، وانتفع بها الملاحون الذين يجتـــابون سواحل الاطلـــس الغربية ، يبحثون عن الذهب أو الاسماك ، أو المغامرات البحرية .

والرحلة الثانية المشتركة هى رحلة عملقون ، الذى ارتاد سواحل أوربا الغربية الشمالية ، باحثاً عن القصدير الضرورى لصناعة علـــب المصبرات ، فزار تلـــك الجهـــات الـــى ارلانـــدة ، وشبـــه الجزيـــرة الاسكندينافية ، وهو بالطبع مر على أعمدة هرقليس

Les Colonnes d'Hercules.

وسواحل ايبريا فى (اسبانيا) ، ولوزيطانيا فى (البرتغال) ، ونماليا فى (فرنسا) . وزار طنجة Tangés فى طريقه ، وربما غيرها من المدن المغربية ، وهو أيضا قام برحلته فى القرن السادس قبل الميلاد .

الموسوعة الفلاحية لماغور القرطاجنى :

ماغون القرطاجنى ، كاتب اختصاصى فى العلوم الزراعية ، كان يعيش سنة 140 ق م ألف موسوعة فلاحية عظيمة الشأن ، فيها دراسة الأتربة والأسمدة وأنواع الحرث والزبر والتطعيم والتطعيش ، ومقاومة الحشرات المضرة للفلاحة ، وأنواع المصبرات ، الى غير ذلك مما يظهر عجيبا بالاضافة الى عصره ، ومما لم يسبق اليه احد على كل حال . كان هذا الكتاب العظيم فى مكتبة قرطاجنة الكبرى عند معبد اشموت بجبل بريس ، فلما استولى الرومان على قرطاجنة سنة 146 وزعوا كتبها على أمراء البربر ، لكن احتفظوا بهذا الكتاب لأهميته ، وأصدروا مرسوماً من مجلس الشيوخ الرومانى لنقله الى اللغة اللاتينية ، فانتشر فى العالم الرومانى ، بما فى ذلك المغرب الأقصى ، وغزاه علماء الزراعة من الرومان ، مثل أفيلينوس وقاطون وكولوميلس ، وعلماء اليونان الزراعيون ، مثل كاستوس ، وترجمه العرب الى العربية من البونيقية ببيت الحكمة بالقيروان ، تحت اسم كتاب الزراعة لماغوش ، وانتفع به ابن العوام وغيره .

هذا علاوة عن الاتصالات الثقافية الاخرى كاقتباس الخط البونيقى ، والاساليب التجارية والملاحة والصناعات التقليدية ، الى غير ذلك مما يحتاج الى دراسة مقارنة خاصة .

ب ــ العصور الاسلامية

أ ــ العصر الأغلبى بتونس ، الادريسى بالمغرب ، الرستمى التهرتى بالجزائر :

فى هذا العصر حدثت أحداث اقتضت مهاجرة جماعة لكثير من القرويين (القيروانيين) ، انتصبوا بعدوة القرويين المنسوبة اليهم بفاس ، فجاءت فاطمة أم البنين القروية ، واسست جامع القرويين سنة 255 هـ ، كما أسست أختها جامع الاندلس بعدوة الاندلس .

ثم صارت الهجرة الى القيروان لطلب العلم بجامع القيروان ، وبيت الحكمة القريب منه سواء من الاندلسيين (يحيى بن عمر وأخوه محمد ومحمد بن خيرون وغيرهم) . وأما من المغاربة فأعظم من جـاء لطلـب العلم ، هو أبو ميمونة ضراس بن اسماعيل الفاسى ، الفقيـه الحافـظ النظار المعروف بالعلم والصلاح والدين المتين ، له رحلـة حـج فيها ، وسمع من ابى مطر ، كتاب بن الحواز ، ومن ابن اللباد القيروانى وغيرهما.

وأخذ عنه خلف بن أبى جعفر وعبد الرحمن العجوز ، وأبو الحسن القابس ابن خالة عبد الله بن أبى زيد ، صاحب الرسالـة والنـوادر ، وبن خالة محرز بن خلف الصديقى . وأخذ عنه أيضا ابن أبى زيد ، وكان نزوله بالقيروان فى بيت ابن أبى زيـد الموجود الى الآن على حالـه وهو مقبـور ومـزار .

ودراس (3) بن اسماعيل ، أول من أدخل مدونة سحنون مدينـة فاس ، وبه اشتهر مذهب مالك بالمغرب . توفى بفاس سنة 357 .

2 ـ العصر الفاطمـى :

نبغ فيه ابو عمران موسى بن عيسى بن ابى الحاج الغفجومى الفاسى القيروانى الفقيه الحافظ العالم الامام المحدث . كان فاضلا يقـرأ القرآن بالسبع ، ويجوده مع معرفة بالرجال ، أصله من فاس من بيت مشهور بها ، وله عقب فيهم نباهة .

استوطن القيروان ، وحصلت له بها رئاسة العلم . تفقه بابى الحسن القابسى دفين باب تونس بالقيروان (على خطوتين من بركة الأغالبية) ، وهو ابن خالة عبد الله ابى زيد ومجرز بن خلف ، ثم رحل الى قرطبة ، وتفقه عند الاصيلى ، وأحمد بن قاسم ثم رحل للشرق ، وحج ، ودخل العراق ، فسمع من ابى الفلح بن أبـى الفوارس والمستملـى ، درس الاصول على ابى بكر الباقلانى ، وقد أثنى شيخه هذا عليه ، وسمع من أبى ذر الهروى . واخذ عنه الناس من اقطار ، واستجازه من لم يلقـه . منهم : ابن محرز ، وعتيق السوسى ، وأبو القاسم الصابورى .

له كتاب التعليق على المدونة ، وهو كتاب جليل لم يكمل . وخرج من عوالى حديثة نحو مائة ورقة . توفى بالقيروان سنة 65 فى رمضان 430 ، وصلى عليه عتيق السوسى بوصية منه ، ودفن بداره . وقبره متبرك به مزار .

ويعرف هناك بسيدى بوجندار .

وهو السبب فى ظهور الدولة المرابطية بارسال البعض من طلبته للجهاد برباط Gorei أمام دكار ، عاصمة السينغال ، فالتقى بأبى بكر بن عمر اللمتونى ، ابن عم يوسف ابن تاشفين ، وبدأت الحركة هناك ، الى ان انتهت باعادة فتح الاندلس ، وغالب المغرب مثل الجزائر ، وجهات من تونس ، تحت راية المرابطين (4) .

3 ـ العصر الصنهاجى :

عبد الرحيم بن المن ، العجوز السبتى (5) الفاسى ، العلامة الحافظ ، شيخ الفتيا بالمغرب ، رحل الى القيروان ولازم ابن ابى زيد ، صاحب الرسالة والنوادر ، وحمله عنه كتبه ، واخذ عن دراس والاصيلى .

روى عنه ابناؤه عبد العزيز وعبد الرحمن وقاسم .

مولده سنة 340 توفى سنة 413 .

ابنه الفقيه (6) الامين العالم الصالح الزكى عبد الرحمن اخذ عن والده . وحج فلقي بالقيروان ابا اسحاق التونسى واخذ عنه . توفى سنة 417 .

ابن ملجوم :

ابو موسى عيسى بن ايوب الاسدى الفاسى ، يعرف بابن ملجوم سمع من ابى الفضل ابن النحوى التوزرى . مولده سنة 479 توفى 543 .

أبو عبد الله محمد بن العارف بالله ، الشيخ أبى الحسن على بن اسماعيل بن حرازم . وممن انتفـــع به وأخذ عنه الامـــام أبـــو الحسن الشاذلى ، أخذ عنه تبركا وانتفاعا واستفاده وصاحبه ولبس الخرقة ، وهو أول أشياخه ، وآخرهم الذى هو عمدتهم فى الطريق الشيخ عبـــد السلام ابن مشيـــش .

ابو الحسن علي بن عبد الغني الحصرى القيروانى (7) :

كان شاعراً ووشاحاً وأديباً وعالما فى القراءات ، له قصيدة فيها . درس القراءات بطنجة وتوفى سنة 488 هـ / 1095 م . ولد بالقيروان فى حدود 1024/415 ، ولما جاء بنـــو هلال من الداخـــل ، والنورمان من الخارج ، ذهب الى الاندلس ، فطاف على ملوك الطوائـــف ، واستقـــر بطنجة يعلم القراءات ، وله فيها قصيدة مشهورة .

أبـــو زيـــــــد :

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله ، عمر بن عبد الرحمن ، بن عبد الرحيم بن العجوز ، تقدم أن والده حج مع والده عبد الرحمن ، ودخل القيروان ، وأخذا عن أبى اسحاق ابراهيم التونسى . قال القاضى عياض : حدثنى عبد الرحمن عن أبيه ، ابن عبد الله ، عن جـــده عبـــد الرحمن ، عن جده الاكبر عبد الرحيم ، بن العجوز ، عن أبى محمد بـــن أبى زيد القيروانى ، عن أبى بكر بن اللباد ، عن أبى عبدوس بسنـــده . توفى بفـــاس سنة 510 هـ .

ابن النحـــوى التـــوزرى :

وليد توزار ، ودفين قلعة بنى حماد صاحب المنفرجة .

لما أفتى علماء المغرب باحراق احياء علوم الدين للغزالى ، وكتب الى أمير المؤمنين فى شأن ذلك ، وأخذ عنه جماعة من أهل افريقا وفاس ،

منهم أبو عمران موسى بن حماد مفتى فاس . وكان يقرىء بفاس كتـــاب الاحياء ويامر طلبته بمكاثرة نسخه ، وقد أوذى فى ذلك كثيراً .

قال الحافظ ابن حرزهم : أوصانى ابى ان اقبــل يــد ابى الفضل التوزرى متى لقيته ، ولو لقيته فى اليوم مائة مرة . توفى عن 80 سنــة بقلعة بنى حماد ، فى محرم سنة 513 هـ وقبره بهــا مــزار الى الآن ، وقــد زرتــه .

القاضى المفكر الكبير أبو بكر محمد بن العربى (8) :

رحل الى المشرق مع ابيه سنة 483 . ولقى بالمهدية ابا الحسن علي ابن الحداد الخولانى ، وقرا عليه تآليفه ، والامام المازرى ، فاخذ عنه .

المهدى بن تومرت (9) : مؤسس الدولة الموحدية ، مع عبد المومن ابن على الكومى التاجرى والونشريسى ، فى مؤتمر ملالة قرب بجايــة ، اخذ بالاندلس ، ثم سافر الى بغداد على طريق المهدية ، فاخذ عن الامام المازرى ، ورجع الى المهدية على عهد ملكها الصنهاجى ، علي بن يحيــى ابن تميم بن المحرز باديس ، وقام بالدعوة وغير المنكر ، كما قام بانقلاب اجتماعى عديم النظير .

القاضى عياض اليحصبى :

كبير علماء الحديث بالمغرب ، والجد لكثير من العائلات العياضيــة بتونس ، اجازه الامام المازرى ، وهو صاحب كتاب الشفاء الذى من قيمته الروحية ، أن النساء التونسيات يقسمن به بالاشتراك مــع البخارى . فيقلن « والشفاء والبخارى » وقد شرحه جدنــا الشيخ محمــد قوســم النودورى ، فى كتاب سمــاه « سمــط الــلآل فى تراجــم من فى كتــاب الشفاء عن الرجال » وهو دائرة معارف كبرى فى 12 مجلــدات . اجمــل نسخها التى بالقصر الملكى بالمغرب ، وهى بخط الجد .

ابو القاسم عبد الرحمان بن أبى رجاء البلوى :

يعرف بالبلي الاندلسى ، من مدينة لبلة ، اى المفيمة لكثرة غيومها . ذهب حاجاً سنة 497 ، ولقى بمكة أبا محمد عبـد الله بن عمـر ابـن العرجاء القيروانى ، واخذ عنه القرآن واجازه تاليفه ، واخذ بالمهدية عن ابى الحسن علي بن ثابت الخولانى المعروف بابن الحداد .

ابن ملجوم : هو أبو موسى عيسى بن أيوب الاسدى ، سمع من ابن النحوى التوزرى توفى سنة 543 هـ .

عبد الله بن عبد الحق المهداوى :

من احفاد الامام المـازرى .

انتقل الى المغرب ، وولى قضاء اشبيلية ، ثم مراكش ، وبها توفى سنـة 589 هـ .

الفقيه الطبيب الفيلسوف الحفيد ابن رشد :

اجازه الامام المازرى رضى الله عنـه .

العصر المـوحـدى

ابن خلدون فى المغـرب :

جاء ابن خلدون من تونس الى المغرب ، وذلك عند حملة أبى الحسن علي المرينى سنة 740 وقد اصطحب ابو الحسن نخبة طيبة من العلماء منهـم :

السطـي (10) :

قال ابن خلدون : « . . . . وسطـة بطـن من اوربـة بنواحـى

فــاس . . . . » واختــاره السلطان الحسن المرينــى مــع جماعة من العلماء لصحبته ، وكان السلطان وسراوته وبعد شاوه فى الفضل يتشوق لتنوير مجلسه به . فقدم السطى معه تونس ، وشهدنا وفــور فضائله . وكان فى الفقه نبيها لا يجارى حفظاً وفهماً ، وكان أخى محمد يقرأ عليه تبصرة اللخمى ، ويصححها عليه من املائه وحفظه فى مجالس عديدة .

أخذ عنه ابن عرفه والعقبانى وابن خلدون . توفى غريقــاً ببجاية ، فى رمضان من سنة 750 .

وذكره ابن خلدون فى كتابه للتعريف بنفسه مما هو أوفى من هذا (11).

2 ــ الأبـــــــلى :

هو محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدارى التلمسانى الأبلى ، مــن مدينة أبلة بالاندلس ،

قال تلميذه ابن خلدون : اصله من الاندلس من اهل ابله ، من بلاد الجوف ، انتقل منها أبوه وعمه ، فخــدم يغموراسن صاحب تلمســان ، وتزوج ابوه بنت القاضى محمد بن غربون ، فولدت له شيخنا هذا ، ونشأ فى كفالة جده القاضى بتلمسان ، فسبق لذهنه محبــة التعاليم (العلــوم الدخيلة) ، ثم قال لازمته وأخذت عنه فنوناً . قال اخبرنى أن مولده سنة 681 . ومــات بفــاس سنة 750 .

3 ــ عبد المهيمن الحضرمي :

هو عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمــن ابــو محمد الحضرمى . صاحب القلم الاعلى بفاس . ولد بسبتة سنة 696 ــ 1297 . ونشـــأ بها ، وولى كتابة الانشاء لأبى الحسن المرينى . توفى فى تونس بالطاعون سنة 749 هـ 1248 م . قال ابن القاضى : تقدم فى علم الحديث وضــبط رجاله يحمل عن ألف شيخ قد حلاهم وذكرهم فى مشيخة ضاعت .

أخذ ابن خلدون عن الرئيس أبى محمد الحضرمى (12) .

قال احمد بابا فى ترجمة ابن خلدون : أخذ القرآن عن ابن بـــدال . قراه عليه بالسبع ثم بالعشر ، فى كتاب سيدى القبة بنهج تربـــة الباي . وسيدى القبة هو فى الحقيقة مسيد القبة ، اى المسجد الذى يجمع بين الصلاة وحفظ القرآن ، دخلت الكلمة الى تونس مع الموحدين ، فنجـــده فى مسجد القبة ، والذى صار الى سيدى القبـــة ، وسيـــدى المشرف ، وهو مسيد المشرف ، والمشرف هو مسيد الكمارق . ولا يزال مسيد القبة قرب دار ابن خلدون ، يبعد عنها نحو 20 مترا .

. . « . . (13) والعـــربيـــة عـــن الـــزواوى وابن العـــربـــى ، وروى عن الحافظ السطي والرئيس أبى محمد الحضرمي ، ولازم العالم الشهـــير بالأبلـــي .

وتولى ابن خلدون العلامة للمرينـــيـــين ، وبتوليه مدرسة موازية لضريح القوت أبى مدين ، وعبد السلام التونسى بالعباد قرب تلمسان ، وهى ما تزال موجودة ، فالقى بها دروساً كما القى دروساً فى المغـــرب الاقصى ، ثم لما الف كتابه العبر فى اخبار دول المغرب الاقصى من الادارسة الى المرابطين ، الى الموحدين الى المرينيـــين .

فابن خلدون ، هو خير ممثل لتونس ، والتونسيين فى تلك العصور ، ونعم السفير الثقافى الجامع العبقرى ، ســـواء بين تونـــس والمغـــرب الاقصى ، او بين المغرب الكبير والمشرق ، أو بين العالم الاسلامى واوربا .

وقرأ ابن خلدون ايضا على محمد بن عبد الله بن عبـــد النـــور ، قاضى فاس ، وقاضى عسكر أبى الحسن المرينى ، كان اماما مبـــرزا فى الفقه على مذهب مالك ، أخذ عنه جماعة من أهل تونس ، حين قدم مع عسكر أبى الحسن المرينى منهم ابن خلدون . توفى بتونـــس بالطاعـــون الجـــارف 749 هـ .

محمد بن عبد الرزاق الجزولى :

قال ابن خلدون : شيخنا شيخ وقته ، جلالة وتربية وعلما وخبـــرة بأهل بلده وعظمتهم . نشأ بفاس ، وأخذ عن مشيختها ، ورحل لتونس

فلقي القاضيين ابن عبد الرفيع ، وأبا عبد الله البقــراوى وطبقتــهما . اخذ عنهم ، وتفقه عليهم ، ورجع للمغرب ، ولازم الاكابــر والمشايــخ ، الى ان ولاه السلطان أبو الحسن قضاء فاس ، فبقي عليه الى أن عزله بالفقيه المقرى ، ثم لما جمع شيوخ العلم للتلحيق بمجلسهــم والافــادة منهم ، استدعاه معهم الى ان هلك .

وممن قرا عليه ابن خلدون من اهل المغرب : ابو عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ المكناسى ، العالم المبرز فى المعقود والمنقول ، المتفنن فى كثير من العلوم ، العارف بالحديث ورجاله . اخذ عن مشيخة فــاس ، واجتمع بالابلي ، واخذ عنه وانتفع به . واخذ عنــه جماعــة منهــم ، ابن عرفة وابن خلدون .

كان ممن قدم مع السلطان ابى الحسن المرينى بتــونس ، وتــوفى بالاسطول الذى غرق فيه السطى وغيره سنة 750 هـ .

ومنهم ايضا : محمد بن احمد بن علي بن يحى بن علــي بن محمد الغ . . . بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالــب ، مــن الاشراف الادارسة الحموديين . هكذا وجدته بخط ولده عفا الله عنه ، الشريف ابي عبد الله التلمساني .

قال ابن خلدون : يعرف بالعلونى ، نسبة لقرية من اعمال تلمسان ، تسمى العلونيين ، ونسبة بيته لا يدافع فيه . ويعرف ايضــا بالشريــف التلمسانى علامة تلمسان ، بل امام المغرب قاطبة ، الامــام بن مرزوق الحــافــظ .

5 ــ العهد التركي (المرادي والحسني) :

آل ابن عاشور : من العائلات المشتركة بين المغــرب وتونــس ، بحكم الهجرة الاندلسية . عائلة اندلسية منحدرة من سيــدى عاشور ، او سيدى عاشر الاندلسى السلوى ، دفين سلا ، يجمع بين العلم والعمل والجهاد والتصوف ، ومن أقدمهم :

الطاهر بن عـــاشـــور الجــد :

هو محمد الطاهر بن الشاذلى بن عبد القادر بن محمد بن عاشور .

عالم ، اديب ، شاعر ، فقيه ، نقيب أشراف تونس ، وكبـــير علمائها فى عصره . ولى قضاء الجماعة سنة 1267 هـ ، ثــم الفتيــا ، ونقابة الاشراف . توفى 1284 الموافق 1867 .

لــه من التــآليــف (14) :

شفاء القلب الجريح فى شرح بــردة المديــح .

هدية الاديب الى أصدق حبيب ، وهى : حاشية على القطــر لابن هــشـــام .

الغيــث الافريــقى .

حاشية على الحكيم علي امطور غير تامــة .

حاشية على المحلى على جمع الجوامع .

حاشية على ابن سعيد على الاشمونى .

حاشية على شرح العصام لرسالة البيــان .

ولــه شــعـــر .

اوليــة العواشرة :

اولهم بتونس ، هو الشيخ محمد بن عاشور ، خصه الوزير السراج الاندلسى المؤرخ التونسى ، صاحب الحلل السندسية بالتواريخ التونسية بـــ ((مناقب)) قال : هو مولانا وسيدنا وشيخنا وبركتنا ومن منــة الله علينا ان كانت له به بقرابة . توفى بتونـــس سنـــة 1110 هـ/1698 م ،

ودفن بسيدى علي الزواوى الموجودة بنهج سيدى الزواوى ، بين بـاب المنارة ، وباب سيدى عبد الله الشهيد .

ثم يقول . . . حدثنى ابن الشيخ سيدى عبد القادر بن عاشور أن والده الشيخ المذكور تزايد بمدينة سلا ، قرب الرباط بالمغرب ، وبينهما واد ابى رقراق ، عندما خرج والده من جزيرة الاندلس ، فى حدود 1030 / 1625 م .

وفيها شب وتعلم واخذ التصوف عن الشيخ المربى أبى عبد الله محمد القجيرى ، ثم رحل الى تونس بعد الحج ، وبها استقر الى أن توفى رحمه الله .

كانت حرفته التى يتمعش منها صناعة الشاشية ، وتعرف به لأول مرة بدكان صناعته الولى الصالح ابو الحسن على الزواوى . وبعد التعرف لازمه وتعلق الشيخ ابن عاشور به ، فصار يتردد على زاوية الشيخ الزواوى فى عشايا الجمعة .

كان تنويه الوزير بعلوم الشيخ عاشور وبفصاحته وآدابه وتعففه واعراضه ، وكان ياتى الى حضرته جلة العلماء للاستفادة منه فى علم الحقيقة . وممن كان يلازمه الشيخ محمد بن شعبان ، وتخرج عليه الشيخ مصطفى البائلى .

وخلف الشيخ ابن عاشور عقباً صالحاً نافعا تمخض لطلب العلم والتعليم العالى ، فظهر فى أعقابه نوابغ فضلاء ، منهم فضيلة العلامة الشيخ محمد طاهر بن عاشور .

ولد سنة 1879 بتونس ، ابوه محمد ابن عاشور ، وامه السيدة فاطمة بنت الوزير العالم الفقيه عبد العزيز بوعتور ، الذى استبناه ، وسهر على تربيته ، فتخرج احسن تخرج . كان ابان دراسته لا يعطيه كتاباً مطبوعاً الا المخطوطات على شريطة ان ينقلها من أولها الى آخرها ، فاذا كانت رديئة الخط أمره باعادة نسخها ، وهكذا تحصل فى ذهن هذا

الولد اللوذعي النجيب ، نسخة ثالثة لن يمحوها الدهر ، وكان يعيش في قصر المرسى العامر في وسط من العلماء ، ومكتبة عامرة عديمة النظير ، وكان الشيوخ يومئذ من اهل النصح وخدمة العلم لوجه الله تعالى . فتخرج احسن تخرج ، وطرق باب الخطط العلمية ، فولى القضاء في العشر الاول من القرن الجارى ، ثم ارتقى الى ادارة الزيتونة ، فكان اباها وكيالها ، وخدم العلم لطلبة العلم ، فلما جاء الاستقلال كان عدد الطلبة عظيماً ، وكان من شيوخ الصادقية ، فاظهر براعة ونصحاً واخلاصاً ، فتخرج عليه فحول من الصادقين ، ثم ابنه الفحل ان هذا الشبل من ذاك الاسد ـ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، العضو بالمجمع العلمى بالقاهرة ، والاستاذ بالزيتونة ، ومديرها ، ومدير الخلدونية ، والكاتب المشهور ، وصاحب التآليف التى يشار اليها بالبنان ، كثير الرحلات ، ولا سيما للمغرب ، حيث لا يتخلف عن الحضور برمضان لالقاء محاضرته بالقصر الملكى العامر .

اما الوالد ، فان له تآليف أيضا اهمها تفسيره الذى يصدر تباعا .

الرحلات والعلاقات الثقافية :

الرحلات على صنفين : اما كتب جغرافية مطلقة ، كرحلة حنون ، أو رحلة عملقون ، او نزهة المشتاق للادريسى ، او رحلة حسن الوزان المعروف عند الاوربيين بليون الافريقى ، الذى اصله من المغرب ، وتوفى بمدينة تونس ودفن بها .

أو رحلات الى الحج في الغالب ، يقف اربابها في الطريق في المدن الثقافية ، ويخالطون رجال الثقافة والعلم ، ويترجمون لهم ترجمة تزيد احيانا وتنقص احيانا .

فمن هؤلاء :

1) محمد بن رشيد السبتى (15) : رحل من سبتة لاداء فريضة الحج سنة 683 . وترجم فيها لجماعة منهم قطب الدين محمد القسطلانى (اى الجريدى) ، وحازم القرطاجنى ، وابن زيتزن ، أودعهم مع غيرهم

رحلته المسماة ملء العيبة ، فيما جمعه بطول الغيبة ، في الوجهة الوجيهة الى مكة وطيبة .

وله أيضا ، شرح البخارى ، اعتمد فيه على عثمان ابن الليثى الصفاقسى .

وذكر في رحلته التى زار فيها تونس مرتين بعض العلماء التونسيين ، وكذلك المهدية وغيرها .

2) العبدري (16) :

هو أبو عبد الله ، محمد بن محمد العبدرى العلامة ، دون رحلته من المغرب متجهاً الى الحج ، وطالبا للعلم ومعرفة العلماء ، وكانت رحلته سنة 688 ، ودخل باجة وتونس والقيروان ، وأخذ عن جماعة من الاعلام وأثنى عليهم ، منهم بالقيروان عبد الرحمن الدباغ ، صاحب معالم الامام ، وأجازه ، وبتونس الامام اللبدى ، وبباجة أبو على الطبلى ، أخذ عنه المقرب ، وهو عن مؤلفه أبى الحسن علي بن عصفور الاشبيلى ، دفين سوق القماش بتونس ، أصله من بلنسية ، وسكن بلدة حاحا بالمغرب .

الشريف الادريسى (17) :

وهو صقلي ، أصله من قرطبة ، وانتقل الى المغرب ، ثم الى صقلية ، ثم الى بجاية ، حيث اعتنى بدراسة النباتات ، ووجوده ببجاية ، سمح له بأن يتعرف على تونس ، وأن يخصها في كتابه : ((نزهة المشتاق)) بوصف دقيق محشو بالمعلومات المختلفة التى يعز أن نعثر عليها عند غيره ، ناهيك أن جغرافية فرنسا وحدها تقع في مجلد ضخم ، ونحن ما نزال في القرون الوسطى ، وكذلك جغرافية المغرب الذى زاره ويعرفه . ألف كتابه هذا لرجار الثانى النرمان Roger le Normand

وذهب الى بجاية لدراسة النباتات ، وقام بجولة عظمى

فى الموضوع ، وألف الجامع لأشتات النبات ، وهو موسوعة ، وألف روض الانس ، ونزهة النفس ، وهو فى المسالك والممالك ، وله أحفاد أطبـاء بتونس فى العهد الحفصى ، يعرفون بالصقليين ، ثم رحلة الوزان .
Léon l'Africain

الحســن الــوزان (18) :

مؤرخ جغرافى لغوى عارف بالطب ، له رحلة كتبـهـا بالعربية ، ونقلت الى اللغات الاوربية ، فيها وصف دقيق مستفيض لتونـس . هى آخر رحلة عربية للحفصيين ، وما أتى بعدها الا مرحول الاسبانى الذى أخذ عنها . توفى سنــة 956 .

وسبب تسميته بليون ، أنه وقع أسيراً بيد القرصان ، فانـتـشله البابليون ، وبقي عندهم ، وألف له هذه الرحلة التى هى بيان دقيق عن العالم الاسلامى فى غرب البحر المتوسط ، فى عصره .

وله أيضا قاموس طبى ، يفسر الالفاظ العربية باللاتينية والعبرانية . توفى سنة 956 هـ — 1548 م ودفن بعاصمة تونس .

علماء المغرب الذين تدرس كتبهم بتونس :

1 — عبد الواحد ابن عاشر :

هو أبو مالك عبد الواحد بن أحمد ابن عـاشر الانصارى الاندلسى الاصل ، الفاسى المولد والقرار ، الفقيه الاصولى ، قـرا على جماعة ، وأخذ عنه الشيخ ميارة الذى شرح أرجوزته الفقيهية الشهيرة المعروفة « بابـن عـاشر » :

يقول عبد الواحد بن عاشر   مبتدئـا باسم الاله القـادر

وهى المنظومة المسماة بالمرشد المعين ، فى الضرورى من أصول الدين . توفى فى ذى الحجة سنة 1040 وعمره 50 سنة .

هذه المنظومة تحفظ فى الكتاتيب والزوايا بكامل القطـــر التونسى ، وتحفظ فى ديـــار المعلمـــات .

2 ـ عبد الله بن محمد ميـــارة :

توفى سنة 1073 ، له شرحان على ابن عاشر « المرشد المعين » .

كان احدهما مقرراً فى تعليم الزوايا والزيتونة ، والفروع الزيتونية .

وهناك أيضا كتب المكودى فى النحـــو .

والمكودى هو المكودى الفاسى ، لا المكودى الجزائرى .

وفـــوق ذى كل علـــم عليـــم .

(للبحـــث صـــلة)

تـــونـــس **عثمـــان الكعـــاك**

مـــصـــادر البحـــث

* **أنظر عنها** : كوت = النقوش الصخرية .
Lhôte - les inscriptions rupestres.

(**) Enciclopédi - Italiano - « Berbère عثمان الكعاك : البربر .

(1) عك ـ رحلة حنون (العالم الادبى)
Carcopino : le Maroc Antique

(2) عك ـ رحلة عملقون (العالم الادبى)
Stéphane Gsell : Histoire de l'Afrique du Nord dans l'Antiquité.

(3) **مخـــلوف** : شجرة النور الزكية ص 103 رقم 263 ، وبدراس هذا يتفرع فرع فاس عن فرع افريقيـــة وينفصل مستقـــلا ، ويشمـــل المغربين الاوسط والاقصى .

(4) **انظـــر** : الحلل الموشية المنسوبة لابن الخطيب
ودائرة المعارف الاسلامية تحت كلمة (Almoravides).

(5) **مخلوف** : شجرة النور الزكية رقم 318 ص 115 .

(6) **الشجــرة** : ص 115 رقم 319 .

(7) **كحالــة** : معجم المؤلفين 125/7 + المصادر الخطية المطبوعة .

(8) **كحالــة** : معجم المؤلفين 242/10 . **والزركلي** : الاعلام 106/7 .

(9) **كحالــة** : معجم المؤلفين 312/10 . ابن العذارى البيان المغرب . دائرة المعارف الاسلامية .

(10) **انظر عن السطى** : ابن خلدون = الرحلة التى ترجم فيها لنفسه .

(11) **أنظــر** : أحمد بابا = نيل الابتهاج ص 243 وما بعدها . **وأحمــد بابا** : نيل الابتهاج ص 245 . **ومخلوف** : شجرة النور الزكية ص 221 رقــم 787 .

(12) **أنظــر** : ترجمة ابن خلدون لنفسه . **ابن القاضى** : جذوة الاقتباس.

(13) **أحمد بابا** : نيل 269 ورحلة ابن خلدون ، فانها شافية للغليل .

(14) **محمد النيفر** : عنوان الاديب 122 . **ح . عبد الوهــاب** المنتخــب المدرسى 137 . **مخلــوف** : شجرة النور الزكيــة . **الخزانة التيمورية** 225/3 . **سركيس** : معجــم المطبوعات 1670/2 . **الزركلى** : الاعلام 43/7 . **البغدادى** : هدية العارفين 287/2 . **كحــالــة** : معجم المؤلفين 101/10 .

(15) **ابن حجر** : الدرر الكامنة 111/4 — 114 . **الصفدى** : الوافى : 284/4 — 286 . **ابن فرحون** : الديبــاج المذهــب 320 — 311 . **عبد الله كنون** : ابن رشد .
C. Breckelmann : S.A.L. II/245-246, S.B. II, 344.

(16) **كحالة** : معجم المؤلفين 244/11 . **الزركلى** : الاعلام 260/7 .

(17) **كحالة** : المؤلفين 236/11 + المصادر . **ح . ح** : عبد الوهاب فى ترجمة الصقلين . Centenario de Michel Amari.

(18) **محمد الحجوى** : المهدى الحجوى حياة الوزان .
سعيد حجي : مجلة المغــرب عــدد رمضان وشوال سنة 1353 ص 20 و 21 ، عدد المحرم سنة 1354 ص 13 — 16 .
C. Brockelmann : S.A.L. - S II/710.

ع . ك

قصة

الطفلُ والعَاصفةَ

للكاتب الاسكتلندي : نيل جون
ترجمة : عبد المجيد ابن مبلوك

فزع من نومه زائغ المقلتين مصفر الوجنتين وصاح :

ــ أمــاه !

وكانت تقف الى جانبه ترتدى لبســة نومهــا فى يدهــا شمعة ، مديدة القامة ، وهى تنصت كأنها شبــح الى عويــل الرياح فى قلب الليل ، فقال لهــا :

ــ هــل تسمــعــين العــاصفــة ؟

رفع صوته بذلك فى مهابة كما لو كان يتحدث الى الليــل ذاتــه ، ليرتفع الأنين من آن لآخر الى ما يشبــه الصراخ ، فسيطر الرعب على مجامع قلبــه .

قالت لنفسها : « اننى فزعـــة » ، عندما قال لهـــا وقـــد اتسعت حدقتاه وهو ينصت : « فيم كل هذا يا أماه ؟ »

ولكنها اقتصرت على أن تردد لنفسها : « اننى فزعـــة » ثم دارت بوجهها فى بطء نحو النافذة ، وقـــد ترامى اليهمـــا هديـــر البحر من بعيـــد وقالت :

ــ لقد بدأت العاصفة فى الساعة الواحدة . . . وقد ظلت هكـــذا مـــدة أربـــع ســـاعـــات .

خانته الكلمات ، وكان قلبه يخفق بشدة ، وقد ركز نظراته فى أمه العزيزة التى تجمدت فى موقفها غارقـــة فى أفكارهـــا المروعة ، واضطربت الشمعة فى يدهـــا حينما أخـــذت الرياح تـــرج المـــنـــزل رجـــاً عنـــيفـــاً .

ولم يسبق أن رأى أمه ــ أمـــه العزيـــزة ــ فى مثل هذا الموقف وهى تقول انها لا تدرى ماذا تفعل ، فليس عندها أحد تفزع اليه لينجدها فى محنتها ، ولذلك فقد كان الألم يمزقهـــا وهى تنصت الى الرياح التى تعصف بزوجهـــا وبابنها داخـــل أبعاد البحر فى هذه الليلـــة الليلاء ، فلم يسعهـــا تحت وطـــأة يأسهـــا الا أن توقـــظ ابنهـــا الصغـــير الذى لا يتـــجـــاوز عمره اثنتى عشر عاماً وقالت لـــه :

ـ لا بد أن الرياح طوحت بهما فى أعماق البحر ، ولولا ذلك لكانا قد عادا منذ زمن بعيـــد .

فجلس فى فراشه ينظر الى أمـــه فى شحوب وقد أدارت رأسها تنصت الى العاصفة فى الخارج ، ثم قالت وقد اختنقت عواطفها : ليس عندنا أحد نرسله ليتبين لنا جلية الامر « فان باقى رفاقهما قد أرسلوا من يترصد الأخبار على الشاطىء كما لو كان منزلنا غارقاً فى نومه العميـــق غير آبـــه بما يجرى ، فقذف الطفل الغطاء عن رجليه وقال لأمه فى بسالة :

ـ سأنطلق الى الشاطىء يا أمـــاه .

فنظرت اليه والى بنيـــته الرقيقة وصاحت : كـــلا لـــن أدعـــــك ، لا أســـتـــطـيــــع .

ولكنها لم تكد تفيق من ترددها ومخاوفها حتى كان الطفل قد ارتدى ملابسه وقال فى عـــزم الرجـــال : نعـــم ، سأذهب يا أماه ، فلا تخشى شيئاً « ثم ارتدى معطفه الجلدى وحشر رأسه فى القلنسوة ، وقبل أن تفيـــق من ترددها كان الطفـــل يفتح مزلاج الباب ويغادر المنزل لتضيع صيحاتها وهى تناديه وترجوه أن يعود ، فصاح بهـــا « لا تخشى شيـــئا يا أمـــاه » ثـــم ابـــتـــلـــعـــه الـــظـــلام .

وبقيت الأم وحدها فى المنزل بعد أن أصبحت مخاوفهـا غامرة على سائر أفراد الأسرة ، ومن بينهم طفلها الصغير أيضاً .

واخترق الطفل طريقاً تقوم على جانبها الأشجار ، ولـم يكن فى استطاعته أن يرى حتى يديه وهو يمدهما أمامه ليتقى مـا عسى أن يصدمه ، وعثر فى غصن شجرة ملقى فى الطريق فصرخ ، ثم واصل طريقه معتمداً على حائط قصير ليهتدى به ، وبالرغم عن خوفـه أدركه الخجل من الصرخة التى خانتـه ، وعندما استدار فى نهاية الطريق سمع زئريها المتوحش ، وخيل اليه أن أجسامها أجسام أفاعى تتلوى فى السماء ، ولكنه شـد من عزمـه ومضى فى طريقه وطافت بوجهه ابتسامة باهتـة حينما زايله الخوف ، انه يعبر الليل وحده ومن حـوله عالـم من الأشياء الغامضة السوداء المتوحشة . . . ثم سمع الهدير ...

وتعالى هدير البحر ليغطـى على زئير الأشجار ، وأحس بالأرض تضطرب تحت قدميه الصغيرتين ، بالرغم عن أنه كان على مبعدة نصف ميـل من الشاطىء وأحس كأنه بقعـة من الخوف تسعى الى عالم الفناء ، فليس هناك أمل فى مقاومة ، ثم فجأة لاحت فى مخيلته سفينـة تدور فى دوامة ثم تغـرق وعليها وجهـا والده وأخيه ، وقـد بـرح بهمـا اليـأس ، وجها والده وأخيه الحافلان بالشجاعة .

وغمرت القشعريرة الباردة جسمه واختنقت الدموع ف حلقه ، وأخذ يسرع الخطى كما لو كان شيء قد توتر فى قلبه ، ولكنه لم يعد يفكر فى نفسه وانما أصبح يفكر فقط فى ما يجرى أمامه ، وعندما لعق شفتيه المالحتين زاد ذلك فى توتر قلبه .

حتى اذا ما وصل الى حائط المرفأ ترامى اليـــه من خلفه هدير العاصفة المرعبة ، وحرص على أن يبـــتعد عن الرصيف الذى يعرفه جيداً مخافة أن يخدعه ، وسمع القوارب وهى تئز وتتضارب ولذلك فلا بد أن المد قد وصل الى الشاطىء ، وخيل اليه أنه يسمع أصواتـــاً انسانية ولكنه لم يكن يـــرى شيئاً ، وكانت الريح تعيـــده خطوة وخطوتين الى الـــوراء فى بعـــض الأحيان ، وارتسم له فى نهاية سور المرفـــأ الطويـــل الكـــوخ الحجرى مقر رئيس البحارة ، وكانت مياه البحر تبـــدو على ضوء المصباح القابـــع فى قفصه الحديدى وهى تندفـــع بيضاء مرغبـــة مزيـــدة .

وعندما رآه رئيس المرفأ الشيخ صاح ، ليبـــاركنى الله يا ولدى ، من تكون ؟ ثـــم رفـــع صوتـــه عاليـــاً ليغطى على العـــاصـــفـــة : مـــن تـــكـــون ؟

ـ أنـــا هـــيـــو ،

ـ مــاذا ؟

ـ انني هيو ميلر

ـ هيو ميلر ؟ ليباركني الله يا ولدي ، ماذا تفعل هنا ؟

ـ جئت أستعلم هل هناك نبــأ عن القوارب

ـ أجئت لهذا باركك الله ؟ ألم يساورك الخوف ؟

ـ كــلا ،

ـ ألا تشعــر بالبــرد ،

ـ كــلا ،

فأجابه البحار « هذا أنت » قال له ذلك بصوت يطفــح اعجاباً ، أدخل الدفء على قلب هيو ، واشعره بأنه قد ارتفــع الى مصاف الرجال ، وسمع هيو الرجل وهو يخاطب شخصاً فى الظلام ويقول له : كلا يا سيدى ، لا أثر لأحد منهم الى الآن ، وانها لليلة مروعة لم ير الصيادون مثيلا لها منذ عشر سنوات ، وقال الرجل لقــد اقترب الفجر فأجابــه هيــو ، أظــن أننى أستطيع أن أرى أحسن الآن .

واسترق هيو النظر الى البحر الهائــج : لا يوجــد من يستطيع الحياة فى ذلك الهول غير الأبطــال ، ولذلــك فانهمــا سيعودان ، أبوه فى قارب وأخوه فى قارب آخر ، من القوارب

الثلاث التى تربصت بهـــا العاصفة فى البحـــر ، وفى كل قارب خمسة من الرجال الأشـــداء .

وبدا أن ذرات الفجر تختلط بالظلام ، وأخذ الصباح الباهت يطل من خلف الأمواج الغاضبة ويتنفس وهو يتسلق الآفاق .

وصاح البحار : اذا كانت القوارب قادمة ، فقد آن لهـــا أن تـــعـــود .

فرد بحار آخر ساخراً : ليس لها مخرج آخـــر ، انهـــا قادمـــة بالطبـــع .

وعندما ظهر قارب منها عاد يصيح : ها هو ذا .

ورأى هيو فى غبش الصباح قارباً يظهر ثم يختفى فتعالى الصياح ، ثم ظهر قارب آخر عرف الطفل أنه القـــارب الذى يوجد فيه أخوه ، وكانت القوارب تصارع الأمواج فى يـــأس وهى تقترب ، ولم يكن هناك ما يمكن أن يصنعه رجال الشاطىء لمساندة هذه القوارب التى توشك أن تتصادم وتـــتحطم على مرآى منهم ، ثم انه لا يوجد أثر للقارب الذى يوجد فيه أبو هيو ، فشعر الفتي بغصة مؤلمة فى قلبه ، ومع ذلك فهو يؤمن

بأن أباه قادر على خوض المهالك ذاتها لشدة بأسه وصلابته ، وربما كان ذلك هو السبب فى أنه كان أول من رأى قارب الأب حينما ظهر بدوره عند الأفق ، وأخذ القارب يقترب من الشاطىء فى جرأة صاح الربان معها :

ــ ربــاه سيتمزق بك اربــاً !

ثم مرقت الأمواج بالقارب عند مدخل المرفأ فى عنــف ، فتعلقت به الأنفاس الى أن هدأت سرعته بالقرب من الشاطىء فصاح البحــار بالطفــل :

ــ اليك أبــاك أيهــا الفتى الشجاع .

ذلك أن الأب كان على جانب من الحنكة الملاحية جعلته يصل الى الشاطىء قبل الزوارق الأخرى ، وان كان فى مؤخرتها حين اقترابها ، وقد نجا جميع الصيادين بعــد ذلــك بواسطة أحبال النجاة لتتحول قواربهــم التى تحطمــت على صخــور الشاطىء الى أشلاء وشظايا .

ووجدت الدموع طريقها الى عينــيه لأول مــرة فتدفقت منهما فى صمت واكتسحت تلك الدمــوع كل شىء ، اكتسحت حتى ذكرى أخيه الى حين ، دون أن تبــقى على شىء ســوى

السرور والخيلاء ، فمضى فى اثـر البحار نحو سـور المرفـأ لا يلوى على شىء الى أن أبصر به وأمره بأن يعود .

وأقبل البحارة وهم يتحدثون بأصوات ثابتـة ، وعندما وقعت عينا الأب على هيو توقف فجأة وعلت وجهه مسحة من الدهشة سوف تبقى عالقة بذاكرة الطفل الى الأبد .

وعبر البحارة العشرة النهر ليصلوا الى مقربة من القرية على الجانب الآخر فوجدوا سكان الأكواخ فى استقبالهم ، بعد أن خاضوا معجزة خرج منها بعضهم سليماً ، وبعضهم مصاباً بجروح خفيفة ، وبعضهم منهوك القوى ، أما القوارب التى كانوا يركبونها فقد تحولت الى حطام .

ورأى هيو وجه أمه وهم يقتربون ، فقال الأب بصوت ناعم مستـبـشر :

ــ لقـد عدنا يـا أمـاه .

فتفحصتهم الأم ثلاثتهم وقد وقفوا مليا ، ثم استدارت لتذهب الى المطبخ حيث أعدت المائدة وقالت لولدهـا الاكبـر « اصعد وغير ملابسك » فصعد معه هيو ، وبعد برهة أخـذ يضحـك ، وقـال :

ـ طاردتكم الأمواج حقا يا ولـــد .

فرد عليه بالايجاب وهو يبـــتسم ويتمطى بجسمه الذى أوشك أن يبلغ أشده ، قال هيـــو :

ـ كادت تطبـــق عليـــك .

ـ نعم ، ولـــو لم يمكنى جيمى من الجبـــل لكنـــت من الذاهبـــين .

ـ هل تشبـــثـــت بـــه ؟

ـ نعم وكأن جسمى يتأرجح فوق الصخور ، ولو رأيتنى يا ولدى أقوم بتلك الحركات لحسبتنى بهلواناً فى سيرك ، ثـــم طلب من أخيه أن يساعده على ارتداء سترته الصوفية الزرقاء ، فتعلق بها هيو وهو يشدها من فوق رأسه الى أن استوعبته .

ـ ولكن كم كنت أود أن ترى الأب وهو يخترق الامواج الى الشاطىء كأنه صاروخ .

ـ أفكان كذلـــك ؟

ــ نعم ، وقد كان من المظنون فى أول الأمر أنه سيتهشم بين الصخـــور .

وهنا دخلت الأم وسألتهما : ماذا تقولان ؟ فأجابها هيـــو بأنهما لا يقولان شيئاً ، فاستدارت الى ابنهـــا الأكبر وناولتـــه بعض الملابس الجافة ليرتديها قائلة : لا تتـــأخرا ان الشـــاى جـــاهـــز ينـــتظركمـــا .

الـــربـــاط **عبد المجيد ابن جلون**

أحمد بابا التمبكتي السوداني
في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط

د. شوقي عطا الله الجمل

التعـــريـــــف بــــه :

هو أبو العباس احمد بابا بن احمد بن احمد بن عمر بن محمد آقيــــت التكروري التنبكتي السوداني ، من اهـــل تمبكتـــو (Tombouctou) فى افريقية الفربية (1) واصله من كدالة الصنهاجية من قبيلة يقال لهـــا مسوفه ، ولذا اشتهر بلقب المسوفي الماسي (2) .

---

(1) انظر ـ سركيس ، يوسف اليان : معجم المطبوعات العربيــة والمعربــة (1928) جـ 1 ص 379 ، 380

ــ المحبى ، ابو عبد الله محمد : خلاصة الاثــر فى أعيــان القرن الحــادي عشــر (1284 هـ) (دار الصياد ـ بيروت) جـ 1 ص 170 .

ــ الكتاني ، عبد الحي : فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخــات والمسلســلات (1346 هـ) جـ 1 ص 76 .

Brocklemann, Carl : Geschichte Der Arabischen Literatur (Leiden 1938) vol. II ; P. 715.

(2) المراكشي ، عباس بن ابراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام (1936 م)
ــ ملاحظــة : لم اجد تفسيــرا مقنعــا لتلقيبــه (بالماســي) .

ويتعجب صاحب كتاب (الاعلام) من تلقيبه بالسوداني ، رغم انه – كما يقول – ليس من السودان ، فأصله الصنهاجي لا شك فيه (3) . وبالطبع لفظ (السودان) – وهو غير سودان وادي النيل – أطلق لفترة طويلة على منطقة شاسعة في غرب افريقيا يخترقها نهر النيجر ، وحين مد الفرنسيون نفوذهم مؤخرا في القرن التاسع عشر الى هذه الجهات اطلقوا عليها اسم (السودان الفرنسي) فكان وحدة اقليمية داخلة في نطاق افريقيا الغربية الفرنسية (Afrique Occidental Française — A.O.F.) فالاشارة هنا الى البلاد التي استقرت فيها اسرته كما سنوضح بعد .

هذا على ان احمد بابا – يعرف بنفسه في كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) فيقول : « يقول العبد الفقير لرحمة ربه القدير – احمد بن احمد ابن احمد بن عمر بن أقيت – عرف بابا – التكروري ، ثم التنبكتي المالكي – وفقه الله لرضاه ... » (4) .

واشتهر بالمالكي لأن هذا كان مذهبه الذي أخلص له كل الاخلاص – كما يقول هو في الكتاب السالف الذكر – (5) بل ان الكتاب كما سنوضح قصد به أن يترجم لبعض أعيان المالكية .

---

(3) نلاحظ آن المؤرخ – ابو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر ، السعدي صاحب كتاب (تاريخ السودان) ، هو أيضا من أسرة عربية استقرت في هذه البلاد ، وولد السعدي في مدينة تمبكتو (1596 – 1655) ، وعمل (كاتب عدل) في مدينة جني (Jenne) وكانت من مراكز العلم والحضارة الاسلامية في هذه البلاد ، واصبح بعد ذلك اماما في تمبكتو ، وشارك في الاحداث السياسية فيها – وكان متحيزا لتمبكتو – كما يظهر في كتابه – ويعتبرها من عواصم الاسلام الكبرى – وقد اشتهر هو الآخر بلقب (المؤرخ السوداني) .
وسنشير مرارا لكتابه ، الذي ارخ فيه لتاريخ السودان الغربي ، وعلمائه حتى سنة (1665) أي قبيل وفاته مباشرة لانه كان معاصرا لاحمد بابا ، وخصص للحديث عن أسرته بابا كاملا من كتابه (الباب العاشر) نقلا عن كتاب (الابتهاج بالذيل على الديباج). وقد عثر على ثلاث نسخ خطية لهذا الكتاب منها اثنان في المكتبة الاهلية بباريس – وقام هوداس بطبعه (بمطبعة بردين بمدينة ايجى عام 1898)
– للتعريف بالسعدي السوداني ، صاحب تاريخ السودان – انظر :
Bovill, E.W. : Caravans of the old sahara (London 1933) P. 192

(4) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (المطبعة الجديدة بفاس 1317 هـ – 1899 م) ص 2 .

(5) الكتاب السالف الذكر ونفس الصفحة .

أما لفظ التكروري فهو نسبة الى بلاد (التكرور) والحقيقة اننا لا نستطيع ان نعطي تحديدا دقيقا لهذه البلاد زمن أحمد بابا ، فرغم أن لفظ (تكروري والجمع تكارير) ورد في اكثر من مرجع لكن لم يستطع أي منها ان يعطينا تحديدا دقيقا لبلاد التكرور ، ومدلول اللفظ (6) .

والمؤرخون العرب من أمثال ابن خلدون ، والعمري ، والقلقشندي والمقريزي – وكذلك الاجانب استخدموا لفظ (تكرور)

---

(6) – يؤكد الفيروزبادي – في القاموس « أن التكرور بلد في المغرب » .

— أما ابن خلدون فقد ذكر ان التكرور ضمن شعوب السودان ، وفي تحديده لبلادهم ذكر « ان حدود هذه البلاد من جهة الشرق (دارفور ، وواداى ، وباجرمي) ومن جهة الشمال قفار ورمال – ومن جهة الجنوب بلاد كثيرة يسكنها أحلاف السودان ولم ينتشر فيها الاسلام كثيرا » .

— وأشار ياقوت – الى ان تكرور اسم مدينة ، ويطلق على القبائل في السودان في أقصى الجنوب من المغرب .
ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله الحموي : معجم البلدان ج 2 (1906) ص 399

— ويرجع ابن ابى زرع – الفضل في انتشار الاسلام بين التكرور الى جهود المرابطين.
ابن ابى زرع ابو العباس أحمد : الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (1843) ص 76 ، 84 .

— أما البكري فيشير الى اشتراك ملوك التكرور المسلمين مع المرابطين في حروبهم في الاندلس ، ولعل الاشارة هنا الى واقعة الزلاقة في 15 رجب 479 هـ (اكتوبر 1086) التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين على جيش الفونس السادس.
البكري ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (نشر البارون دى سلان) ص 172 – 174 .

— ويذكر (ترمنجهام) أن لفظ تكرور أصبح مرادفا للسودان الغربي الاسلامي
Trimingham, J. Spencer : History of Islam in West Africa (1962) P.P. 41-42.

— واعطى الرحالة السويسري (جون لويس بوركهارت) أكثر من تعليل لهذ الاسم فقد ذكر – لعله مشتق من الكلمة العربية (تكرار) وانه التصق بسكان غرب أفريقيا حيث اشتهروا بصبرهم واجتهادهم لتكرار الزيارة والحج .
أو لعله مرتبط بالكلمة العربية (تكرير) أي تطهير وتنقية لحرص هؤلاء القوم على تزكية وتنقية ايمانهم بالحج – على ان هذا كما نرى مجرد اجتهاد .
Burckhardt, J.L. : Travels in Nubia (London 1819) P. 404

— ويذكر الكعت التنبكتي – انه حين ذاعت شهرة مملكة صنغاي ، ولما قام اسكيا محمد الكبير في عام 1496 برحلة الحج عينه الخليفة العباسي خليفة لبلاد التكرور – لكنه لم يحدد لنا موقع هذه البلاد .
محمود كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش واكابر الناس (ترجمة هوداس ، ودى فوس) ، (باريس 1913) ص 11 .

للدلالة على معنى عام ، فلم يحاول احد منهم تحديد موقع معيـــن لمدينـــة تكرور او للبلاد التي يطلق عليها (بلاد التكرور) (7) .

هذا وينتمي احمد بابا الى الى بيت علم وصلاح ، توارث العلم فيـــه نحو خمسمائة سنة ، وقد ذكر فى (نيل الابتهاج بالذيل على الديبـــاج) ــ جماعة من اقاربه الذين تقدموا فى العلم وعرفوا به ، وتولوا خطة القضاء فى بلدهم ، وهم يتعدون مجال الحصر ، وكما اشرت سابقا نقل عنه صاحـــب تاريخ السودان هذه النبذة عن هذه الاسرة وخصص لها بابا منفصلا وذلك تقديرا لمكانة هذا البيت العلمية ، ولنزاهتهم فقد كانوا كما ذكر ــ لا يخافون فى الحق لومة لائم يهابهم الخلق كلهم ــ السلطان فما دونه (8) .

ويحدثنا احمد بابا عن والده ــ فيذكر انه كان صلبـــا فى الحـــق ، يغلظ للملوك فما دونهم وكانوا ينقادون له أعظم الانقياد ، ويزورونه فى داره، ولما مرض فى (كاغ) فى بعض أسفاره كان السلطان الاعظم اسكيـــا داود يأتي اليه بالليل ليسهر ويسمر عنده ــ تعظيما لقدره ، فقد كان مشهـــور القدر وافر الجاه بحيث لا يعارض ، محبا لاهل الخيـــر متواضعا لهـــم ، لا ينطوي على حقد لأحد ، منصفا للناس ، جماعا للكتب ، وافر الخزانـــة ، خزانته محتوية على كل علق نفيس ، سموحا باعارتها . . . رحـــل للشرق سنة ست وخمسين وتسعمائة ، فحج وزار . . . وتوفي ليلة الاثنين سابع عشر شعبان عام احدى وتسعين وتسعمائة ، ثقل عليه لسانه وهـــو يقـــرأ صحيح مسلم فى الجامع (9) .

فى هذا الجو العلمي ، وفى بيت العلم ــ الذي كما يقـــول صاحـــب الاعلام ــ جمع فيه الاجداد للاحفاد ، والادباء للابناء ــ ولـــد احمد بابـــا وترعرع وشرب من لبان العلم ونهل من مناهل المعرفة الصافية (10) .

---

(7) انظـــر ما كتـــب عـــن لفـــظ (تكـــرور) فى :
Cambridge, History of Islam (1970) vol. II PP. 347-360

(8) السعدي ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران : تاريخ السودان (نشر هوداس 1898 ص. 37 – 48 .

(9) نفس المرجع السابق ص 42 (نقلا عن نيل الابتهاج بالذيل على الديباج)

(10) المراكشـــي : الاعـــلام ــ مرجـــع سابـــق ص 100 .

وكانت ولادته في قرية (أروان) (11) في ليلة الاحد 21 ذي الحجة عام 963 هـ (26 اكتوبر 1556) .

وقد أشار الى تاريخ ولادته هذا كل من اليفراني ، (12) والمحبي (13). لكن القادري يذكر ان ولادته كانت سابقة لهذا التاريخ في عام ستين وتسعمائة (14) . وفي مجال ترجيح أحد التاريخين تشير دائرة المعارف الاسلامية الى انه يلاحظ ان 21 ذي الحجة عام 963 هـ يوافق يوم الاثنين، بينما يوافق هذا اليوم من عام 960 يوم ثلاثاء (15) .

ولعله هو يحسم هذا الموضوع فقد ذكر في آخر (كفاية المحتاج) «مولدي كما وجدته بخط والدي ليلة الاحد الحادي والعشرين من ذي الحجة عام ثلاث وستين وتسعمائة هـ » .

هذا واذا حاولنا ان نتتبع أحمد بابا في شبابه فلعل ما ذكره في الكفاية يعطي صورة عن نشأته ، وعمن أخذ عنهم من الاساتذة والفقهاء وعما قرأه واستوعبه من أمهات الكتب ، فهو يقول : « نشأت في طلب العلم ، فحفظت بعض الامهات ، وقرأت النحو على عمي ابى بكر الشيخ الصالح ، والتفسير

---

(11) انظر موقعها على الخريطة المرفقة .

(12) اليفرني ، محمد الصغير المراكشي : نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي (المطبعة الحجرية بفاس) ص 81 ، 82 .

— ونفس المؤلف : صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر ـ نسخة خطية بوثائق الرباط رقم 54 / د ص 65 .

(13) المحبي ـ مرجع سابق ج 1 ص 170 .

(14) القادري ، محمد بن الطيب : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (فاس 1310 هـ) ج 1 ص 151 .

— ونلاحظ أن القادري كثيرا ما أخذ عن مؤلفات احمد بابا (نيل الابتهاج بالذات) ويشير الى ذلك .

(15) دائرة المعارف الاسلامية ـ العدد الاول ص 457 .

والحديث والفقه والاصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها — على شيخنا العلامة (بغيع) ولازمته اكثر من عشر سنين ، فقرأت عليه بلفظي (مختصر خليل) ، وابن الحاجب — قراءة بحث وتحقيق وتحرير وختمتهما عليه ، أما خليل فمرارا عديدة — نحو عشر مرات او ثمان بقراءتي وقراءة غيري ، وحضرت عليه التوضيح كذلك ، ولم يفتني منه الا يسير من الوديعة الى الاقضية ، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم ، وحضرته كثيرا فى المنتقى والمرونة بشرح المجلى ثلاث مرات ، والفية العراقي فى علم الحديث مع شرحها ... وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين ، ومختصر السعد ، وصغرى السنوسي ... وقرات عليه حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه .. والهاشمية فى التنجيم مع شرحها ، ومقدمة التاجوري ، ورجز المغيلي فى المنطق ، والخزرجية فى العروض ، وكثيرا من تحفه الحكام لابن عاصم فى الاحكام مع شرح ولده عليها ، وسمعت بقراءته هو كثيرا من البخاري ... ومدخل ابن الحاج ، ودروسا من الرسالة ، والالفية وباحثته كثيرا فى المشكلات ، وراجعته طويلا فى المهمات — فهو شيخي واستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه رحمه الله ، وأجازني فى جميع ما يجوز له وعنه ، وكتب لي بخطه فى ذلك . وأوقفته على بعض تآليفي وتقاييدي فكتب لي بخطه الثناء والموافقة ... وسمعته ينقل فى دروسه بعضها ، لانصافه وتواضعه وقوله الحق ... وأخذت عن والدي الحديث سماعا ، والمنطق ، وقرأت الرسالة ، ومقامات الحريري تفقها على غيرهم ، واشتهرت بين الطلبة بالمهارة على كلال ومهل فى الطلب — والفت عدة كتب تزيد على اربعين تاليفا ... » (16)

---

(16) كفاية المحتاج بما ليس فى الديباج ، نسخة خطية (غالبا بخط المؤلف) تحت رقم — ك 390 وثائق الرباط .
— السعدي ، مرجع سابق ص. ص 45 ، 46 .
— المراكشي : الاعلام ، ص. ص 100 ، 101 .

ويعطينا أحمد بابا فى هذا الحديث صورة عن مدى ما وصل اليه من علم وثقافة والمام بأمهات الكتب والاصول ، ولا شك فى ان اشارته الى ما اشتهر به بين الطلبة من المهارة ، ومن الصبر والجلد والتمهل فى طلب العلم والمعرفة — هو اقل ما يمكن أن يوصف به فقد وصل الى ما وصل اليه من منزلة علمية رفيعة عرف بها على مر السنين فذاع صيته واصبح علما فى العالم الاسلامي وخارجه — عن جهد وبذل وتفان فى سبيل العلم وداب على أن ينهل من ينابيع المعرفة المعروفة فى وقته مع ذكاء خارق اشار اليه كل من عرفه او كتب عنه .

والحقيقة اننا نعلق اهمية كبيرة على اشارته الى اساتذته الذين اخذ منهم ، والكتب التي كانوا يتناولونها مع طلبتهم بالشرح والدرس ، والطريقة التي كانوا يعالجون بها ذلك ويناقشون القضايا الهامة ، والتي كانوا يجيزون بها طلبتهم ، واشارته الى شيخه الذي لازمه واخذ عنه ، وكيف ان هذا الشيخ قرأ له بعض ما الف وكتب واستحسنه واقره عليه وكان الشيخ يشير فى مجالسه العلمية الى ما كتبه والفه تلميذه .

فهو من هذه الايضاحات يعطينا صورة لمجالس العلم والطريقة التي كانت تنتشر بها الثقافة الاسلامية على وجه الخصوص فى عصره فى هذا المجتمع الاسلامي — وهذه الصورة تؤكد ما سبق ان اشرنا اليه من ان (جنى) ، و (تمبكتو) كانتا فى ذلك الوقت من مراكز العلم والحضارة الاسلامية رغم أن الاضواء لم تركز عليهما كغيرهما من مراكز الحضارة الاسلامية فى العصور المختلفة ، ولعل دراسة ما بقي لنا من مؤلفات علماء غرب افريقيا فى المستقبل تضيف أضواء اكثر على الدور الثقافي والحضاري الذي قامت به هذه البلاد فى عصور مجدها ورفعتها — فلا شك فى ان معلوماتنا عن الاوضاع فى المناطق الداخلية بغرب افريقيا التي قامت فيها امبراطوريات

اسلامية قوية لها حضارتها وتاريخها لا زالت غير كاملة وغير دقيقة رغم ما كتبه عنها بعض الرحالة العرب على وجه الخصوص (17) .

ولعله مما يدعو للتعجب حقا انه رغم قيام ممالك وسلطنات قوية وغنية وعلى قدر كبير من الحضارة فى هذه المناطق بشمال غرب افريقيا ، ورغم

---

(17) كان لعرب المغرب والاندلس دور كبير فى نشر الاسلام والحضارة الاسلامية فى اقاليم السودان الغربي ، وساهم ذلك فى ظهور الدول الاسلامية العظيمة التي تقع عواصمها على طول خط الالتقاء بين الصحراء وبلاد السودان ـ انظـر :
— صفى الدين ، محمد : افريقيا بين الدول الاوربية (القاهرة 1951) ص 51 .
ونشير فى هذا المجال الى ان طرق القوافل عبر الصحراء فى افريقيا الغربية كانت مطروقة ومعروفة ، وقد قام عدد كبير من الرحالة العرب المغاربة والاندلسيين بالذات برحلات كشفت لنا عن كثير من معالم وحضارة هذه المنطقة من غرب افريقيا ـ واذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ممن نشرت رحلاتهم عن هذه الجهات :
— البكري (ابو عبيد الله) (1028 ـ 1094 م) . المسالك والممالك وقد خصص جزء للسودان الغربي باسم (تذكرة النسيان فى اخبار ملوك السودان) .
— الادريسي (محمد بن عبد الله بن ادريس) ولد بسبتة 1100 م) : صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ـ ليدن 1896 .
— ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن بطوطة) (1304 ـ 1377) . وقد زار السودان الغربي ووصل الى سجلماسة ، تمبكتو ، تاكدا ـ وابحر فى النيجر .
— حسن بن الوزان (ليون الافريقي) (ولد فى غرناطة 1498) ، وقد ارسل من شريف (فاس) الى دولة صنغاي ، وقام برحلة زار فيها سجلماسة ، وتمبكتو ، ومملكة مالي ، وبلاد الهوسا ، وبورنو وكتب لنا فى كتابه (تاريخ ووصف افريقيا) معلومات قيمة عن هذه البلاد .
(ارجع ما كتبه صاحب هذا المقال عن الحسن بن محمد الوزان ـ فى العدد الثاني من مجلة المناهل ص. ص 236 ـ 286) .
— عن طرق القوافل الرئيسية والفرعية التي كانت تربط شمال غرب افريقيا بالعالم الخارجي ـ انظر الخريطة الملحقة بهذا المقال .
ملاحظة : قدم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ـ بصفته ممثلا لجامعة محمد الخامس المغربية ـ بحثا بمؤتمر الدراسات الشرقية الدولي السابع والعشرين الذي انعقد بجامعة آن ابر بميشيغان بالولايات المتحدة فى اغسطس 1967 عن مؤلفات علماء غرب افريقيا فى المكتبات المغربية ـ اشار فيه على وجه الخصوص الى مؤلفات (الشيخ المختار الكنتي التنبكتي) واولاده واحفاده ـ مثل كتاب (جذوة الانوار) للمختار الكنتي وفتح القدوس فى الرد على ابى عبد الله محمد اكنسوس) لاحمد البكاى بن محمد بن المختار الكنتي بالاضافة الى عدد آخر من علماء غرب افريقيا .
ولا شك فى ان الدراسات الواعية لمؤلفات علماء غرب افريقيا ـ سواء التي تحتضنها المكتبات المغربية او التي توجد فى المكتبات العالمية الاخرى ـ ستسهم فى وضع الحضارة التي ازدهرت فى هذه البلاد فى وضعها الصحيح .
انظر نص المحاضرة المشار اليها فى : ـ دعوة الحق ـ العدد الاول : السنة الحادية عشرة ـ شعبان 1387 (نوفمبر 1967) ص 84 وما بعدها .

جهود الرحالة العرب الذين تعددت رحلاتهم اليها منذ القرن العاشر الميلادي فحتى القرن التاسع عشر كانت معلومات الاوربيين عن غـــرب افريقيا لا تكاد تتعدى السواحل ، اما المناطق الداخلية من شمال غرب القارة فكانت معلوماتهم عنها مشوشة وغير دقيقة ــ وقد اشار الى هذه الحقيقة الكاتب الانجليزي بوفل (BOVILL) الذي يعتبر فى مقدمة الكتاب الاجانب الذين كتبوا عن الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا فقد قال : « اننا ندين بمعلوماتنا كلها عن التاريخ المبكر للمناطق الافريقية الواقعة جنوب بلاد المغــرب الى فئة قليلة من المؤلفين والرحالة العرب من أهمهم المسعودي ، وابن حوقل ، والبكري، والادريسي، وياقوت، والعمري، وابن بطوطة، وابن خلدون » (18)

ولعله مما يتصل بهذه الحقيقة المتعلقة بالجهل بما وراء الســواحـــل الغربية للقارة أن مشكلة النيجر ــ ثالث انهار افريقيا بعد النيل والكنغو ــ والذي يمتد فى غرب القارة على شكل قوس ، ومنابعه واتجاهه هل هـــو للشرق أم للغرب ، وعلاقته بالنيل ، والسنغال وغيرهما من المجاري المائية فى القارة ــ ظلت قائمة حتى القرن التاسع عشر الميلادي (19) .

فلا شك أن الدراسة العميقة ، والتحليل الدقيق لما كتبه احمد بابا يمدنا بمعلومات قيمة وفريدة عن الاوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية فى هذه الممالك الاسلامية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهي

---

(18) Bovill, E.W. : the golden trade of the Moors (London 1958) P. 60
ترجم هذا الكتاب د. زاهر رياض باسم (الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا وأثرها فى تجــارة الذهــب عبــر الصحراء الكبــرى (القاهــرة 1968) .
— ولنفس المؤلف كتاب آخر متعلق بنفس الموضوع سنشير اليه فى مواضع اخرى مــن هــذا البحـــث هـــو :
Bovill, E.W : Caravans of the old sahara (London 1933)

(19) نلاحظ ان ـ أبا فارس عبد العزيز الفشتالي صاحب كتاب (مناهل الصفا فى مآثـــر موالينا الشرفا) ـ والذي كان وزير القلم فى دولة المنصور ، ومن خاصة المقربين اليه ـ يخلط بين النيل والنيجر ـ فيتحدث عن ممالك السودان الغربي الي يخترقها بحر النيل نهر « الجنة » وعن « انشاء جؤدر باشا الاساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصوى » ، لكنه يعود فيتحدث عن (نيل مصر الذي يجري من الجنوب الى الشمال) و (نيل السودان الذي يجري من الشرق الى الغرب) ـ أنظر طبعـة وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ـ بالرباط ص. ص 145 ، 147 ، 166 .

كما قلنا دراسات لا زالت مراجعنا عنها غير كافية ـ هذا بالاضافة الى القيمة العلمية لكتابات احمد بابا وأمثاله من المعاصرين والذين عاشوا هذه الاحداث واسهموا فيها خاصة اذا تميزوا بما اشتهر به من دقة الملاحظة والصدق والصراحة والامانة فيما يورده من أخبار وسنشير لهذا بشيء من الايضاح عند استعراضنا لمؤلفاته .

الظروف التي جاء فيها أحمد بابا الى المغرب :

علاقة هذه الاسرة الكبيرة بالمغرب علاقة قديمة ، فهو يذكر لنا أن بعض أفراد أسرته جاءوا الى المغرب وكان لهم نشاطهم فيه ـ فمثلا (عبد الله بن عمر بن محمد أقيت) شقيق جده جاء الى المغرب ودرس بمراكش فترة ثم عاد لبلده تمبكتو أو (تنبكت) كما يذكرها حيث توفى فى عام 940 هـ .

لكن الظروف التي جاء فيها أحمد بابا نفسه الى المغرب ـ كما سنوضح ـ كانت ظروفا قاسية بالنسبة له ، وتركت فى نفسه أثرا أليما .

كان ذلك في عهد المنصور السعدي حين نشب الخلاف بين المغرب ودولة صنغاي أو مملكة (كاغر) كما يسميها الفشتالي ، والسعدي ـ وترتب على ذلك دخول القائد المغربي (محمود زرقون) مدينة تمبكتو حيث قبض على أحمد بابا وافراد أسرته واقتيدوا الى (مراكش) فدخلوها فى اول رمضان عام 1002 (21 مايو 1594) ـ وقيل ان السبب فى القبض عليهم وترحيلهم الى المغرب انهم رفضوا الاعتراف بسلطان المنصور على بلادهم ودعوة الناس الى ذلك . ولقد فقد احمد بابا فى هذه الرحلة ـ كما يقول هو ـ ستمائة والف مجلد من الكتب والمؤلفات التي كانت تحتويها خزانته ومما ورثه من أسرته ـ فقد كان الامر ان يقتادوا ومعهم كتبهم ، كما سقط أثناء الطريق عن ظهر جمل فكسرت ساقه (20) .

---

(20) دائرة المعارف الاسلامية ـ العدد الاول ص (458)
— وانظر اليفراني : الصفوة ـ النسخة الخطية السابق الاشارة اليها ص 66 .

وهو لا يذكر لنا كيف فقد كتبه هذه ولا الظروف التي أحاطت بسقوطه من على ظهر الجمل ، لكن لا شك فى ان هذه الظروف التي ألمـــت به فى رحلته هي التي جعلته يشعر فى نفسه بالمرارة طوال مدة اقامته بالمغرب حتى غادر مراكش الى بلاده كما سنوضح .

وبالطبع ليس هذا مجال الحديث بالتفصيل عن دوافع تفكير المنصور فى غزو السودان وعن المراحل التي مرت بها الحملات التي أرسلت لهـذا الغرض ـ لكننا نشير فقط لبعض الاحداث المتصلة بهذه الحملات لارتباطها بموضوع حديثنا (21) .

ويشير صاحب تاريخ السودان الى ان السلطـــان احمد المنصـــور الذهبي كتب الى اسكيا اسحاق بن داوود بمدينة (كاغ) ليسلم له فى خراج معدن الملح فى تغاز ، وذلك لانه أولى به لانه الحاجز والمانع لهم من الكفرة ـ ويذكر انه وقف على هذا الخطاب بعينيه ـ لكن اسكيا اسحق لم يسعفه بما طلب من التسليم فى ذلك المعدن بل قبح له الكلام وبعث له صحبة رده حرشانا ونعلين من حديد ـ فلما وصل ذلك المنصور عـزم على صـــرف المحلة اليه بالغزو . وفى شهر المحرم الحرام فاتح التاسع والتسعين بعد

(21) من يريد التوسع فى تفاصيل حملات السودان ـ فليرجع الى :

— السعدي ، مرجع سابق (تكلم عن ملوك السودان وعلمائه حتى سنة 1654 م)

— الفشتالـــي ـ مـرجــــع سـابـــق .

— Bovill E,W. : The Moorish Invasion of the Soudan (The Journ. of the African Soc. 1927 XXVI P.P. 245-292 and 380-387 XXVII P.P. 47-56)

— Delafosse ; M. : Les relations du Maroc avec le Soudan (Hesp. 1924, P.P. 153-174)

— DeCastries : La conquête de Soudan (Hesp. 1923 P.P. 488)

— DeCastries : Kabara et Karabara (Hesp. 1925 - P.P. 125-128)

التسعمائة بعث المحلة الكبيرة لقتالهم وعليها الباشا جودار ومعه نحو عشرة من القواد (22) .

ويحدثنا صاحب مناهل الصفا عن مجلس الشورى الذي عقده المنصور لأخذ رايه ـ قبل انفاذه لجيشه ، ويذكر ان الحاضرين احتجوا بوعورة الطريق ، اذ أنها مجاهل لا تشقها القوافل الا بعد عصب الريق ... فكيف العساكر الجرارة ... وان الدول السابقة كدولة الملثمين والموحدين، ودولة بني عبد الحق ، وبني مرين .. لم يخطر ذلك لهم على بال ، ولا طاف بهم الامل حوله شوطا ، ولا حاك لاحد فى هاجس . لكن المنصور افحمهم بالقول ان التجار يعبرون هذه الطرق ببضائعهم الثقيلة ، لكنه هو اقوى استعدادا من استعدادهم وأقدر على الاهبة التامة منهم ... أما عن هذه الدول التي ذكروها فقد شغلت بملوك الافرنج والاندلس ، وبالثورات والفتن الداخلية بما استنفد قوتهم واستغرق أيامهم ... كما انه لم تكن لهم عساكر مسلحة بالاسلحة النارية المرهوبة والصواعق القاصفة الرعود ، بل كانت عساكرهم الخيل والفرسان المسلحة بالرماح ... وان ممالك السودان

---

(22) السعدي ، مرجع سابق ص 138 .

ملاحظات : 1 ـ أشار الحسن بن الوزان (ليون الافريقي) الى الملح فى تغازى، وقد مر بها فى طريقه الى السودان وذكر « انه فى هذه المنطقة مخزن كبير للملح ، وهو هناك أثمن من المرمر ، وهذا الملح يؤخذ من كهف او حفر تقع عند مدخلها أكواخ العمال الذين يعملون فى مناجم الملح ، ويباع الى تجار يحملونه على الجمال الى مملكة تمبكتو حيث الملح نادر ندرة شديدة » .

The History and Description of Africa (1896) P. 823

2 ـ أشار الرحالة بارث (Barth) الذي زار مناطق شمال وغرب أفريقيا فى وقت متاخر فى القرن التاسع عشر عند حديثه عن مدينة (جنى) ان ثروتها تتركز على الملح الذي يرد من (تغازى) بالاضافة الى الذهب

— Barth, H. : Travels and discoveries in North and central Africa (1849-1855) (London 1857/58) vol. IV P. 582

3 ـ يذكر بوفل (Bovill) « ان اسكيا لم يكتف بالرد العنيف على خطاب المنصور بل ارسل الفين من الطوارق ليغيروا على (درعة) ، ولينهبوا ما يمكن نهبه ، بل وان يصعدوا فى اعمالهم التخريبية هذه حتى أبواب مدينة مراكش ان أمكنهم ذلك »

Bovill, E.W. : The golden trade of The Moors (London 1958) P. 142

احق واولى بالتفات العزائم فهي وان كانت صعبة المرام ـ فانها غزيـــرة النفـــع واقـــوى بمعادنها (23) .

ويذكر (بوفل) ان المنصور أوضح لحاشيته ان فتـــح الســـودان سيعطي القوة لجيوش الاسلام ، كما سيرفع روح المسلمين الحقيقيـــة ، وذكر ان اسكيا تنقصه مزايا الملك الضرورية ، كما انه ليس قرشيا ، فليس له الحق فى أن يحكم هذا البلد الاسلامى ـــ ويقول انه ازاء هذه الآراء التى أبداها الملك انفض اعضاء المجلس الاستشارى وهم يرددون المثـــل الذى عبـــر عنـــه هوداس بالفرنسية .

« Les esprits des princes sont les princes des esprits ».

اي « عقل الامير (رأيه) هو أمير (سيد) العقـــول » .

ويشير الى اسباب اخرى لحملة المنصور على صنغاي فيذكر الآثار المترتبة على موقعة وادي المخازن ، التي ملأت السلطان المغربي بالثقـــة فى نفسه وفى جيشه ، ويرجع تعاليه ـ كما يقول ـ والجفاء الذي قابل به مندوب السلطان العثماني الى هذه العوامل النفسية ـ ويذكر ان المنصور وجد بعد ذلك ان من الاصوب ان يصفي مشاكله مع الاتراك العثمانييـــن ـ لكن كان عليه ان يفكر فى مجال آخر يشغل قواته الظافرة والتي كان يحرص على ان تكون دائما على أهبة الحرب والقتال (24) .

واذا كان السعدي المؤرخ السوداني ـ لا يعطينا تفصيلات عن خط سير الحملة المغربية فان (بوفل) يشير الى الطريـــق الـــذي سلكتـــه (مراكش ـ لاكتـــوا Lektawa فى أعالـــي وادي درعة ـ تندوف ـ تغازى ـ تاودينى Taodeni ـ كابـــارا (Kabara (25) .

(23) الفشتالـــي ـ مرجـــع سابـــق ص. ص 126 ـ 129 .
(24) Bovill, E.W. : Caravans of the old Sahara (1933) P. 155
(25) Bovill, E.W. : The golden trade of the Moors P. 151
وانظـــر خـــط سيـــر الحملـــة على الخريطـــة المرفقـــة بالمقـــال .

ويذكر السعدي ان الجيشين التقيا فى السابع عشر من جمادى الاول عام 999 هـ (مارس 1591) قرب تنديبي (Tondebi) على بعد خمسة وثلاثين ميلا من (جاو) ، وقد لحقت الهزيمة بجيش اسكيا فى هذه المعركة (26) .

ودخل جودر وجيشه (جاو) وكان يعتقد انه سيجد مدينة كبيرة ذات مباني ضخمة تأخذ مفاتنها بالابصار ، لكنه صدم حين وجد بدلا من ذلك مجموعة من الاكواخ مبنية من الطين ولا أثر للثراء بها (27) .

وعرض اسكيا شروطا لعقد صلح بين الطرفين على أساس ان يدفع مائة الف مثقال من الذهب وألف من الرقيق ، على ان يرجع الجيش المغربي الى مراكش ، وقبل جودر باشا العرض فى انتظار رد السلطان احمد المنصور .

ويذكر (بوفل) ان تمبكتو كانت فى ذلك الوقت الذي حاول المنصور فيه مد نفوذه للسودان ـ العاصمة الثقافية للاقليم ، بل كان يقصدها طلاب العلم من البلاد البعيدة ، ويقول ان أجمل مبانيها كان مسجد سانكور (Sankore) الذي كان لا يزال يسمو على كل مبنى آخر ـ لكن جودر ورجاله الذين عرفوا المباني الضخمة التي تتمثل فى الكتبية فى مراكش لم تكن مباني مسجد سانكور لتثير انتباههم (28) .

على أن المنصور غضب غضبا شديدا حين علم ان قائده قبل الصلح وترك لعدوه فرصة الافلات من قبضته ـ ولذا تقرر ارسال قائد آخر ليحل محله ويقوم بتنفيذ الاهداف التي رسمت للحملة ، ولذا وقع الاختيار على (محمود زرقون) ليقوم بهذه المهمة فجاء الى السودان وتسلم القيادة ، ثم خرج بجيشه متعقبا اسكيا اسحق ، وانتهى الامر بالقضاء على جيش صنغاي وهروب اسكيا وقتله بيد بعض افراد من قبائل الطوارق ـ وعين القائد

(26) السعدي ، مرجع سابق ص. 140 .

(27) — Bov'll ; E.W. : The golden trade of the Moors P. 27
— The Cambridge history of Islam vol. II P. 360

(28) — Bovill, E.W. : The golden trade of Moors P. 59.

محمود (سن ولد اسكيا داوود) ليحكم تمبكتو باسم السلطان احمد المنصور ـ لكن الفوضى عمت البلاد بسبب غارات الطوارق على المناطق المزروعة والفنية ، كما ظهر بين شعب الصنغاي ثائر جديد هو (أسكيا نوح) ، فاضطر القائد المغربي محمود بن زرقون ان يشن على تمبكتو هجوما عنيفا ودخل المدينة وفتك بعدد كبير من الصنهاجيين . وكما يقول صاحب تاريخ السودان : « انه استباح الاموال والثروات لكنه أفسد جميع الاموال التي صادرها وشتتها شذرا مذرا وتكرم بجزء منها للرماة ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد الا مائة الف ذهبا » (29) .

وقبض القائد محمود بن زرقون على العلماء ورجال الرأي الذين نقوا احياء من اهل تمبكتو وأرسلهم فى القيود الى مراكش .

ويشير احمد بابا فى ذيل الديباج الى هذه المحنة فيذكر « انه هو وطائفة من اهل بيته أمتحنوا بثقافهم فى بلدهم فى محرم عام اثنين والف على يد محمود بن زرقون لما استولى على بلادهم وجاء بهم أسارى فى القيود فوصلوا مراكش أول يوم من رمضان من العام المذكور (موافق 21 مايو 1594) واستقروا مع عيالهم فى حكم الثقاف ـ الى أن انصرم امر المحنة فسرحوا يوم الاحد الحادي والعشرين لرمضان عام اربعة والف (موافق 19 مايو 1996) ففرحت قلوب المؤمنين بذلك ـ جعلها الله كفارة ذنوبهم » (30) .

هذا ويذكر (بوفل) قصة متصلة باعتقال احمد بابا وأسرته ـ فيقول « ان القاضي عمر بن محمود ـ قاضي تمبكتو (31) ـ ارسل فى نهاية عام

---

(29) السعدي ، مرجع سابق ص. ص 168 ، 171 .

(30) كفاية المحتاج ـ النسخة الخطية المشار اليها سابقا ص 277 .

(31) يذكر الفشتالي نص خطاب من انشائه هو ـ أرسله المنصور لهذا القاضي ـ فى بداية الحملة ـ يقيم فيه الحجة ، ويوضح معالم الشرع والسنة والكتاب على وجوب بيعة المنصور وطاعته والانخراط فى سلك الجماعة بالانقياد لدعوته النبوية . ويدعو القاضي لتوضيح ذلك للناس .
— الفشتالي ، مرجع سابق ص 131 .
— واليفراني : نزهة الحادي (المطبعة الحجرية بفاس) ص. 81 .

(1592) رسلا الى السلطان المنصور ليضعوا تحت انظاره ما لاقاه الاهالي من عنت على يد القائد محمود بن زرقون ، وان الرسل استقبلوا فى القصر السلطاني استقبالا وديا ، واعيدوا ومعهم قاض يسمى (بوختيار) يحمل امرا مشددا بحسن المعاملة لعمر وشعبه ــ لكنهم بعد أن وصلوا (تغازى) علموا انهم خدعوا ، وان المنصور أرسل خلفهم رسولا بأوامر مغايرة تقضي بالقبض على عمر وعلى كل علماء تمبكتو وارسالهم وأسرهم وكتبهم وما يملكون الى مراكش عبر الصحراء ، ونفذ الامر . ويذكر انهم لما كانوا ينتمون الى الطبقة المثقفة الثرية ــ فانهم لم يتحملوا وعورة الطريق والرحلة التي ارغموا على القيام بها ، ولا سيما أنهم كانوا قد قبض عليهم ووضعوا لعدة اشهر فى السجن مثقلين بالسلاسل ــ ولذا فقد مات منهم كثيرون وان كنا لا نعرف عددهم بالضبط ــ لكن عمر رغم صحته المعتلة وكبر سنه فقد اكمل الرحلة هو واحمد بابا المؤرخ المشهور والذي فقد فى هذه الرحلة كل أعماله فلم يبق منها شيء » (32) .

واذا ربطنا بين الخطاب الذي أشار اليه الفشتالي والذي طلب فيه المنصور من القاضي عمر الدخول فى طاعته ودعوة الناس الى ذلك ــ وبين الاحداث المتصلة باعتقال القاضي وعلماء تمبكتو وابعادهم الى مراكش ــ يمكن ان نستنتج ان اعتقال هؤلاء العلماء وابعادهم عن بلادهم يرجع الى ما كان لهم من نفوذ وتأثير على مواطنيهم ، وانه كان يخشى من مقاومتهم للجيش المغربي ودعوتهم مواطنيهم لذلك بعد أن اتضح عدم انقيادهم لما دعاهم اليه السلطان المغربي من الطاعة ودعوة الاهالي لذلك .

ويذكر لنا المراكشي ان احمد بابا استدعي لمقابلة احمد المنصور فى قصر البديع وانه لما دخل عليه وجده قد اتخذ حجابا بينه وبين الناس ، وهو من وراء (الستار) يتكلم ــ فقال الشيخ « الا ان الله تبارك وتعالى يقول : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب) وأنت تشبهت برب الارباب ، فان كانت لك حاجة فى الكلام معنا فانزل لنا وارفع الحجاب عنا » . فنزل السلطان فقال له احمد بابا (اى حاجة فى نهب

---

(32) Bovill : Caravans of the old Sahara P. 174.

امتاعي وتصفيدي من تنبكت الى هنا حتى سقطت من على ظهـــر الجمــل وانكسرت رجلي ؟) فقال له السلطان (اردنا كي تجتمع الكلمـــة) ـ فقال الشيخ (هلا جمعت بترك تلمسان وما يليها من البلدان فانهم اقرب اليك منا) فقال له السلطان قال النبي صلى الله عليه وسلـــم (أتركوا التـــرك مـا تركوكم ـ فامتثلت للحديث) فقال له الشيخ (ذلك زمان ـ وبعده ـ قال ابن عباس لا تتركوا الترك ولو تركوكم) فسكـــت السلطان ولـــم يجـــد جـــوابـــــا (33) .

وهذا الحديث الطريف بين المنصور الذهبي واحمد بابا يعكس بعض الآراء التي اثيرت حول حملة احمد المنصور للسودان ، وقد اشار الفشتالي اليها عند حديثه عن المناقشات التي دارت في مجلس الشورى الذي عقده المنصور لأخذ رأيهم في أمر الحملة ، فقد أشار بعضهم الى وجود الاتراك في تلمسان وانه من الاسلم ان توجه الجهود لطردهم من هذه الجهات بدلا من توجيــــه الحملات الى هذه البلاد النائية (34) .

وهذا يدل على ما كان يتصف به احمد بابا من جرأة في التعبير عمـــا يعتقد انه صواب دون ان يهاب أحدا .

وقد قضى أحمد بابا سنتين تقريبا منذ وصوله الى مراكش حتـــى اطلق سراحه بها على أن يغادر قصبة مراكش (من اول رمضان 1002 الى الحادي والعشرين من رمضان سنة 1004) ،لكن لم يســمـــح له بمغادرة مراكش الى بلاده الا بعد وفاة المنصور ـ فأذن له ولده زيدان في عـــام 1014 (1605 ـ 1606) بالرجوع الى وطنه هو ومن بقـــي من أسرتـــه فانفصل عن المغرب الى وطنه تمبكتو (35) .

---

(33) المـراكشـــي ، الاعـــلام ص 103 .
— واليفرانـي : نزهـــة الحـادي ص 88 .
(34) الفشتـالـــي ، مـرجـــع سـابـــق ص 126 .
(35) المـراكشـــي ، مـرجـــع سـابـــق ص 103 .
— والزركلـي ، خير الدين : الاعـلام (الطبعة الثانية) ج 1 ص 98 .

وعلى ذلك فما ذكره (بوفل) من ان القاضي عمر أطلق سراحه في عام 1596 ـ لكن احمد بابا ظل سجينا حتى اطلق سراحه مولاي زيـــدان في (1607) وانه بعد مغادرته قصبة مراكش عاد مباشرة الى تمبكتو ـ غيـــر صحيـــــح (36) .

ولا شك في ان العشر سنوات التي قضاها في المغرب منذ ان اطلق المنصور سراحه في (1596) حتى مغادرته المغرب في (1605 ـ 1606) تهمنا بصفة خاصة لانها كانت سنوات مثمرة ، وقد ترك فيها في المغـــرب أثارا فكرية وعلمية لا تمحى ، فقد ألف فيها وانتج واخرج اكثر من مخطوط من روائع مؤلفاته ، كما عكف طوال هذه المدة على التعليم في جامع الشرفاء بمراكش وكان يستمع لدروسه خلق كثير برز منهم عدد غير قليل نذكر منهم الرجراجي ومفتي فاس ، والقاضي ابا القاسم بن ابي نعيم الغساني ، وابا العباس احمد بن القاضي صاحب جذوة الاقتباس ـ كما كان يعهد اليـــه بالافتاء في عدة مسائل فيجيب على مضض ـ كما يقول (37) .

وقد تحدث (ابو عبد الله محمد بن يعقوب المراكشي) في فهرسته عن هذه الفترة التي قضاها احمد بابا في المغرب ، وعن الاثر الذي تركه ، وعمن درس على يديه ، وما حصلوه من علم في هذه الفترة فقال : « لم ألق بالمغرب اثبت منه ولا أوثق ، ولا اصدق ولا اعرف بطريق العلم » ـ وذكر على لسانه قوله : « لما خرجنا من المحنة طلبوني للاقراء فجلست بعد اباء بجامع الشرفاء بمراكش اقرأ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيـــق ونقـــل وتوجيه ، وكذا تسهيل ابن مالك ، والفية العراقي فختمت على نحو عشـــر مرات ، وتحفة الحكام لابن عاصم السبكي ، والحكم والجامع الصغير قراءة تفهم مرارا ، والصحيحين مرارا ، ومختصرها ، والشفـــاء والموطـــأ ، والمعجزات الكبرى للسيوطي ، والشمائل ، والكلاعي وغير ذلـــك ـ .. وازدحم الخلق علي واعيان طلبتها ولازموني بالاقراء على قضاتها كقاضـــي الجماعة بفاس العلامة ابى القاسم بن ابي النعيم الغساني ، وهو كبير ينيف على ستين ، وكذ قاضي مكناس الرحالة المؤلف صاحب ابي العبـــاس بن

(36) Bovill : Caravans of the old Sahara P. 174

(37) دائرة المعارف الاسلامية ـ اكتوبر 1933 ـ العدد الاول ص 458 .

القاضي المكناسي ـ له رحلة للشرق لقي فيها الناس وهو اسن مني، ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم ـ وافتيت بها لفظا وكتبا بحيث لا تتوجه الفتوى فيها غالبا الا لي ، وعينت الي مرارا فابتهلت الى الله تعالى ان يصرفها عني، واشتهر اسمي فى البلاد من سوس الاقصى الى بجاية والجزائر وغيرهما ... وقد ناهزت الآن الخمسين سنة بتاريخ يوم الجمعة مستهل صفر عام اثني عشر بعد الالف (38) .

ويذكر المراكشي ان من تلاميذ احمد بابا البارزين ايضا (ابا العباس المقري) وانه نقل عنه فى « أزهار الرياض » (39) .

وكذلك من تلاميذه الفقيه العدل التهامي بن محمد بن احمد بن رحمون العلمي ـ ذكره فى كتابه « شذر الذهب فى خير نسب » (40) .

ونشير الى ان مراكش كانت تحتل فى هذه الفترة التي قضاها احمد بابا بها مكانة علمية مرموقة ، وكان المناخ العلمي فيها فى زمن المنصور على الخصوص يتيح الفرصة للبحث والانتاج وقد اشتهر المنصور بتشجيعه للعلماء والادباء وكان هو نفسه أديبا وشاعرا ـ كما يقول وزير قلمه الفشتالي (41) .

ويذكر اليفرني بأنه لما خرج احمد بابا من مراكش يقصد بلده شيعه اعيان الطلبة فأخذ بعضهم بيده عند الوداع ، وقرأ قوله تعالى (ان الذي

---

(38) المراكشي ، الاعلام ص 102 .

(39) المقري التلمساني ، ابو العباس احمد بن محمد (ت 1041 هـ ـ 1692 م) : ازهار الرياض . (عرف فيه بالشيخ الشهير الفاضل ابي الفضل عياض بن موسى الحيصبي) طبع بمطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر (1939 ، 1940 ، 1942) .
— هذا ونشير الى ان التلمساني قام بنسخ بعض كتب احمد بابا من نسخ بخط المؤلف كما سنشير فيما بعد عند التعرض لمؤلفاته .
— وانظر كفاية المحتاج ـ النسخة الخطية المشار اليها سابقا ص 276 ، 277 .

(40) التهامي ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن رحمون (1005 ـ 1616) : شذو الذهب (موجود بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1884) .

(41) عن الحياة الفكرية فى المغرب فى عصر المنصور الذهبي ـ انظر الفشتالي ـ مرجع سابق ص. 265 ـ 307 .

فرض عليك القرآن لرادك الى ميعاد) على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما ـ فنزع ابو العباس يده بسرعة وقال (لا ردني الله الى هذا الميعاد ولا رجعني لهذه البلاد) ـ وسلم عليهم وذهب لبلاده بسلامة وأمان ـ رحمة الله عليه (42) .

ويبدو ـ كما سبق ان أشرنا ـ ان ما أصابه في أثناء نقله من بلده الى مراكش حيث وقع من على الجمل وكسرت ساقه وفقد معظم كتبه (ست عشرة ومائة مجلد) ـ لم يفارق مخيلته ، وكان دائما يعبر عن هذا الظرف في كلامه (بيوم الكائنة العظمى) ـ ولعل ألمه لفقده كتبه كان شديدا فهي ثروته الحقيقية ـ فقد كان يردد دائما « انا اقل عشيرتي كتبا ـ نهبت لي ست عشرة مائة مجلد » (43) .

وكما اختلف الكتاب في تحديد سنة ولادته ، كذلك حدث خلاف في سنة وفاته ـ فقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان وفاته كانت بتمبكتو في يوم الخميس 6 شعبان عام 1036 (22 ابريل 1627) أي بعد عودته من مراكش بمايقرب من 22 عاما ، وكذلك ذكر هذا التاريخ اليفراني في الصفوة (44) ، والقادري في نشر المثاني (45) .

أما المحبى فقد ذكر ان وفاته كانت في سابع شعبان سنة اثنين وثلاثين وألف (موافق 6 يونيو 1623) (46) .

---

(42) اليفرني ، محمد الصغير المراكشي : صفوة من انتشر من علماء القرن الحادي عشر ـ النسخة الخطية ص 68 .
— ويذكر صاحب نزهة الحادي ـ « ان احمد بابا كان يتشوق للعودة لبلاده ويورد أبياتا من شعره يعبر فيها عن اشواقه هذه ـ انظر : نزهة الحادي ـ طبعة فاس ص 82 .

(43) المراكشي ، الاعلام ص 99 .
— اليفرني : صفوة ما انتشر من اخبار القرن الحادي عشر ـ النسخة الخطية المشار اليها سابقا ص 65 .

(44) اليفرني : المرجع السابق ص 66 .

(45) القادري ، محمد بن الطيب : نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني (1310) ـ جـ 1 ص. ص 151 ـ 153

(46) المحبى ، ابو عبد الله محمد : خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر (مصر 1284) جـ 1 ص 178 .

اما قول (بوفل) انه عاد الى تمبكتو فى عام 1607 وانه مات فى نفس العام ـ فهو يناقض ما ذهب اليه العديد من الكتاب الذين كتبوا عنه ـ وهو بعيد عن الحقيقة كما يبدو ـ وخاصة انه اشار الى انه أخذ هذه المعلومات من تاريخ السودان (السعدي) ولم نجد فى السعدي اشارة لسنة وفاته (47)

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه علينا والذي قد يفصل فى تحديد تاريخ وفاته هو ـ ما هو نشاطه الذي قام به بعد عودته الى تمبكتو ؟

والحقيقة ان مؤلفاته التي تحت أيدينا بالاضافة الى القليل الذي كتب عنه لا يعطي اجابة شافية محددة عن هذا السؤال ، وكل ما قيل عنه انه كرس بقية حياته بعد عودته الى تمبكتو للعلم ، وتعليم الفقه على وجه الخصوص (48) .

وقد يتبادر للذهن سؤال آخر عن أسرته وأولاده ومدى مسايرتهم لأبيهم وباقي أفراد هذه الاسرة التي اشترهت بالعلم ـ فى هذا الميدان. . وكل ما لدينا فى هذا المجال اشارة السعدي الى الفقيه سيدي محمد وقال انه ابن العلامة الفقيه احمد بابا ، وذكر عنه انه كان فى بلدة (اروان) ، وانه وصل (توات) وحج العام الحادي والاربعين بعد الالف (الموافق 1671) م (49) .

ولعل من المفيد ان نستعرض الآن أهم مؤلفاته المعروفة لنا .

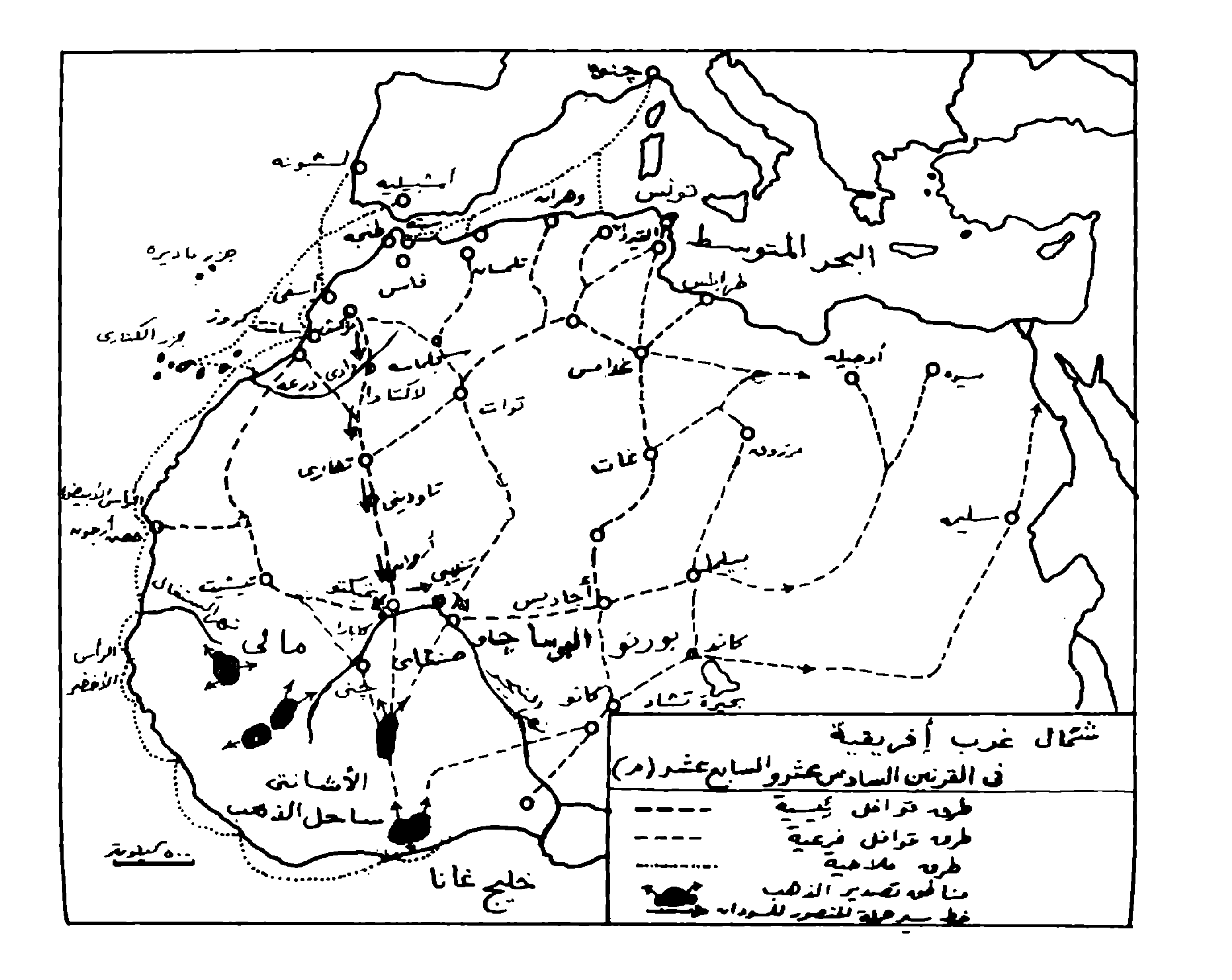
---

(47) Bovill : Caravans of the old Sahara P. 174

(48) دائرة المعارف الاسلامية ص 458 .

(49) السعدي ، مرجع سابق ص 233 .

ـ وانظر هذه المدن على الخريطة المرفقة بالبحث .



شمال غرب أفريقية
في القرنين السادس عشر والسابع عشر (م)
طرق قوافل رئيسية
طرق قوافل فرعية
طرق ملاحية
مناطق تصدير الذهب
خط سير حملة المنصور للسودان
البحر المتوسط
جنوة
تونس
وهران
لشبونه
اشبيلية
طنجة
فاس
تلمسان
طرابلس
غدامس
أوجيله
سيوه
توات
غات
مرزوقه
تغازى
تاوديني
أروان
أجاديس
بلما
سليمه
كانو
بورنو
الهوسا
صنغاى
مالى
جنى
بحيرة تشاد
الأشانتي
ساحل الذهب
خليج غانا
جزر الكنارى
جزر ماديره
الرأس الأبيض
الرأس الأخضر
٥٠٠ كيلومتر

مؤلفــــاتـــــــــــه :

على الرغم من أن اسم احمد بابا ـ كان معروفا فى السودان الغربـي وشهرته كعالم لم تخب منذ ظهر فى النصف الثاني من القـــرن السادس عشر واوائل السابع عشر ، بل ظلت تتردد فى مجالس العلم من وقت لآخر فيما كتب عن هذه البلاد ـ لكن جاء وقت ظن فيه أن مؤلفاته وآثاره قـــد تكون فقدت نهائيا ، وظل هذا الوهم قائما لوقت قريب . فنجد (بوفل) مثلا يقول فى عام 1933 « انه على الرغم من انه لم يكتب البقاء لاى من مؤلفات احمد بابا ـ لكنه الى الآن يذكر اسمه فى السودان كمعلم عظيم » (50) .

بينما نجد بازل دافيد سون (Basil Davidson) الذي نشر فى عام (1959) كتابا قيما حاول فيما حاول ان يثبت ان للافارقة تاريخا وأنهم أسهموا بنصيب وافر فى الحضارة الانسانية ـ وأن الادعاء الذي شاع فى فترة التكالب الاستعماري على القارة الافريقيـــة وروجـــت له الـــدول الاستعمارية عن الافارقة الذين لا ماضى لهم ولا حضارة ادعاء باطل ـ يشير الى « ان احمد بابا الذي عرف بوفرة انتاجه والذي قد تصل مؤلفاته الى (12) كتابا وكان يعيش فى تمبكتو خلال وبعد حكم محمد أسكيا لا نعرف مصيـــر مؤلفاته » . . . لكنه يستدرك فى الطبعة الثانية للكتاب فى عام 1970 فيذكر انه قد بلغه اخيرا انه عثر فى شمال نيجيريا على مخطوطين من مؤلفاته (51)

وقد أشار الى هذا الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني فى محاضرته التي اشرنا اليها سابقا والتي ألقيت فى اغسطس عام 1967 بجامعـــة اربـــر ميشيغان بالولايات المتحدة وذكر انه يوجد بمكتبات المغرب حوالـــي 30 كتابا ورسالة لاحمد بابا (52) .

---

(50) Bovill E.W. : Caravans of the old Sahara P. 193

(51) Davidson, Basil ; Old Africa Rediscovered (1970) P. 99
نقل جمال محمد احمد هذا الكتاب الى العربية معتمدا على الطبعة الاولى منه بعنـــوان افريقيـــا تحـــت أضـــواء جديـــدة ـ بيـــروت 1961 .

(52) **انظر نص المحاضرة ـ دعوة الحق ـ العدد الاول السنة الحادية عشرة ـ شعبان 1387 هـ (نوفمبـــر 1967 م) ص 84 .**

واشير الى انه على الرغم من أن عدداً غير قليل من مؤلفات أحمد بابا قد اصبح فى متناول الايدي فى دور الوثائق — الا أن عدداً مما اشار اليه هو أو غيره ممن كتبوا عنه — من هذه المؤلفات لا زال مكانه غير معروف ، كما أن معظم ما بدور الوثائق من انتاجه الفكري بخطوط النساخ ويحتاج للتحقيق والنشر لتعم فائدته — وقد ذكر هو ان له من المصنفات ما يربو على الاربعين (53) .

فالحقيقة الماثلة أمامنا الى الآن انه مع أننا قد نكون وضعنا أيدينا على اول الخيط فيما يتعلق بالانتاج الفكري لاحمد بابا وغيره من علماء ومؤلفى هذه المنطقة الغربية من القارة الافريقية ، لكننا نحتاج الى مضاعفة الجهود لدراسة ما تحت ايدينا من هذه الثروة العلمية دراسة علمية تحليلية واعية، بالاضافة الى السعي وراء باقي هذا الانتاج الذي يمثل بلا شك جزء من التراث الافريقي والعربي والاسلامي ، ولعل هذه الدراسة تفتح مجالات متعددة للبحث فى مدى ما وصل اليه الادب والثقافة العربية بميادينها المتعددة فى هذا الجزء من القارة الافريقية وأثر البيئة هنا وغيرها من العوامل فى هذه الثقافة التي وصلت الى غرب القارة عبر قرون متعددة ومع موجات جاءت من الشمال (المغرب الاقصى) ، ومن الشمال الشرقي، ومن الشرق ، ولا شك في ان المجال هنا مفتوح لدراسات عميقة ومتعددة من شبابنا الجامعي ومن الباحثين فى مختلف جامعاتنا العربية وهو مجال يستحق ما يبذل فيه من جهد بدلا من الجهود التي تتركز كلها على دراسة موضوعات قد تكون قتلت بحثا (54) .

---

(53) دائرة المعارف الاسلامية العدد الاول (933) ص 458 .
— وسركيس فى معجمه ص 380

(54) لمن يريد التوسع فى دراسة الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، والطرق التي سلكتها الى السودان الغربي انظر :
— حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا (1958).
— محمد سعودي ، رجاء علام ، موريس جاد ، اطلس افريقية (1967) ص 24 .
Trimingham, J.S. : Islam in the Soudan (1949)

وسأشير هنا الى أهم مؤلفات أحمد بابا :

1 ـ نيل الابتهاج بالذيل على الديبـــاج : (55)

جعله ذيلا للديباج المذهب (56) ـ مستدركا فيه تراجم الذين غفـــل عنهم ابن فرحون ، ومضيفا تراجم من اتوا بعده من الاعيان .

وقد طبع على الحجر بفـــاس سنـــة 1317 هـ (1899 م) فى 396 صفحة (57) ، وطبع بمصر 1329 هـ (1911 م) على هامش (الديبـــاج المذهـــب) .

ويشير فى أوله الى الهدف من تأليفه بقولـــه « الحمد لله المنفـــرد بالبقاء ، الحاكم على سواه بالفناء ، المختص بالاحالة ... وبعد فيقـــول الفقير لرحمة ربه القدير احمد بن احمد بن احمد بن عمر بن محمد أقيت ـ عرف بابا التكروري ثم التنبكتي المالكـــي ، وفقـــه الله لرضـــاه ... لما كان علم التاريخ ومعرفة الائمة من علماء الملة من الامور العلية ، ويعتني به كل ذي حمية ذكية ، اذ هم نقلة الدين وحملة الشريعة المحمدية ، وبـــه يتميز الصالح من الطالح والمسخوط من المقبول ويعرف ذوو العدل منهم ومن هو مجهول ... اعتنى الائمة قديما وحديثا بالوضع فيها على انحـــاء متفاوتة ، واخرى متباينة فبعضهم عرف المحدثين والرواة ، وبعضهم عرف أهل الفقه .. وكان ممن سعى فى ذلك من أهل مذهبنا المالكية سعيا حثيثا

---

(55) نسخـــة دار الوثائـــق بالربـــاط تحـــت رقـم (766 D)
بخطـــ مغربـــي جيـــد ـ لعلـــه خط المؤلـــف نفســـه .
— وانظـــر بروكلمـــان فى ملحقـــه جـ 2 ص 716 .
— وسركيـــس فى معجمـــه ص 380 .

(56) الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب ـ تأليف قاضي المدينة المنورة (أبى اسحق ابراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المتوفي سنة 799 هـ 1397 م) .
ترجم فيه لما ينيف على الستمائة شخصية من أعيان المالكية ـ وجمع عناصـــره مـــن نحو عشرين مصدرا ـ وقد فرغ من تأليفه ـ كما يذكر ـ فى شهر شعبان سنة 761 هـ وطبع بفاس سنة 1316 هـ ـ 1898 م وبهامشه نيل الابتهاج بالذيل على الديبـــاج ـ انظـــر : بروكلمان فى ملحقه جـ 2 ص 226
— وسركيـــس فى معجمـــــه ص 380 .
— كذلك ترجم له احمد بابا فى نيل الابتهاج ـ طبعة فاس ص 5 .

(57) النسخة المطبوعة بفاس ـ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقـم (2608 / A

رجع بين ما تفرق عند غيره قديما وحديثا الامام الكامل الجليل الفاضل ابو الفضل ، ثم تابعه جماعة اختصروا من مداركه بعض ما تيسر ، ثم جاء الامام العلامة ابو اسحق ابراهيم ابن فرحون ... ولم أجد احدا تعرض لجمع ذلك بعد ابن فرحون ، ولذلك قمت بجمع هذه التراجم وجمعت من عدة كراريس ، فجاز بحمد الله تعالى فوق ما أردت وأزيد على ما نويت وقصدت ، وسميته بنيل الابتهاج بتطريز الديباج جعله الله تعالى خالصا لكريم وجهه وموجب الفوز لديه بفضله ... »

وفي آخره قال ما نصه : « وافق الفراغ منه وقت الضحى يوم الجمعة سابع جمادي الاولى سنة خمس وألف — اراانا الله تعالى ختامه في عافية ، بدرب عبيد الله من مدينة مراكش من المغرب المصونة ...

كاتبة وجامعة ومؤلفه العبد الفقير الى ربه أحمد بابا بن احمد بن احمد ابن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتي المالكي فتح الله تعالى عليه بالحسنى بجاه الاولين والآخرين وحفظه من غي الدهر وشروره وحسبي الله ونعم الوكيل ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

ويرتب المؤلف الشخصيات التي ترجم لها ترتيبا أبجديا فيبدأ بحرف الهمزة فيذكر (ابراهيم بن علي بن محمد بن ابي القاسم بن محمد بن فرحون اليعمري) ، ثم حرف الباء وهكذا .

وهو يتحدث عن نسب المترجم له ، ونصيبه من العلم ، وقد يعطي وصفا له فيذكر (انه جميل الهيئة ، معتدل القامة ، يلازم الطيلسان على العمامة ولا يلبس الثياب المصقولة ، يلازم بيته — قليل الاجتماع بالناس)، واحيانا يأتي ببعض أبيات من شعر المترجم له ويعلق عليها — ويذكر سنة وفاة المترجم له .

هذا ونلاحظ ان هذا الانتاج العلمي — وهو من اضخم ما عرف من انتاج المؤلف — قام به وهو في مراكش ، وهذا يؤيد ما سبق ان أشرنا اليه من ان الفترة التي قضاها بالمغرب كانت فترة انتاج خصب له ولم تذهب هباء منثورا .

واشير الى ان هذا المؤلف كان معروفا للسعدى، صاحب تاريخ السودان، وكان كثير الرجوع اليه لضبط اسماء الاعلام وغيرها ، فمثلا عند الحديث عن (سن علي) يقول انه بالسين المهملة وكسر النون المشددة ـ يقول : « هكذا وجدته مضبوطا فى ذيل الديباج للعلامة الفقيه احمد بابا رحمه الله تعالى » (58) .

2 ـ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج : (59)

وهو عبارة عن تهذيب واختصار لكتاب نيل الابتهاج . وقد بداه المؤلف بقوله « الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه وتابعيهم باحسان أجمعين ـ وبعد فهذا جزء اختصرته من الذيل الذي ذيلت به كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان وعلماء المذهب للامام برهان الدين ابن فرحون . . . اشتمل على جماعة لم يذكرها من أهل عصره وغيرهم من بعدهم وزيادات فى تراجم جماعة ذكرهم، فجاء فى نحو ثمانية عشر كراسة من التأليف الكبير ، وتم فى خمسة والف، وتعدد منه نسخ ـ ثم لخصت معظمه فى هذا الجزء مقتصرا فيه على مشاهير الائمة وأولى التصانيف وغيرهم لتيسير تحصيله وسميته كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج ـ جعله الله خالصا لوجهه الكريم » . فهو يوضح الهدف منه وفى آخره ترجم ايضا لنفسه (60) .

وقد اختصره ايضا ابو اسحق ابراهيم بن محمد التادلي الرباطي شيخ الجماعة بالرباط المتوفي 1311 هـ (1893 م) وقد ذكر ذلك (ابو جندار) فى ترجمته من كتاب الاغتباط .

هذا وهناك مختصر لكتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج : (61)

ومؤلف هذا المختصر غير مذكور ، لكن يبدو حسب ما يمكن ان نستقيه من مطلع هذا المختصر ان مؤلفه كان معاصرا لمؤلف نيل الابتهاج

---

(58) السعدي ـ مرجع سابق ص 64 .
(59) نسخة خطية (كما اشرت لعلها بخط المؤلف) بوثائق الرباط تحت رقم ك / 2390 .
(60) النسخة الخطية السالفة الذكر ص 275 ـ 278 .
(61) موجود بدار الوثائق بالرباط تحت رقم (1641 / D)

نفسه فهو يبداه بقوله : « هذا ما قضى الله سبحانه بفضله على سبيـــل الاختصار من تاليف الشيخ العالم المحقق المتفنن الصالح المحـــدث ـ السيد أحمد بابا ابن احمد أقيت التنبكتـــي ـ بارك الله للمسلميـــن فى عمره ـ الذي ذيل به ديباج ابن فرحون » .

3 ـ شرح على مختصـــر خليـــل : (62)

بداه بقوله : « بسم الله اول ما كتب القلم فى اللوح ـ بســـم اللــه الرحمـــن الرحيـــم » .

هذا ويبدو ان (مختصر خليل) نال الكثير من عناية أحمد بابا وان له العديد من الابحاث والمصنفات الاخرى ـ تناول فيها بالشرح والتحليـــل اجزاء من مختصر خليل ـ منها شرحان تناول فيهما بالتحليل ما يختـــص بالزكاة ، وما يختص بالزواج من المختصر المذكور ـ كذلك مصنف آخـر للمختصر تميز بكثرة الحواشي والتعليقات التي اوردها لفقرات منه (63) .

---

(62) بـــدار الوثائـــق بالربـــاط ـ رقـــم (1360 /D)
ملاحظـــة : صاحب المختصر هو (خليل بن اسحق بن موسى بن شعيب ـ المالكي المصري وهو امام عالم ، حمل لواء المذهب زمانه بمصر ، وقد أشار اليه ابن فرحون فقال : « انه من أحفاد الخليفة المنصور ، يلبس زيهم ، متقشفا ، جامعا بين العلم والعمل » . وقد ترجم له احمد بابا فى نيل الابتهاج فقال عنه : « انه سمع من ابن عبد الهادي وقرأ على الشيخ المنوفي فى فقه المالكية وشرع فى الاشتغال به بعـــد شيخه وتخرج على يده جماعة ، ودرس بالشيخوخة وأفتى وأفاد وكان نزيها عفيفا ـ ومن تصانيفه (شرح على ابن الحاجب فى ست مجلدات) و (مختصر فى الفقه نسج فيه على منوال الحادي ، وغير ذلك المختصر فى الفقه أو (مختصر خليل) على مذهب الامام مالك » ـ هذا ونشير الى ان كثيرين من العلماء اعتنوا بالمختصر فطبع عدة مرات : طبع باعتناء المسيو ريشيبه (G. RICHEBE) ، وفيه ترجمـة للمؤلف نقلا عن نيل الديباج (باريس 1855) .

- طبع مع ترجمة فرنسية للمسيو بيرون (PERRON) في باريس 1848 ، 1854
- طبع مع ترجمة فرنسية أيضا للاستاذ سينيا (N. SEIGNETTE)
- وطبـــع فى الجزائـــر 1889 ، 1908 .
- وطبع فى مصر على القاعدة المغربية (بولاق ـ 1293 هـ) وبمطبعة عثمان عبد الرازق 1304 .
- وطبع مع ترجمـــة ايطاليـــة وشـــروح (ميلانـــو 1919) .

(63) دائـــرة المعـــارف الاسلاميـــة ص 458 .

ويبدو ان دراسته للمختصر المذكور وقيامه بتدريسه وشرحه ـ اتاحت له الفرصة للمزيد من الدراسة والتمحيص والاضافة .

4 ـ اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية : (64)

اختصر فيه كتاب المذاهب القدسية في المناقب السنوسية (65). وقد بدأه أحمد بابا بقوله : « ربنا آتنا من لدنك رحمة ـ وهيىء لنا من أمرنا رشدا . . . »

وقال في آخره : « وافق الفراغ منه وقت الضحى يوم السبت ربيع الثاني عام 1004 (موافق 10 ديسمبر 1595) . ارانا الله تعالى ختمه في عافية ـ وذلك بمدينة مراكش وأنا بها مع زمرة من قومنا مثقفون بها عجل الله تعالى بالفرج . . . آمين »

ويستفاد من قوله انه وضع هذا المصنف في مراكش قبل ان يخلي سبيله ويترك قصبة مراكش بشهور فقد أفرج عنه ـ كما ذكرنا سابقا ـ في رمضان 1004 هـ (1596 م) .

وهذا يدل ايضا على انه حتى في فترة اعتقاله التي استمرت عامين تقريبا كان متاحا له ان يرجع للكتب والمراجع وان يكتب ويصنف .

5 ـ حكم بيع العبيد المجلوبين من السودان :

(معراج الصعود الى نيل حكم مجلب السود)

---

(64) دار الوثائق بالرباط تحت رقم D/ 984 ، D/ 471 ، 407 (2) ، 507 (2) ، (2100) د ، (2594) د

(65) المذاهب القدسية في المناقب السنوسية ـ تاليف ابي عبد الله محمد بن ابراهيم ابن عمر بن علي (ت 897 هـ ـ 1490 م) عرف فيه بمناقب شيخه الامام محمد بن يوسف السنوسي ، وجعله في مقدمة وعشرة ابواب ـ انظر :
— بروكلمان في ملحقه ج 2 ص 302 ، 716 .
— وتوجد منه نسخ بدار الوثائق بالرباط برقم (66 D) ، 1245 .

او ان شئت (الكشف والبيان لاصناف مجلوب السودان (66)) .

بدأه بقوله : « الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيد المرسلين .... »

وتناول فيه الحديث عن رقيق غرب افريقيا وأصنافهم وأثمان كل صنف ، ولعل اهتمامه بموضوع الرقيق المجلوب من غرب افريقيا بالذات يرجع الى ان عصره كان العصر الذي بدأ فيه ما عرف باسم (الاستعمار الديموغرافي) للقارة الافريقية القائم على استغلال الانسان عن طريق تجارة الرقيق خاصة بعد ان بدأ استخدام الاسلحة النارية للقنص ، والقرن السادس عشر يسميه بعض المؤرخين فى افريقيا (عصر البنادق) .

6 ـ تحفة الفضلاء ، ببعض فضائل العلماء : (67)

بدأه بقوله : « الحمد لله الذي اختار من شاء من خلقه لعبادته ... » وقد جعله فى ثلاثة فصول وخاتمة .

7 ـ جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة : (68)

فى كراسين .

---

(66) دار الوثائق بالرباط رقم 1079 /D ، (508 B) ، (534) ، (1724 د)
ملاحظة : منذ اوائل القرن السادس عشر كان الرقيق قد اخذ يشحن من هذا الساحل الغربي لافريقيا الى امريكا (اول شحنة من عند ساحل غانا وصلت الى هايتي فى عام 1510 والى كوبا فى 1521 ـ وقدر عدد العبيد الذين وصلوا الى سوق لشبونة من هذا الساحل فى عام 1539 بـ 10,000 عبد ، فقد كانت البرتغال تحتكر هذه التجارة ، وظل الامر كذلك حتى بدأت جمعيات مكافحة الرق ـ منذ منتصف القرن الثامن عشر تطالب بالغاء هذه التجارة البشعة وتحريمها وتوجت جهودها بالقوانين التي بدأت البرلمانات الاوربية منذ اوائل القرن التاسع عشر تصدرها لتحريم الرق .
— لمن يريد التوسع فى ذلك ـ انظر :
تشرس ، ر . ج . هاريسون : الاستعمار الحديث (الاصل 1951) .
ترجمته للعربية د. دولت أحمد صادق ـ وراجعه د. محمد السيد غلاب .

(67) دار الوثائق بالرباط (1641 /D)

(68) دار الوثائق بالرباط (543) ، (2743) / د .

8 ـ الدار النضير فى كيفية الصلاة على النبي البشير (69)

9 ـ حمـــائـــــــل الـــزهــــــر

10 ـ نشـــــــــر العبيـــــــــر (70)

وهذان الكتابان الاخيران مثل كتابه السابق الاشارة اليه (الدر النضير فى كيفيـــة الصلاة على النبي البشيـــر) فى موضوعهمـــا .

11 ـ النكـــت الوفيـــة بشـــرح الألفيـــة لابن مالـــك

12 ـ النكت الزكيـــة بشـــرح الألفيـــة (71)

وهـــذان المصنفـــان عن الفيـــة ابن مالك ـ لم يتمهما

13 ـ تنبيـــه الواقـــف على تحريـــر نيـــة الخالـــق (72)

14 ـ نيل الامل فى تفصيـــل النيـــة على العمـــل (73)

15 ـ غاية الاجادة فى مساواة الفاعل للمبتدأ فى شروط الافادة (74)

16 ـ النكت المستجادة فى مساواتهما فى شرط الافادة (75)

وهـــي نسخـــة جديـــدة للمؤلـــف السابـــق .

---

(69) دار الوثائـــــق بالربـــــاط 1724 / د
(70) دائـــرة المعـــارف الاسلاميـــة ص 458
(71) نفـــس المـرجـــع ونفـــس الصفحـــة
— وكذلك الاعـــلام للمراكشـــي ص 101
(72) يشيـر المراكشـي فى الاعـلام الى أنهـا فى كراســة ص 101 .
(73) اليفرنـــي : الصفـــوة 67
(74) اليفرنـــي : الصفـــوة 68
(75) نفـــس المـرجــــع ص 68

17 ـ التحديث والتانيس في الاحتجاج بابن ادريس

يشير المراكشي الى انها فى ورقات (76)

18 ـ شرح الصغرى للسنوسي

فى اربعة كراريس (77)

19 ـ مختصر ترجمة السنوسي (78)

فى ثلاثة كراريس

وهو مبني على كتاب اللآلىء السندسية فى الفضائل السنوسية الذي اختصر فيه كتاب المذاهب القدسية فى المناقب السنوسية ـ والذي أشرنا اليه سابقا .

20 ـ ترتيب جامع المعيار ـ للونشيريسي (79)

21 ـ المطلب والمارب فى أعظم أسماء الرب تعالى (80)

فى كراسة

22 ـ انفس الأعلاق فى فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل فى درك الصداق (81)

---

(76) اليفرني : الصفوة ص 86
— المراكشي ص 101 ـ وكذلك دائرة المعارف

(77) ذكره المراكشي ودائرة المعارف الاسلامية

(78) ذكره المراكشي ص 101

(79) ذكره المراكشي ، ودائرة المعارف الاسلامية
— والونشيرسي ـ هو ابو العباس احمد بن يحيى المتوفي سنة 914 هـ (1508 م)ـ مؤلف كتاب (المعيار) ، عرف فيه بالشيخ ابي عبد الله محمد بن محمد بن احمد المقري الكبير .

(80) اليفرني : الصفوة ص 68 .

23 ـ فتح الرزاق فى مسالة الشك فى الطلاق (82)

24 ـ عدد كبير من الرسائل فى موضوعات مختلفة (83)

ومن استعراض المواضيع المختلفة التي شغلت احمد بابا ، والتي اهتم بمناقشتها والكتابة فيها ـ نجد القضايا المذهبية والشرعية بالذات كانت فى مقدمة ما تناوله بالبحث والدراسة ، فقد كان مالكيا متحمسا لمذهبه كما يبدو من كتاباته كما انه تعرض لقضايا هامة كالزواج والطلاق والزكاة وغير ذلك مما يهم المجتمع الاسلامي ، فحلل ما يتعلق بها وشرح رأي الدين فى كل منها ـ على انه تعرض ايضا لمسائل عامة كالرق وما كان يتبع عند بيع الرقيق .

واهتم احمد بابا بالمصادر الاصلية التي كانت معروفة ولها أهميتها فى المدارس الاسلامية ومجالس العلم ، فأكمل وأضاف لما رأى انه محتاج لاضافة ، اما لأن المؤلف أغفل أشياء هامة أو لانه وقف عند حد وأصبح من الواجب ان يكمل هذا العمل وهذا ما حدث مع كتاب الديباج المذهب لابن فرحون .

وقد تكون معالجته للكتاب عن طريق الاختصار ليسهل تداوله واستيعابه كما فعل عندما اختصر المذاهب القدسية فى المناقب السنوسية لابي عبد الله بن عمر .

وقد يجد أن الامر يتطلب اختصار مؤلفه هو ليكون فى متناول الجميع وهذا ما قام به عند ما اختصر ترجمة السنوسي .

ويلاحظ انه كان يلتزم الصنعة فى اختيار اسماء الكتب التي ألفها والرسائل والبحوث التي قام بها .

(82) ذكرهما سركيس ج 1 ص 379 ، وقال انهما طبعا فى مجموع بفاس فى عام 1307 هـ
(83) حسب ما جاء بدائرة المعارف الاسلامية ـ انه يوجد ثلاث منها فى المكتبة الاهلية بالجزائر تحت رقم 532 (9 ، 10 ، 11) .

ويلاحظ أيضا انه كان يبدأ كتابه بآية قرآنية وبحمد الله وشكـــره ، ويذكر فى آخره تاريخ انتهائه من هذا العمل ـ ولذلك يسهل تمييز كتاباته التي بدأهـــا ولـــم يتمهـــا .

هذه جولة فى بعض ما كتب أحمد بابا وبعض ما كتب عنه ، وما اقل ما كتب عنه ـ اذ انه لم يتعد محاولة التعريـــف به او الاشارة السريعـــة لأسماء مؤلفاته ـ ولا ندعي أننا بهذا قد أعطيناه حقه من الدراسة لكننا نرجو أن تكون قد فتحنا الباب لمزيد من الدراسات والبحوث عن هذه الشخصية التي لعبت دورا هاما فى التاريخ الحضاري والسياسي للسودان الغربي .

واللـــه ولـــي التوفيـــق .

الربـــاط   د. شوقي عطا الله الجمل

الصحراء
مهد أصيل للثقافة (*)

د. عباس الجراري

في حياة الافراد والشعوب لحظات غبطة وسعادة تغمرهم فياضة متدفقة ، لعل أروعها لحظات لقاء الأحبة والاخوة والأشقاء ، حين يلحم بينهم صفاء الود وصدق العهد واخلاص النية والضمير .

وان الاحساس بهذه المشاعر في أعماق شعبينا المتلاحمين كان الدافع الى تقريب خطانا للقائكم في هذا الاسبوع (1) الذى اتاح بلدكم الحبيب مناسبة تنظيمه ، لتغدو الروابط مؤكدة على صعيد الثقافة ، كما هي مؤكدة على اصعدة اخرى لعلها أن تزيد نمواً واتساعاً لتحقيق ما نصبو اليه جميعاً من أهداف .

واذا كان الشعور بالغبطة والسعادة يتبلور رائعا عند اللقاء بالاحباب حيث يبلغ ذروته في العمق والداخل ، فانه يتعدى نطاق المناجاة الباطنية ويتخذ أبعاداً ملموسة حين يدير المتلاقون بينهم أحاديث وموضوعات قريبة الى نفوسهم مشتركة فيما يشغلهم من اهتمامات .

(1) اشارة الى الاسبوع الثقافي الذي نظمته في نواكشوط وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في الفترة ما بين 28 مارس و 4 ابريل 1975 . وفي نطاقه القيت هذه المحاضرة

وما أظن ــ انطلاقاً من هذا الاطار ــ أن تكون الأسبقية لموضوع غير الصحراء ، هذه الارض الطيبة الكريمة التى تــم تحريرها وعودتها الى الوطن الأصل بفضل اجماع ونضـــال شعبينـــا العظيمين ، وبفضل حكمة قائدينا المظفرين . هذه الارض العزيزة الوفيـــة التى طوى ملـــف قضيتها الى الابد ، ولكن الدموع فى عيوننـــا مازالت لم تجف من كثـــرة الفرح ، والنبض فى قلوبنا مازالت خفقاته لم تهـــدأ لعمـــق مـــا يحثهـــا من طـــرب وابتهـــاج .

ولكن ، لماذا طرح موضوع الصحراء باعتبارها مهداً أصيلا للثقافة ؟

الجواب أن الثقافة كانت أبداً مزدهرة فى هـــذه المنطقة ، والجواب كذلك أن الثقافة فى الصحراء كانت عنصر تواصل واشعاع على الدوام ؛ وأملى أن أوفق فى هذا الحديث الى القاء بعض الضوء على ذلك .

على أن حديثى عن الصحراء سيتعدى نطـــاق الاقليم المحـــرر الآن الى نطاق أوسع يشمل مناطق صحراوية أخرى مغربية وموريطانية .

وسأتناول الموضوع من خلال ثلاث نقـــاط :

الاولى : عرض لملامح تاريخية ثقافيـــة

الثانية : أعـــلام بـــارزون فى مضمار الثقافة

الثالثة : خصائص هذه الثقافـــة .

* * *

وأبدأ العرض بأن الصحراء عرفـــت فى المراحـــل الاولى للتاريـــخ وما قبل التاريخ فى الفترة البدائية حضارات حجريـــة وبرونزية وحديدية تمثلت فى معرفة السكان بفنون الصيد والحرب وما تقتضى من صناعـــة فى مجال الادوات والاسلحة والعربات ، وما تقتـــضى كذلك من تطويـــع

بعض الحيوانات لجرها كالخيول ، فضلا عما يتخذ منها للصيد كالأبقار والاغنام والغزلان والنعام والاسود والفهود والفيلة ووعول الصحراء على حد ما تثبت الآثار المكتشفة والرسوم التى عثر عليها فى المنطقة .

كما تمثلت هذه الحضارات فى معرفة دقيقة بأنواع من الفلاحة أتاحتها الظروف الطبيعية للمنطقة يومئذ ، وهى ظروف يبدو أنها لم تكن قاسية ، حيث كانت وفرة المياه والانهار والوديان تمكن من غرس الاشجار واقامة زراعة منتظمة ولو الى حد .

وقد دخلت الصحراء مرحلة التاريخ فعرف سكانها الكتابة بخط تيفيناغ على حد ما تثبت الصخور والاخاديد المكتوبة التى تحدث عنها العلماء المعتنون أمثال Flamand (2) و Th. Monod (3) .

وعلى الرغم من أننا لا نريد أن ندخل فى التفاصيل بشان السكان ، فانه لا مجال لانكار أرومتهم المشرقية الافريقية ، كما لا مجال لانكار الاندماج الذى صهر فيما بعد بين البربر الامازيغ والعرب الوافدين (4) ، مما يجعلنا نميل الى التاكيد على الوحدة الاتنوغرافية فى المنطقة . ومع ذلك تبقى القبائل الصنهاجية أهم عنصر سكنى فى الصحراء ، وهى من فصيلة البرابرة البرانس .

اما من حيث العقيدة والدين ، فقد كانت العبادات مرتبطة بطقوس تقدس مظاهر الطبيعة والكون ، وخاصة ما يبدو منها خارق القوة والحول ، أو ما يعتبر مصدر تعيش واقتيات . ثم ارتبطت بالعقائد الوثنية المعددة ، والمسيحية واليهودية بعد ذلك . ويبدو أن السكان ، ولا سيما المنتمين للطبقات الشعبية كانوا لا يميلون كثيراً لهاتين الديانتين ، وان

---

(2) Les pierres écrites du N. Africain Paris 1921

(3) Etude de quelques sables et grès du Sahara occidental. B. IFAN T VII n° 1-4 1945.

(4) يمكن الرجوع فى ذلك الى : ا ـ تاريخ ابن خلدون ج 6 ابتداء من ص 89
ب ـ الوسيط للشنجيطي ابتداء من ص 475
ج ـ Gautier : Le passé de l'Afrique du nord pp. 201-229

وجدت بعض القبائل دانت باليهودية ، على حد مـــا يذكـــر التاريخ عن كورارة وشمال توات (5) .

ويكاد يكون من المؤكد ان الصحراء لم تعرف غزواً اجنبياً خلال هذه المرحلة ، الا ما كان من غزو حنون القرطاجنى الذى توغل حتى جنوب الصحراء ، بحثاً عن مراكز جديدة لتجارة القرطاجنيين ، وخاصة ما يتعلق باستخراج الذهب من السودان . وقد سجل لنـــا ذلك فى رحلتـــه التى وصل منهـــا ملخص مترجم الى اليونانيـــة عنـــى بـــه من الدارســـين Gsell (6) و Carcopino (7) .

ثم كان الفتح الاسلامى ؛ هنا يذكر لنا احمد بابا فى تقييـــده المسمى « معراج الصعود » (8) ان أهل السودان اسلموا طوعاً بـــلا استيلاء أحد عليهم ، وانه لم يسمع قط ان احـــداً استولى عليهم قبـــل اسلامهم ، ومنهم من هم قدمـــاء الاســـلام .

ولا اريد ان اطيل بالحديث عن مراحل الولاة المتعاقبين لأول العهد الاسلامى ، ويكفى ان اؤكد ان نفوذ دولة الاســـلام كان مبسوطاً على الصحراء بدءاً من عقبة بن نافع وموسى بن نصير .

اما عقبة فقد « نزل من درعة الى بـــلاد صنهاجـــة ثم الى بـــلاد هسكورة ثم نزل اغمات وريكة ثم نزل منها على وادى نفيس وقام عقبة من وادى نفيس وسار حتى نزل ايجلى بالسوس وبنى فيـــه مسجداً . اخبرنى الشيخ الصالح ابو على صالح بن ابى صالح انه لم يصـــح عنده ان عقبة رضى الله عنه حضر بنيان شىء من المساجد بالمغرب الا مسجد القيروان ومسجداً بدرعة ومسجداً بالسوس الاقصى » (9) . وربما كانت

(5) Bousquet : Les Berbères (Que sais-je ? 1961)
(6) Histoire ancienne de l'Afrique du nord TI Paris 1913-1928.
(7) Le Maroc antique p. 73 - Paris 1943.
(8) نقـــلا عن الاستقصـــا ج 5 ص 103 .
(9) البيـــان المغـــرب ج 1 ص 27

قبيلة اولاد تدرارين منتسبة الى أحـد الصحابة الانصار كان قـدم مـع عـقـبـة (10) .

واما موسى بن نصير فانه « غـزا طنجة وافتتح درعـة وصحراء تافيلالت وأرسل ابنه الى السوس . . . وذلك سنة ثمان وثمانين (11) » .

ثم تأكد النفوذ الاسلامى فى ولايـة عبيد الله بن الحبحاب فى أوائل القرن الثانى حيث نجده فى سنة 114 هـ « بعث حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً الى المغرب فبلغ السوس الاقصى وأرض السودان (12) » .

وسيتاكد هذا النفوذ فى دولة الأدارسة وخاصة على عهـد ادريس الثانى الذى « خرج غازياً بلاد المصامدة فانتهى اليهـا واستولى عليهـا ودخل مدينة نفيس ومدينة اغمات وفتح سائر بلاد المصامـدة » (13) . ثم انه قسم مناطق الدولة بين أبنائه ، فكان أن « اختص عبد الله بأغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى (14) » .

وفى امارة المغراويين سنجد زيرى بن عطية فى الربـع الاخـير من القرن الرابع صاحب الكلمة فى صنهاجة كلهـا ، فقد « انبسـط سلطانه بالمغرب من السوس الاقصى الى الزاب » (15) . بل انه حين هزمه عبد الملك المظفر ولد المنصور بن أبى عامر سنة 387 هـ « انصرف الى الصحراء هارباً أمام المظفر فنزل بلاد صنهاجة » (16) . وقد أتيـح لـه بعد ذلك أن يسترد ما كان له من نفوذ فى هذه المنطقة . وفى ذلك يقـول ابن أبـى زرع : « ووصل زيرى بن عطية الى بلاد صنهاجة فنزل بها فوجدهم قـد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلكين بعد وفـاة أبيه منصور فبعث زيرى الى قبائل زناتة فاتى منهم خلـق كثير من مغـراوة وغيرهم

(10) الساقيـة الحمـراء ووادي الذهـب لمحمـد الغربـي ص 128
(11) تاريـخ ابن خلـدون ج 4 ص 187 ـ 188
(12) المصـدر السابـق ص 189
(13) الاستقصـا ج 1 ص 169
(14) تاريـخ ابن خلـدون ج 4 ص 14
(15) القـرطـاس ص 103
(16) المصـدر السابـق ص 107

فاغتنم زيرى تلك الفرصة وزحف بهم الى صنهاجة فأوغل فى بلادهم وهزم جيوشهم ودخل الى مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب فملك ذلك مع تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة المؤيدية وحاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة وبقى عليها يقاتلها بالغدو والرواح الى أن انقضت عليه جراحاته . . . فمات فى سنة احدى وتسعين وثلاثمائة (17) »

وتلفت نظرنا فى الجانب الفكرى ظاهرة الصراع المذهبى الذى ظهر يومئذ فى المشرق نتيجة اجتهاد المسلمين فى شؤون السياسة والدين ، والذى سنرى أصداءه تصل الى الصحراء فى هذه المرحلة .

ففى الوقت الذى يخبرنا القاضى عياض فى مداركه أن بعض علماء الصحراء فى منتصف القرن الثانى رحل الى المدينة وأخذ عن مالك وعاد ينشر مذهبه (18) ، نجد المؤرخين — وفى طليعتهم ابن خلدون (19) — يتحدثون عن انتشار المذهب الخارجى فى هذه الفترة ، انطلاقا من سجلماسة التى كان أمراؤها متأرجحين بين الصفرية والاباضية الى أن كان عهد الفتح بن ميمون الملقب بالشاكر لله فى أواخر النصف الاول من القرن الرابع فأخذ بمذهب أهل السنة .

ولعل الأخذ بالمذهب السنى كان يفرض نفسه فى هذا الظرف الذى اتسع فيه انتشار الفقه المالكى ، خاصة ووفود فقهاء المالكية لم ينقطع قدومها من الاندلس التى كانت قد تحولت من مذهب الأوزاعى الى مذهب مالك .

وسيتاح للفقه المالكى أن يوحد المنطقة كلها على عهد دولة نابعة من الصحراء هى دولة المرابطين . وقد انطلق المرابطون من قوتين :

---

(17) ص 107

(18) عند صاحب « الدرر البهية » ان سجلماسة « قاعدة بلاد المغرب قبل فاس ودار الملك منه قد عمرت قبل حلول الادارسة الحسنيين بهذا القطر المغربي بقريب من أربعين سنة وذلك عام اربعين ومائة ولم يتقدم لاهلها كفر ولم تزل من ذلك الوقت عامرة آهلة بالعلماء والصلحاء والاخيار ، وهي اول بلاد درس العلم بها بالمغرب . فقد ذكر عياض فى المدارك أن أحد الاعلام بها سماه أخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع اليها ودرس العلوم بها وبقيت ماوى الصالحين والعلماء والامراء » (ج 1 ص 63)

(19) ج 6 ص 132 .

اولاهما : التحام عدد من القبائل

والثانية : التفوق الاقتصادى

واستطاعوا بذلك ان يؤسسوا دولة واسعة الرقعة موحدة لاقاليـم الغرب الاسلامى كله ، على ضوء تحليـل لميـزان القـوى فى الداخـل والاندلس والبلاد المشرقية وما فيها من تحالفات وتناقضات . وعلى ضوء هذا التحليل حددوا اتجاه الصراع الذى سيخوضون وحددوا أهدافـه ووسـائـله .

واذا كان المرابطون قد تحفزوا فكريا من نقد ذاتى متمثل فى قولـة يحيى ابن ابراهيم الجدالى بانهم منقطعون فى الصحراء يطغى عليهـم الجهل بالدين والفقه (20) ، فانا لا نملـك الا أن نلاحظ أن داعيتهم عبد الله بن ياسين كان صحراوياً ، وان استاذه وجاج بن زلو صاحب المدرسة التى تلمذ الداعية فيها كان صحراوياً كذلك .

واعتماد المرابطين على الفقه المالكى قائم على اعتبار انه انسـب مـذهـب :

1 — لمعرفـة سابقة للناس بـه

2 — ولموافقتـه مـزاجهـم

3 — ولأنه بسنيته اتاح لهم نوعاً من التحالف مع الانظمة السنيـة فى المشرق .

ثم هو يدل على انهم كانوا يعتمدون على المعرفة والعقل ويسيرون وفق حكم علمى ، فضلا عن ان الفقهاء كانوا علماء بكامل المعنى وليـس كما نتصورهم الآن .

---

(20) انظـر الحلـل الموشيـة ص 9

واذا كان المرابطون قد تعرضوا من خصومهم لانتقاد لا مجال هنا لتناوله ، فان الذى نريد أن نؤكد هو أن يوسف بن تاشفين كان رجلا عمليا استطاع رغم معرفته النظرية المحدودة أن يمارس تأثيراً عميقا على مواطنيه وعلى الاندلسيين وعلى الامة الاسلامية جمعاء . وكان بذلك صاحب معرفة عملية تنطلق من الممارسة والتطبيق وليس من منظور أو نموذج ما . وكانت هذه المعرفة تنمو فى وعيه ولا وعيه مع الانتصارات التى كان يحققها . وأتيح له بذلك أن يصنع التاريخ بناء على الشروط والمعطيات التى كانت تنبثق من الواقع وليس بشكل تعسفى أو بالمصادفة (21) .

ثم قامت دولة الموحدين ، ومن أسباب قيامها المنافسة (22) التى كانت بين قبيلة صنهاجة المرابطية وقبيلة المصامدة الجبلية ، واستغلال المهدى ابن تومرت لهذه المنافسة ولجوءه الى القبيلة المصمودية التى آمنت به وناصرته .

فى هذا العصر ، وابتداء من ولاية عبد المومن ، ولاسيما فى عهد المنصور ، نجد بنى هلال وبنى سليم وبنى معقل يفدون ويستقرون فى الجنوب المغربى (23) ، خاصة منهم المعاقلة الذين استوطنوا الصحراء ، وبنى حسان بصفة أخص .

ولكنا فى هذا العصر نجد بنى غانية (24) ، وهم صنهاجيون ، يثورون على الموحدين وعلى يعقوب المنصور . وهذه الثورة لا يمكن أن تفسر الا بأنها محاولة لرد الحكم الى يد الصنهاجيين . ولعلها تدل كذلك على رفض الصحراويين للمذهبية الموحدية لتمكن المذهب السنى منهم وتمكن الفقه المالكى ، شأنهم فى ذلك شأن جميع المغاربة .

---

(21) انظر محاضرتي الكاتب : أ ـ التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والادب (دعوة الحق ـ مارس 1974)
ب ـ وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (درس حسني رمضان 1395)

(22) انظر كتابنا : أبو الربيع الموحدي ص 14

(23) انظر : ابن خلدون ج 6 ص 58 ـ 69 والاستقصا ج 2 ص 177

(24) انظرهم فى : المعجب ص 267 والبيان المغرب ج 3 ص 215 (ط. معهد مولاي الحسن)

ومعروف أن مذهب الموحدين (25) مزيـــج من الأشعرية ومبـــادىء الشيعة الامامية ، فضلا عن التأثر بالاعتـــزال والمذهب الظاهرى وآراء الغزالى ، وان كان فى حقيقته لم يكن يقصد باعتماده على المبادىء الشيعية الا جانب السياسة لاثبات العصمة والمهدوية .

كذلك سنرى فى نهاية عهد الموحدين وأثناء ولاية المرتضى فى منتصف القرن السابع محاولة أخرى للثورة فى الصحراء يتزعمها على بن يدر (26) الذى كان من أكبر مساعدى الخليفة الموحدى ؛ ولعلهـــا توضـــع كذلك فى هـــذا الاطـــار .

وفى الوقت الذى كان الموحدون يواجهون ابن يدر ، كان المرينيـــون ــ وهم لا يزالون فى بداية أمرهم ــ يحاولون بسط نفوذهـــم على بعض المناطق الجنوبية ، على حد ما فعل ابو بكـــر ابن عبد الحق حين توجـــه سنة 655 هـ الى سجلماسة ودرعة وبلاد القبلة (27) .

وقد أتيـــح ليعقـــوب فيمـــا بعد ، وبالـــذات سنـــة 669 هـ (28) و 673 (29) ، وكذلك لابنه يوسف سنة 686 (30) ، ثـــم فيما بعد لأبى الحسن على أول عهده سنة 731 (31) أن يكملوا فتح المناطق الصحراوية ويرجعوها الى النفوذ المركزى للدولة .

ولم يلبث بذلك أن عاد الاستقرار وعادت الوحـــدة فى ظـــل الدول المتعاقبة ، بدءاً من هذا العهد فى القرن السابع الى الآن : دول المرينيين

وتاريخ ابن خلـــدون ج 6 ص 242

(25) انظر : أبو الربيع الموحدي (الفصل الاول) وانظر كذلك محاضرة « وحدة المغرب المـذهبيـــة »

(26) انظـــر البيـــان المغـــرب ج 3 ص 405 ـ 407 ـ 434

(27) انظـر الذخيرة السنيـــة ص 83 والاستقصـــا ج 3 ص 18

(28) الذخيـــرة ص 122

(29) الذخيـــرة ص 139 وابن خلـــدون ج 7 ص 188 ـ 189

(30) ابـــن خلـــدون ج 7 ص 212

(31) المصـــدر السابـــق ص 253

والسعديين والعلـويين ، وهى كلهـا من أصـل صحراوى وقائمـة فى مذهبيتها على السنة وفقه الامام مالك .

وفى هذه المذهبية يكمن عنصر تواصل بيـنـنا من الشمـال الـى الجنوب ، فى حين تطغى المذهبية الخارجية على جيراننا فى الشرق .

* * *

اذا أردنا بعد هذا العرض لأهم الملامـح التاريخية الفكريـة التى عرفتها الصحراء أن ننتقل الى القسم الثانى من المحاضرة لابراز بعـض أعلام الثقافة فيها ، فاننا سنجد لا شـك فى الطليعـة داعيـة المرابطين عبد الله بن ياسين وشيخه وجاج بن زلو . كما سنجـد فى هـذا العصر كذلك وفى رحـاب الدولة المرابطية التى رميـت من خصومها بالجهـل جماعة من رجالها كانوا مبرزين فى العلم ، أتـيـح لهـم أو لبعضهم أن يرحلوا الى الاندلس أو المشرق ، نذكر منهم :

1 ــ زاوى بن مناد بن عطية الله بن منصور الصنهاجى المعروف بابن تقسوط ، تلميذ أبى على الصدفى ، ويعتبر من كبار شيوخ العلـم فى دانيـة (32)

2 ــ خلوف بن خلف الله الصنهاجى ، وقد تولى قضاء قرطبة (33)

3 ــ عمر بن امام بن المعتز الصنهاجى ، وكان أميراً على المرية ، بلغ من العلم درجة كبيرة حتى أطلق عليه « الفقيه القائد » (34)

4 ــ الامير المنصور بن محمد بن الحـاج داود الصنهاجـى ، كان عالماً بالنسب والآثار الى حد أنه ناقـش فى الدواوين والاصول العتيـقة

---

(32) التكمـلـة ج 1 ص 89
(33) الجـذوة ص 115
(34) التشـوف ص 198

وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه ، وهو فخـــر صنهاجـــة ليـــس لهم مثـــله (35)

5 ــ الامير ميمون بن ياسين ، أخذ عن علماء مكـــة واعتلى كرسى التدريس فى اشبيلية ، وأخذ عن جماعة منهم ابن بشكوال وابن خير (36)

6 ــ أبو بكر ابن ابراهيم المعروف بابن تافلويت صهر ابن يوسف ووالى تلمسان وسرقسطة ، وكانت له عناية بالشعر كبيرة ، وكان هـــو نفسه شاعراً (37) .

ولعلنا لا ننسى فى لائحة العلماء المرابطـــين ابراهيم بن يوســـف بن تاشفين المعروف بابن تعيشت ، وكان استقدم أبا على الصدفى ، وقرب الطبيب الفيلسوف أبا بكر ابن زهـــر الذى ألف له كتاباً فى الطب كما عند ابن الأبار (38) ، وقرب كذلك الفتح ابن خاقان الذى جمع لـــه القلائـــد وأشاد بـــه فى المقدمـــة .

أما فى العصور التالية فقد لمعـــت أسماء كثـــيرة وفى شتى فـــروع المعرفة ، يكفينى للتمثيل لها أن أذكـــر :

1 ــ محمود بن عمر بن محمد أقيت الصنهاجى المتوفى سنة 960 هـ ، وهو فقيه تنبكتو وقاضيها ، وله شرح على مختصر خليل (39)

2 ــ الفقيه المفتى الشيخ محمد بن محمد التـــنبكتى المعـــروف بـــ « بغيع » (930 ــ 1002 هـ) (40) له كما عند تلميذه فى الابتهاج فتاوى

---

(35) التكملـــــة ج 1 ص 193

(36) انظـــر النبـــوغ ج 1 ص 74

(37) انظـر مقدمـة ابن خلـدون ص 519 وامراؤنـــا الشعـرـاء ص 17

(38) التكملـــة ج 2 ص 616

(39) درة الحجـــال ق 1 ص 311

(40) انظره فى : أ ــ الابتهـــاج ص 341

ب ــ الصفـــوة 101

ج ــ نشـــر المثانـــي ج 1 ص 23

د ــ خلاصـــة الأثـــر ج 4 ص 211

هـ ــ شجـــرة النـــور ص 287

و ــ ازهـــار الريـــاض ج 3 ص 56

عديدة وتعاليق وطرر به فيها على هفوات شراح خليل وغيره ، وتتبع شرح التتائى الكبير من أوله الى آخره فبين ما فيه من السهو نقلا وتقريراً . ويعتبر مجدد القرن العاشر على حد ما نقرأ عند احمد بابا فى رجز له (41) يقول فيه :

وعاشر القرون منه قد أتى محمد امامنا وهو الفتى

3 ـ احمد بابا (ابن احمد بن عمر التكرورى التنبكتى 963 ـ 1036 / 1556 ـ 1627) (42) له : أ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج (43)

ب ـ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج (44)

كما له : ا ـ شرحان على مختصر خليل (45)

ب ـ حواش ومختصرات فى الفقه والحديث والعربية (46)

(41) انظر أزهار الرياض ج 3 ص 56 ـ 57
(42) انظر فى : أ ـ الصفوة ص 52
ب ـ نزهة الحادي ص 81
ج ـ نشر المثاني ج 1 ص 151
د ـ خلاصة الأثر ج 1 ص 170
ه ـ فهرس الفهارس ج 1 ص 76
و ـ بروكلمان ج 2 ص 466
ز ـ المجلة الاسيوية ـ المجموعة الخامسة ج 1 ص 93
ح ـ CHERBONNEAU
Essai sur la littérature du Soudan
(Société archéologique de Constantine) 1854-1855
ج 2 ص 32 ـ 42
ط ـ مؤرخو الشرفا ص 250
ى ـ الاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص 99
ک ـ دائرة المعارف الاسلامية
(43) مطبوع
(44) مخطوط بمكتبة المدرسة فى الجزائر
(45 ـ 46) مخطوطة وانظر ما سياتي من كلام حول المطبوعات الصحراوية

4 ــ عبد الله بن محمد العلوى الشهير بابن رازكة العالم الاديب الشاعر « المقدم على أهل قطره من غير نكير كل عن مداه كل جواد ، يعترف بذلك الحاضر والباد ، وانتشر صيته فى تلك الصحارى والاقطار حتى صار كالشمس فى رابعة النهار . . . كان متفننا فى فنون شتى منها النحو والعربية والبيان والمنطق والفقه والهندسة والرياضة والتربيع وغير ذلك » (47) . كان متصلا بالمولى اسماعيل وحظى عنده وأصبح من خاصة ولده الامير محمد المعروف بالعالم . وله فيه مدائح كثيرة أورد بعضها صاحب الوسيط ، وسنعود اليها بعد فقرات .

5 ــ سيدى عبد الله بن الحاج ابراهيم بن الامام محنض احمد العلوى المتوفى فى حدود الثلاثين ومائتين وألف . ذكر الشنجيطى (48) أنه أقام فى فاس مدة كثيرة للنظر والتحرير وتلقى على البنانى محشى عبد الباقى وتلقى البنانى عنه أيضاً ، ثم حج ولقى كثيراً من علماء مصر . وكان فى المغرب متصلا بالسلطان سيدى محمد بن عبد الله . وقد تحدث عنه محمد الطالب بن الحاج فى « الازهار الطيبة النشر » وذكر أبياتا لوالده حمدون فى مدحه .

6 ــ محمد بن عبد الله بن رازكة ولد السالف الذكر . ترجم له سيدى العربى بن السايح فى كتاب « البغية » (49) . كان عالماً متصوفا وشاعراً . له فى التشوق الى فاس والى زيارة قبر احمد التيجانى قصيدة مطلعها (50) :

حى داراً لدى أبى سمغون ۞ واسقها من مصون ماء الشؤون

7 ــ سيدى محمد بن الشيخ سيدى المتوفى سنة 1284 ــ 1867 ، العالم والاديب الكبير صاحب القصيدة المشهورة فى الحث على الجهاد (51) ، وهى التى اولها :

---

(47) الوسيط ص 1 ـ 2
(48) المصدر السابق ص 37
(49) وعنه نقل صاحب الوسيط ص 30
(50) انظر المصدر السابق (وأبو سمغون قرية من عمل الجزائر)
(51) انظر الوسيط ص 243 وبحث الكاتب عن «النضال فى الشعر العربي بالمغرب» ص 33

رويـــدك انني شبهـــت دارا على أمثالها تقـــف المهارى

8 ــ المختار بن بون الجكني ، قال عنه الشنجيطي انـــه « تـــاج العلماء الذى طوق بحلى علمه كل عاطل . . . ولا يوجد عالم بعده الا وله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته وتلقـــى من مسنداتـــه . . . وكان . . . حيا فى أوائل القرن الثالث عشر » (52)

9 ــ باب بن احمد : ذكر الشنجيطي نقلا عن السايح أنـــه « كان عالماً ناسكاً فاضلا مشاراً اليه فى بلده وجيله ملحوظا بعـــين التعظيم فى معشره وقبيله . . . وان له شرحاً للتحفـــة العاصميـــة وتكملـــة التكملة للديباج انتهى فيه الى ذكر أهل القرن الثانى عشر » (53)

10 ــ التيجانى بن باب بن احمد بيب المتوفى اوائل العشرة بعـــد الستين ومائتين وألف . وهو ولد السالف الذكر . تحدث عنـــه سيـــدى العربى بن السايح فى البغية فذكر (54) أنه كانت له اليد الطولى فى العلم وخصوصاً فى فن السير والفقه والاصول والبيـــان والنحـــو والتصريف واللغة والمنطق والعروض وأشعار العرب وأيامهـــا وغير ذلك من . . . النوادر . وأما التصوف فقد رزق من الذوق الغريب فيه مـــا يشهد لـــه بالتقدم التـــام » (55) .

واذا كانت لائحة العلماء الصحراويين أطول من أن يحصى ما تحتويه من أسماء ، فانه لا مناص لنـــا من ان نختم بالشيخ مـــاء العينين (56) وأفراد أسرته الشريفة ؛ فقد اشتهروا بالجهاد والعلم والادب ، وكانـــوا السند الكبير والقوى للدولة فى الصحراء وحققـــوا التواصل السيـــاسى

(52) ص 277 ــ 283
(53) البغيـــة ص 75 والوسيـــط ص 34
(54) ص 75
(55) نقله صاحب الوسيط ص 70 وانظر فيه الاعلام لابن ابراهيم ج 3 ص 82 (ط الملكية)
(56) انظر فيه : أ ــ الوسيـــط ص 365
ب ــ معجم الشيوخ لعبد الحفيظ الفاسي ج 2 ص 37
ج ــ المعســـــــــول ج 4 ص 83
د ــ الساقية الحمراء ووادي الذهب للفربي ص 130 ــ 340
هـ ــ مناقـــب الصحـــراء لابن منصـــور ص 83

والفكرى فى المنطقة كلها ، وكانوا دائمى التنقل من الصحراء الى أقاليم الشمال . وان ظهائر التولية والتعيين فى مناصب القيادة والقضاء وكذلك ظهائر التوقير والاحترام شاهدة على ذلك .

ويكفى أن نلمح من هذه الاسرة الى الشيخ محمد فاضل بن مامين (1194 — 1287) وهو عالم متصوف مؤدب مربى ناشر للطريقة الفاضلية المتأثرة بالتيجانية التى تلقاها على شيخه محمد الكحيل المنتسب لقبيلة ادوعيش (57) التى اشتهرت برعاية الزوايا ولا سيما التيجانية .

أما أبناؤه فقاموا بدور التوعية والتربية والتعليم فى كل المناطق الصحراوية والبلدان المجاورة لها جنوباً وعلى ضفاف نهر السنغال حيث يوجد مدفنه بدار السلام الواقعة فى اقليم جومبو ، وقد أقيمت حول هذا المدفن زاوية ومزار .

وفى طليعة أبنائه ينهض الشيخ ماء العينين محمد مصطفى الذى كان عالماً أديباً وشيخا مربيا ، وهو مؤسس طريقة « أهل بركة الله » التى تعتبر استمراراً للطريقة الفاضلية . وكانت له زيارات لفاس ومراكش ، كما كانت له اتصالات وثيقة ومراسلات مع مختلف ملوك الدولة العلوية الذين عاصرهم بدءاً من المولى عبد الرحمن الى المولى عبد الحفيظ ، وكان يعد السند الحقيقى للدولة لمواقفه الجهادية وعمله الدائب لرد العدوان الأجنبى الذى كان يتربص بالمغرب .

وقد خلفه ابنه احمد الهيبة (58) ثم مربيه ربه فمحمد الأغضف العلامة الورع الشهير الذى كان يدرس فى مراكش الى حدود سنة 1330 هـ (59) .

على ان الاهتمامات العلمية لم تكن فى الصحراء مقصورة على الرجال ، بل كان للمرأة فيها نصيب وافر ، واسجل هنا بعض الأسماء (60) :

---

(57) انظر الوسيط ص 486
(58) انظر الاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص 289
(59) انظر خلال جزولة للمختار السوسي ج 4 ص 157
(60) وهي واردة أثناء ترجمة آبائهن أو أزواجهن او أبنائهن ، وقد جاء ذكر أغلبها

1 ــ زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين ، وقد اشتهـرت بالجمال والرياسة والعلم .

2 ــ ام طلحة تميمة بنته ، وكانت لها عناية بالادب والشعر

3 ــ قمر زوجة على بن يوسف ، وكانت مبرزة فى الرياسة والادب

4 ــ حواء وزينب أختا أبى بكر ابن ابراهيم بن تافلويت ، كانـت لهما اهتمامات بالادب والشعر ، وكانت زينب زوجة لتميم بن يوسف

5 ــ خناثة بنت بكـار زوج المولى اسماعيل ، عرفـت بالجمـال والرياسة والعلم . وقد ذكر المؤرخ أكنسوس فى كتاب « الجيش » (61) أن لها تقييداً رآه بخطها على هامش الاصابة لابن حجر .

6 ــ صفية بنت المختار ، كانت عالمة بالتجويد والتفسير والسيرة والنحو ، وكانت مدرسة .

7 ــ خديجة بنت المختار بن عثمـان ، وهى ام التيجـانى بن باب العلوى وعنها أخذ علوماً كثيرة .

8 ــ هند زوج ماء العينين ، كانت عالمة مشاركة

9 ــ ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمى ، كانت راوية للأشعار وعالمة مشاركة .

10 ــ أختها ربيعة ، كانت أديبة ناقـدة ، وهى واختهـا حفيدتان للشيخ ماء العينين .

11 ــ خديجة بنت الامام محمد العتيق ، وكانت عالمة مشاركة .

12 ــ مـريـم الشاعـرة (62) .

* * *

---

(61) ج 1 ص 105

(62) الـوسيـــط ص 337

يبقى بعد هذا أن نعرف الخصائص المميزة لهذه الثقافة ، ويمكننـــا ان ننظــر فيها من زاويــتين :

الاولى : من حيث المحتوى والمضمون

الثانية : من حيث الأبعاد والآفـــاق

فى المحتوى والمضمون نميز جانبين :

1 ــ الجانب الفكرى المذهبى ، وهو يسير فى الخط السنى القائــم على عقيدة الأشعرى وفقه مالك ، شأن الصحراء فى ذلك شأن بقيــة الاقاليم المغربية والموريطانية . يتضح لنا هذا من خلال المتون التى تدرس كمنظومة ابن عاشر والرسالة والتحفة والزقاقية ومختصر خليل ؛ كمــا يتضح من خلال المؤلفــات والشروح والحواشى التى وضعهــا علمــاء الصحراء ، فهى مرتبطة بالفقه المالكى لا تحيــد عنه . والتصوف نفســه تصوف سنى تعبدى لا تعقيد فيه ولا تغييب . وقد لخــص ابن عــاشر فى مرشده هذا الاتجاه حين قــال :

فى عقد الاشعرى وفقه مالك   وفى طريقة الجنيــد السالك

2 ــ الجانب اللغوى والأدبى ، ويتمثل فى لغة رصينة متينة يعتمد اصحابها غالباً على الرجوع الدائم للقاموس وعلى حفظ أراجيز العرب . وهم فى الأدب ينطلقون من الجاهلى والأموى مما جعل ملامح ادب هذا العصر ــ والشعر خاصة ــ تنطبع قوية على انتاج الشعراء الصحراويين .

على ان التراث الثقافى الصحراوى ليس مقتصراً فقــط على هــذا الحيز المدرسى ، ولكنه يشمل كذلك حيزاً آخــر يتصل بالتراث الشعبى لا شك أنه يعطى للثقافة الصحراوية خاصية التنوع والغزارة والخصب ، وهو حيز مازال بكراً على الرغم من غناه . ويتمثل فى العادات والتقاليد المرتبطة بمظاهر الحياة ومناسباتها المختلفــة ، وهى تعكس ترسبــات

حضارية وثقافية منحدرة عبر عصور التاريخ ، وان طبعت بالروح الاسلامية فى المرحلة المتأخرة .

كما يتمثل فى الفنون وخاصة ما يتصل منها بالرسم وصناعة الزرابى والنسيج والحلى وما اليها من الصناعات اليدوية الدقيقة ، وما يتصل بالموسيقى والغناء والرقص الذى تتميز فيه رقصة الكدرة المشهورة .

ويتمثل التراث الشعبى بعد هذا فى الأدب الذى كانت حلقات السمر مجالا لتداوله قصة وحكاية وشعراً وأمثالا . وللأسر والقبائل الصحراوية عناية بالقصاصين والشعراء للدور الذى ينهضون به فى التوعية والتثقيف الشعبى فضلا عن التسلية والامتاع .

واستسمح فى أن اسرد بعضاً من الامثال التى اوردها الشنجيطى فى الوسيط (63) وجدتها متفقة مع ما نتداول ، وهى :

1 — اللى ابلا انفع يندفع

2 — اللى عضو لحنش يخلعو لحبل

3 — جا ايطبو كلع عينو (جا . . . اعماه)

4 — حمل الجماعا ريش

5 — اسمع لكلام امبكينك لا تسمع لكلام ا مضحكينك

6 — الشوفَ ما يملا الجوفَ

7 — لا عجلا أعلى اصلاح (لا زربا . . .)

8 — لحم الركبا موكول ومذموم

9 — لحمية تغلب السبع (لحمايا)

(63) ابتداء من 542

واختم هذه النقطة المتعلقة بالادب الشعبى بلفــت النظـر الى ان الشعر المعروف بالملحون ــ وهو عندنا من أغنى الوان الادب الشعبى ــ نشأ فى الصحراء ثم انتقل من تافيلالت الى الشمال ليزدهر فى الحواضر . ومن الاسماء الاولى التى لمعت فيه مولاى الشاد وعبد الله ابن احساين ، كلاهما من الصحراء ومن القرن التاسع الهجرى . وعلى الرغم من آننــا لا نعرف عنهما الا القليــل ، فقــد وقفنــا للاول على مقطوعتين (64) . يقول فى مطلع الاولى :

خوك عبدك وانت ديما الخوك مملوك   لا تؤذيه الله يهديك ما يؤذيك

ويقــول فى الثانيــة :

لا تقولو ثى يا حسرا اعلى ازمان   الخير والشر افكل ازمان كاينــين

ووقفنا للثانى على قصيدة (65) يقول فى اولها :

نبدا باسم الله انظامى ياللى ابفى لوزان
لوزان خير لى أنايا من قول كان حتى كان

وعندنا ان هذا الاخير هو اول من اكتملت عنده قصيدة الشعر الملحون .

هذا فيما يتعلــق بالخصائص المتصلة بالمحتوى والمضمون ، امــا ما يتعلق منها بجانب الآفاق والأبعاد فاميز فيه جانبين :

---

(64) انظر كتابنــا « القصيــدة » ص 546

(65) المصــــدر السابــــق ص 547

الاول : ان ثقافة الصحراء كانت دائما ثقافة تواصل (66) حيث نجد العلماء والادباء الصحراويين يتوافدون على أقاليم الشمال ، اما للدراسة والتدريس واما للاتصال بالملوك قصد مدحهم أو الكتابة لهم . ويذكر فى هذا الصدد : (67)

1 ـ الشاعر أبو اسحق بن يعقوب الكانمى الذى مدح المنصور الموحدى ، ومن قوله فيه (68) :

ازال حجابه عنى وعينى تراه من المهابة فى حجاب
وقربنى تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابى

2 ـ المختار بن الهيب الأبيرى ، كان كاتبا للمولى عبد الرحمن ، وهو والد العالم الشاعر سيدى بن المختار الذى اشتهر فى مراكش باقتنائه للكتب (69) .

---

(66) دون أن ننسى ظاهرة تواصل الاسر والانساب حيث نجد لكل أسرة عريقة وشريفة فى الصحراء أصلا او فرعا فى المغرب أو موريطانيا . ومن خير الامثلة على ذلك العروسيون فهم ينتمون الى الشيخ سيدي احمد العروسي المدفون فى ناحية الصمارة وكان مقيما فى مراكش ؛ وكذلك قبائل الرقيبات ـ وهي تشكل نسبة كبيرة من سكان الصحراء ـ وتنتسب لعبد السلام بن مشيش (ت 622 أو 23 أو 25) دفين جبل العلم فى اقليم تطوان و « لقد ذهب اولاد سيدي عبد السلام بن مشيش على اثر الهزائم التي لحقت بالمسلمين وبعد ان رغب والدهم فى ان ينزوي بجبال غمارة بعيدا عن الناس متقربا الى ربه بالصلاة والذكر ، ذهبوا الى سجلماسة ومراكش واتجه البعض منهم الى الصحراء وبدأوا فى بث دعوة مولاى عبد السلام واقامة زاوية بكل صقع حلوا به مؤملين ان تعم بركته وينتشر ذكره ويرسخ علمه أينما حلوا وارتحلوا »
(الساقية الحمراء ووادي الذهب للغربي ج 1 ص 117)

(67) دون ان ننسى أسماء كثير من تلاميذ الشيخ احمد التيجاني ومريديه الذين كانوا يشدون الرحلة لزيارته ، يكفي ان نذكر منهم :
أ ـ ابن المشري محمد بن محمد السايحي السباعي التكرتي (البغية ص 193)
ب ـ احمد سالم بن الحاج الوداني الشنجيطي (رفع النقاب لسكيرج ج1 ص190)

(68) انظر وفيات الاعيان ج 7 ص 15 والنفح ج 4 ص 380 (ط بيروت) واعلام ابن ابراهيم ج 1 ص 169 (ط ملكية)

(69) الوسيط ص 241

3 ــ عبد الله العلوى المعروف بابن رازكة ، وقد سلفت الاشارة اليه وأنه من خاصة محمد العالم ، وهو القائـل (70) فى الترحيب بـه فى مكناس وهى يومئذ العاصمة :

مكناسة الزيتون فخـراً أصبحت تزهـو وترفـل فى مـلاء أخضر

فرحـاً بعبـد الله نجـل محمد قاضى القضاة ومن ذؤابة مغفـر

وللشاعر فيه مدائح كثيرة ، منها قصيدة (71) مطلعها :

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا وسمها بحور الآل تسبحها سبحا

وفيهـا يقـول عن الأمـير :

وأم بساط ابن الشريـف محمـد مبيد العدا ذكرى ومبدى الهدى صبحا

فتى يسع الدنيـا كما هى صدره فأضحى به صدر الديانة مندحـا

ومن هو غيث أخضل الأرض روضه فلا يظمأ الآوى اليـه ولا يضحى

فتى يستقل البحر جود بنانـه على حالة استكثار حاتم الرشحا

تزيد على الفاقات فيضات كفـه فيغرق فى التيار من يأمل النضحا

ومن هديه ساوى النهار وليـله فأمسى ينـير الخافقين كما أضحى

أمير ملوك الأرض أضحت بسيفه كما تتبغى الذبح فى عيدها الأضحى

مساعيه فى الخطب الجليل يرومه كآمال من يرجوه تستصحب النجحا

وآيـات علم أغمد الجهل نورها وغايات جد ليس تطلا بها مزحا

ويقول عن المولى اسماعيل :

ابوك لحكم الشرع ولاك عهـده فلم تلـق كدا للسؤال ولا كدحا

مهيب مخوف بطشه تحت حلمـه عفو يرى الا عن الباطل الصفحا

(70) المصـدر السابـق ص 2
(71) المصـدر السابـق ص 21 و 397

فهل كان معزوا الى الحلم قبـــله — نعم او كريم يدعى غيره السمحا

ولم تذعـــن الأعداء محض مودة — اليه ولكن انما كرهوا القرحـــــا

راوا ضيغماً يعطيالحروب حقوقها — وان تضع الأوزار يبرم لها صلحا

ويستغرق الأوقات فى الجد كلهـــا — ولا يهب التلعاب ما يسع اللمحا

مواصلة حبـــل الجهـــاد جيـــاده — ووقفا على غزو العدا عدوها ضبحا

ومنها كذلك هذه القصيدة التى منها قوله : (72)

هو الوارث الفضل النبئى خالصاً — من المجد والعليا ومن طيب محتد

بمال اليتامى والأيامى موكـــــل — بتفريـــج غمـــاء الشجى المكمـــد

4 — محمد بن سيدى محمد حفيد العلامة ابن رازكة ، كان متصلا بالمولى عبد الرحمن ، وله فيه مدائح كثـــيرة (73) ؛ يقـــول من قصيـــدة فى مخـــاطبتـــه :

خليفـــة المصطفى وابن بضعتـــه — ثوبـــا من المجد لم يعلق بأدناس

الله منـــك حقوق الناس قلدهـــا — يقظان لا غافـــل عنهـــا ولا ناس

عمرت عمرت من عهد الشريعة ما — بـــاض النعام بدور منـــه أدراس

ويقـــول من آخـــرى :

خليفة مصباح الهدى وحفيـــــده — ومحيـــى عـافى ربعـــه المتقـــادم

غيـــور على بيضاء سنتـــه التى — أبيحـــت لها لـــولاه كل محـــارم

فكم غض عنها طرف من رام طرفها — بغض وكم قد كف من كف ظالـــم

---

(72) المصـــــدر السابـــق ص 23 و 400

(73) نفس المصدر ص 52 ـ 53 واعلام ابن ابراهيم ج 5 ص 231 ـ 232

أنــام عيون الناس تحت عدالــة | وقت رجل سارى الليل لدغ الأراقم
أمولاى لازالت مدى الدهر عنكم | حصون المعالى عاليــات المعالــم

وله بالاضافة الى مدائحه قصائد ومقطوعات تيجانية وأخرى اخوانيــة خاصة كهاته التي يتحدث فيها عن جلســة مع بعــض أهل مراكــش ، وفيهــا يقــول :

ياليلــة راح فيها عــازب الوطر | بات الصفاء بها يسطو على الكدر
طابت مجالسنا فيهــا وخامرنــا | حسن السرور على موضونةالسرر
اذ بات احمد يسقينا على مهــل | أشهى من الراح فى أبهى من الدرر
فى منزل تتعب الافكــار عبرتهــا | فيــه كما يتعــب الابصار بالنظر
فيه النهار عشاء والمعايــش والا | نهــار تجرى وفيه مثمــر الشجر

5 ــ محمد لمجيدرى بن حبيب الله الشاعر الوشاح (74) ، كانت له حظوة عند السلطان سيدى محمد بن عبد الله ، ويبدو أنه كان يدرس فى فاس اذ تتلمذ (75) عليه الصوفى أحمد بن ادريس الفاسى .

6 ــ معاوية بن الشد التندغى وهو « شاعر فصيح وله شعــر مليح » (76) . وقد ذكر له الشنجيطى أرجوزة فى مــدح مولاى اليزيد بن سيدى محمد بن عبد الله وصفها بأنها طنانة (77) ، مطلعها :

لله كــم مــن هضبــة وجبــل | من الهوى بهــا يســير جملــى

وفيهــا يقول عن ممدوحه :

لا واهــب أنفــس مــا ملكــه | الا الأمير ابــن الامــير المعتلــى
خليفــة الله وبــابــه هــــم | أهل الخلائــف على التسلســل

(74) انظره فى الوسيط ص 214 واعلام ابن ابراهيم ج 5 ص 88 وموشحات مغربية ص 181
(75) كما فى الوسيط ص 215
(76) المصــــدر الســابــق ص 345
(77) ذكر انها طويلة وأورد منها أبياتا قليلة بقيت فى ذاكراته (المصدر السابق)

7 ـ محمد محمود البيضاوى الشنجيطى العالم الكبير (78) الذى هاجر الى مراكش ليدرس ، وكان مع الهيئة ، وقد توفى فى كردوس سنة 1349 .

8 ـ أخته خديجة بنت البيضاوى التى هاجرت ايضا الى المدينة الحمراء لتشتغل بالتدريس ، وكانت عالمة مستحضرة للسيرة والعربية واللغة والنحو (79) .

9 ـ محمد البيضاوى الشنجيطى (80) ولد العالمة المذكورة ، استقر فى المغرب بعد جولة فى المشرق ، وتصدى للتدريس فى طنجة وتطوان . وبعد تقلبه فى مناصب العدالة والترجمة عين محرراً فى جريدة « السعادة » بالرباط ثم عضوا فى مجلس الاستيناف فقاضيا فى بنى عمير وواد زم ؛ وفى النهاية باشا فى تارودانت الى ان توفى عام 1945 . وكان مدة اقامته فى الرباط يشتغل بالتدريس ، فضلا عن انه نشط مجال الادب والشعر بما كان له من مساجلات مع شعراء الفترة من أمثال عبد الله القباج ومحمد بوجندار واحمد البلغيثى (81) .

10 ـ محمد بابا الصحراوى (1290 ـ 1342 هـ) « الاديب الكبير المشهور فى الغ حيث استقر سنين عديدة حتى صار كأحدهم . . . أتخذه الشيخ ماء العينين ناسخا لمؤلفاته ، وهو من المهرة فى القرآن العظيم حفظاً ورسماً وحسن أداء . . . وهو فوق ذلك شاعر مفلق ، له شرح حسن على لامية العرب » (82) ، وله مطارحات أدبية مع الالفيين (83) .

---

(78) خلال جزولة ج 4 ص 157
(79) المصدر السابق
(80) انظره فى المصدر السابق وفى حلقات ادباء النادي الجنداري للسيد الوالد (حلقة خاصة به)
(81) انظر الحلقة المذكورة
(82) المعسول ج 3 ص 29
(83) انظر بعضها فى المصدر السابق

11 ـ محمد سالم الصحراوى المتوفى نحو 1364 هـ وهو من الذين كانوا فى صحبة الشيخ ماء العينين ثم اقاموا فى سوس . قال عنه صاحب المعسول : « هذا شاعر فطرى مفوه عبقرى يعرف كيف يسبك وكيف يصوغ » (84) .

12 ـ الشيخ سيديا ابن الشيخ احمدو الديمانى الصحراوى (1295 ـ 1373 هـ) كان فى صحبة الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة ثم هاجر الى اقليم سوس . وهو « من رجالات العلوم ، فانه علامة جليل محصل أديب مشارك فى المعقول والمنقول ، وله أدبيات وقصائد قالها فى بعض الملوك العلويين وفى الشيخ ماء العينين » (85) . وله كذلك مساجلات مع بعض علماء وأدباء سوس (86) .

13 ـ ماء العينين ابن العتيق (87) حفيد الشيخ ماء العينين الكبير ، توفى سنة 1957 . كان قاضيا فى طنطان وأستاذاً فى كلية ابن يوسف بمراكش ، له فى جلالة المغفور له محمد الخامس قصيدة (88) رفعها اليه بمناسبة المولد النبوى عام 1937 ، مطلعها :

بشر المنى بك أشرقت أعلامها ... يشدو على فنن السرور حمامها

وفيها يقول مخاطبا ممدوحه :

زانت امامتك الزمان وكيف لا ... تزدان أزمنة وأنت امامها

لم تبق من رتب الكمال مزية ... الا وأنت ملاكها وقوامها

لله درك يا بن يوسف من فتى ... يرعى بها للمكرمات ذمامها

انت المليك الكامل الكرم الذى ... نجلتك من غر الملوك كرامها

(84) ج 3 ص 36
(85) المصدر السابق ص 27
(86) اورد بعضها فى المصدر السالف
(87) انظر مناقب الصحراء ص 93
(88) المصدر السابق ص 94 ـ 95

على ان خط التواصل لم يكن يسير فى اتجاه واحد ، بل كان يقابله خط آخر يسير من الشمال الى الجنوب ، ويتمثل فى الرحالة الذين اتصلوا بالصحراء وكتبوا عن اقاليمها ، كابن بطوطة فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وابى سالم العياشي (ت 1090 هـ) صاحب رحلة « ماء الموائد » ، ومعاصره ابى عبد الله محمد بن احمد القيسى الشهير بالسراج صاحب رحلة « انس السارى والسارب من أقطار المغرب الى منتهى الآمال والمآرب سيد الاعاجم والاعارب » .

كما يتمثل فى الوفود الرسمية التى كانت تزور اقاليم الصحراء ، وفى طليعتها الوفد الذى زار الساقية الحمراء ، وكان بعثه المولى عبد العزيز لاستخلاص طرفاية من الانجليز سنة 1313 (89) . وفى الترحيب به قال الاديب العلامة السيد ابراهيم بن محمد البوارى (90) :

اهلا بهم من خمسة أعلام بل خمسة كقواعد الاسلام

رسل الامير ابن الامير امامنا عبد العزيز ابن العزيز الامام

من خصه المولى بأعلى رتبة تلك الخلافة رحمة الانام

لازال مخصوصاً بكل فضيلة اذ خصنا بأيمة الاقوام

هم خنصر مع بنصر وسطاهم سبابة كبراهم الابهام

يده الينا مدها مبسوطة بمواهب مسلورة الانعام

لا تنس ان تذكرهم وسراتهم أعنى ثلاثة سادة خدام

ولأنتم من عند شيخ فاضل ماء العيون المصطفى بتمام

ساقى الورى ساقية الحمرامتى عز الورى اسقاء ضيف ظمام

---

(89) انظر الاتحاف ج 1 ص 380

(90) المصدر السابق ص 386

كذلك يتمثل هذا الخط الذى يسير من الشمال الى الجنوب فى الشعراء الذين مدحوا الشيخ ماء العينين كالطاهر الايفرانى واحمد بن المواز وعبد الرحمن ابن زيدان واحمد البلغيثى واحمد سكيرج وعبد الله القباج وغيرهم ممن تكفلت بذكر قصائدهم كتب ودواوين كالمعسول للمختار السوسى والابحر المعينية (91) لجامعه محمد بن ماء العينين .

وتتجلى ميزة التواصل بعد هذا فى التبادل العلمى المتمثل فى أكثر من مظهر ، ومن أهمه تبادل الاجازات العلمية على حد ما حدث بين محمد بن محمد بن أبى بكر التواتى المتوفى سنة 1010 هـ واحمد بن القاضى الذى قال عنه : « تدبجت معه اجازنى واجزت له واخذ عنى الحساب والفرائض بمراكش » (92) .

ومثله تبادل الالغاز العلمية ، ومن الامثلة عليه ما فعل عبد الله العلوى (ابن رازكة) المشار اليه قبل حين خاطب علماء فاس وابن زكرى خاصة ملغزاً بابيات فى قوله تعالى من سورة يوسف (93) متحدثا عن سرقة السقاية او صواع الملك والبحث عن سارقه : « فبدأ باوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه » لماذا لم يقل من وعائه ؟ من هذه الابيات قوله (94) بعد مقدمة :

اسائلكم ما سر اظهار ربنا — تبارك مجداً من وعاء أخيه

فلم يات عنه منه أو من وعائه — لأمر دقيق جل ثم يخيه

فان تك اسرار المعانى خفية — فمرآتها أفكار كل نبيه

وانت ابن زكرى نبيه محقق — تفردت فى الدنيا بغير شبيه

اذا غصت فى بحث حصلت بدره — وخليت عن سفسافه ورديه

---

(91) مخطوط بخزانة الرباط العامة 1376 د

(92) درة الحجال ق 1 ص 230 وانظر الاعلام لابن ابراهيم ج 4 ص 198 . وابن ابي التواتي هذا ولد سنة 941 وكان مبرزا فى الفقه والحديث والعلوم الرياضية وكان يزاول التدريس فى مراكش

(93) الآية 76

(94) انظر الوسيط ص 8

وقد أجاب عليه محمد بن سعيد اليدالى الديمانى بقصيدة (95) منها :

فلو قال فرضاً ربنـــا من وعائـــه	فـــذا لكـــم بعد التفكـــر فيــــه
يؤدى الى عـــود الضمير ليوسف	فيفســـد معـــنـــاه لمختبـــريـــه
لان الضمير فى الصناعة عائــــــد	لأقرب مذكـــور هنـــاك يلـــيـــه
وان قال منه اختــل أيضاً لأنـــه	يؤدى لعـــود مضمـــر لأخيــــــه
فتنزع منه الصاع لا من وعائـــه	وتأنـــف من ذا نفس كل نـــزيـــه
لمـــا فى انتزاع من أذى ومهانـــة	ولم يرد الرحمن من ذا بنـــبـــيه

ويذكر هنا كذلك اللغز الذى وجهه محمد عثمـــان بن اغشممت المجلسى لأهل مدارس فـــاس (96) :

الى مدارس فاس الغـــر أسئلـــة	عيالم العلم اهل الحفظ والملكـــه
عن حاضر قسم متروك لوالـــده	صار البكاء له حظا من التركه (97)
وما به مانـــع فى القسم يمنعـــه	وحـــاز الابعد عنه كلمـــا تركـــه
وعن طوامث لا يمنعن أو جنـــب	منمسجد وفروعالفقه مشتبكه(98)
واسم فى الافراد والتذكير تذكـــره	وفرع ذين بنوع واحد سلكه (99)
أريد منكم جوابا رائقـــا حسنـــا	نظمـــاً والا فمـــا اعطتكم الشبكه

كذلك نذكر فى التبادل ما يختص بالافتاء ، ومن خير أمثلته ما وقع فى القرن العاشر بين أبى محمد عبد الله العصنونى قاضى تـــوات المتـــوفى

---

(95) المصـــــدر الســـابـــــق ص 9

(96) المصـــــــــدر السابـــــق ص 358

(97) فى هامش المصدر السابـــق ان العمري ترجع الى من عمرها لا على أهل المعمر عليه

(98) فى هامش كذلك انه يعني ان نساء أهل البيت يدخلن المسجد وهن حيض وكذلـــك أهل البيت يدخلون المسجد متلبسين بالجنابة ذكورا واناثا

(99) فى هامش آخر انه يعني ان المصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ تقول : رجل جنب وامـــراة جنـــب ، ونســـاء جنـــب

سنة 927 وكان فقيها مفتيا ومدرسا (100) ، ومحمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى المتوفى سنة 909 (101) حول نقض ذمة يهود توات واباحة دمائهم وأموالهم وهدم بيعهم ؛ وكان المغيلى يرى فيه رأياً متطرفا مما اضطرهما الى اللجوء الى علماء فاس وتونس وتلمسان للافتاء . وكتب فى ذلك الحافظ ابو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسى ووافقه محمد بن يوسف السنوسى ، كما أجاب فى المسألة الرصاع مفتى تونس وأبو مهدى الماواسى مفتى فاس وابن زكرى مفتى تلمسان والقاضى أبو زكريا يحيى بن أبى البركات الغمارى وعبد الرحمن ابن سبع التلمسانيان (102) .

ومن مظاهر التبادل (103) بعد هذا عناية الملوك بطبع انتاج علماء الصحراء منذ دخلت المطبعة الى المغرب فى منتصف القرن الماضى ، علماً بأنهم نشروا لهم بعض المطبوعات فى مصر . ولا أريد أن أطيل وأكتفى بأن أذكر أنه طبع :

1 ــ لأحمد بابا :

أ ــ مجموع سنة 1307 به :

ــ ارشاد الواقف لمعنى نية الحالف

ــ فتح الرزاق فى مسألة الشك فى الطلاق

ــ افهام السامع بمعنى قول الشيخ خليل فى النكاح بالمنافع

ــ أنفس الأعلاق فى فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل فى درك الصداق .

---

(100) درة الحجال ق 2 ص 341

(101) الابتهاج ص 331

(102) انظر المصدر السابق ص 331 واعلام ابن ابراهيم ج 4 ص 125

(103) فى نطاق التبادل داخل الاطار الصوفي التيجاني لا ينبغي أن ننسى ان سيدي العربي ابن السايح المتوفى سنة 1309 (من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين ج 2 ص 368) وضع على منظومة (منية المريد) للطالب العلوي الشنجيطي شرحا سماه : (بغية المستفيد من منية المريد)

ب ــ نيل الابتهاج بتطريز الديباج (سنة 1317)

2 ــ للمختار بن بون الجكنــــى :

أ ــ وسيلة السعادة فى نشر ما تضمن الشهادة

ب ــ نظم فى مسائل العقائد

3 ــ لعبد القادر بن محمد بن محمد بن سالم الشنجيطى :

الواضح المبين فى أصل علوم الدين

4 ــ لمحمد بن الصغير الشنجيطى :

أ ــ سرية الحق والانتصار والذب عن أولياء الله الاخيار(1319)

ب ــ الجيش الكفيل بأخذ الثــار ممن ســل على الشيــخ التيجانى سيف الانكار (1319)

5 ــ لمحمد النابغة الشنجيطى :

أرجوزة فيما تجب به الفتوى وما يعتمد من الكتب

6 ــ لمحمد فال بن محمد بن احمد العاقل الديمانى :

شرح قصيدة سيدى المختار بن بون الشنجيطى

7 ــ لعبد الله بن ابراهيم العلوى الشنجيطى :

أ ــ نشر البنود على مراقى السعود (1327)

ب ــ هدى الأبرار على طلعة الانوار

ج ــ فيض الفتاح على نور الأقــاح

8 ــ لمحمد بن حبت الشنجيطى :

اختصار المواهب النحوية والخلاصة المالكية والكتابات البونيـــة جـــزآن) .

أمـــا مـــا طبع من انتاج علماء أسرة ماء العينين فأكثر من أن يحصى واشهر من أن يخفى ، ويكفينى أن اذكر هذه الكتب :

1 ــ للشيخ ماء العينين :

ا ــ نظم فى 56 ص (1322)

ب ــ هداية المبتدئين ونفعة المنتهين : أرجوزة فى النحو (1322)

ج ــ ابراز اللآلى المكفونة فى الأسامى الظاهرة والمضمرة(1322)

د ــ المريد فى الجهر بالذكر على المريد (1322)

هـ ــ ثمـــار المزهـــر : قصائد (1324)

و ــ الكبريت الاحمـــر (1324)

ز ــ منتخب التصوف (1325)

2 ــ لمحمد بن فاضـــل :

أ ــ سيف المجادل للقطب الكامل (بدون تاريخ)

ب ــ منظومة فى التوحيد (بدون تاريخ)

ج ــ سيف السكت للمتعرض لنا فى أول الوقت (بدون تاريخ)

3 ــ لمحمد مصطفى بن محمد الفاضل :

ا ــ مبصر التشوف على منتخب التصوف : جزآن (1314)

ب ــ الخلاص فى حقيقة الاخلاص ، وبهامشه : مزيلة النكد عمن لا يحب الحسد (1319)

ج ـــ تقييد يتعلق بحديث : انما الاعمال بالنيات (بهامشه : مزيلة النكـــد) : 1320

د ـــ تبيين الغموض على نعت العروض ، بهامشه : مفيـــد النساء والرجال فى بيان بعض ما جاز من الآبدال(1320)

هـ ـــ الأقدس على الأنفس (شرح ورقـــات امـــام الحرمين) وبهامشه : المفيد مع شرحه تنوير السعيد فى العـــام والخـــاص (1320)

و ـــ السيف والموسى فى قضية الخضر وموسى ، بهامشه : الايضاح لبعض الاصطلاح (1320 وأعيـــد طبـــع الايضاح مفرداً سنة 1321)

ز ـــ مفيد السميع والمتكلم فى احكام التيمم والمتيمم ، بهامشه : أدب المخالطة مع اليتيم (1321)

ح ـــ دليل الرفاق على شمس الاتفاق : ثلاثة أجزاء (1321)

ط ـــ تنبيه معاشر المريدين على كونهـــم لأصنـــاف الصحابة تابعـــين (1321)

ى ـــ حجة المريد فى الجهر بالذكـــر على المريـــد (1321 ، وطبع فى 1322 بعنوان : المريـــد)

ك ـــ اظهار الطريق المشتهر على اسمع ولا تغترر ، بهامشه : قرة العينين فى الكلام على الرؤية فى الدارين (1321)

ل ـــ الصلات فى فضائل بعـــض الصلوات ، بهامشه : 1) تبيان الحق الذى للباطل سحق . 2) مظهر الدلالات المقصودة فى الفاظ التحيات . 3) نصيحة النساء (1321)

م ــ مغرى الناظر والسامع على تعلم العلم النافــع (1294 و ط ثانية 1321) .

ن ــ صلة المترحم على صلة الرحم (1323)

4 ــ ولابن محمد فاضــل :

أ ــ مفيد الحاضرة والبادية بشرح هذه الابيات الثمانية (1316)

ب ــ ديــوان شعــر (1316)

ج ــ نعت البدايات وتوصيف النهايات (1311 ثم طبــع فى القــاهرة 1324)

5 ــ لمحمد تقى الدين بن محمد مصطفى :

مذكرة الموارد بسيرة ماء العينين ذى الفوائد (1316)

هذا فيما يتعلق بالتواصل ، وهو الجانب الاول من آفــاق الثقافة الصحراوية وأبعادها ، أما الجانب الثانى وهو اشعاع هذه الثقافة فيكفينى للتمثيل عليه أن أشير الى عالمين شنجيطيين كانا اقاما مدة طويلة فى بلاد المشرق ومصر خاصة ، وكانت لهما الرياسة والتبريز فى التحقيق والتصويب بحكم ثقافتهما الاصيلة فى مجال العلوم الادبية واللسانية ، همــا :

1 ــ محمود محمد بن احمد التركزى المتوفى سنة 1322 ــ 1904

2 ــ احمد بن الامين المتوفى عام 1331 ــ 1913

ولا أدل على تفوقهما فى هذا الميدان من أن الاول صحــح الاخطاء والاوهام الواردة فى طبعة بولاق للاغانى ، وأن الثانى وضــع تصحيحاً لطبعة ساسى من نفس الكتاب ، فضلا عما أنجــزا من تآليــف وشروح وتحقيقات خاصة .

أما محمود التركزى (104) فلــه :

1 ــ الحماسة السنية الكاملة المزية فى الرحلة العلمية الشنجيطية التركــزيــة (105)

2 ــ عــذب المنهــل (ارجوزة) (106)

3 ــ احقاق الحق (انتقاد لشرح عكاش اليمنى على لامية العرب)

4 ــ رسالة فى الانتصار للامام مالك لقوله فى الموطأ فى كتاب الايمان والنذور : « وعليه هدى بدنة أو بقرة أو شاة ان لم يجد الا هى » وكان بعض العلماء يلحنونه فى قوله « الا هى » . وقد اعتبر محمود التركزى أن « يجد » فعل لازم بمعنى يستغنى ، واعتبر « الا هى » مبتدأ حذف خبره وجواب الشرط محذوف أيضا ، وتقديره : « فهى عليــه » وخبــر (الا هى) هو (عليه) المتقدم .

5 ــ رسالة فى صرف (عمر) زاعماً أن العرب ونحاتهم غلطوا فيها منذ سيبويه ، وحجته أنه وجد مائة بيت للعرب مصروف فيها عمر وأنه صرف فى البخارى ومسلم وأن العرب لم تمنعه نظماً ولا نثراً

6 ــ البنيان المرصص فى أوهام المخصص

وأما احمد بن الأمين (107) فله :

1 ــ درء النبهانى عن حرم الشيخ سيدى احمد التيجانى (108)

---

(104) انظره فى الوسيط ص 381 واعلام الزركلي ج 7 ص 311 ومعجم سركيس للمطبوعات ج 2 ، 1149 ــ 1150

(105) فى جزءين (ط الموسوعات 1319)

(106) مخطــوطـــة

(107) انظره فى مقدمة الوسيط ص 7 ومعجــم سركيس ج 2 ــ 1148 ــ 1149 واعــلام الــزركلـــي ج 1 ص 97

(108) ط مصــر 1330

2 ـ الدرر فى منع عمر (فى الرد على محمود التركزى) (109)
3 ـ الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع (110)
4 ـ طهارة العرب (111)
5 ـ المعلقات العشر وأخبار قائليها (112)
6 ـ الوسيط فى تراجم أدباء شنجيط (113)

7 ـ شروح على : ديوان طرفة (114) وأمالى الزجاجى (115) وصهاريج اللؤلؤ للبكرى (116) وديوان الشماخ بن ضرار (117) وليس فى كلام العرب لابن خالويه (118) والاعلام بمثلث الكلام لابن مالك (119) وتحفة المودود فى المقصور والممدود لابن مالك كذلك (120) .

* * *

وبعد ، فهذه ملامح عن الثقافة فى الصحراء ، وهى ثقافة لا شك أنها تحتاج الى كثير من البحث والتنقيب للكشف عنها فى صورتها المتكاملة ، وتحتاج بعد ذلك الى مزيد من الدراسة والتحليل ، انطلاقاً من عنصر التواصل الذى ربطها بالحركة الثقافية فى المغرب وموريطانيا ، وعلى اعتبارها تراثاً مشتركاً بين البلدين ، وتلكم أيها الاخوة مسؤوليتنا جميعاً فلعلنا أن نتحملها وننهض بها ولعلنا أن نوفق لذلك .

الرباط — د . عباس الجرارى

---

(109) طبع الموسوعات 1904
(110) جزآن : 1) مطبعة كردستان العامية 1328 ، 2) مطبعة الجمالية 1328
(111) قازان 1326
(112) طبع مرتين فى مصر : الاولى 1329 والثانية 1331
(113) طبع مرتين فى القاهرة : الاولى 1328 ـ 1911 والثانية 1378 ـ 1958
(114) ط قازان 1904
(115) ط مصر 1324
(116) ط مصر 1324
(117) ط مصر 1327
(118) ط مصر 1327
(119) طبع سنة 1329
(120) طبع سنة 1329 .

مصادر ومراجع

1 ـ احمد بابا السوداني التنبكتي

نيل الابتهاج بتطريز الديباج
مطبوع بهامش الديباج لابن فرحون ـ مصر 1351

2 ـ احمد بن ابراهيم بن خلكان

وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق د. احسان عباس ـ ط. دار صادر ـ بيروت

3 ـ أحمد بن الامين الشنجيطي

الوسيط فى تراجم ادباء شنجيط
ط. ثانية ـ القاهرة 1378 ـ 1958

4 ـ احمد بن خالد الناصري (ابو العباس)

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى
مطبعة دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1954

5 ـ احمد بن عذاري المراكشي

البيان المغرب فى اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب
♦) ج 1 تحقيق كولان وبروفنسال ـ دار الثقافة ـ بيروت
♦) ج 3 نشر معهد مولاي الحسن ـ تطوان ـ 1960

6 ـ احمد بن القاضي

جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس
طبعة حجرية

7 ـ أحمد بن القاضي

درة الحجال فى غرة أسماء الرجال
نشر علوش ـ المطبعة الجديدة ـ الرباط ـ 1934

8 ـ احمد بن محمد المقري

أزهار الرياض فى أخبار القاضي عياض
نشر السقا والابياري وشلبي ـ القاهرة ـ 1939 ـ 1941

9 ـ احمد بن محمد المقري

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
ت. د. احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1388 ـ 1968

10 ـ احمد سكيرج

رفع النقاب بعد كشف الحجاب

11 ـ ادريس بن احمد العلوي

الدرر البهية والجواهر النبوية
طبعة حجرية

12 ـ بروكلمان Brockelman

تاريخ الادب العربي
ج 2 من الاصل

13 ـ بروفنسال E.L. Provençal

Les historiens des Chorfa
Paris 1922

4 ـ بوسكي G.H. Bousquet

Les Berbères
Presses universitaires de France
Que sais-je 1961

15 ـ خير الدين الزركلي

الاعلام (قاموس تراجم)
ط. ثالثة ـ بيروت

16 ـ شربونو Cherbonneau

◆) المجلة الاسيوية

المجموعة الخامسة ج 1 ص 93

◆) Essai sur la littérature arabe du Soudan
Annuaire de la société archéologique de Constantine

ج 2 (1854 ـ 1855) ص 32 ـ 42

17 ـ عباس بن ابراهيم

الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام

◆) المطبعة الجديدة ـ فاس 1355 ـ 1936
◆) المطبعة الملكية ـ الرباط 1974

18 ـ عباس الجراري

الامير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي
دار الثقافة الدار البيضاء 1394 ـ 1974

19 ـ عباس الجراري

التيار الفقهي المرابطي ومدى تاثيره على الفكر والادب (محاضرة)
مجلة دعوة الحق ـ عدد خاص مارس 1974 (المغرب) وزارة الاوقاف

20 ـ عباس الجراري

القصيدة (الزجل فى المغرب)
ط. الاوسى ـ الرباط 1390 ـ 1970

21 ـ عباس الجراري

النضال فى الشعر العربي بالمغرب (من 1830 الى 1912)

◆) مجلة المناهل ـ العدد الثالث (وزارة الدولة للثقافة ـ المغرب)
◆) مطبعة فضالة (طبعة مستقلة) 1975

22 ـ عباس الجراري

موشحات مغربية
ط. دار النشر البيضاء 1973

23 ـ عباس الجراري

وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ
منشورات جمعية التضامن الاسلامي . ط الاولى ـ البيضاء 1396ـ1976

24 ـ عبد الحفيظ الفاسي

معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة او المدهش المطرب
المطبعة الوطنية ـ الرباط 1350 ـ 1931

25 ـ عبـــد الحـــي الكتانـــي

فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات
المطبعـــة الجديـــدة ـ فـاس 1346

26 ـ عبـــد الرحمـــن بـن خلـــدون

التاريـــخ (كتـــاب العبـــر ...)
طبعـــة بـــولاق

27 ـ عبـــد الرحمـــن بـن زيـــدان

اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكنـاس
ط. الاولـــى 1347 ـ 1352 = 1929 ـ 1933

28 ـ عبـــد اللـه الجـــراري

ادباء النادي الجنداري (حلقة عن محمد البيضاوي الشنجيطي)
نسخة مرقونة عند المؤلف، وسبق أن نشرت مسلسلة في جريدة الانباء

29 ـ عبـــد اللـه الجـــراري

من اعـلام الفكـر المعاصـر بالعدوتيـن : الربـاط وسـلا
ط. الاولـــى ـ الربـــاط

30 ـ عبـــد اللـه جنـــون

امـــراؤنـــا الشعـــراء
مطبعـــة المهديـــة ـ تطـــوان

31 ـ عبـــد اللـه جنـــون

النبـــوغ المغربـــي في الادب العربـــي
ط. دار الكتـــاب اللبنانـــي ـ بيـــروت 1961

32 ـ عبـــد الواحـــد المراكشـــي

المعجـــب في تلخيـــص اخبـــار المغـــرب
ت. العريـــان والعلمـــي ـ القاهرة 1368 ـ 1949

33 ـ عبـــد الوهـــاب بنمنصـــور

مناقب اهل الصحراء في تشييد صرح الدولة المغربية الغراء
المطبعـــة الملكيـــة ـ الربـــاط 1975

34 - العربي بن السايح
بغية المستفيد من منية المريد
◆) مط محمد مصطفى 1304
◆) مط جريدة الاسكندرية

35 - علي بن أبي زرع
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
ط. دار المنصور - الرباط 1973

36 - فلامان G.B.M. Flamand
Les pierres écrites du N-Africain
Paris-Masson 1921

37 - كاركوبينو J. Carcopino
Le Maroc antique
Paris 1943

38 - كوتي E.F. Gautier
Le passé de l'Afrique du nord
Nouvelle édition - Payot - Paris

39 - كزيل St. Gsell
Histoire ancienne de l'Afrique du nord (T1)
Paris 1913 - 1928

40 - مجهول
الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية
نشر علوش - الرباط 1936

41 - مجهول
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية
ط. الجزائر 1920

42 - محمد أمين المحبي
تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر
المطبعة الوهبية - مصر 1284

43 ـ محمد بن احمد اكنسوس المراكشي
الجيش العرمرم
ط. حجرية 1336

44 ـ محمد بن شنب

دائرة المعارف الاسلامية (مادة احمد بابا)
المجلد الاول ص 457 ـ ترجمة عربية

45 ـ محمد الصغير الايفراني المراكشي

صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر
طبعة حجرية

46 ـ محمد الصغير الايفراني المراكشي

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي
طبعة فاس

47 ـ محمد بن الطيب القادري

نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني
طبعة حجرية 1310

48 ـ محمد بن عبد الله القضاعي (ابن الابار)

التكملة لكتاب الصلة
ط. مجريط 1886 ـ 1887

49 ـ محمد الغربي

الساقية الحمراء ووادي الذهب (الجزء الاول)
دار الكتاب ـ الدار البيضاء

50 ـ محمد بن ماء العينين

ديوان الأبحر المعينية في الامداح المعينية
مخطوطة خزانة الرباط العامة د 1376

51 ـ محمد بن محمد مخلوف التونسي

شجرة النور الزكية
القاهرة 1349

52 ـ محمد المختار السوسي

خلال جزولة
المطبعة المهدية ـ تطوان

53 ـ محمد المختار السوسي

المعسول
الدار البيضاء 1960 ـ 1961

54 ـ مونو ـ كايو Th. Monod et A. Cailleux

Etude de quelques sables et grés du Sahara occidental.
B. IFAN T VII n° 1-4-1945

55 ـ يوسف الياس سركيس

معجم المطبوعات العربية والمعربة
ط. لبنان

56 ـ يوسف التادلي (ابن الزيات)

التشوف الى رجال التصوف
نشر أدولف فور ـ الرباط 1958

د : ع. ج.

النمر

علي الصقلي

كـــان يومـــا مكشر الـــنـــاب جهـــمـــا

يـــزرع الارض والسمـــاوات شـــؤمـــا

دار فيـــه على ابن اسمـــاء عبـــد الـــ

ـــله مـــا دار فيـــه ، لا كـــان يومـــا !

وتـــراءت لـــه الـــهـــزيـــمـــة نـــكـــرا

ء كـــصـــل اشـــد فـــتـــكـــا ولـــهـــمـــا

(*) من مجموعة الشعر التعليمي .

فـأى أمـه كـسـالـف عـهـد

كلمـا الافـق بالخـطـوب ادلـهـمـا

قـال : امـاه ! يـا لشبلـك فى الحلـ

ـبـة حين الوطـيـس أنشـأ يـحمى

"ـتـغـشـاه مـوجـة اثـر أخـرى

عـبـر يـم غـدا يـلاطـم يـمـا

ثم أضحى لا الصحب صحبا ، ولا الاهـ

ـلـون اهـلا ليـدرأوا عنـه سهمـا

خـذلـوه فـهـب غـير هـيـوب

يتـحـدى الـعـداة روحـا وجسما !

فى فلـول جـرى الكـتـاب عليـهـا

وعليـه ليـطعمـوا المـوت طـعـمـا

قـال : مـاذا تريـن امـاه ؟ قالـت :

الثـبات ، الثـبـات ! ان كنـت أمـا

قـــال : ذاك القضـــاء ! قالـــت : أعــار

أن يكـــون القضـــاء لابـــنـــى حــمـــا

انـــمـــا العـــار أن يـــقـــال : تخـلـــى

ولـــدى عن رجـــالـــه ، ليـــس شهمـــا

هكـــذا الحـــرب يـــا بـــنـــى اذا ثـــا

رت بـــراكيـنـهـا فاما . . . وامـــا . . .

ولـــدى ! ان يكـــن جـهـــادك فى اللـــ

ـــه فأجـــدر بأن تـــرى الغـــرم غنمـــا

لا تـــغـــرنـــك الـــحـــيـــاة اذا مـــا

كـــان معنـــى الحـــيـــاة ذلا وضيـــمـــا

عـــد بحقى وســـل على حافـــة السيـــ

ـــف كريمـــا اذا الـــردى كان حتـــمـــا

فانحنى ابـــن الزبـــير يلثـــم كالطـــفـــ

ـــل يـــدى امـــه العـــزيـــزة لـــثـــمـــا

ومـــضى حيـــث كان لـلــمـــوت ديـــن

يـــتـــقـــاضاه غـــولهـــا مســـتـــتـــمـــا

فـــقـــضى ديـــنـــه كـــأى شـــجـــــاع

للمعـــالـــى او لـلـــمـــخـــاطـــر يظـــمـــا

* * *

وتـــنـــاجـــى بـــنـــو أمـــيـــة طـــــرا

بـــثـــبـــات اعـــز فى الـــروع اسمـــى

ويحهـــم مـــا دروا بـــان وراء الشـــهـــ

ـــم سراً قد كـــان من صـــنـــع أسمـــا

الربـــاط **على الصقلى**

ملامح العلاقات الثقافية
بين
المغرب وتونس

محمد المنوني

عرفت العلاقات المغربية التونسية صورا لامعة من التعاون الثقافي في ظل العهد الاسلامي ، وتعددت الوان هذا التعاون ، فكانت في الرحلات الدراسية من هنا وهناك ، وفي التبادل التلقائي للاساتذة والمؤلفات ، الى تداول الاجازات بين العلماء ، وتعدد المطارحات — الشعرية أو النثرية — بين الادباء ، ومرة أخرى في الاقتباس الفني المتبادل بين الأمتين .

وهدف هذه الدراسة الكشف — جهد المستطاع — عن المعالم البارزة لهذه العلاقات ، انطلاقا من فترة استقرار الاسلام بهذا القطاع ، ثم تدرجا مع الفترات التالية حتى يصل المطاف الى العلاقات الثقافية — بين الجهتين — في ظل العصر الحاضر ، وسيأتي تصنيف الموضوع حسب المراحل التالية :

— مدخل الدراسة .

— عصر سيادة القيروان .

— عصر امراء الطوائف .

— العصر الحفصي .
— العصر العثماني الأول .
— العصر العثماني الثاني .
— عصر الحمايـة .
— عصر الاستـقـلال .

* * *

مـدخـل الـدراسـة

العلاقات الثقافية بين بلدان المغرب العربى مظهر من مظاهر الوحدة الأصيلة بين شعوب هذا القطاع ، امتدادا من اقصى برقـة حتى ساحل المحيـط الأطلسى .

وستقـتضى منهجية البحث ان تقدم هذه الدراسة افتتاحيـة ترسم الصور الأولى لمحاولات بناء هذا الاتحاد فى الجـنـاح العربى الغربى ، امتدادا من فجر الفتح الاسلامى الأول .

ويلاحظ — فى البداية — ان الانطلاقة الوحدوية الاولى ظهرت خلال فترة عهد الولاة ، وقد اندهش عدد من المستشرقين ازاء اجتماع كلمـة الأمازيغيين على التعاليم الاسلامية حتى فى ظروف ثورتهم على العرب ، وفى هذا يقـول احدهـم (1) :

« ان العربية قد انتشرت بين البربر بسرعة ، وان هذا القطر الذى تقاتل عليه الشرق والغرب ، والذى ترك به كل طابعه ، واختلط فيـه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية اللاتيـنية ، اصبح من هذا الدين كله شرقيا ، وانقضى بذلك عهد الاتحاد اللاتينى الذى كان حول البحـر الابـيـض » .

(1) « تاريخ الجزائر » للشيخ مبارك الميلي : ط . بيروت ، ج 2 ص 143 .

« وان نفس المؤلف يقول مرة أخرى (2) :

« ان البربر كانوا يثورون على العرب ، اما انفة من أداء الخراج ، واما طمعا فى الاستقلال . . . وقد استطاعوا أن يؤسسوا دويلات أو دولا من طرابلس الى الاندلس ، ومع ذلك لم يفكروا يوما واحد فى رفض لغة العرب وديانتهم ، والرجوع الى اللغـة اللاتينـية والديـن المسيحى ، فبقي مؤلفوهم فى التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية ، وملوكهم يشيـدون قصورهم على نمـط الفـن العربى ، وصارت بعض القبائل البربرية تلفق أنسابا تتصل بها من العرب ، ولم يبق من حضارة الرومان والبيزنطيين غير خرابات عظيمة ، وتذاكر للقوة الرومية » .

وهناك راي على جانب من الاهميـة فى هذا الصدد ، وهو الذى يبديه الدكتور حسين مؤنس (3) ويقـول : « ومن الطريف أن يلاحظ أن البربر — على حداثة عهدهم بالاسلام — كانـوا أكثـر تمسكا بالاسلام وحماسا للفتح من العرب ، لأن الاسلام كان وسيلتهم الاولى فى النهوض بأنفسهم ، والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب ، وسادة فى البلاد المفتوحة ، واصحاب حق فى الغنائم والارضين . . . وكانوا اذا استقروا فى الارياف استمسكوا بالاسلام ، حتى يميزوا أنفسهم عن أهل البلاد » .

* * *

وهكذا نتبين من هذا العرض الملامح الاولى لبنـاء المغرب العربى الكبير فى أيامه الاولى . وقد لمعت — بعد هذا — بارقة وحدوية تبـناها الفاطميون الشيعيون ، غير أن المغرب العربى رفضها ، لمـا قامت على أسس اعتبرها المغاربة غير سليمة ، ومناهضة للتعاليم الاسلامية الاولى .



(2) « المصـــدر » ج 2 ص 38 .
(3) « فجر الاندلس » : الطبعة الاولى ، ص 392 — 393 .

وتعتــبر الفترة الموحدية العصر الذهبى لهذا الاتحاد المغــربى ، امتدادا من برقة حتى ساحل المحيط الاطلسى بالنسبــة لخصوص المغرب العربى ، ومن ميزات هذه الوحدة أنهــا قامت فى بعض الجهات استجابة لرغبة محلية ، يقول فقيــد التاريــخ التــونسى : حسن حسنى عبــد الوهاب (4) ، عند ذكر قدوم عبد المومن على تونس :

« وفى اثناء تلك المدة قصده الحسن بن على الصنهاجى ـــ آخــر ملوك الدولة الصنهاجية ـــ مستنجدا به لانقاذ المهدية من ايــدى نصارى النرمان ، ورغبه فى الجهاد ، فأزمع عبد المومن على غزوها . . . وبعــد أيام انصرف الى المهدية وحاصرها بجنــوده بــرا ، وبأسطوله بحــرا ، وضايق على من كان بها من النرمـــان . . . فاحتلهــا عبد المومن يــوم عاشوراء سنة 555 هـ » .

ونفس الرغبة جاءت من سكان ليبــية ، وهذا ما يشهد به التجانى فى رحلتــه (5) :

« ولما نزل الخليفة عبد المومن الى افريقية افتتح المهدية ، ووصلت اليه وفود البلاد . . . فكان من جملتهم وفد طرابلس وشيخه ابن مطروح ، فبايعوا عبد المومن ، وقدمه عبد المومن على أهل بلده » .

وهكذا يعتــبر العهــد الموحدى العصر الذهبى للوحــدة المغربيــة الكبــرى .

وبعد سقوط هذه الدولة وقعت محاولات لاستعادة هذه الوحــدة بزعامة الحفصيين الاولين حكام تونس ، وتلقــوا بيعــات عــدة جهات مغربية ، كسجلماسة ومكناس وسبتة وطنجة والقصر الكبير ، كمــــا بايعهم يعقوب المرينى لأول عهده ، وساعدهم بحصة من الجيش المغربى ضد زحفة لويس التاسع ـــ ملك فرنسا ـــ الى تونس عام 668ــ69 هـ/ 1270 م (6) .

---

(4) « خلاصة تاريخ تونس » : « الدار التونسية للنشر » ، ص 121 ـ 122 .
(5) « المطبعــة الرسميــة » بتونـــس ، ص 242 ـ 243 .
(6) أشار لهذه المساعدة ابن خلدون فى « العبر » : « دار الطباعة الخديوية » بمصر ، ج 6 ص 293 .

وقد شهد العصر المرينى انتفاضة وحدوية جديدة ايام كل من ابى الحسن وابنه ابى عنان ، وامتدت الدولة المرينية ــ لفترة قصيرة ــ عبر الشمال الافريقى حتى الحدود المصرية .

* * *

وبعد هذا جاء ضعف بنى مرين ، ثم كان استيلاء العثمانيين على المغربين: الادنى والاوسط، واستعمار الفرنسيين وسواهم للشمال الافريقى، فحال هذا كله دون الاستمرار فى مشروع وحدة الشمال الافريقى ، والآن بعد استقلال هذا الجناح العربى الغربى ، فان الآمال معقودة على تحقيق ذلك فى ظل العصر الجديد .

عصر سيادة القيروان

ويمتد أربعة قرون ، ابتداء من تأسيس هذه المدينة عام 50 هـ/ 670 م ، الى ان ينتهي دورها اواسط المائة الهجرية الخامسة (7) ؛ وعن أهمية هذه القاعدة خلال الفترة ذاتها ، يسجل المراكشى (8) : أن مدينة القيروان كانت دار العلم بالمغرب ، اليها ينتسب أكابر علمائه ، واليها رحلة أهله فى طلب العلم .

وحسب المعروف فى هذا الصدد ، فان ارتباط المغرب بالعاصمة الافريقية الاولى ، يبدأ اواخر المائة الهجرية الثانية أيام المولى ادريس الثانى .

وقد وفد عليه من القيروان جالية كبرى تتركب من ثلاثمائة عائلة ، فأسكنهم الامام العلوى فى الضفة الغربية لمدينة فاس ، واعتمروها اثر

---

(7) انظر « الخلاصة النقية . فى امراء افريقية » ، لمحمد الباجي المسعودي ، ط . تونس 1323 هـ ، ص 5 و 48 .

(8) « المعجب » ، « مطبعة السعادة » بمصر ، ص 237 .

تأسيسها ، فصارت تنسب لهم ، وجرى عليها اسم « عدوة القرويين (9) » .

ثم كان من احفاد الوافدين الافريقيين (10) أختان عربيتان : أم البنين فاطمة وصنوتها مريم ابنتا محمد الفهرى ، وفى عام 245 هـ/859 م انتدبت الاختان لابتناء المسجدين الرئيسيين بفاس ، فكان جامع القرويين من مبرة أم البنين ، بينما بنت أختها جامع الاندلس (11) .

ويشرح المؤرخون المغاربة (12) أبعاد حضارة هذه الجالية ، فيسجلون أن هؤلاء كانوا أهل رفاهية ونجدة : فى مبانيهم وملابسهم وفرشهم ، فضلا عن المطعم والمشرب ، وأكثرهم صناع وتجار ، هذا الى أن مدينتهم تتميز عن جارتها ــ عدوة الاندلس ــ بوفرة المطاحن ، وجودة الفاكهة الخريفية .

وهكذا نتبين أن هؤلاء الوافدين ، وضعوا اللبنات الاولى لبناء صرح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس .

* * *

ونشير ــ الآن ــ الى أن هذه العلاقات أخذت تنموا انطلاقا من أوائل المائة الهجرية الرابعة ، فبدات حركة الرحلة العلمية الى القيروان وما اليها ، واخذ المغاربة عن الافريقيين ، كما روى هؤلاء عن المغاربة ، غير أن التبادل الثقافى فى هذه الفترة بالذات ، غلبت عليه المواد الاسلامية ، والفقه المالكى بالدرجة الاولى .

---

(9) كان اول من اشار لهذا : ابن ابي زرع فى « روض القرطاس » : ط. ف. 1305 هـ ، ص 27 .
(10) كانت افريقية تطلق ــ فى هذه الفترة ــ على اقليم تونس وما اليه، ويعرف أهله بالافريقيين.
(11) « روض القرطاس » ، ص 32 ــ 33 .
(12) فى مقدمتهم مؤلف « روض القرطاس » ، ص 24 ــ 25 .

وهذه نماذج من مشايخ القيروان وما اليها الذين رحل اليهم المغاربة ، واولهم : **أبو بكر بن اللباد** : محمد بن محمد بن وشاح القيروانى ، المتوفى عام 333 هـ/944 م (13) .

وقد روى عنه **أبو هارون العمرى** : عمران بن عبد الله بن محمد ، البصرى نسبة الى بصرة المغرب ، المتوفى — بها — عام 313 هـ/ 925 — 926 م ، وهو من ذرية الخليفة الثانى : عمر بن الخطاب ؛ وسمع معه من ابن اللباد بلدياه : أحمد بن حذافة ، وبشار ابن فركانة (14) .

وممن سمع من ابن اللباد وغيره **دراس بن اسماعيل** الفاسى (15) آتى الذكر ، وبواسطة هذا الاخير وصلت مدونة سحنون الى المغرب (16)، قال القاضى عياض (17) : « وهى أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة ، واياها اختصر مختصر وهم وشرح شارحوهم ، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم » .

الثانى : **ابن أبى زيد القيروانى** : عبد الله بن عبد الرحمن النفزى ، المتوفى عام 386 هـ/ 996 — 997 م ، وسنستوسع — وشيكا — فى عرض أصداء مدرسته بالمغرب .

ونذكر — الآن — الثالث من هذه الحلبة ، وهو **ابن القابسى** : علي بن محمد بن خلف المعافرى ، القيروانى الاصل ، المتوفى بها عام

---

(13) ترجمته عند القاضي عياض فى « المدارك » المنشورة فى لبنان ، ج 3 ص 304-311، وهذه الطبعة هي المعتمدة فى الاحالات التالية ، وما سقط منها يبين نقله عن الاصل المخطوط .

(14) « مختصر المدارك » : بالمكتبة الملكية رقم 672 ، وسقطت الترجمة التي نعلق عليها — فيما سقط — من طبعة لبنان .

(15) « المدارك » ج 4 ص 395 .

(16) « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية » ، لمحمد بن محمد مخلوف : « المطبعة السلفية » بالقاهرة ، ع : 263 .

(17) « المدارك » ج 2 ص 472 .

403 هـ/ 1012 م (18) ، وعليه تفقه ابو عمران الفاسى آتــى الذكر ، وكان اخذه عنه بالقيروان ، حيث سمع بها ــ ايضا ــ من أبى بكـــر الدويلى ، وعلي بن احمد اللواتي السوسى (19) .

ومن اقران ابن القابسى المغاربة فى الرحلات العلمية : ابــو محمد الاصيلي ، وعيسى بن سعادة الفاسى آتى الذكر ، وقد اشترك ثلاثتهم فى الرحلة للأخذ عن الابياني بأفريقية (20) ، وعن حمزة بن محمد الكناني المصرى وغيره بالمشرق (21) ، كما أن الاصيلى شارك ابن القــابسى فى سماع صحيح البخارى على ابى زيد المروزى بمكة المكرمة (22) .

وهنا ننتقل الى الرابع من الافريقيين ، وهو **أبو اسحاق التونسى** : ابراهيم بن حسن بن اسحاق القيروانى ، المتوفى ــ بها ــ عام 443 هـ/ 1051 ــ 1052 م (23) .

لقيه من المغاربة وتداول معه فى المسائل أبو القاسم ابن العجوز السبتي : عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن احمد الكتامى (24) . ويقــول ابن القاضى (25) عن ابنه محمد بن عبــد الرحمن : « وحــج مع أبيــه فلقي ابراهيم التونسى بالقيروان » .

* * *

وسيكون أبو اسحاق هذا خاتمة النمــاذج المعروضة من مشايــخ

---

(18) ترجمتــه « بالمصــدر » المذكور ، ج 4 ص 616 ــ 621 .
(19) « المصــــدر » ، ج4 ص 618 و 702 .
(20) « المصدر » ، ج 4 ص 539 و 618 ، حيث توجد ــ أيضا ــ ترجمة كل من الاصيلي : ج 4 ص 642 ــ 648 ، والابياني : ج 3 ص 347 ــ 352 .
(21) « المصدر » ج 4 ص 539 ــ 540 ، مع الصلة البشكوالية : نشر العطار ، ع 950 ، وانظر عن ترجمة حمزة الكناني : « شذرات الذهب » ج 3 ص 23 ــ 24 .
(22) « المدارك » ج 4 ص 617 ، وانظر ترجمة المروزي فى « شذرات الذهب » ج 3 ص 76
(23) ترجمته فى « المدارك » ج 4 ص 766 ــ 769 ، وتحديد تاريخ وفاتــه من « شجـرة النــور الزكيــة » ع 285 .
(24) « الديباج » : « مطبعة المعاهد » بالقاهرة ، عند ترجمته ص 149 .
(25) « جذوة الاقتباس » : ط. دار المنصور ، عند ترجمته رقم 256 .

القيروان ، وهم الذين كانت اليهم رحلة المغاربة فى الفترة ذاتها ؛ غير ان ثانيهم وهو ابن ابى زيد القيروانى (26) ، اقتضت منهجية هذه الدراسة ، ان يرجأ — الى هذا المكان — عرض ملامح اتصالاته بطلبته المغاربة ، بما ان هذه النقطة تستدعى شيئا من التوسع .

ونسجل — فى البداية — أن علاقات ابن أبى زيد بهؤلاء الآخذين عنه تطبع بجملة من المميزات .

ويأتى فى طليعتها وفرة عدد المعروفين من تلاميذه فى هذه الجهة .

الى استمرار اتصاله معهم بالمراسلة ، كما هو واقع البعض من فقهاء المصامدة وسجلماسة .

وثالثا : كثرة الاقبال على دراسة مؤلفاته الفقهية .

ونقدم — الآن — زمرة من هؤلاء الآخذين عن ابن أبى زيد الذى يقول عنه الدباغ (27) : « وتفقه عليه جلة من القرويين والاندلسيين واهل المغرب » ، وبالنسبة للمغرب الاقصى سنرى ان الرواة عنه ينتشرون على امتداد المراكز الثقافية بالبلاد .

فمن اهل سبتة أخذ عنه من لا يعد كثرة (28) ، ومنهم ابو عبد الرحمن ابن العجوز : عبد الرحيم بن أحمد الكتامى ، المتوفى عام 413 هـ/ 1022 — 1023 م .

ورفيقه **عبد الله بن غالب** بن تمام الهمذانى ، المتوفى عام 434 هـ/ 1042 — 1043 م .

---

(26) ترجمته فى « المدارك » ج 4 ص 492 — 497 .

(27) « معالم الايمان » : المطبعة العربية التونسية ، ج 3 ص 136 .

(28) «الديباج » ص 137 ، وسقطت هذه الفقرة من « المدارك » المنشورة فى لبنان ، وثبتت فى مخطوطة المكتبة الملكية رقم 672 .

وكانت رحلة الاثنين للقيروان فى نحو الثمانين وثلاثمائة ، حيث **أخذا** - **معا** - عن ابن أبى زيد كتبــه ، وجاء فى ترجمة ابن العجوز أنه لازم استاذه هذا نحو خمسة أعوام ، وسمع منــه كتــبه : النوادر ومختصر المدونــة وسواهــا (29) .

وثالث السبتيين هو الذى يذكره عياض (30) باسم **خلف بن ناصر** .

ومن طلبــة ابن ابى زيد بفاس : قاضيهـــا **ابن محسود الهوارى** : عبد الله بن محمد الفاسى ، المتوفى عـــام 401 هـ/1010 — 1011 م ، لقيه بالقيروان وشاهد تأليفه لكتاب « النوادر » (31) .

ثم فقيه عدوة الاندلس بفاس ابــو مروان **عبد الملــك الكــورى** ، المتوفى عام 407 هـ/ 1016 — 1017 م (32) .

ومن اهل سجلماسة : امامها **ابو على بن أمدقنو** (33) .

---

(29) « المدارك » ج 4 ص 720 - 721 ، مع « الديباج » ص 139 .

(30) « المدارك » ج 4 ص 494 ، وترجمته عند ابن بشكوال فى الصلة رقم 404 ، حيث يذكر أنه أخذ - أيضا - عن عبد الملك بن الحسن الصقلي .

(31) « جنى زهرة الآس » : المطبعة الملكية ، ص 95 ، وتاريخ وفاته من « روض القرطاس» ص 79 ، وله ترجمة فى « التشوف » ، « مطبوعـات أفريقيــة الشماليــة الفنيــة » بالربـــاط رقــم 17 .

(32) « المـــــدارك » ج 4 ص 630 .

(33) « المصدر » ج 4 ص 494 ، مع « الديباج » ص 137 ، وهو امام معروف ورد ذكــره - أيضا - عند ابن عبد الملك فى ترجمة مروان بن عبد الملك بن ابراهيم بن سمجون اللواتي الطنجي ، وقال عند تعداد أشياخه : «وأخذ عن أبي علي بن أمدقنو بسجلماسة» حسب الذيل والتكملة فى مجلد الغرباء ، مصور خ . ع . د . 1705 ، لوحة 161 . وذكره - أيضا - ابن القاضي لدى ترجمة محمد بن عيسى قائلا : وتفقه عليه - أيضا - ابن مادكو السجلماسي ، « جذوة الاقتباس » ، ط. دار المنصور ع : 257 . ويفيد القادري أن أبا علي هذا هو المدفون بمزدغة حوز مدينة فاس ، حسب « الاكليل والتاج . فى تذييل كفاية المحتاج ، مع زيادة مناسبة لمن اليها يحتاج » ، مخطوط المكتبــة الملكيــة رقــم 1897 .
وقد جاء رسم كلمة « أمدقنو » بالكاف فى كل من المدارك والديباج والجذوة ، بينما يكتبها فى الذيل والتكملة بالقاف ، مما يدل على أن هذا الحرف مفقود ينطق به كالجيم المصرية ، كما أن نون نفس الكلمة صحفت بالتاء فى الديباج ، وسقطت - بالمرة - فى تعبيــر الجــذوة .
وهكذا يلقي هذا التعليق بصيصا من النور على هذه الشخصية التي طويت اخبارها الا ذكرا عرضيا مقتضبا ونادرا ، وكم له من نظائر لا يحصيهم العـد من اعـلام المدن والبـــوادي .

والغالب أن طلبة المترجم بهذه الجهة كانوا متعددين ، حيث يذكر عياض (34) من بين مؤلفات ابن أبى زيد : « رسالة الى أهل سجلماسة فى تلاوة القرآن » .

وقد أخذ عن امام القيروان مجموعة مهمة من المصامـــدة (35) ، وكان الذين رحلوا منهم الى ابن ابى زيد يرجعون الى عدة فـــروع من قبيلهم الاعظم ، وحسب المعروف منهم :

كان من صنهاجة : داود بن يملـــو .

ومن هسكورة : يحيى بن ويديفاوا الصادى .

ومن رجراجة : يعلى بن مصلين ، وتونارت بن تيزى ، ومحمد بن طاوس الهزميرى الاصل .

ومن مرامرة : الوالى بن يرزيكـــن .

ومن لمطـــة : واجـــاج بن زلـــو .

ومن جذميوة : أبو تاليلت الصودى ، وابنه عبد الله ، ويرزيكـــن بن علي الصودى .

فى آخرين من اهل أغمات وغيرهم ، ممن لم يعرف المصدر المعنى بالامر أسماءهم (36) .

---

(34) « المدارك » ج 4 ص 494 ، مع « الديباج » ص 137 ؛ ولا تزال هذه الرسالة غيـر معـروفــــة .

(35) يحدد عبد الواحد المراكشي بلاد المصامدة التي يطلق عليها هذا الاسم فى عصـره ، فيذكر أنها تمتد ـ عرضا ـ من نهر أم الربيع الى الصحراء ، وتبتدي ـ طولا ـ من جبل درن الى المحيط الاطلسي ، « المعجب » ص 226 .

(36) وردت هذه اللائحة فى رسالة « دلائل القبلة » لابي علي صالح بن أبي صالح عبد الحليم مخطوطة خاصة فى حوزة البعض ، مع مراجعة مخطوطـة خ. ع ؛ ق 985 : ضمـن مجمـــــوع ص 9 . أ .
وقد ورد من بين عائلات اللائحة قبيلة الصودي ؛ وجاءت نفس النسبة ـ أيضا ـ عند ابن عبد الملك فى بعض التراجم ، فبين أنها بصاد معقود مفتوح ؛ حسب « الذيـل والتكملة » فى مجلد الغرباء ؛ لوحة 171 ، وهذا العقد للصاد هو الـذي يـرى ابن خلدون رسمه صادا فى داخلها شكل الزاي ، تدليلا على التوسط بين الحرفين .
اما ضبطها بالفتح فهو وارد ـ أيضا ـ عند التنبكتي فى « نيل الابتهاج » ؛ المنشور بهامـــش « الديبـــاج » ص 141 .

ومن الجدير بالذكر ان ابى زيد ، كان له توجيه سديد فى تبني تلاميذه المصامدة جهاد برغواطة : الطائفة البدعية التى كانت فى هذه الفترة تسيطر على أرض تامسنا وما اليها ، والمعني بالامر ثلاثة من طلبة المنوه به ، وهم الاولون الواردون صدر اللائحة المعروضة وشيكا .

وقد استشاروا استاذهم فى جهاد البرغواطيين ، فقال لهم : ان كانت لكم بهم مقدرة فجاهدوهم ، على أن تقدموا منكم اكثركم قبيلا ، وبعد ما عادوا من رحلتهم نظموا شؤونهم وفق توصية شيخهم ، وشرعوا فى قتال برغواطة (37) .

والغالب ان هؤلاء المصامدة هم المعنون برسالة ابن ابى زيد التى يحتفظ بنصها مخطوط « مفاخر البربر » (38) ، وقد جاء فى طالعتها : « وكتب قوم من أهل المغرب الاقصى الى الشيخ أبى محمد بن أبى زيد رضى الله عنه ، يعلمونه بما يقع فى بلادهم من سفك الدماء ، وتعصب القبائل بعضهم على بعض ، فجاوبهم بهذه الرسالة . . . » .

وان هذا الارتباط الذى رأينا لابن أبى زيد مع المصامدة ، وقبلهم مع سجلماسة وفاس وسبتة ، كان لذلك كله أثر فى اقبال المغاربة على أوضاعه ، فان كتابيه : « النوادر » و « مختصر المدونة » ، استمر تدريسهما بهذه الجهات الى أيام الموحدين ، وهذا ما يشهد به عياض (39) فى فقرة قصيرة يقول فيها بعد ذكر التأليفين : « وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب فى التفقه » .

كما أن كتاب الرسالة لنفس المؤلف ، استمرت له الصدارة فى الصفوف الابتدائية بالجهة ذاتها ، وامتد هذا التقليد حتى السبعينيات

---

(37) رسالة دلائل القبلة المشار لها وشيكا .

(38) خ. ع. ك 1275 ، وينسب هذا الكتاب ـ غلطا ـ لأبي حيان ، وهو ـ فى الواقع ـ من تأليف ابي علي صالح بن أبي صالح عبد الحليم ، انظر محمد المنوني : « المصادر الدفينة فى تاريخ المغرب » ، مجلة « البحث العلمي » : العدد العاشر ، السنة الرابعة ، ص 10 : تعليق رقم 1 .

(39) « المدارك » ج 4 ص 494 ، ولا ننسى ان نشير ـ بهذه المناسبة ـ الى ان خزانة القرويين بفاس ، تحتفظ بقطعة رقية من كتاب « النوادر » ، مقابلة بنسخة المؤلف ـ وهو لا يزال بقيد الحياة ـ عام 383 هـ ، هذا فضلا عن أجزاء أخرى رقية من الكتاب ذاته ، انظر : « قائمة لنوادر المخطوطات العربية ... » ص 34 .

الهجرية الاخيرة ، وبالضبط الى عام 1377 هـ/ 1957 م ، حيث بدا تطور الدراسات الاصيلة بالمغرب المستقل ، وسوف نستعرض فى المكان المناسب من هذه السلسلة ، لائحة بالشروحات والتعاليق التى وضعها المغاربة على نفس الكتاب ، ومعها بعض الترجيزات المغربية . هذا فضلا عن الاوقاف والكراسى المحبسة على تدريسه بكثير من مدن المغرب . وبهذه المناسبة نحيل على لائحة منشورة (40) عن كراسى تدريس الرسالة بجوامع ومساجد مدينة فاس .

* * *

وهنا ينتهى عرض لائحة مشايخ القيروان وما اليها الذين روى عنهم المغاربة ، ويعقب ـ بعدها ـ بذكر ثلاثة من المغاربة الذين تفقه عليهم الافريقيون .

واولهم : **ابو موسى السجلماسى** : عيسى بن سعادة نزيل فاس ، المتوفى ـ بمصر ـ عام 355 هـ/ 965 ـ 966 م ، قال القاضى عياض (41) : « ولما مات تنازعت الفقهاء والمحدثون ، كلهم يدعيه ، ويقول : انا أحق به » .

واثر هذا يقول نفس المصدر : « ورأيت فى تعاليق أبى عمران : ان ابا محمد ـ ابن أبى زيد ـ حمل عنه عن ابن الجزار عن ابن لبابة . . . وقد صرح به أبو محمد ـ أيضا ـ فقال : حدثنى عيسى بن سعادة ، عن جبر الله بن قاسم . . .

قال القابسى وذكر مسألة فقال : كذا قال فى هذه المسألة عيسى بن سعادة ، الذى ما تكلم قط فى مسألة حتى يتقنها (42) » .

---

(40) انظر محمد المنوني : « كراسي الاساتذة بجامعة القرويين » : القسم الثاني ، مجلة « دعوة الحق » السنة التاسعة ، العدد الخامس ، ص 95 ـ 97 .
(41) « المدرك » ج 4 ص 539 ـ 540 : حيث ترجمته .
(42) هذه الفقرة القابسية ، وردت ـ أيضا ـ فى الصلة البشكوالية عند رقم 950 .

الثانى من المغاربة : **دراس بن اسماعيل** الفاسى ، المتوفى ــ بها ــ عام 357 هـ/ 967 ــ 968 م ، يقول عنه المالكى : « كان أبــو ميمونة من الحفاظ المعدودين ، والأئمة المبرزين من اهل الفضل والدين ، ولمــا طرا الى القيروان اطلع الناس من حفظه على أمر عظيم ، حتى كـــان يقال : ليس فى وقته احفظ منه ، وكان نزولـــه عنــد ابن أبى زيــد ، وظهر تقصيره بأهل القيروان وشفوفه على كثير منهم » .

ويضيف عياض (43) لهذا أنه حدث بكتاب ابن المواز بالقيروان ، وسمعه منه ابن ابى زيد وابو الحسن ابن القابسى .

اما المغربى الثالث والاخير من هذه الحلبة ، فهو **أبو عمران الفاسى ،** الذى رحل للقيروان واستوطنها وصار فى عداد مشايخها الكبار ، وهــو موسى بن عيسى بن أبى حاج الغفجومى ، المتوفى عام 430 هـ/1038 ــ 1039 م (44) .

* * *

ونذيل هذه اللائحة بالاشارة الى وقفيات مغربية محفوظة بمكتبــة جامع القيروان ، ويتعلق الامر باثنين من المغاربة :

ــ **أبو سعيد السبتى ؟** الذى بقي اسمه مكتوبا على ثلاث مؤلفات موقوفـــة بنفس المكتبة :

ا ــ تسعة وثلاثون دفترا رقا من مختصر المدونة لابن ابى زيــد ، مكتوب على بعضها : حبس على من يقول بقول مالك واصحابه بمدينـــة القيروان ، وعلى بعضها : حبسه ابو سعيد السبتى ــ رحــمه الله ــ بمدينـــة القيروان .

ب ــ خمسة دفاتر رقية من تلخيص الزيادات التى زادها ابن أبى زيد فى اختصاره للمدونة ، عليها تحبيس أبى سعيد السبتى .

(43) عنـــد ترجمـــة دراس من « المـــدارك » ج 4 ص 395 ــ 397 .
(44) انظـــر ترجمتـــه بالمصـــدر الاخيـــر ، ج 4 ص 702 ــ 706 .

ج ـ اربعة عشر دفتـرا رقـا من التهذيـب للبرادعى ، عليهـا تحبيـس المشـار لـه .

الثانى : أبو صالح **الخير بن ياسين** الرجراجى ، ولا يزال اسمـه بالمكتبة ذاتها ، على ثمانية أسفار من تبـصرة أبـى الحسن اللخمى ، مكتوب عليها تحبيسها ـ من جهته ـ على طلبة العلم بالقيروان (45) .

* * *

وهذا وجه آخر لهذه العلاقات الثقافية فى ظل سيـادة القيروان ، حيث نلتقي مع التأثير الافريقي فى فن المغرب الاسلامي .

ومن الثابت ان الخط المغـربي العربـي ، مـر فى أدواره الاولى بمحاكاة الكوفى والنسخي المستعملين ـ معا ـ بالقيروان ، وبهذا الخط الكوفى كانت كتابة اللوحة التى اكتشفت ـ حديثا ـ فوق أحـد أقواس جامع القرويين بفاس ، مما أمـر به الامام داود بن ادريـس الثاني ، بتاريخ القعدة عام 263 هـ/877 م (46) .

ولا شك ان من نقلـة هذا اللون من الكتـابة ، المغاربة الدارسين بالقيروان وما اليها ، هذا فضلا عن الجاليـة القيروانية التى استوطنت احدى عدوتي فـاس .

وستكون الأثار الحضارية لهؤلاء الوافدين الافريقيين كثيرة ومتنوعة ، وقد تبينا ـ سلفا ـ أنهم بعد استيطانهم العاصمة الادريسية بأعدادهم المتوافرة ، تميزوا بطابعهم فى البناء والفرش والمطاعم والمشارب ، الى كثرة من كان فيهم من الصناع والتجار . . .

---

(45) انظر ابراهيم شبوح : « سجل قديم لمكتبة جامع القيران » ، « مجلة معهد المخطوطات العربية » : المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ص 363 و 366 ـ 367 .

(46) انظر : د. عبد الهادي التازي : « الحروف المنقوشة فى القرويين » فى خدمة الاثار» مجلة « دعوة الحق » ، العدد الرابع ، السنة الثالثة ، ص 45 ـ 46 .

غير أن المعطيات الفنية التى يتوقع أن تنبثق عن هذه الجالية عفاها تقادم الزمن ، واهملت المصادر المعروفة تسجيلها ، ولا يستثنى من ذلك سوى أطلال معمارية تبدو كباقي الوشم فى ظاهر اليد ، ويتعلق الامر بشكل العمارة الدينية فى أيامها الاولى بفاس ، يضاف اليها نموذجان انبثقا من ملابسات أخرى ، فيصير مجموع القطاعات المغربية المتأثرة بالفن القيروانى كالتالى :

— العمارة الدينية .
— نظام الاسواق .
— الرباطات الدفاعية .

* * *

وبالنسبة للعمارة الدينية نشير للجوامع المغربية ، وقد اخذت فى شكلها الاول من فن القيروان مع اضافة من فن الاندلس ، ثم طبعت فى النهاية بالطابع المغربى ، ويقول غوستاف لوبون (47) وهو يتحدث عن منار جامع القيروان : « وذاع طراز هذه المئذنة فى أفريقية الشمالية » ، وفى تعبير جورج مارسيه (48) عن الموضوع ذاته : « وتعتبر هذه المئذنة أصل جميع مئاذن المغرب » .

وتمثل منارتا فاس بجامعي القرويين والاندلس نموذجا حيا لهذا التأثير ، حيث تعلو كلا منهما قبة منخفضة فى شكل يقارب قبة مئذنة جامع عقبة ، ثم يكاد يماثل قبة صومعة الجامع الاعظم بمدينة سوسة (49) ، مع ملاحظة أن الجامعين الافريقيين : كلاهما من مؤسسات الاغالبة (50) .

(47) « حضارة العرب » : الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص 319 .
(48) « الفن الاسلامي » : الترجمة العربية ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ص 80 .
(49) قارن مع الصور المنشورة لمئذنتي القيروان وسوسة ، فى نشرة تونسية بعنوان : « بيوت أذن الله أن ترفع » ، ص 52 ــ 53 و 55 ــ 56 مع ص 74 ــ 76 .
(50) انظر « حسن البيان . عما بلغته أفريقية فى الاسلام من السطوة والعمران » ، تاليف المؤرخ التونسي : الشيخ محمد النيفر ، المطبعة التونسية 1353 هـ ، ج 1 ص 182و199

على ان هيكل المنارتين المغربيتين ، له شبـــه بشكل نظيرتيهـــمـــا التونسيتين ، مع اختصار فى العلو والتفريع عما امتازت به مئذنة القيروان.

وسيبدو فن القيروان — مرة اخرى — عن طريق القباب الوطيئـــة التي تغطي مساحات من سقوف البعض من المساجد المغربية ، لتضاهي بهذا جامع عقبة ، مع اختصار فى الارتفاع .

* * *

ومن العمارة الدينية ننتقل الى نظام الاسواق ، ويجلي هذه النقطة فقيـــد البحث التونسي : المرحوم حسن حسني عبد الوهـــاب (51) ، حسب الفقرة التاليـــة :

« وليس من شك أن نظام الاسواق على ما رتبه يزيد بن حاتم فى القيروان ، سرى دستوره الى بقية المدائن الافريقية . . . وامتدت سننه — بعد حين — الى عواصم المغرب ، مثل تاهرت قاعدة بنـــي رستم ، وسجلماسة عاصمة بني مـــدرار ، وفـــاس التي أحدثهـــا الادارســـة العلويون . . . وكانت نتيجة هذا الانسجام أن اصبحت تسميه الاسواق واحدة أو متقاربة فى سائر بلاد المغرب ، مثل سوق العطارين ، وسوق الوراقين ، والسراجين ، والبزازين ، وهلم جـــرا » .

* * *

والآن نعرض لونا آخر لتأثير الفن القيرواني ، وقد برز — اكثر — فى جنوب المغرب ، وظهر — هذه المرة — فى بناء الرباطات ، لتكـــون حصونا ساحلية أو داخلية ، للدفاع ضد الاخطار التى تهدد الاسلام من الخارج أو الداخـــل .

(51) « ورقات عن الحضارة العربية . بافريقية التونسية » ، نشر مكتبة المنار ، تونس ، 1965 م ، ج 1 ص 58 — 59 .

ومن المعروف أن تونس سبقت لاقامة هذه البنايات فى المغــــرب الكبير ، وكان أول رباط انشىء بأفريقيـــة الشمالية ، هو الذى شيــده هرثمة بن اعين عام 179 هـ/795 م ، وهو المعروف باســم « ربــاط المنستير » عند ساحل القيروان ، ثم انتشرت هذه المبــاني فى عهـــد الأغــالبـــة (52) .

وحتى نتبين حقيقة هذه البنايات ، نأتي بوصف وجيز لوضع رباط المنستير ، فقد كان يضم ثلاث قلاع عالية ذات طبقات ، يشتمل مجموعها على مئات من البيوت لايواء الجنود المرابطين ، وفى وسط الرباط مخازن الطعام ، ومواجل الماء ، ومستودعات آلات الحرب ، ومرابط الخيول ، وحول ذلك حصون منيعة تحيط بها أسوار شامخة (53) .

وقد أخذ هذا الفن المعمارى الجديد ، ينتشر من أفريقية نحـــو الغرب الاسلامى ، وصار يقام فى نطاق أصغر .

وبالنسبة للمغرب الاقصى وضع الادارسة المتأخرون اللبنة الاولى فى هذا الاتجاه ، ليزدهر – على عهد الزناتـيين – تشيـيد رباطــات شاطئية أو ساحليـــة .

ولن يهمنا أن تتحول هذه المؤسسات الى معابد أو مدارس فى زمن لاحق ، وانما يعنيـنا منها تجسيدها للتـأثير القيروانى فى هذا القطاع المعمارى ، وقد كان من بين نقلة هذا الفن تلاميذ القيروان من المغاربة ، ويؤكد هذه الحقيقة ، أن باني أشهر رباط مغربى (المعروف برباط شاكر) زار مدينة القيروان ، وأقام بها للدراسة على ابن أبي زيـد القيروانى ، وعند عودته أسس هذا الرباط ، الذى كان بانيه هو يعلى بن مصلين الرجراجى (54) المتكرر الذكر فى هذه الدراسة .

* * *

(52) انظر « دائرة المعارف الاسلامية » : النص العربي ، ج 10 ص 20 .
(53) انظـــر « حســـن البيـــان ... » ج 1 ص 184 .
(54) انظر رسالة « دلائل القبلة » : نفس المخطوط الــوارد عنـد التعليـق رقـم 36 ، ص 9 . أ .

وهذه لائحة بالرباطات المغربية التى انتشرت فى هذه الفترة أو قريب منها ، وهى تسير فى اتجاهين : خط ساحلى على المتوسط أو الاطلسى ، وخط داخلى .

وستنطلق المحارس الساحلية الاطلسية من رباط مدينة تشومس بمقربة من « العرائش » حاليا ، وكان — حسب البكرى (55) — يعرف برباط « حارة الاحشيس » .

ثم رباط أصيلة ، وكان — حسب نفس المصدر (56) — تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات فى السنة : عند شهر رمضان ، وفى عشر ذى الحجة ، وبمناسبة عاشوراء ، وهى أوقات اجتماع الناس بهذا المركز من جميع الامصار .

ومن رباط أصيلة ننتقل الى العاصمة المغربية الحالية ، حيث استمرت تحمل اسم الرباط ، وقد كان لموضعها شأن كبير خلال المائة الهجرية الرابعة ، وهو ما يسجله ابن حوقل (57) فى الفقرة التالية :

« وبسله رباط يرابط فيه المسلمون ، وعليه المدينة الازلية المعروفة بسله القديمة ، وقد خربت ، والناس يسكنون ويرابطون برباطات (58) تحف بها ، وربما اجتمع فى هذا المكان من المرابطين مائة الف انسان ، يزيدون فى وقت وينقصون لوقت ، ورباطهم على برغواطة . . . » .

وجنوب هذه المدينة كان يقوم رباط انفا ، ويذكره التادلى (59) باسم رابطة تامنغاطت قائلا : انه على قرب من ساحل انفا ، وهكذا

---

(55) كتاب « المغرب » : ط. الجزائر 1887 م ، ص 114 .
(56) ص 112 .
(57) كتاب « صورة الارض » ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص 82 .
(58) قد يكون منها رابطة القدم شرق مدينة سلا ، حيث مدفن أبي موسى الدكالي ، حسب التادلي فى «التشوف» ، «مطبوعات افريقية الشمالية الفنية» بالرباط ، رقم 73 ، وفى مخطوطة من نفس المصدر تسمى هذه برابطة القوم بالواو بدل الدال .
(59) « التشوف » رقم 48 ، وفى نسخة مخطوطة منه يسميه : « رباط تامفقاطت » بالفين والقاف بعدها .

تمتد هذه الربط غبر المحيط الاطلسى ، وتذهب — جنوبا — مع ربط ازمور (60) ، وتيط (61) على مقربة من ساحل مدينة الجديدة ، وأسفى (62) ، وامكدول (63) ، واخيرا : رباط السنيغال الذى أسسه عبد الله بن ياسين ، ثم انبعثت منه دولة المرابطين المنسوبة الى الرباط نفسه .

وسوى هذه الربط الساحلية ، شيدت محارس داخلية لمواجهة قبائل برغواطة المنحرفة عن الاسلام ، وكانت نحلتها تنتشر من المحيط الى قلب صحراء سجلماسة .

وسيأتى فى طليعة هذه المؤسسات رباط شاكر ، ويسمى — أيضا — برباط عقبة (64) ، وموقعه على الضفة الشمالية لوادى تانسيفت عند قبيلة عبدة ، حيث صار يعرف — فى الاستعمال الدارج — باسم « زاوية اولاد سيدى شيكر » .

وبانيه هو يعلى بن مصلين الرجراجى ، والدشاكر الذى صارت المؤسسة تنسب له (65) ، وكانت الغاية من انشائه أن يكون محرسا جنوبيا فى وجه المرتدين من برغواطة .

---

(60) المصدر رقم 238 ، حيث يسميه رباط ايسين من بلد أزمور ، وفى نسخة مخطوطة ورد باسم يمسين ، بفتح يائه الاولى وميمه وكسر السين .

(61) المصدر ، حيث يتكرر ذكره : أرقام 75 ر 87 ر 254 .

(62) المصدر ، ص 13 ، حيث يقول عن أبي محمد صالح نزيل رباط اسفي : « وهو — الى الان — لا يفتر عن الجهاد ... » .

(63) صار موضعه يحمل اسم الصويرة ، ويقول المؤرخ محمد بن علي الدكالي : « واما رابطة الصويرة فانما كانت عبارة عن برج مربع ذي منار للاهتداء به الى رؤية السفن القاصدة ذلك البر » ، حسب الموجود من رسالته المخطوطة عن الرباطات المغربية .
ويذكر البكري فى كتاب المغرب ص 86 : مرسى فوز ، ويضيف قائلا : « وهو رباط يعمره الصالحون ، وهو ساحل أغمات » .

(64) وردت هذه التسمية فى « التشوف » ص 413 .

(65) يعلى باني هذا الرباط ، سبق أن ذكرته هذه الدراسة بين المصامدة الاخذين عن ابن أبي زيد القيرواني ، وانظر عن الرباط ذاته : « دراسة موسعة » للشيخ محمد عبد الحي الكتاني ، مجلة « المغرب » بادارة صالح ميسة : السنة الخامسة ، عدد ربيع- جمادى 1355 هـ / يونيه — يوليوز 1936 م .

والى جانب هذه الغاية صار له شأن كبير فى نشر الثقافة ، فهذا ابو محمد الدكالى الدغوغى ، يذكر عنه التادلى (66) أنه كان واعظا بهذا الرباط ، فى وقت لا يعلو فيه كرسيه الا الاحاد ، وهناك استاذ آخر : « ابو ولجوط » ، وكان — حسب نفس المصدر (67) — يعظ المصامدة رواد الرباط بلهجتهم الشحلية .

وفى رمضان يتحول المركز ذاته الى مكان لتجمع المومنين ، وهم يعملون السفر له من الجهات (68) .

وبالاضافة الى رباط شاكر ، يعرض التادلى مراكز أخرى داخلية يسميها رباطا أو رابطة ، وأكثرها مركز فى الجنوب الغربى ، ومن المتوقع انها كانت فى مبادئها مؤسسات عسكرية على موازاة مواقع برغواطة ، وهى تسير من اغمات وريكة حتى سجلماسة هكذا :

— رباط تاسماطت جهة أغمات وريكة (69) .
— رباط حكم ببلاد السراغنة فى هسكورة (70) .
— رباط بير الجدي فى هسكورة (71) .
— رباط ملولاسن فى هنتيفة (72) .
— رباط اوجدام من بلد ركونة : (غجدام ببلاد أحمر) (73) .

(66) « التشوف » رقم 224 ، وانظر رقم 111 .
(67) « التشوف » رقم 223 .
(68) المصدر ص 26 .
(69) المصدر عند أرقام 47 و 57 و 74 .
(70) المصدر رقم 37 ، مع الرجوع الى النسخة المخطوطة .
(71) المصدر رقم 185 .
(72) المصدر رقم 210 .
(73) المصدر رقم 80 ، مع الرجوع الى النسخة المخطوطة ، وقد استمر هذا الرباط معروفا حتى أواخر المائة 11 هـ ، حيث ورد ذكره باسم ((رباط ءاوجدام)) ، آخر مؤلف يقع ثالث مجموع بمكتبة تمكروت رقم 1410 ، والمعني بالامر : كليات الابهري فى ((المنطق)) للبقاعي ، وقد كتب منتسخه عند نهاية الكتاب :
((... وقيده — لنفسه ولمن شاء الله تعالى بعده — العسال بن أحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي بن ناصر بن محمد بن علي بن يوسف الناصري ، وذلك من خط من كتب من خط مؤلفه المذكور رحمه الله تعالى ، بتاريخ ربيع النبوي : سبع وثمانين وألف ، برباط ءاوجدام : قرب ضريح الولي الصالح : سيدي أبي محمد جلدسين بن اسحاق الركوني ، نفعنا الله به آمين)) .

ـ رباط تانوطيهر من دكالة (74)

ـ رابطة انبدور خارج مدينة سجلماسة (75) .

عصر أمراء الطوائف

بعد اربعة قرون من سيادة القيروان ، دهم أفريقيا ضربات الزحفة الهلالية ، فدثرت حضارتها ، وانفرط عقد وحدة البلاد ، حيث توزعها حكام استقل كل منهم بامارة ، واستمر هذا الوضع من منتصف المائة الهجرية الخامسة الى عام 555 هـ/ 1160 م ، لما توحدت المنطقة مع المغرب الكبير فى ظل الدولة الموحدية ، ومن عام 603 هـ/ 1207 م اسند الناصر الموحدى ولاية افريقية الى ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص عمر الهنتاتي ، فكان هذا التاريخ بداية الدولة الحفصية ، ونهاية الفترة التي يطلق عليها البعض اسم « عصر أمراء الطوائف » ، لما أن اكثر مدتها ـ قرناً وزيادة ـ صارت البلاد فى قبضة المنتزين الذين تقاسموا حكمها ، وبهذا فان فترة عصر الطوائف تمتد من أواسط المائة الخامسة الى عام 603 هـ ، وهي الحقبة التى سنعرض علاقاتها الثقافية حسب الاشكال التاليـة :

ـ النشاط العلمي للنازحين الافريقيين الى المغرب .

ـ كفاءات تونسية فى معية الموحدين .

ـ مغربيان فى تونس : العاصمة .

ـ اشارة الى وصف اقليم تونس من جهة جغرافيين مغربيين .

(74) المصدر رقم 79 ، مع الرجوع الى النسخة المخطوطة .
(75) المصدر رقم 235 .

وبالنسبة للنقطة الاولى ، نشـــير ــ فى البداية ــ الى فقـــرة ابن خلدون (76) عن نكسة القيروان :

« . . . وجاء العرب فدخلـــوا البلـــد واستباحوه ، واكتسحـــوا المكاسب ، وخربوا المباني وعاثـــوا فى محاسنها ، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها ، وشملوا بالعيث والنهب سائر حريمها ، وتفرق اهلها فى الاقطار ، فعظمت الرزية ، وانتشر الداء ، واعضل الخطب » .

هكذا يصور المؤرخ الافريقي كيف انطفأت شعلة حضارة القيروان ، حتى تشتتت سكانها فى كل وجه ، وقد نزحوا ــ حسب المراكشى (77) ــ الى مصر وصقلية والاندلس ، ويضيف لذلك قائـــلا : « وقصدت منهـــم طائفة عظيمة اقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس ، فعقبهم بها الى اليوم » .

ومن هنا فان مؤلف « المعجب » يبرز عنصراً جديداً ينضاف الـــى التركيب السكنى لمدينة فاس خلال الفترة التى نعرضها ، وهو يزيد هذه الحقيقة تأكيدا لما يوضح الأثـــر الحضارى للجاليـــة القيروانية بالمدينة ذاتها حسب الفقرة التالية :

« ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبـــة ، اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغـــرب ، فلمـــا اضطرب امـــر القيروان ــ كما ذكرنا ــ بعيث العرب فيهـــا ، واضطرب امـــر قرطبة باختلاف بني امية بعد موت ابى عامر : محمد بن ابى عامـــر . وابنـــه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلمـــاء والفضلاء من كل طبقـــة فرارا من الفتنة ، فنزل اكثرهم مدينة فاس (78) . . . »

هذه هى شهادة عبد الواحد المراكشى ، الذى تشير قولتـــه « من كل طبقة » : الى اصناف العلماء والصناع والتجار ومن اليهم .

(76) « العبـــــر » ج 6 ص 16 .
(77) « المعجـــب » ص 237 .
(78) « المصـــــدر » ص 238 ــ 239 .

والى جانب فقرة المراكشى ، نعثر باشارات ــ محدودة ــ لنازحين الى المغرب من القيروان وسواهـا ، حيث توزعتهم المراكـز الثقافيـة المحلية ، انطلاقاً من اغمات وسجلماسة وفاس وطنجة وسبتة .

وقد قصد عدد من هؤلاء النازحين « اغمات وريكة » فنزلوا بهـا ، ويبدو أن من دوافع هذا الاختيار أنها كانت ــ فى الفترة ذاتها ــ شبـه عاصمة لمؤسسى الدولة المرابطية السنية ، بالاضافة الى أن هذه المدينة تعتبر قاعدة لقبيل المصامدة ، ولفقهائهم علاقة قديمة بالاخذ عن مشايخ القيروان ، وهذه ثمانية اسماء من الافريقيين النازلين بأغمات :

الاول : **محمد بن سعدون** بن علي القروى ، المتوفى عام 485 هـ/ 1092 م . (79) .

فقيه حافظ للمسائل نظار فيها على مذهب اهل بلدته ، اشتغـل بالتدريس والتأليف ، ورحل الى المغرب والاندلس ، فسمع منه بسبتـة قاضيها ابو عبد الله التميمى ، وابو علي النحوي ، وغيرهما ، ويـروي عياض (80) « فهرسه » بواسطة عدد من شيوخه .

ثم استقر المترجم بآخرة فى اغمات وريكة ، وبهـا كانت وفـاته ، حيث لا يزال مشهده معروفا بهذه المدينة .

الثـانى : **عبد العزيز التونسى** ، المتـوفى عـام 486 هـ/ 93 ــ 1094 م . (81) .

سكن ــ أخيرا ــ بنفس المدينة حتى تـوفى بهـا ، واشتغل فيها ــ حينـا ــ بتدريس الفقـه .

(79) ترجمة فى « المـدارك » ج 4 ص 799 ــ 800 ، و « الصلـة » ع 1322 ، مـع « التشوف » ع 1 ، و « معالم الايمان » ج 3 ص 236 ، و « السعادة الابدية » لابن الموقت ط. ف. ج 1 ص 63 ، وكلمة القروي الواردة فى هـذه الترجمة تشيـر الى النسبة للقيروان ، فيقال فيها قروي كما يقال قيرواني ، انظر كتاب « اللباب » لابـن الاثير ، نشر « مكتبة القدسي » ، ج 2 ص 257 .

(80) ذكـر هـذا أواخـر فهرسـه : « الغنية » .

(81) ترجمتـه فى « الصلـة » ع 805 ، و « التشـوف » ع 6 .

الثالث : عبد السلام التونسى ابن أخ المذكور قبله ، وصحبه للسكنى معه بأغمات ، ثم تحول عنها الى تلمسان حيث توفى بها فى تاريخ غير مضبوط ، ومشهده بالعباد ، وبجواره — فى روضته — دفن الشيخ أبو مدين ، وكان عالما عارفا بالمسائل مدرسا (82) .

الرابع : أبو عبد الله **الهوارى** التونسى ، من الأخذين عن المذكور قبله يليه ، وهو من أهل العلم والعمل (83) .

الخامس الى السابع : **الاخوة السفاقسيون** : ابو الطيب ، ومحرز ، ومحمد ، وثلاثتهم علماء فضلاء ، وكان سكناهم بهذه المدينة عند الموضع المعروف بايغيل (84) .

الثامن : ابو بكر المرادى : محمد بن الحسن الحضرمي القروي ، المتوفى عام 489 هـ/ 1096 م . (85) .

عالم بالفقه وأصوله ، امام فى أصول الدين ، الى مشاركة فى الادب وقرض الشعر ، وحظ وافر من البلاغة والفصاحة .

نزل بأغمات وريكة ، الى أن انتقل عنها قاضيا بالصحراء ، ويضيف ابن الزيات (86) لهذا : أن ابا بكر المرادى أول من ادخل علوم

---

(82) ترجمته فى « التشوف » رقم 13 ، و « البستان » لابن مريم ، المطبعة الثعالبية بالجزائر ، ص 122 .

(83) ترجمته فى « التشوف » ع 56 .

(84) « المصدر » ع 45 ، والغالب أن اول الاخوة الثلاثة هو الذي أورده عياض فى « الفنية » بكنية أبي الطيب ، وسماه بسعيد بن احمد بن سعيد السفاقسي ثم الينونشي : قرية من قراها ، ثم قال عنه : اجتاز ببلدنا ، وسكن اغمات ، كان من المحققين بالفقه والكلام ، من أهل البلاغة والتأليف والنظم والنثر ... وأرخ وفاته فى صدر رجب سنة 501 هـ

(85) ترجمته فى « الصلة » ع 1326 .

(86) « التشوف » عند ترجمة تلميذه أبي الحجاج الضرير ع 11 .

الاعتقادات للمغرب ، يشير الى مذهب الاشعرية على طريقة المتأخرين منهم (87) .

وخلفه فى مذهبه العقائدى تلميذه ابو الحجاج الضرير : يوسف بن موسى الكلبى السرقسطي ، وسكن مدة بكل من أغمات وسبتة ، وبهذه المدينة الاخيرة أخذ عنه عياض ، وروى عنه تآليف استاذه المرادى ومنها « كتاب التجريد » (88) .

ومن المؤلفات الباقية للمترجم ، رسالته فى السياسة بعنوان : « كتاب الاشارة ، فى تدبير الامارة » ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة القرويين ، واثنتان بالمكتبة الملكية رقم 260 و 5708 .

ونذكر — الآن — أبا الفضل بن النحوي : يوسف بن محمد بن يوسف التوزرى الاصل ، وينسبه ابن الأبار للقيروان ، المتوفى — بقلعة بني حماد — عام 513 هـ/1119 م . (89) .

ورد على المغرب وتنقل بين سبتة وسجلماسة وفاس ، وكان اماما ، عالما بالفقه ، عارفا بأصوله وأصول الدين ، متكلما فصيحا ، مؤلفا ، يميل الى الاجتهاد ولا يقلد .

---

(87) مر المذهب الاشعري بمرحلتين متباينتين : الاولى : هي التي عليها الامام والمتقدمون من أصحابه ، حيث كانت العقيدة الاشعرية سلفية لا فارق بينها وبين العقيدة الحنبلية ، قال السبكي بعد ما ذكر الامام الاشعري : « ... وعقيدته وعقيدة الامام أحمد – رحمه الله – واحدة ، لا شك فى ذلك ولا ارتياب ، وبه صرح الاشعري فى تصانيفه ، وذكرها غير مرة : من ان عقيدتي هي عقيدة الامام المبجل ، أحمد بن حنبل ، هذه عبارة الشيخ ابي الحسن فى غير موضع من كلامه » ، « الطبقات السبكية الكبرى » ، ج 3 ص 99 . أما المرحلة الثانية للمذهب الاشعري ، فهي التي اضيفت فيها مسائل الفلسفة للعقيدة الاشعرية ، فصارت هذه الطريقة مباينة للاولى ، وتسمى طريقة المتاخرين ، وهو موضوع بسطه ابن خلدون فى « المقدمة » ، المطبعة البهية المصرية » ، ص 406 – 407 .

(88) انظر ترجمة أبي الحجاج الضرير فى كل من « الغنية » لعياض ، و « الصلة » ع 1509 ، مع « التشوف » ع 11 .

(89) ترجمته فى « التشوف » ع 9 ، و « التكملة » لابن الابار ط. مجريط ع 2098 ، وعند ابي العباس النقاوسي فى مقدمة الشرح المخطوط لقصيدة المنفرجة باسم « الانوار المنبلجة فى أسرار المنفرجة » ، وفى « البستان » ص 299 – 304 ، و « نيل الابتهاج » ص 349 – 351 ، و « جذوة الاقتباس » ع 643 .

واخذ عنه — من سبتة — ابو القاسم ابن العجوز : عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الرحمن الكتامى ، ولطول صحبته له تأثر — الى حد — بنزعة استاذه الاجتهادية ، فكان — حسب عياض (90) — يميل الى النظر والحجة .

وممن لازم المترجم بفاس : ابو موسى ابن الملجوم : عيسى بن يوسف بن عيسى الأزدى ، وحفظ عليه — عام 494 — كتاب اللمع فى اصول الفقه لأبي اسحاق الشيرازي ، وهذا الكتاب يومي الى اتجاه أبي الفضل فى هذه المادة ، حيث كان مؤلفا على الطريقة الاصلية الجديدة التي تضيف المسائل المنطقية لهذا العلم .

وفى نفس العاصمة الادريسية بدأ ابن النحوى يقرىء علم الكلام ، غير أن قاضيها منعه من متابعة تدريسه ، فدل هذا على أن المنوه به اتى بجديد فى طريقة تعليمه ، وليس ذلك الا مذهب المتأخرين من الأشعريين ، وقد كان — آنذاك — غير معروف بالمغرب .

وهو — الى هذا — يميل الى الاتجاه الصوفى الذى انتهجه الغزالى فى « الاحياء » ، ولذلك عارض — ايام مقامه بفاس — سياسة على المرابطى فى عملية احراق هذا الكتاب ، وراسل امير المسلمين فى هذا الصدد .

وهكذا نتبين أن ابن النحوى مهد لتجديد اسلوب البحث المغربي فى علوم الاصلين والتصوف بواسطة من أخذ عنه بفاس ، كما مهد للتحرر الفكرى عند المناظرة والحجاج ، عن طريق تلميذه ابن العجوز بسبتة .

ويبدو أن مترجمنا أعجب بالمفاتن الطبيعية لمدينة فاس بالخصوص ، وهو ما تعبر عنه القطعة التالية التى يصف بها القاعدة المغربية :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق
وساكنوك أهنيهم بما رزقوا

(90) « الغنية » : عند « عند ترجمة ابي القاسم ابن العجوز .

هــذا نـــســيــمــك أم روح لراحـــتـــنـــا
ومـــاؤك الســلــســل الــصـــافى أم الـــورق

أرض تـــخـــلـــلـــهـــا الانـــهـــار داخـــلـــهـــا
حتـــى المـــجـــالـــس والاســـواق والـــطـــرق

وبعد هذا : فلا نزال مع فاس ، لنتقدم اثـنين من الوافدين عليهـا مــن أفــريقــيـــة :

ـــ ابو الطيب عبد المنعـم بن من الله بن أبـــي بحـــر الهـــوارى القيرواني ، المتوفى عام 493 هـ/ 1100 م (91) ، أديب شاعر .

ترجم ابن الأبار (92) لابنه محمد وقال عنه : انه من أهل فاس ، وابوه : « ابو الطيب » من جالية القيروان فى فتنة العرب بها .

ـــ محمد بن ابراهيم المهدوى ، نزيل فاس والمتوفى ـــ بها ـــ عام 595 هـ/ 1199 م ، وكان من طبقـــة أهل العلـــم الجانحين للتصوف ، وهو مؤلف كتاب « الهداية » (93) .

ومن فاس ننتقل الى طنجة وسبتة وسواهما ، لنلتقي مع وافدين اثنين من الجالية ذاتهـــا .

واولهما : الاديب التونسى الشهير بالحصري : علي بن عبـــد الغني الفهرى القيرواني الضرير ، المتوفى عام 488 هـ/ 1095 م (94) .

---

(91) ترجمتـــه فى « الصلــــــة » ع 838 .

(92) « التكملـــــة » ع 1052 .

(93) ترجمتـــه فى « التشـــوف » ع 168 ، و « جـــذوة الاقتبـــاس » ع 280 .

(94) ترجمته فى « الصلة » ع 926 ، و « معالم الايمان » ج 3 ص 250 ، و « نكث الهميان» للصفدي : « المطبعة الجمالية » بمصر ، ص 213 ــ 214 ، و « غاية النهاية » لابن الجزري ، نشر « دار الكتاب اللبناني » ، ع 2250 .

وكان الى جانب مثافنته للأدب عالما بالقراءات وطرقها ، وأقرأ هذه المادة الاخيرة بسبتة وغيرها ، وبطنجة كانـت وفاتـه ، وفيها أسمـع القصيدة الرائية التى نظمها فى قراءة نافع : سمعها منه المقرىء القرطبى المعروف بأبى داود الصغير : سليمان بن يحيى بن سعيد المعافرى (95) .

والحصرى هذا هو الذى صاغ القصيدة الغنائية التى مطلعها :

يـا ليـل الصب متى غـده   اقيـام الساعة موعـده

الثانى : ابو علي السفافسي : الحسن بن عبد الاعلى الكلاعي ، المتوفى عام 505 هـ/ 1111 م (96) .

درس فى بلاد المصامدة ، واستوطن سبتة أخيرا ، ثم كانت وفاته بأغمات ، قال عنه القاضى عياض : « تكررت عليـه ، وجالسته كثيرا ، واخذت عنه غير شيء ، وانتفعت به ، وكان محقـقا فهما ، فقيهـا ، أصوليا ، متكلماً ، عارفاً بعلم الهندسة ، والحساب ، والفـرائض ، وغير ذلك من المعارف » .

فهؤلاء ثلاثة عشر من أعلام الافريقيين القادمين الى المغرب حسب المعروف منهم الآن ، ونذيل عليهم بذكر علمين من الجهة ذاتهـا يروى عنهما القاضى عياض بطريق الاجازة المكتوبة :

الاول : ابو عبد الله المازرى : محمد بن علي بن عمـر التميمـي مستوطن المهدية ، والمتوفى عـام 536 هـ/ 1141 م ، كتب اليـه ــ من المهدية ــ يجيزه بكتابه : المعلم فى شرح مسلم وغيره من تواليفه .

الثانى : ابو الحسن ابن البـنـا : علي بن ابى القاسم بن محمد المهدوى المجاور بمكة المكرمة ، ومنها كتب له باجازة جميع روايته (97) .

(95) جاء ذكر هذا السماع عند ابن خير فى « فهرسته » : الطبعة الجديدة ، ص 74 .
(96) ترجمته فى « التكملة » رقم 64 ، وعند القاضي عياض فى « الغنية » .
(97) « الغنية » : عند ترجمتي المجيزين : الاول فى المحمدين ، والثاني عند حرف العين .

وبعد هذا نعود — مرة اخرى — لحديث القيروان وما اليها بعد الزحفة الهلالية ، حيث يخيم الركود على الحياة الثقافية فى مجموع القطر ، ويستمر أزيد من قرن الى وصول الموحدين لتونس ، وهذا ما يسجله الدباغ (98) فى الفقرة التالية :

« . . . ولم يبق بالقيروان من له اعتناء بتاريخ ، لاستيلاء مفسدى الاعراب على افريقية . . . واجلاء اهلها عنها الى سائر بلاد المسلمين . . . الى أن من الله على الناس بظهور الموحدين » .

وفى هذا العصر الموحدى يتحول مركز العاصمة الى مدينة تونس بدلا من القيروان (99) ، ومن اشكال العلاقات الثقافية فى هذا العهد الجديد ، وجود كفاءات تونسية فى معية الموحدين ، ونقدم لهذه الظاهرة ثلاثة نماذج :

انطلاقا من محمد بن ابى العباس التيفاشى القفصى ، وهو الذى وفد على العاهل الموحدى عبد المومن بن علي ، ومدحه بالقصيدة التى مطلعها :

ماهز عطفيه بين البيض والأسل
مثل الخليفة عبد المومن بن علي (100)

وبعد التيفاشي يأتى أبو الفضل بن عبد الله بن نزار الهوارى القابسى الشاعر ، ويقول عنه العماد الاصفهانى (101) : « وهو حي الى الآن ، يخدم ولد عبد المومن كاتبا » .

الثالث : ابن الكماد التونسى : أحمد بن علي بن اسحاق التميمى ، الراصد بمراكش الموحدية اول المائة الهجرية السابعة ، زيادة على أنه خلف زيجا مصححاً اعتمده المغاربة من بعده فترة من الدهر (102) .

(98) « معالم الايمان » ج 3 ص 252 .
(99) « المعجب » ص 234 ، مع ص 147 .
(100) « خريدة القصر » للعماد الاصفهاني « الدار التونسية للنشر » ج 1 ص 128 .
(101) « المصدر والجزء » ، ص 125 .
(102) « العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين » ، لمحمد المنوني نشر « معهد مولاي الحسن » بتطوان ، ص 111 .

ومن بين المغاربة الذين زاروا تونس فى الحقبة ذاتها نذكر اثنين :

ابن عبد الكريم التميمي : محمد بن قاسم بن عبد الرحمن الفاسى ، المتوفى — بها — عام 603 هـ/ 1207 م .

دخل تونس واخذ عنه بها ابن الكردبوس : ابو مروان عبد الملك بن ابى القاسم التوزرى ، مؤلف كتاب « الاكتفا فى اخبار الخلفا » ، كما سمع منه « الموطأ » بالاسكندرية ، وكان من اصحابه (103) .

ثانيا : الشاعر الموحدى ابو العباس الجراوى : احمد بن عبد السلام الغفجومي ، المتوفى عام 609 هـ/ 1212 م (104) .

زار تونس مرتين : فى صحبة يعقوب المنصور عام 583 هـ ، ثم مع ابنه محمد الناصر فى رحلته الطويلة من عام 601 الى 603 هـ ، غير أن المصادر المعروفة لم تسجل لشاعر الموحدين نشاطا أدبيا — فى موضوعنا — أثناء اقامتيه فى تونس .

* * *

ونختم هذا العرض عن عصر الطوائف ، بالاشارة الى جغرافيين مغربيين وصفا اقليم تونس فى هذه الفترة ، وهما :

الشريف الادريسى : محمد بن محمد بن عبد الله الحسني السبتي ، المتوفى عام 555 هـ/ 1160 م : فى كتابه : « نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق » ، وقد تكرر نشر القسم الخاص بهذه الجهة وما اليها ، مستخرجا من كتاب النزهة .

الثاني : مؤلف مغربي مجهول الاسم : فى كتابه : « الاستبصار فى عجائب الأمصار » ، المنشور فى مطبعة جامعة الاسكندرية .

---

(103) التكملة ع 1064 .

(104) كتب الاستاذ الكبير محمد الفاسي الفهري دراسة قيمة وموسعة عن ترجمة الجراوي، بعنوان : « شاعر الخلافة الموحدية أبو العباس الجراوي » ، وهي منشورة — على حدة — بمبادرة «جمعية قدماء تلاميذ مدرسة جسوس» فى 45 ص، مع ملحق من 10 ص

وهذا نموذج مما كتبه الادريسى عن القطر التونسي ، ويتناول وصف مدينة قرطاجنة خلال النصف الاول من القرن 6 هـ :

« ومدينة قرطاجنة كانت فى وقت عمارتها من غرائب البلاد المذكورة : بما فيها من عجائب البناء ، واظهار القدرة فى ذلك ، وبها — الآن — بقايا من بنيان الروم المشهور بها ، مثل الطياطر التى ليس لها نظير فى مبانى الارض قدرة واستطاعة . وذلك ان هذه الطياطر هى بناء فى استدارة ، وهى نحو من 50 قوسا قائمة فى الهواء ، سعة كل قوس منها أزيد من 30 شبرا ، وبين كل قوس واختها سارية وعظمها ، وسعة السارية والعضادتين 4 أشبار ونصف ، ويقوم على كل قوس من هذه الاقواس اقواس : قوس على قوس : صفة واحدة ، وبناء واحدا ، من الحجر الكذان الذى لا يجانسه شىء فى الجودة ، وعلى اعلى كل قوس من هذه القسي بحر دائر ، وقد صور فى البحر الدائر على القسي السفلى أنواع من الصور ، وضروب من التماثيل العجيبة الثابتة فى الصخر : من صفات الناس ، والصناع ، والحيوانات ، والمراكب ، وكل ذلك قد أتقن بأبدع صنعة ، وأحذق حكمة ، وسائر البناء الاعلى املس لا شىء به ، ويقال : ان هذا البناء كان ملعبا ومجتمعا فى فصل ما ويوم ما من السنة .

ومن عجائب البناء بقرطاجنة الدواميس التى يبلغ عددها 24 داموسا فى سطر واحد ، طول كل داموس 130 خطوة ، فى عرض 26 خطوة ، ولكل داموس منها اقباء فى أعلاه ، وبين كل داموس منها وصاحبه اثقاب وزراقات تصل منها المياه من بعض الى بعض ، كل ذلك بهندسة وحكمة .

وكان الماء يجرى الى هذه الدواميس من عين شوقار التى هى بقرب القيروان ، وطول مسافة جرى هذا الماء من العين الى الدواميس 3 مراحل ، وكأن جري الماء من هذه العين الى هذه الدواميس على عدة قناطر لا يحصى لها عدد ، وجرى الماء بوزنة معتدلة ، وهذه القناطر قسي مبنية بالصخر ، فما كان منها فى نشز الارض كان قصيرا ،

وما كان منها فى بطن الارض واخاديدها كان فى نهاية العلو ، وهذا من اغرب شيء ابصر على وجه الارض ، والماء فى وقتنا هذا متطوع عن هذه الدواميس ، لا يصل اليها منه شيء ، كل ذلك أوجبه خراب مدينة قرطاجنة.

ومع ذلك انها من يوم خرابها الى الآن ، يحفــر على ما تهدم من قصورها واصول بنائها ، فيستخرج منه من انواع الرخام ما يكل عنــه الواصف ، ولقد اخبر خبير بها : انه راى الواحا استخرجت من الرخام طولها 40 شبرا فى عرض 7 اشبار فما دونهــا ، والحفــر فى خرابهــا دائما لا ينقطع ، واخراج الرخام منها لا ينقضى ، ورخامها يحمــل الى جميع اقطار الارض ، ولا سبيل الى ان يخرج احد منها فى مركب او غيره الا ويحمل معه من رخامها الشيء الكثير ، حتى اشتهر ذلك ، وقد يوجد بها من اعمدة الرخام ما يكون محيــط دور الواحدة منهــا 40 شبــرا فمــا دونــه (105) » .

وبعد « نزهة المشتاق » ، نقتطف من كتاب « الاستبصار » وصف مدينة المهدية اواخر المائة الهجرية السادسة :

« مدينة المهدية : وهي مدينة عظيمة بناها عبيد الله الشيعي . . . وبين مدينة المهدية والقيروان 60 ميلا ، والبحر قد احاط بمدينة المهديــة من جميع جهاتها الا من الجانب الغربي ، وفيه بابها ، ولها ربــض كبير يسمى « زويــلــة » ، وفيه الاسواق .

وللمهدية أسواق مبنية بالصخر الجليل ، ولها بابــان من حديــد لا خشب فيهما ، زنة كل واحد منهما 1000 قنطار ، وطوله 30 شبرا ، وفيها صور الحيوان وهى من اعجب ما عمل فى الاسلام .

وفى المهدية 360 ماجلا لماء المطر ، سوى ما جرى اليها من القنــاة التى جلبها اليها عبيد الله من قرية مشانس ، وهي على مقربة من المهدية .

(105) قطعة من « نزهة المشتاق » بعنوان « المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس » ، « مطبعة بريل » سنة 1894 م ، ص 112 — 114 .

وللمهدية مرسى للمراكب من عجائب العالم ، فانه منقور فى حجر صلد ، يسع 30 مركبا ، وكان على المرسى برجين بيـــنهما سلسلة حديد من اغرب ما عمل ، واذا أرادوا أن تدخـــل سفينـــة أو مركب ، أرسل حراس البحر السلسلة حتى تدخل السفينة ثـم مدوها كمـــا كانت ، وذلك تحصينا لئلا تتطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها ، كما كان فى أيام الحسن الذى دخلها الـــروم عليـــه ، وذلـــك مشهـــور فى جميـــع الاقـــطـــار (106) » .

(للبحـــث صـــلة)

الـــربـــاط **محمد المنوني**

(106) كتاب « الاستبصار » ، « مطبعة جامعة الاسكندرية » : ص 117 ــ 118 .

على هامش المغرب الديبلوماسي :

خواطر حول الاتفاقية الثنائية بين فرنسا وانكلترا

1904

« المغرب بلد لا يحتل احتلالا،
وانمــا يهضم هضما » (*)

عبد الكبير الفهري الفاسي

لقــد كانت الاتفاقية الثنائية بين فرنسا وبريطانيــا سنــة 1904 مكسباً سياسياً للدولتين فى الميدان السياسي من جهــة ، وفى الميــدان الاستعمارى من جهة أخرى ، ولم يلحق المغرب منها الا الخسارة بتأكيــد احتلال ترابه والقضاء على سيادته باتفاقية الحماية المبرمة سنة 1912 . وكان لا بد من أن يكون الأمر على هذا المنــوال ، لأن الــدول الكبــرى ــ سواء فى القديم أو الحديث ــ لا تتفق مع بعضها الا على من عداهــا من الدول المناوئة ، وعلى الدول الصغرى فى كثير من الأحيان .

ولم تمر هذه الاتفاقية فى سماء المغرب مر الكرام من غير أن تثــير انتباه الملاحظين من المغاربة رغماً عن قلتهــم . وقد كان من المغاربة من يحلمون بابرامها لأنهم كانوا يتوقعون منها خيراً كثيراً لهــم ، وخيرا كثيرا فى سبيل مطامع فرنسا التى عملوا فى تحقيقها من الجهود ما أدى ببعضهم الى ســوء المصــير .

(*) فقرة من كتاب بعثه ماكس لكلير للمشير ليوطي وهو فى عين صفرا . وهذا الرجل هو كذلــك من أساطيــن الاستعمــار .

وكان الجانب الافرنسى قد قام بجهود جبارة أفضت الى ابرام الاتفاقية فى الوقت الذى كانت فيه الاغلبية الساحقة من المغاربة فى غفلة عما يحاك حول البلاد للوقوع فى شبكة الاستعمار ، اللهم الا اقلية من المغاربة كانوا من العارفين بالشؤون السياسية التى كانت تصل الى اسماعهم من هنا أو هناك . ولكن لم يكن لهم حول ولا قوة ، شأنهم فى ذلك ، شأن العارفين بخفايا الأمور فوق كل ارض ، وتحت كل سماء .

أما فرنسا ، فقد أعدت الخطة للاستيلاء على المغرب من يوم ان وطىء أرض الجزائر قدم أول جندى من جيشها فى شهر يوليوز سنة 1830 فى سيدي فرج الجزائرية ، بحيث لم يكن الاستيلاء على الجزائر وتونس الا فاتحة عهد يكون خاتمة المطاف فيه هو الاستيلاء على المغرب بشكل او بآخر . فلم تكن قضية الحمايات القنصلية (1) وحماية بعض الأسر المغربية فى شماله ووسطه وجنوبه ، وكذلك كان الأمر فى جميع ما وقع على الحدود بين المغرب والجزائر فى الفترة ما بين سنة 1830 الى سنة 1912 من مناورات ومناوشات وحروب ومؤتمرات فى عهد المولى عبد الرحمن والمولى محمد الرابع والمولى الحسن والمولى عبد العزيز ، وقيام المغامر بوحمارة (2) الذى ثار بمال فرنسا وعتادها . كل ذالك لم يكن الا توطئة لبسط الحماية على المغرب ، بعد أن تزيل فرنسا جميع ما يعترضها من طرف الدول الأروبية مثل انكلترا والمانيا وايطاليا واسبانيا ، على أن بعض تلك الدول مثل ايطاليا وانكلترا ، لم تكن تهدف الى احتلال المغرب فتزاحم فرنسا فى استغلاله . ومن المعلوم فى تاريخ هذه الفترة ان فرنسا لم تذهب الى مؤتمر الجزيرة الخضراء الا مرغمة بعد أن سعت كلما وسعها الأمر بأن تكون بعض الدول كأمريكا وروسيا الى جانبها ، رغما عن كونهما لم يكن لهما مصالح مباشرة فى المغرب .

غير أن فرنسا قبل ابرام الاتفاقية الثنائية كانت على ثقة من أمرها ،

---

(1) كانت اهم القضايا المطروحة فى مؤتمر مدريد هي قضية الحمايات القنصلية التي قضت على سيادة المحاكم المغربية وحولتها الى شبه محاكم مختلطة لحضور قناصل الدول فى المحاكمات .

(2) جاء ذلك بالنص فى بعض رسائل المشير اليوطي التي ترجمناها .

وقد استطاعت أن تقنع كثيراً من الدول بأن لها وضعية خاصة فى الشمال الافريقى ولا تسلم تلك الوضعية الخاصة السلامة المطلوبة الا اذا تم لها الأمر فى المغرب بحيث لا بد من أن تسقط يتيمة العقد فى يدها ليكتمل نظامه ، فكان لها ما أرادت بعد اطلاق حرية العمل لها فى المغرب بفضل اتفاقية سنة 1904 .

وقبل أن نأتي فى عجالة أخرى على رد الفعل الذى كان عند بعض المغاربة فى شأنها ، نأتي هنا بنبذة من خطاب أحد ساسة فرنسا المرموقين اذ ذاك ، ومن الذين كان لهم ضلع فى توسيع رقعة الاستعمار الافرنسى ، سواء فى افريقيا أو فى مغربنا الكبير . وكان هذا الرجل من الذين يعتبرون من مطبقي « وصية » كامبطا الوزير الافرنسى الذى سير دفة الحكم فى الداخل والخارج فى فرنسا فى فترة عصبية فى القرن التاسع عشر ، وذالك من 1869 الى سنة 1888 حيث قامت الحرب الافرنسية الالمانية ومنيت فيها فرنسا بالهزيمة التى ضاعت بسببها مقاطعتا للزاس واللرين . وصاحب الوصية هو كامبطا الايطالى الأصل . اما مطبق الوصية ، فى ضمن آخرين غيره فهو اجين اتيان (3) Eugène Etienne فكان ليلة الاتفاقية التى كانت تحضر سنة 1903 نائب رئيس البرلمان الافرنسى وترأس اذ ذاك مأدبة عشاء اقامها « الاتحاد الاستعمارى » ، وكان الغرض منها تسوية خلافات قامت بين رجال الاستعمار فى تونس وفى الجزائر . لأن تصريف الانتاج المعدني والخمور والفسفاط والفواكه وما الى ذالك ، كان يواجه صعوبات كثيرة ولأن كل فريق من العنصرين كان يريد الأفضلية والرعاية لانتاجه فى الدخول للاسواق العالمية أو حتى الافرنسية نفسها . وكان فى الوقت نفسه يروج تساؤل فى الأوساط الاستعمارية مفاده : هل ستصبح تونس الخضراء مستعمرة فرنسية أم ستبقى تحت حماية فرنسا كغيرها من المستعمرات التي تقوم فيها سيادة مزدوجة ؟ وأمام هذا التساؤل أصبح الأمر ذا خطر اذ انقسمت

---

(3) لعب دورا هاما فى تعيين الجنرال « اليوطي » على رأس حامية عين الصفراء كما سنبينه فى عجالة أخرى ، وكان نائبا عن ولاية وهران فى البرلمان الافرنسي وعين وزيرا للدفاع فى بلده غير ما مرة، والدفاع كما هو معلوم من ركائز الاستعمار كرأس المال

الاوساط الاستعمارية ما بين محبذ وبين شاجب لهذه النظرية التى ربما ادت الى ما لا تحمد عقباه فى الميدان الدولى ، ولأن اليسار الافرنسى كان يبدى تخوفات كثيرة كما كان يبدى اشفاقاً « افلاطونيا » على المستعمرات ويحاول أن يستجيب لبعض مطالبها التى ان لم تفصلها عن فرنسا فانها قمينة بأن تجعلها تتمتع ببعض الحريات ، ومنها بيع انتاجها حسب ما فيه مصلحتها .

وجاء وقت الخطابة فى آخر العشاء ، فقام أجين اتيان ليقول ـ بعد ما كثر اللغط وتراشق الطرفان بالاتهامات ، لا حباً فى حرية المواطنين المفقودة فى المستعمرات ولا رفعاً لمجد فرنسا وهو لا يدخل فى الحساب ولكن لترضية الاطراف المعنية :

« لما الاحظ ما أنتم فيه من شنئان فان الأسى والحسرات تفعم قلبي وآسف عليكم كثيرا . أهل من المستحيل أن تزدهر الجزائر من غير ان تشل ازدهار تونس ؟ وهل لا بد من أن يعوق ازدهار تونس ازدهار الجزائر ؟ اتقدم اليكم ايها الاصدقاء بهذا التساؤل ، وأرجوكم أن تكفوا عن هذه المشاحنات التافهة ، ولننظر بعيداً بعيداً الى ما هو اسمى وابعد ! !

« انظروا بعيدا ولكن الى هذا المغرب القريب منكم : فهناك الاراضي الخصبة التي يصيبها غيث مدرار من غزارة الامطار ، تأتيها من البحر المتوسط ومن الاطلسى . « أيها الاصدقاء أليس فى ذلك الميدان مرتع فسيح لنشاطكم ؟ أليس هناك مناجم الفسفاط (4) ومناجم الحديد والاراضى الزراعية التى تنبت أنواع الزروع والزياتين . وهناك ستنتجون القطن لتزويد معامل النسيج فى كل من روبى (5) وتراكون ، وهناك سيقوم مقاولونا بمد السكك الحديدية وبناء الموانىء حيث سينصب انتاج معاملنا من الفولاذ والحديد . أما القروض المالية التى ستضطلع بها

---

(4) هل يعتقد احد ان المسؤولين المغاربة كانوا على علم بوجود الفسفاط فى بطن أراضيهم فى ذلك العهد او بقيمته الزراعية او الصناعية ؟ لا وربك لانهم كانوا يصولون ويجولون فى ميادين أخرى ...

(5) مدن افرنسية عرفت بمعاملها القطنية والصوفية وغيرها .

مصارفنا فلا شك انها ستكون كثيرة فى هذا الميدان المغربى الواسع . فهل ستظلون فى جدالتكم وشنئانكم على هذا الشكل ؟ وقولوا لي بربكم ما معنى هذا الشنئان من اجل اختلاف فى واجبات جمركية ناشىء عن مئاتي البضائع بين بضاعة مستعمرة وبضاعة بلاد تحت الحماية ، اذا كان المستقبل يوفر ما وصفته لكم من هذه الميادين الطافحة بالخيرات ؟؟ »

ويقول الاستاذ فرنسيس دلزى فى نهاية مقاله : « عند سماع هذا الخطاب دخل القوم فى سورة وهذيان من الاستبشار والفرح وانه لمس اذ ذاك عن كثب ما هو السر فى غزو الغزاة لأراضى الآخرين ! !

غير اننا عرفنا بذلك برامج الاستعمار الافرنسى التى كانت مخبئة فى طيات القدر وفى ملفات وزارة الخارجية الافرنسية وبقيت مقبورة حتى كشفتها الحماية التى كانت ضربة لازب ؛ لان المغرب فى سنة 1912 — مع مزيد الاسف — لم يكن مهيئاً لتلافيها وليس الأمر كما يعتقد صديقنا الاستاذ الكبير خير الدين الزركلي — أمد الله فى عمره — لما يترجم للمولى عبد الحفيظ فى « أعلامه » القيمة بكونه « استدعى الجيش الاجنبي لحمايته » ، فهل كان له خيار فيما فعل ؟ ما دام المغاربة اذ ذاك كاخواننا العرب أخيراً مشتتين بين مشرق ومغرب ؟ .

والحقيقة هي ان المولى عبد الحفيظ ارتكب أخف الضررين بامضاء حماية كان فى الامكان أن تتبدل باستعمار سافر تدعمه القوة ولا تسنده اتفاقية تمكن المغرب من تمزيقها يوم اشتد عضده بفضل الاجيال التى ترعرعت فى ظل الحماية نفسها وبفضل وجود ملك كان له وعي عظيم بمصلحة بلاده العليا .

الرباط — **عبد الكبير الفهرى الفاسى**

ملاحظة : نقلنا هذه الفقرات من خطاب زعيم الاستعمار فى وقته عن مقال مطول فى الموضوع بقلم الصحافي والكاتب السياسي فرنسيس دوليزي F. Delaisi نشر فى سنة 1936 فى مجلة لوكرابيو الافريقية Le Crapouillot وهي معروفة بعدم ولائها للوضع فى فرنسا بسبب تفاقم الاحتكارات الاستعمارية وهذا الكاتب هو مؤلف كتاب يثبت فيه ان الدمقراطية اسم بلا مسمى وان راس المال هو الذي يدير دفتها وعنوانه : La Démocratie et la Finance نشر سنة 1911 وهو فى خزانتي .
ع. هـ. ف.

قصص للأطفال
من المغرب

غادة السمان

من منا لا يحب أن يشاهد قطاً يراقص « أميرة الفئران » ويضمها الى صدره فى عناق ودى ، دون أن تغلبه شهوة الافتراس المشتركة بين البشر وبقية كائنات الطبيعة ؟

ومن منا لا يثيره منظر حمل وذئب يتسامران ويلهوان فى حفل كونى شيق ؟

انك مدعو لحضور هذا المهرجان الذى يحلم به الأطفال والفلاسفة على السواء .

بطاقتك اليه ، هى كتاب « عندلة » للأديب المغربى محمد الصباغ .

« عنـــدلة » و « بسمة » ، اسمان جميـــلان ، لابنـــتى المؤلف ، واسمان لجهد فنى جاد فى حقل كتب الأطفال .

فالى جانب « عندلـــة » ، أصدر محمد الصباغ سلسلة قصصية هى « مجموعة قصص بسمة للأطفال » ، صدر منها حتى الآن ، تسعة كتيبات هى : نشيـــد مدرسى ــ العـــش ــ على مائدة الطعام ــ مونااليزا ــ السمكة المسحورة ــ أصوات ــ الصياد ــ عنكبوتة ــ مخلوق .

ومحمد الصباغ ، أديب مغربى كبير ، منح جائزة الدولة فى الآداب عـــام 1970 ، ولـــه عشرة كتب مطبوعة وأكثر من مخطوطة ، كتبها كلها للكبار ، قبل أن يبدأ بالمهمة الأكثر صعوبة : الكتابة للصغار ، وكأنه بذلك يؤكد صدق « بيكـــاسو » الذى شاهد معرضاً لرسوم الأطفال وعلق عليه بقوله : « حينما كنت فى سنهم كنت أرسم مثلما يرسم « رفاييل » ، واحتجت لحياة كاملة لأتعلم الرسم مثلهم ! »

ومحمد الصباغ ، يكتب للأطفـــال بعين الفنـــان الطفلة ، التى تكسر المفاهيم العتـــيقة المكرسة لرمـــوز الخير والشر ، أو الجمال والبشاعة .

ففى قصة « موناليزا » ، نجده يتخذ من ابرة النحلة أداة خير ، وابرة تخيط بها « بسمة » يوم العيد ، محطماً بذلك تصورنا التقليدى لابرة النحلة كأداة لاسعة . وفى قصة « عنكبوتة » ، لا نجده يتبنى نظرتنا التقليدية الى العنكبوت كحيوان يثير الخوف والتقزز ، بل يعلم الأطفال هدم العين المتوارثة ، ورؤية العنكبوت كما هو : كائن يصنع الحرير ، ويبنى بيته كبقية مخلوقات الطبيعة الكادحة .

* * *

وأهم ما يميز هذه السلسلة المغربية لقصص الأطفال ، هو تحطيمها لكثير من (روتينيات) قصص الأطفال العربية ، وتقاليدها الرتيبة ، والتى تربى ذهن الطفل فى مناخ صدىء وضيق ومحدود الأفق .

لكن محمد الصباغ ، المبدع فى قصصه للكبار ، استطاع أيضاً أن يكون مبدعاً فى مهمته الأكثر صعوبة : هى قصص الصغار . واستطاع أن ينجو من منزلق التكرار ، والمذهبية الرتيبة ، والصور الكئيبة المجترة للعالم .

ففى « عندلة » ، يذكرنا بلمحات من قصص الكبار — الصغار ، أمثال « الأمير الصغير » لانطوان دى سانت اكزوبرى ، و « جوناثان » ليفينغستون النورس ، تأليف باخ ،

و « جينى » لبــول غاليكو ، وغيرها من هذا النــوع الطفولى العميق من قصص الانسانية . و « عندلة » ، هى أيضاً ملحمة أبوية شعرية شفافة ، تنزف حباً كونياً ، وتضىء بدعوتها الى الفرح والسلام : (عيد ميلاد « عندلة » مثلا ، هو عيد محبة على مستوى الكائنات كلها . وها هى تحتفل بــه مــع القطط والعصافير والنحل والفئران والأرانب والذئاب) .

« نشيــد مــدرسى » هو أول درس يجب أن يتعلمــه الطفل : فلسطين . . . والصباغ يعلمه للطفل بسلاسة محببة .

وفى قصة « العش » ، تقص الطفلة « بسمــة » شعرها الطويل ، وتمنحه للعصفور كى يبنى به عشاً . انها صورة بديعة تعلم الطفل أولى خطواته فى درب الانفتاح على الكون والتواصل مع الوجود ، وأولى حروف أبجدية الوعى بوحدانية الوجود .

واذا كانت احــدى قصص غى دى موباسان الشهيرة ، تطرح قضية التواصل بين امرأة ورجل عبر ضفيرة مقصوصة : (تقص شعرها لتشترى بثمنه هدية لزوجها) ، فان الصبــاغ يرسم ـ عبر الضفيرة المقصوصة ذاتها ـ العلاقة التى يجب أن تنمــو بين الانسان والكون العظيم الشاسع ، ومخلوقاته المدهشة بكل ما فيها ، مفترسها وأليفها ، والانسان من بعضها .

فى قصته : (على مائدة الطعام) ، يعلم الطفل اطـــلاق العنان لخياله ضمن رسوم منديل طاولة الطعام ، ومن رسوم الصحن التى تبعث حيـــة ينطلـــق بالقارىء الى عـــالم رحب ، ويتعلم الطفل مبادىء الحياة الاولى : الكفاح من أجل العيش .

ويتم ذلك دونما وعظ ولا تقريرية . وانما من خلال نملة تكافح من أجل قوتها ، ولا نرى عند محمد الصبـــاغ الصورة التقليدية للنملة التى تحمل بفمها حبة قمح أكبر منها . والنملة التى نراها عنده ، تكافح ضد قطرة مطر !

* * *

فى هـــذه اللمسات الصغيرة ، تتجلى شفافيـــة الصبـــاغ وخياله المبتكر . وها هو يكسر صورة النملة التقليدية الحاملة لحبة القمح ، ويستبدلها بصورة أكثر شفافية وايحاء : النملة تكافح داخل قطرة ماء ، هي بالنسبة اليها كالطوفان بالنسبـــة الـــيـــنـــا .

أما قصة « موناليزا » ، فهى تثقيـــف للطفـــل فى مكتبة الفن الشاسعة ، ودرس غير مباشر فى زرع الحـــس القومى ، وحب اللغة العربية للأطفال . والموناليزا الغامضة الابتسامة ، لا تبتسم بوضوح وصراحة ، الا حينما تسمع الطفلة « بسمة »

تنطلق بلغة بلادها . فى القصة أيضاً صورة حلوة للعيد ، فقد استبدل الصباغ رمز « بابا نويل » التقليدى للعيد ــ والذى لم يعد أحد من الصغار يصدقه ــ برمز جديد ، هو النجمة التى يجدها الطفل تحت وسادته صبيحة العيد .

وحكاية « السمكة المسحورة » ، تفتح عيون الأطفال البريئة على مفهوم الحرية بكل بساطة . ولعل أهم ما يميز هذه المجموعة القصصية التى أنجزها الصباغ عن مثيلاتها فى العربية، هو تلك الروح الكونية المبدعة التى تشع منها ، وتوحى بعلائق جديدة بين الانسان ، وذاته ، وما حوله .

ففى « السمكة المسحورة » ، و « الصياد » ، نجده يقف ضد صيد العصافير ، وضد استعمال الأسماك للزينة ، أى ضد « استخدام » كائنات الطبيعة كوسيلة للسادية المدعوة (بالصيد) . والطفل الذى يتعلم رؤية السمكة والعصفور بعين لا توسخها بعض المفاهيم الاجتماعية الهدامة والظالمة ، يتعلم حين يكبر تطبيق ذلك على كل ما يواجهه ، ويتعلم اعادة النظر فى كل ما يواجهه ، وتسليط (فيلتر) العقل على كل المفاهيم العتيقة والمكرسات المحنطة التى اعتدنا أن نورثها الى أطفالنا عبر ميكانيكية العادة . وطريقة الصباغ فى الكتابة ، تنمى لدى

الأطفال حسهم الطبيعى فى رؤية كل شىء بعين جديدة ، وهذا أمر هام وخطير بالنسبة للأجيال الطالعة ، اذ ما جدوى أن تكون الأجيال القادمة مجرد نسخ مكررة عن أخطائنا ؟

أما قصة « أصوات » ، فهى النسخة المغربية عن قصة « ليلى والذئب » القديمة ، بمعنى أن كلا من القصتين درس فى ضرورة أداء الواجب واتباع (الطريق القويم) .

ولكن قصة الصباغ ، رغم محافظتها على مناخ (الحكاية المسحورة ـ الفيرى تيل) ، تناسب روح عصرنا أكثر من قصة « ليلى والذئب » ، التى تلعب فيها الأم دور « السلطة » المفروضة على ارادة الطفل من الخارج ، أى أنها بنظر روح الجيل الجديد « سلطة قمعية » . أما فى « أصوات » ، فنجد الطفلة « بسمة » تكتشف بنفسها الأفضل دونما توجيه قمعى مباشر تمجه روح عصرنا .

ان صوت الواجب كما يبرزه الصباغ ، هو جزء داخلى من هواجسنا ووجودنا ، وأداؤه واجب تجاه أنفسنا كى نستريح نحن من الداخل ، لا كى ننفذ وصايا الأمهات والأوصياء والمؤسسات .

ولا يمكن الحديث عن هذه السلسلة الجميلة الصادرة عن « دار الكتاب اللبنانى » ببيروت ، دون التنويه بجمال طباعتها التى تقربها الى قلب الطفل ، وبفضل الفنانة منيرة الزيـــن فى ذلك ، فقد قدمت لكل صفحة لوحات متقنة مبدعة فى تصويرها لمنـــاخ الحكايــا . ولعل أروعها تلك الصـــورة فى أوساط كتاب « مونا ليزا » حيث يقول النص : « امتـــلأ البيـــت بالفرحة . الابتسامات فى كل مكان » . وقد رسمت الفنانة المقـــاعد على شكل وجوه تبتسم ، وكذلك الطاولات وثنيات الستائر الحنون مثـــل ابتسامة خارقـــة .

* * *

وبعـــد ،

هذا جهد مغربى جاد فى حقل كتب الأطفال ، الذى تفتقر اليه مكتبتنا المشرقية والمغربية على السواء .

وفى اعلان مجلة « المناهل » (*) الأدبية المغربية ، عن اصدار ملحق شهرى « مناهل الأطفال » ، مشتملا على قصص

(*) لـــم تطلع الكاتبة على العدد الأول من « مناهل الاطفال » الذى اصدرته وزارة الدولة المكلفـــة بالشؤون الثقافية ، الا بعد مرور مدة طويلة من صدوره . (المنـــاهل)

مترجمة من الأدب العــربى وقصص موضوعة ، وأناشيــد ، ومسرح الاطفال ، الى آخره ، ما يطمئن الى أن خطوة محمد الصباغ ليست محاولة مقطوعة من الاستمرار ، بــل هى جزء من سياسة مغربية ثقافية مدروسة فى حقل انماء مكتبة الطفل العربى ، سيكون لها أثرها الكبير على الأجيال العربية الطالعة . والأمل كبير فى أن تحرض تلك الخطوة موجــة كبيرة عربيــة شاملة وتعم فى أقطارنا العربية كلها .

بــيروت **غــادة السمان**

حول جائزة نوبل

د. رشدي فكار

تــأسيس جوائــز نوبــل :

الفرد نوبل مؤسس هذه الجوائز التى تحمل اسمه ، هو عالم كيمائى ورجل صناعة سويدى . ولد سنة 1833 باستكهولم (السويد) وتوفى فى سان ريمو (ايطاليا) سنة 1896 ، واليه يعود الفضل فى استعمــــال ((النتروجلسرين)) كمفرقعات ، هذه المادة ذات الحساسية البالغة ، والتى يصعب استئناسها باستعمالها صافية ، استطاع نوبل سنة 1867 أن يخفف من حساسيتها باضافة ((الامورف)) اليها ، وسجل بذلــك اكتشافا علميا هاما ، ولكن قبل أن يصل الى هذا الاكتشاف أجـــرى تجارب عديدة أدت الى حدوث الانفجار المشهور الذى دمر معمله سنة 1864 . كما يعود اليه الفضل أيضا فى اختراع ((الديناميت)) سنة 1866 والذى عم استعماله العالم بعد ذلك .. وفى أواخر أيامه نقل معمله الــى باريس ثم الى سان ريمو بايطاليا سنة 1891. ولقد وضع مشروع جوائزه سنة 1895 فى وصيته التى فضت حين موته سنة 1896 وفيها أوصى بكــل تركته الواسعة لتكون أساسا لهذه الجوائز من مدخول رأس مـــال فى البداية قدره 40 مليون كورون سويدى . هذا المدخول يوزع بالتساوى بين الفائزين بهذه الجوائز وعددها خمس وهى على التوالى : جائـــزة

الفيزياء ـ جائزة الكيمياء ـ جائزة الفيزيولوجيا أو الطب ـ جائـــزة الآداب ـ جائزة السلام . ولقد أضيف بأمر من ملك السويد الى هـــذه الجوائز فى السنوات الاخيرة ((جائزة فى العلوم الاقتصادية)) . وحسب رغبة الفرد نوبل الصريحة فى وصيته لا تمنح هذه الجوائز الا لمن أفادوا الانسانية من كبار علمائها ، وأدبائها وقادتها ...

الهيئات الاكاديمية المسؤولة عن منح الجوائز تحـــت أشـــراف مـــؤسســـة نوبـــل :

ولكى تمنح الجوائز بطريقة موضوعية ، وبناء على أهليـــة حقـــه وكفاءة رصينة . أنشئت ((مؤسسة نوبل)) برعاية ملك السويد ، هذه المؤسسة بدورها لا تعطى لهيئة أكاديمية واحدة حق تقرير مصير منح الجوائز ، وانما وزعت ذلك على هيئات متعددة كل هيئة حسب اختصاصها ((الاكاديمية الملكية للعلوم)) باستوكهولم والتى كانت حين تأسيسها تضم ستة أعضاء فقط ، ثم تجاوز عدد اعضائها بعد ذلك 100 عضوا مقيمـــا سويديا ونرويجيا ، 75 عضوا مشاركا ، وهى مقسمة الى 19 دائرة .
ورفعا للالتباس هى غير ((الاكاديمية الملكية العلوم)) باوبسلا ، المؤسسة فى سنة 1710 واعترف بها رسميا فى 1728 وتشتمل على فروع فى الآداب واللسانيات والآثـــار ، ولكن لا علاقة لها بجوائز نوبـــل ... أما الهيئـــة الاكاديمية المسؤولة عن جائزة الفيزيولوجيا أو الطب (وهى جائزة واحدة تمنح اما فى الطب أو فى الفيزيولوجيا) فهى تتمثل فى ((معهد كارولـــين)) الذى يتمتع بشهرة عالمية واسعة . وبالنسبة لجائزة الآداب ، فالهيئة الاكاديمية المسؤولة عنها هى ((الاكاديمية السويدية)) المؤسسة فى سنة 1786 بفضل الملك جوستاف الثالث (على طراز الاكاديمية الفرنسية التى تعتبر الأم لكل الاكاديميات الفرنسية ـ مجامع الخالدين ـ والتى لنا شـــرف الانتساب كعضو مشارك فى احداها منذ سنة 1973) وكان الهدف من تأسيسها أن تسهر على تطوير وضبط اللغة السويدية ، وتحديد معانـــى التعبيرات ، وعدداعضائها 18 عضوا . ورفعا للالتباس أيضا هى غير (الاكاديمية الملكية للآداب والتاريخ)) الذى أسسها نفس الملك فى نفس

السنة ، وهذه الأخيرة لا علاقة لها بجائزة نوبل فى الآداب ، أما جائـزة السلام فالمسؤول عنها لجنة نرويجية تحمل اسـم ((لجنـة ستورتنـج)) البرلمانية حسب وصية نوبل . وفى سنة 1901 منحت الجوائز الخمـس لأول مرة لكل من : العالم الالمانى ((رونتجن)) فى الفيزياء ، والعالـم الهولندى ((فانت هوف)) فى الكيمياء ، والعالم الالمانى ((فون بيهرنج)) فى الفيزيولوجيا والطب . أما جائزة الآداب ، فكانت من نصيب الأديـب الفرنسى ((سولى برودوم)) ، وجائزة السلام من نصيب داعى السلام والمحسن الانسانى السويسرى ((هنرى دينان)) مؤسس منظمة الصليب الاحمر الدولية . وكما ذكرنا أضيفت أخيراً الى هذه الجوائز الخمس ، جائزة سادسة تمنح فى ((العلوم الاقتصادية)) وكان من أوائـل الحاصليـن عليها سنة 1969 العالم الاقتصادى الهولندى ((تنبيرجن)) ...

اجراءات الترشيح وشروطه ومراحله :

ولكن من يرشح لجائزة نوبل ؟ لقد التبس لدى البعض بين من يمهد للترشيح ، ومن يرشح ، ومن يزكى الترشيح ، ومن يتحكم اليه ويقـرره ؟ اما التمهيد للترشيح فينطلق أساسا (باستثناء جائزة السلام وهى شرفية لا علمية) من تقييم علمى أو أدبى تمهيدى للجان القراءات فى مؤسسة نوبل ومكتبتها تأكيدا لمبدأ الموضوعية ، وبعد أن يتـم التعرف مـن قبـل الممثلين الاكاديميين فى السويد على الانتاج لمن يراد ترشيحه تأتى مرحلة الترشيح ، وعلى عكس ما يتبادر الى الذهن لا يرشح الأشخاص أنفسهم للجائزة ، وانما هناك هيئات محددة لها حق الترشيح ، وهيئات أخـرى تزكية . أما الهيئات المرشحة فتتكون من 15 عضـواً من الأكاديميـات السويدية المختلفة ، مختارين على الشكل التالى : 6 أعضاء من الاكاديمية الملكية للعلوم ، 9 أعضاء من معهد كارولين والأكاديمية السويدية ، كما أن أعضاء لجنة الفيزياء والكيمياء فى مؤسسة نوبل لهم الحق فى تقديـم مرشحين بجائزة الفيزياء أو الكيمياء ، ولكل من حصل على جائزة نوبل من قبل الحق فى تقديم ترشيح ، كذلك يمكن لكبار العلماء فى الفيزياء والكيمياء بجامعة أبو سالا، وأسلوا، وكوبنهاجن أنيقترحوا أسماء مرشحين. وبعد ادراج اسم المرشح فى القوائم تأتى مرحلة تزكية الترشيح من قبل هيئات وأكاديميات

ومؤسسات علمية أو أدبية عالمية ، لتدعيم الترشيح ، كما يمكن لمؤسسة نوبل أن تستنير أو تستفسر من آن لآخر ، فتطلب من مؤسسات علمية ، أو أكاديميات أو هيئات ثقافية ، موافاتها باسماء من تتوسم فيهم الصلاحية لقراءة انتاجهم من قبل اللجان المختصة فى القراءة بمؤسسة نوبل ، لدراسة امكانية ادراج اسمهم فى القوائم التمهيدية أو عدم ادراجهم واستبعادهم.

والتقدم للترشيح ، يتم كتابة من قبل الهيئات المختصة السالفة الذكر، أو من الشخصيات الحاصلة على جائزة نوبل وتريد تقديم مرشح ما . ويكون ذلك قبل تاريخ منح الجوائز باثنى عشر شهرا ، وآخر تاريخ للتقدم بالترشيح، هو نهاية شهر فبراير من السنة الخاصة بالجائزة . وتقديم طلب الترشيح يكون أساسا بالاسكندنافية ويمكن استعمال الفرنسية ، أو الانجيزية ، أو الالمانية أو اللاتينية .. ثم تأتى بعد ذلك مرحلة اجتماع لجان التحكيم والتقرير ، وهى لجان أكاديمية كما أشرنا باستثناء (جائزة السلام) ويكـون اجتماعها يوم وفاة نوبل وهو يوم 10 ديسمبر من كل سنة ، وكل لجنة تتكون من 3 الى 4 أعضاء وهى لجان منبثقة من ((الاكاديمية الملكية للعلوم)) بالنسبة لجائزة الفيزياء وجائزة الكيمياء ، ومن ((معهد كارولين)) بالنسبة لجائزة الطب أو الفيزيولوجيا ، ومن ((الاكاديمية السويدية)) بالنسبة لجائزة الآداب ، الى جانب لجنة جائزة العلوم الاقتصادية الحديثة التكوين فى مؤسسة نوبل ، هذه المؤسسة التى تشرف تحت رعاية ملك السويد على هذه اللجان ، ولها مدير ورئيس يعينهما الملك .

وأما اللجنة المقررة لجائزة السلام الشرفية ، فهى لجنة ((نرويجية برلمانية)) كما هو معروف . وكثيرا ما يظل مرشحا أعواما طويلة فى سجل الترشيح قبل أن تقرر لجان التحكيم منحه الجائزة ، وتلعب التزكيات العلمية دورا فى تفضيل مرشح على آخر فى كل عام ، خصوصا اذا جاءت هذه التزكية من أكاديميات عالمية أو مؤسسات ثقافية دولية ، أو هيئات علمية معترف برصانتها وجديتها. وقليلا ما يستبعد اسم مرشح نهائيا بعد ادارجه فى القوائم ، وانما عليه أن ينتظر ويضاعف انتاجه الفكرى ، وقد وصل الانتظار بالبعض خمسة عشر عاما ، وفى النهاية منح الجائزة . وبالنسبة لجائزة السلام يمكن أيضا أن ترشح لها هيئات دولية ((كمحكمة العدل الدولية)) أو جمعيات مدنية ، أو مؤسسات انسانية ، ولا يخضع الترشيح

لمقاييس علمية او ادبية ، وانما لمقاييس انسانية تتمثل فى تدعيم السلام والوفاق الدولى . اما بالنسبة للجان التحكيم الأخرى الخاصة بالجوائز العلمية الخمس فيمكنها أن تلجأ لخبير دولى أو عالمى مختص للاستنارة برأيه فى المداولة كما تلجأ لمن حصلوا على جائزة نوبل من قبل للاستنارة بآراءهم اذا اقتضى الأمر . وقد يحتفظ بجائزة ما ، فى حالة عدم توفر المستوى المطلوب لدى من تقدموا لها . كما أن المبلغ المرفوض استلامه من فائز بالجائزة تستعيده المؤسسة ولا يرد بعد ذلك (حالة جان بول سارتر الآن رفض فى البداية ، ولكن امام متاعبه المالية حاليا طلبها) وتوزع الجوائز فى مدينة استكهولم ، تحت رئاسة ملك السويد الفعلية لاصحابها ، فى حفل يقام لهذا الغرض اما جائزة السلام فتمنح فى أوسلو . ولجان التحكيم قراراتها لا نقض ، ولا رجعة فيها ، كما أن مداولاتها لا تنشر بتاتا.

كيف يلج الادباء والعلماء العرب أبواب جوائز نوبل وغيرها ..

لقد كثر التساءل فى السنوات الأخيرة عن سر عدم منح أدباء أو علماء عرب هذه الجوائز . فمن قائل بالخلفيات الصهيونية او العنصرية بصفة عامة ، ومن قائل بالعكس ، وهو عدم ارتقاء الفكر العربى أدبا وعلما الى مستوى عالمى يسمح له بالتصدى لهذه الجوائز . وحسب تجربتنا الملموسة فى عين المكان واحتكاكنا ببعض الأوساط العلمية الاسكندنافية فى اطار مساهمتنا من خلال دراساتنا المتنوعة بالفرنسية للتعريف باشعاع الفكر الانسانى (بصفة خاصة السانسمونى منه) ليس فى الغرب فقط وانما فى العالم أجمع ، باتصالنا كذلك برواد الاصلاح الاجتماعى الاول فى عصرنا الحديث باسكندنافيا ايضا ومدى تأثرهم بهذا الفكر الانسانى وتأثيرهم فيه أمثال: المفكر الكبير « نيلس نلسن » (1886 — 1808) والمفكر النرويجى هنريك فيرجيلاند » (1845 — 1808) وخصوصا المفكر العالمى السويدى أوجست استرنبرج (1912 — 1849) الذى أنشئت له جمعية تحمل اسمه والتى أتشرف بعضويتها ، الى جانب من قاموا بأبحاث عن هذا المفكر من العلماء الاسكندناف وغيرهم . وتسهر هذه الجمعية على تراثه المتعدد الجوانب من مسرحيات وقصص ودراسات تاريخية واجتماعية

ودولية .. نعم يمكننا فى ضوء هذا الاحتكاك المباشر بالحياة الفكرية الاسكندنافية ، وبناء على تجربتنا الشخصية أن نستبعد ضمنيا وبالضرورة القول الأول ، والثانى على حد سواء . أما بالنسبة للقول الاول الخاص بوجود خلفيات ، فمع اننا لا ننفى كما هو الحال فى كل المؤسسات العلمية العالمية لمس تيارات خفية مقنعة تضع الحواجز امامنا ، ولكن هذه التيارات لا تصل الى تحقيق اهدافها الا اذا وجدت الأرضية الصالحة والجو المناسب الممثلين فى غيبة المواجهة ، فما كان لهذه التيارات ان تعمل بنجاح فى جو نحن فيه حاضرون ، ومن ثم وجود الانتماء العربى ادبا وعلما وحضوره من خلال مفكريه هو خير ضمان لشل تيارات الاعاقة له، وهنا نصل الى القول الثانى الذى يعزى غيبة المفكر العربى نتيجة لعدم ارتقائه الى المستوى العالمى ، فنؤكد أنه قول مردود فأمتنا العربية حاليا تزخر بالكفاءات أدبا وعلما ، والقدرات الخلاقة والمبتكرة الأصيلة وان كنا شخصيا حققنا لذاتنا العربية انتسابا نسبيا ، ومحدودا للفكر العالمى ، نتيجة لكتابتنا بلغة اجنبية عن اشعاعه الانسانى فما نعتقد قطعا اننا أولى من غيرنا بذلك الانتساب ، فالعالم العربى فى مشرقه ومغربه يعج بالعقول الجديرة بالشهرة العالمية ، والمتجاوزة لنا كما وكيفا ، وكفاءة وقدرة واصالة ...

فالمسالة اذن بالنسبة لنا مجرد مسالة حضور واثبات ذات فى اللقاءات العالمية ، وبالأبحاث والدراسات والمؤلفات والانتماء للاكاديميات العلمية ، والتخصص فى اشعاع الفكر الانسانى . فان كنا اقنعنا الاسكندنافيين باننا قادرين على البحث فى جوهر تراثهم وعن كبار مفكريهم ، فيمكن لاى عربى ان يقوم بهذا المجهود ان اراد ، وهىء له ذلك . ومن ثم علينا أن لا نجعل قدراتنا حبيسة فى عقر الدار وانما نشارك ونعرف منخلالنا بفكرنا وبمفكرينا وأدبائنا ، ولا نكتفى بترجمات فردية أو تجارية ، وانما نكتب فى المجلات العلمية والادبية العالمية عن مفكرينا ، وادبائنا ، ونشيد باصالتهم وعطائهم الانسانى لغة ، وفكرا ، وعلما ، وادبا ، فما اكثر الانتاج الذى ترجم من لغته الأم وبشغف وطلب، نتيجة لمثل هذا التعريف باصحابه اولا، فكان ترحيب دور النشر الدولية والمكتبات العالمية به . اما الانتاج الذى يترجم ليفرض شخصية مجهولة لم يعرف بها اولا فعادة يظل محاولة منعزله منها واليها ، لا اكثر ولا اقل .

لنعمل آذن على استئناس مفكرينا وعلمائنا وادبائنا فى محيط الثقافة العالمية ، ثم على أقطارنا العربية الفنية أن تقترح المساهمة من جانبها ماديا فى تشجيع الجوائز العالمية ولم لا ! مثلا بالنسبة ((لجوائز نوبل)) أن تكون هناك جائزة سابعة باسم جائزة الفن أو الفنون الجميلة قديما وحديثا ، حيث آن هناك محاولات لتوسيع جوائز نوبل وتعددها واضافة جائزة للفنون فتكون هذه الجائزة وسيلة لأولوية التعريف بتراثنا الفنى المعمارى مثلا عالميا ، وفتح المجال للتكامل مع الفكر العالمى ، وعلى ارقى المستويات حيث أن هناك تطلع حقيقى كما لمسنا ذلك فى اللقاءات الدولية للتعرف على حضارتنا وفنوننا المعمارية والجمالية بعد ازدياد أهمية دورنا الاقتصادى عالميا .

وهذا مجرد مثال .. كذلك يمكن ان نتقدم بنفس الاقتراح ، الى الدول التى تكن لنا صداقة حقيقية الآن كفرنسا ، كى تضيف مقاعد فى اكاديمياتها (مجامع الخالدين) الأدبية ، والعلمية ، والفنية، عن الحضارات العربية الاسلامية ، وتساهم الدول العربية الفنية بتغطية التكاليف المادية، خصوصا وان فرنسا تسير حاليا فى اتجاه تشجيع دراسة حضارتنا فى مؤسساتها التعليمية والثقافية بصفة عامة . علينا ان نسعى جاهدين بعد أن فرضنا لغتنا كلغة عالمية رسمية فى بعض المؤسسات الدولية أن نفرضها على الاوساط الفكرية والعلمية ، وهذا لا يتم الا بجهود ابنائها وعملهم الدائب والدائم ، على اقتحام سياج التجاهل لنا فى المؤسسات العلمية العالمية . آن تطلعنا لمشروع ، ولنا كامل الحق والحرية فى تحقيقه . على مفكرينا علماء وأدباء أن يندفعوا باصرار الى المحيط العالمى عبر قنوات مؤلفاتهم وأبحاثهم كما يندفع بترول أمتنا وخيراتها عبر ناقلاته الى هذا المحيط ، فلا نكتفى بتغذية المصانع بالطاقة الأولية ، وانما نغذى العقول فى كل مكان لنقنعها اننا لسنا بحراس ثروات استهلاكية كما خيل لهم ، وانما ملاك عبقرية اصيلة راسخة يشهد لها التاريخ ، ويبرر بحتمية مسيرته امكانية وراثتها لحضارة الغد ، أو على الاقل تاهلها للمشاركة فى هذا الميراث .

الربـاط　　　　　　　　　　　　　　　د . رشدى فكار

الأندلس

مخطوطة عربية نادرة *

محمد الصباغ

بين ثلاثة حروف من رمـــل ، تعيـــش الأندلس :

تنام ، تحلم ، تتعرى ، ترقص ، تنزو ، تهجس ، تبدع ، تبوح ، ترسم فى جدران العالم ألوان البحار والمحار المستحيلة ، توزع امتشاق « الخيرالدا » هبوباً مائساً ميـــاداً على مروحة الأبعاد ، تقفى رقرقات « الوادى الكبير » بـــلا بـــل وعصافير نبحر بها الى آخر شروق ، تفسخ حزام وأزرار نقشة ورنـــة « غرناطة » ، فتتدفق الدهشة الحمراء ضوء كون موار .

* * *

(*) خـــاطـــرات اســـتوحاه الـــكاتـــب مـــن الـــنـــدوة التي نظمها المركز الاسباني ــ العربي بمدريد (27/24 من فبراير) الماضي ، حول موضوع « الانسية الاسبانية فى العالم العربي » ، حيث شارك فيها ممثلا لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

ع ــ ر ــ ب :

من رمال هذه الحروف ونخيلها تنهض اسبانيا ــ الفتــاة الأندلسية من نومها فى كل صباح ، فتــشرق طاووس شمــس يفتح ألوان غلالة فسيفسائه فى السماء :

قباباً ، وقصوراً ، ومنتزهات ، ومشارف ، وملاعب دفع وفتح ، ومجد عمامة ، وعقال قيس ، وعباءة نهج بلاغة .

تنهض ، فينهض معها بستان تأريخ ، فى حفلــة فكــر ، وفــن ، وغــضـــــارة :

براعات تنبجس من خلجة رملة ، وشق تمــرة ، ورنــة دملج سمراء ، هى خلاصة حضارة مسطورة بريشة عــرار ، فى مخطوطة عربية لا أنــدر ولا أعجب ! محفوظة ، مضمورة ، مبهمــة ، فى سر المكتبات الاسبانيــة ، لا سبيــل الى بهجــة نسخها ، أو حفظها ، أو قراءتها ، أو محاكاتها ، أو طبعها .

مخطوطة وترية لو عثر على نــدرة أسرارها ، ومفــاتن سحرها ، ونزهة مكنوناتها ، لتناقل العالم طبعاتها على أشفار البــرق ، ولتغير ازميل الحجر فى مهابط فنــه برؤيــة رخامية ناعمة ــ لا عهد له بها ــ تلين معها صلابــة الصــوان العنيــد وقساوته ، موجة حريــر .

لون جديد يضيف الى ألوانـــه المعهودة وشياً ميسماً فى زخارف عليائه ، وابداعاً سندسياً سلسبيلا ، ينثر القشعريرة العربية ويطرزها فى مدى رحابه :

فقصائده بوشمة قافية ، تزيده معنى .

وطربـــه الأرغنى ، يتغـــنى بآهـــات ومـــدات ربـــابـــة « مزربيـــة » منهومـــة .

خلاصة مدنية مكنونة فى طيات هذه المخطوطة الأندلسية الساحرة المسحورة .

بجوار هذه المخطوطة ، ومن هواجس موحياتها ، انبثـــق شيوخ الأزرق ، والأحمر ، والمعرض ، والريشـــة الطروب — أولئك الذين مزقوا نزواتها مزقاً ، وسحيق فتـــون ، فاعتمروا الشموخ بعدما زخرفوا الكون بألوانهم ، وأغانيهم ، وقوافيهم ، عمر نهضة أندلسية بيضاء .

* * *

بين ثلاثة حروف من رمل ، تعيش الأندلس :

أنزع غطاء حاضرها ، فتفيض على مهجة العرب ، ذوب أزمنة جواهر .

كالموزة ، أقشرها ، فتنتــتصب « الخيرالــدا » أمامى ، صاعدة من كل مسام الأندلس .

هذه « الخيرالــدا » ـ « الفاطمــة » ـ « الموحــدية » المغامرة ، التى سافرت ـ من هدهــدة الهــودج المراكشى الى معراج الفضاء الاشبيلى ـ فى خيــط سمو ، وحيــدة ، بدون زاد ، ولا جواز ، ولا حقائب ، وبنية التنسك الدائم فى الغربة المنتصبــة الفــارعة .

هذه « الخيرالــدا » (*) ـ السبابة التى تختصر جميــع الاشارات ، والالتفاتات العربية ، تصعــد الى سماء السماء ، الى الله ، حاملة على رأسها هواتف مجد عمامة .

الربــاط **محمد الصباغ**

(*) « أريــد ان أراك عربــيــة » :
بيت من قصيدة للشاعر الاسباني الكبير المعاصر ، « خيراردو دييكو »، بعنوان « الخيرالدا » .

قصة

بريجيت

قاسم الزهيري

ـ عائشة . . عائشة . . أين أنت ؟

ـ ها أنا يا سيدتى . . صباح الخير .

ـ صباح الخير . . متى سترتبين قاعة الاستقبال ؟ لقد مضى نصف النهار . . بعد قليـــل يحضر سيدك والأصدقاء . . كل شىء لا زال على حالـــه . أين فاطمة ولحسن ؟ . . هيـــا أفتحى النوافذ للتهوية . رتبى القاعة ثم أحضرى المشروبات .

ـ كنا نغسل الأوانى . . فاطمـــة مشغولة الآن بتحضير الغداء . لم تبق الا القاعة . كل شىء يكون جاهزاً بعد قليـــل يـــا سيـــدتى .

ــ أسرعى . . أنا كذلك تأخرت فى النوم . . سأدخل الحمام وأصلح من حالى ريثما تنتهين .

دخلت الحمام وهى تعيد النظر الى ساعتها ، بينما أسرعت الخادمة الى ترتيب القاعة . كانت بريجيت ــ هكذا يسميها الأصدقاء والصديقات ــ ربة البيت . استيقظت بعينين مهججتين ، وشعر أشعث ، وخدين اختلطت فيهما المساحيق بحمرة الشفاه ، وفم جاف بعد سهرة الليلة المنصرمة .

الساعة الحادية عشرة . والبيت غريق فى السكون على نقيض ما حوله من حركة وصخب فى هذه الساحة من شارع المقاومة بالدار البيضاء . لا تسمع فى هذه « الفيلا » الجميلة الا صوت الخادمات يغسلن الأوانى ويرتبن الحجرات ويتنادين حيناً بعد حين بصوت خافت لئلا يزعجن سيدة البيت .

بعد اجتياز الحديقة وتخطى المدخل تجد نفسك فى بهو أشبه ما يكون بحان . . يعبق بروائح الخمور المشوبة بشذا العطور وبقية رائحة السيغار والدخان الأمريكى . لا تكاد تستبين لأول وهلة شيئا مما حولك ، ثم يعتاد نظرك شيئاً فشيئاً على القاعة الغريقة فى شبه ظلمة تتخللها أشعة تخترق الستائر فتضىء بعض الأثاث .

ها أنت ذا فى ردهة مفروشة بسجادات أعجمية رائعة المثال ، جدرانها مغلفة بورق مرسوم فاتح السمرة ، اذا أمعنت فيه النظر تكشف لك عن ثريات نانئة . تتخلل القاعة من ناحية الطول ثلاث نوافذ كبرى مفتوحة على الحديقة ومكسوة بنوعين من السجوف : بيضاء رقيقة ، تعلوها أخرى سميكة خضراء من قماش رفيع . أثاث الردهة من أرائك وكراس ومقاعد من طراز لويس الخامس عشر ، صفت هنا وهناك ، وروعى فى اختيار لونى قماشها الأخضر اللوزى والاصفر الذهبى امتاع البصر . أمام الأرائك طاولات من الاونيكس قائمة على أرجل من النحاس ، ومناضد عليها علب سجائر من الفضة وقداحات تناسبها . تتخللها هنا وهناك منافض لا زالت ملأى بأعقاب السجاير أكثرها مشوب بأحمر الشفاه . نصبت فى جنبات البهو ثلاث واجهات زجاجية من طراز لويس الخامس عشر كذلك ملئت بتحف وأوان مزخرفة جلبت من شتى الأقطار . تحتل حانة كبرى أحد أركان البهو وتضم جل أنواع المشروبات الروحية ولوازمها . وتحتل ركناً ثانياً آلة تسجيل أشرطة غنائية مع مكبرات للصوت منثورة هنا وهناك . أما السقف فتتدلى منه ثلاث ثريات من البلور الصافى . والجدران علقت عليها لوحتان زيتيتان فاقعة الحمرة لفنان

غفل غامر الذكر . وفى الأركان الاربعة أثبـــتت مشكات تبعث ضوءاً ناعماً حين تطيب السهرة . .

بدت بريجيت أمـــرأة أخرى بعد خروجها من الحمام . ازينت وتعطرت وأرسلت تسريحتها السمراء الداكنة على شكل غلامى ، وارتدت قميصاً وردياً فاتح اللون وسروالا أخضر من القطيفة الممتازة . كان طـــرز القميص الشفاف المفتـــوح على نحرها يبرز نهديـــن ناعمين . أمـــا السروال الملتصق بردفيها فكان يخفى رهالة الجسم وعيوب الساقين ، فتبـــدو فى قوام الشابة . كانت بريجيت نصفاً تقتـــرب من الاربعين . وكانت تخفى سنها وتتحسر كلما وقفت أمام المـــرآة ولاحظت بـــدو التجاعيد فى وجهها والجبين . لطالما حاولت أن تعالـــج التغضن والترهل بالمداومة على الحمية والتدليك ، وتحاول أن تخفيهـــا بالاكثار من الطلاء والمساحيق . لكـــن ، هيهـــات أن يصلـــح الـــعـــطـــار . .

نشأت بريجيت ـــ واسمها الحقيقى فتحيـــة ـــ فى بيـــت كريم متوسط الحال من زقاق الحجر بفاس . أبوها صانـــع ، له دكان مشهور قرب مولاى ادريس يصنع به الأحذية الممتازة فيتخطفها الناس لجودتها . يستخدم نحـــو خمسة أطفـــال ،

أكبرهم لا تتعدى سنه الثامنة عشرة . وقد أنشأ يصنع أيضـــا أحذية للنساء بعد ما أصبحت سوقها رائجة . كان المعلــم ابن سالم يتقن عمله ولا يغــش فى انتقـــاء نوع الجلـــد وانتقـــان التغليف والخياطة . كانت أحذيته من الرقة ودقة الغرز بحيث لا تضاهيها أحذية أخرى . وحسبك أن تراها لتعرف انهـــا من صـــنـــعـــه .

أصبح دكانه مقصوداً من علية الناس . وتعدت شهرتـــه فاس فأضحى السراة من المدن الاخرى يوثرون بضاعته على سواها ، فاتسع رزقه . كان يقضى أوقاته بين الدكان والمسجد والـــبـــيـــت . يـــقـــيـــم هـــــو وأهـــلـــه فى دار متـــواضعـــة مـــع زوجـــتـــه المتحـــجـــبـــة وخـــمـــســـة أولاد ، منهم ثلاثة ذكور . كان سلوك المعلم ابن سالم فى الحياة يتلخص فى الاتكال على الله واسداء المعروف ، ما وجد الى ذلك سبيـــلا ، وكف اللســـان واليـــد عن الأذى واتـــقـــان عمـــله ومراعـــاة اللـــه سراً وعلـــنـــاً .

تقدم كريم لخطبة فتحية بعد عودته من فرنسا حامـــلا شهادة متوسطة فى التجارة . كانت عائلـــتـــه تسكن فى نفـــس الزقاق بجوار أسرة فتحية ، وكان أبوه يحترف صنع الزرابى وتربطه آصرة قوية بالمعلم ابن سالم . عاجلته المنيـــة وخلف

كريم وثلاث بنـــات فى حال ميســـورة . فشمرت أمهم فطومة ـ وكانت حازمة ـ على ذراعيها وسهرت على تربية أبنائهـــا وتعليمهم . أبنى كريم بفتحيـــة وكانت كل الشروط متوفـــرة لسعادة الزوجين ، فهما من نفس البيـــئة ، وقد تعرفـــا منـــذ الطفولة ، وقامت وشائج المودة بين العائلتين . لم تنقطع الصلة بوفاة والد كريم ، بل اعتبر ابن سالم السهـــر على ابن صديقه وبناته من آكد الواجبات . كانوا يدعونه « عمى ابن سالم » ، وكـــان هـــو يحنـــو عليـــهـــم .

قضى كريم ثلاث سنوات بمدينة تولوز بعد انهاء دراسته فى ثانوية مولاى ادريس . ساعدته الاقامة بالخارج على تعميق تفكيره وتوسيع دائرة معارفـــه من الموظفين والأجانب . كان سليم الطوية ، لين العريكة ، مبسوط الكف ، حلـــو المعاشرة . اشتغل فى صفوف جمعيـــة الطلاب بحماس فى تولـــوز . كان مولعاً بتتبع الأحداث ومن أشد المؤمنين بالمثل ومبادىء العدالة والحرية والديمقراطية التى كان يألم لفقدانها ببلاده فى عهـــد الاحتلال . ومع وداعة طبعه ، عرف بانسياقه وتقلباته وسهولة تأثره بالغير ، فلم يكن يقوى على صد التيارات الوافدة بالرغم عـــن احـــســـاســـه بضررهـــا .

بدأ كريم حياته العملية بعد العودة من فرنسا بالاشتغال في القسم التجارى لمصنع آلات فلاحية كان مركـزه الرئيسى بباريس . فدر عليه عمله هذا مـا يكـفى لعيـش ميـسور ، ورفرفت السعادة بألويتها على الزوجين اللذين أنجبـا ثلاثـة أطفال فى ظرف خمس سنوات . ولم يكن يعكر صفو سعادتهما الا مـا كان يجتاح البلاد آنـذاك من اضطرابات سياسية . وصادف ميلاد غزلان ــ وكانت آخـر مواليدهما ــ حصـول الـبـلاد على الاستـقـلال .

دعى كريم من لـدن أحد أصدقائه الذى اصبح مديـراً بوزارة الفلاحة الى الاشراف على احدى مصالح هـذه الوزارة فى الرباط ، فلم يتردد . وكانت به رغبة الى الاسهام فى خدمة بلاده ومساعدة صديقه . تحولت الاسرة كلهـا الى العاصمة ، وكان من السهل السكنى فى احدى المنيـات التى كانت مـأوى كبار موظفى الحماية . فبذل كريم أقصى جهد مستطاع لاداء مهمته على الوجه المرضى ، وكان مثالا للنشاط والابتكار . وجد فى الادارة ، بمختلف فروعها ، أصدقاء عرفهم فى أيام الصبـا والدراسة بفـاس وتولوز . وتعرف الى آخريـن من عليـة الموظفين وأرباب الأعمال . كثيراً ما كان يجتمع بهم هو وفتحية فى ولائم تقام ببيوتهم أو فى بعض المطاعم الشهيرة .

اكتشفت فتحية بيئة جديدة تختلف عن البيئة التى نشأت فيها . كانت من قبل لا تعرف الا الحياة التقليدية الرتيبة فى نطاق أسرة محافظة . لشد ما اندهشت بادىء الأمر . لكن سرعان ما انتفضت وأخذت تبذل كل ما فى الوسع للتكيف كى تصبح فى مستوى البيئة الجديدة . ان المحيط الذى أخذت تتحرك فيه هى وكريم محيط الطبقة الجديدة التى خلفت رجال الادارة الأجنبية . خلفتهم لا فى وظائفهم فقط ، بل وفى نمط معيشتهم مع كثير من المغالاة . ساعد على ذلك السكنى فى احدث المنازل والتمتع بالامتيازات وشتى أنواع الخدمات وتقاضى أعلى المرتبات . وأخذ كثير من علية الموظفين يحاكون الذين سبقوهم فى نمط العيش ، بحيث لا تكاد تفرق بينهم الا ما كان من ازدواجية فى كل شىء : فى الملبس والمأكل والأثاث مع المبالغة فى المباهاة . ومما ضاعف هذا التطور كثرة الأسر المختلطة ، اذ انتظم فى سلك الوظيفة العمومية شباب كثير تزوجوا أثناء فترة الدراسة أو بعدها بأجنبيات .

تقلب كريم فى عدة وظائف وارتقى السلم بسرعة نظراً لفقر البلاد فى الأطر وبسبب المعارف والاصدقاء الذين كانت لهم رتب عالية فى الدولة . وكانت فتحية أهم عامل فى هذا

الارتقاء بما كانت تحرص عليه من شد علية القوم الى بيـتها الذى أصبح نادياً مفتوحاً فى وجههم .

كانت فتحية خفيفة الروح ، حلـوة الحديث ، لا تغـادر الابتسامة شفتيها . تستقبل الزوار بكثير من الحفاوة فتقبلهم على الخدين هاشة باشة وتبذل الغالى والنفيس فى مرضاتهم . كل كلفـة كانت مرفوعة فى بيت كريم ، تعقـد مجالس اللهـو والقصف وتدار الكؤوس مترعة فى جـو من المـرح والغبطة . لم يكن فى هذه المجالس أثر للفكر أو حـظ لمتعـة الروح ، على عكس الخوانات التى كانت تنصب وتشتمل على ما لـذ وطاب من فاخـر الاطعمـة والمشروبات . وكانت الدعابـة والنكت ــ حتى الخليعة منها ــ تطرح وسط القهقهـة ، بيـنما يقضى الجلاس أوقاتهم فى تبادل الشائعات والغيـبة ولعب الأوراق . وكانت فتحية تنتقل بين هذا وذاك فتشيع البهجة بما تقدمه من مشروبات وتبديه من حفاوة فائقـة . حتى اذا تقـدم الليـل وادارت الكأس الرؤوس ، أزيحت الزرابى والأرائك وأطفئت الأنوار الا شموعا ومصابيح خافتة وقام الحاضرون للرقـص تحت أنغام ناعمة تارة ومثيرة طوراً آخر .

لم يعد مرتب كريم يكفيه لتحمل نفقـات هذه السهرات ولا ما يقتضيه تجدد ملابس فتحية وزينتها وحليها ، مما كان

يضطره الى الاستـــدان . وأحس أصدقاؤه بما أصبح يعـــانيه من ضيق ، فسعى أحدهم لتعيـــينه مديراً عامـــاً لمكتب مهـــم بالدار البيضاء . انتهت الضائقـــة وأقبلت الدنيـــا على الأسرة التي أصبحت تعيش فى بذخ . وجدت فتحية كل بغيتها فى هذه الحياة الجديدة فأقبلت تعب منها كؤوساً دهاقـــاً . واستقرت أسرة كريم فى احدى الفيلات الانيقة فى حى كان الى زمن قريب آهلا بسامى موظفى ادارة الحماية وأثرياء الجالية الاوروبية ، فأصبح يسكن أمثـــالهم من المواطنين فى كثـــير من منازلـــه . بقى الحى محتفظاً بطابعه العصرى ، وضاعفت مصالح البلدية من العناية بنظافته وتشجيره وتجميله . يكـــاد الاتصال يكون مفقوداً بين سكان مثل هذه الاحياء وسكان الاحيـــاء الشعبيـــة الا ما كان من البقالين وبعض أصحاب المتاجر الصغار والباعة المتجولين . لا فرق بين نمـــط حياة الطبقـــة الجديدة من سكان الأحياء العصرية والنمـــط الذى كان يعيـــش عليـــه الاجانب فى العهـــد السابق .

استمرأت فتحية هذه الحياة الناعمة ، وكانت تبـــدو أكثر سعادة . لا تشتهى أى شيء مهما غلا ثمنه الا أدركته . فكانت ترفل فى أحدث الفساتين وتقتـــنى أثمـــن المجوهرات والحلى . ولم يكن كريم يرد لها طلبـــاً ، بـــل كانت هى الماسكة لحساب

زوجها ، فكانت تنفق بسخاء على زينـتها والمجالس والسهرات التى قلما كانت تنقطع . ونسى كريـم مع حياة الترف الافكار الخيرة التى كان يؤمن بها أيام الدراسة فى الخارج ومـا كان يراوده من أحلام . . وانقطعت الصلة بينه وبين رفاقه القدامى ممن بقوا على حالهم . ان تذكرهم ، أجهـد نفسـه لتبديـد الذكريات ، وان جمعته الصدفة بهم لوى كشحه ، وان وجـد نفسه وجهاً لوجه أمامهم أحس بشىء من الضيق فأعاد ذكـر الماضى وايـاهم بسرعـة ثـم تحـول الى مواضيـع أخـرى وسعى الا يتجـدد اللقـاء .

اتسعت دائـرة أصدقاء الأسرة ، وأصبح بيـت كريـم منتـدى يخفون اليـه بعد الانتهـاء من مشاغلهم فيسمرون الى ساعة متأخرة . تغشاه الطبقة الجديدة من عليـة الرجـال والمترفين الجدد وبعض رجال المهـن الحرة رفقـة أزواجهم أو صواحبهم . كانت النساء يتنافسن فى ارتداء أغلى الازيـاء والتحلى بأجمل المجوهرات . كان مظهـر المشاركين فى السمر يخلب الالباب بخلاف احاديثهم التى كانت لا تخرج عن المألوف من الاغتياب وتـناقل الفضائح والتبارى فى روايـة الدعابات مهما كانت خليعة . . وكان الراوون لا يجدون حرجاً فى قصهـا والمنصتون فى استملاحها . وكان بعـض السمـر لا يجـدون

غضاضة فى مجالس التغزل التى كانت تعقــد فى أركان البهــو الكبير . أحياناً كانت تنبعث آلــة التسجيل بأغان غربيــة فى الغالب ، فتقوم فتحية لتوها ــ وكانت ترتدى أكثر مــا ترتدى ديكولتيه يكشف عن مفاتنها ــ فترقص على نغماتهــا فى كثير من الاثــارة . وقد عرفت برقصاتها هذه حتى أصبحت تدعى بــ « بريجيت » فلم تعــد تعرف الا بهذا الاسم لدى الخاص والعام . وكانت رقصاتها هذه تحمى وطيس المجالس ، فيقوم أغلب الحاضرين الى الحلبة وتتمايل الحضور فى دعــة وعنف بحسب النغم والايقاع . ومن حين لآخر كانت تستقدم أجواق من هذا العدد الوافر من الموسيقيين الذين أصبحت تعج بهم المدينة لاحياء ليالى بريجيت التى كانت تشد لها الرحال . .

وبالرغم عما كان فى هذه المجالس من مرح ، فقــد كانت مرهقة للغاية . بدت فتحية أكبر من سنها وكذلك كريم من كثرة السهر والادمان واطالة التفكير فى ابتكــار الطريف والجديــد للترفيه على الاصدقاء وشدهم الى البيــت وجلب آخريــن . لم يكن لهما حتى الوقت للاهتمام بابنائهما . واذا كانت فتحية قلما تفكر فى مــا آلت اليه وكانت راضيــة بحياتها الجديدة ، منصرفة الى الاستمتاع بملذاتها ، فان خيال كريم كان يسبح أحياناً فى ما أصبح فيه . . يتساءل عن كنه التحول الذى طــرأ

على حياته . . يستعيد ذكريـــات أيـــام الطلب . . والآمـــال العريضة التى كانت تملأ وجدانه . . والمثل الكريمة التى نـــدر نفسه لخدمتها . فيهفو الى تلك الأيام ويعتبرها أسعد فترة فى حياته . ثم يعود الى الواقع . . ويتساءل عن البديل . . يحاول استكشاف الغيب وهو يتتبع بنظره دخان غليونـــه يصعـــد . . ويكثف . . ليضمحل فى النهـــاية .

وتعتريه كآبة . . كآبة لم تعد تفارقه .

الــربـــاط **قاسم الزهيرى**

فاس

جولة في أحداثها الكبرى

(2)

محمد ابن تاويت

وبذلك ذاقت فاس ألوانا من المحن والاهوال ، فانتهبت الاسواق والدكاكين ، كالقيسارية والعطارين ، وهام الناس على وجوههم والتمسوا الفرج من أولئك المرابطين الناجمين ، فأوفدوا وفودهم على المرابط محمد العياشي الذي ظهر بسلا ونواحيها ، واجتمعوا به سنة 1047 و « رغبوه » فقدم فاسا ، وغزا عرب الحياينة الذين أكثروا فيها الفساد مرارا حتى أذعنوا لطاعته ، ولكنه كان مشغولا بالجهاد ، فخرج منها لذلك . ولما عاد اليها وجد الحرب قائمة بين أهلها ، بسبب أن رجلا عدا على آخر فرماه برصاصه من علية المسجد بسويقة ابن صافي وأرداه قتيلا . وكان المقتول رئيسا لعدوة الاندلس ، فهاجت الحرب بين العدوتين ، الى أن أصلح بينهما العياشي على قدمته هذه سنة 1050 ... وكادت الامور تستقر به لولا غدر رجال محمد الحاج الدلائي به ، وقتل الخلط اياه ، وهو عائد من جهاد النصارى المستولين على طنجة 1051 رحمه الله .

وعلى اثر هذه الغدرة الشنيعة توجه الدلائيون لاحتلال فاس ، فاقاموا عليها محاصرين ستة أشهر ، ثم دخلوها فى السنة المذكورة ، فولى عليها

محمد الحاج ، قائده ابا بكر التاملي . وكان اشرافه عاما على فاس الجديد والعدوتين . وكانت المدن الثلاثة قبله منفصلا بعضها عن بعض في حكمها: فكانت عدوة الاندلس قد توارث حكمها عائلة اللاريني الاندلسيون ، أما عدوة القرويين فلم يكن حكمها متوارثا من قبل عائلة معينة ، على حين كان فاس الجديد ، مقاما للسلطان أو من ينوب منابه ، فكان لابي بكر نائبه الان يقيم به . وكان آنذاك ابن الاصغر يلي حكم عدوة القرويين وعبد الكريم اللاريني يلي الاندلس والجميع تحت اشراف التاملي ، يزورونه كل صباح في قصره، ويستشيرونه ويعملون بأمره وحسب توجيهاته .

واستمر الامر على هذا النمط طيلة عشر سنوات ورجـــي لفاس ان تستعيد طمانينتها ، ولكن ما كانت سنة 1060 ، حتى قام الخلاف أيضا بين اللاريني وبين صاحبي العدوتين . فخاضوا المعارك وقطع القائد ماء النهر عن العدوتين ، فاستنجد أهل فاس بمحمد الشريـــف العلـــوي القائـــم بسجلماسة ، فجاء هذا وقبض على التاملي وسجنه .

ولكن الدلائي أتى برجاله ، واشتبك مع محمد الشريف وانتصر عليه، فعاد هذا الى سجلماسة ، وأفرج عن التاملي ، فضرب الحصار على فاس القديمة التي تحصن بها أهلها ، فهلك في هذا الحصار قوم كان منهم عبد الكريم اللاريني المذكور . وأخيرا فتحت أبوابها للوالي البغيـــض ، ثـــم استبدل هذا الوالي فتولى حكم فاس أحمد بن محمد الدلائي ، فأقام بها ثلاث سنوات ضمدت فاس فيها جروحها . كما قضي على رؤوس الفتنة الذين لجأ بعضهم الى ضريح مولاي ادريس ، وآخرون الى دور بعض الشرفـــاء الجوطيين ، ثم توفي سنة 1064 . وقد ترك له اثرا في تجديد بناء ضريح الشيخ ابن عباد الرندي ، صاحب الشرح على حكم ابن عطاء الله الاسكندري داخل باب الفتوح .

وبعد وفاته خلفه أخوه محمد ، فسار في الناس سيرة حمدت له ، وأعاد تجديد الضريح المذكور بعد أن التهمته النيران (ولم يبق لهم أثـــر غيره) وطالت مدته فأقام على امارة فاس ست سنوات ، ولم تنقطع هجمات القبائل المجاورة ، على فاس وأحوازها . وكان للدلائيين علاقـــة مصاهرة بالقادريين فمنحوا هؤلاء ((فتوحات)) ضريح أبي الحسن علي بن حرزهم ،

فأثار هذا التصرف حنق بعض الاسر التي صارت تكيد لهؤلاء الدلائيين . وبذلك فقد تآمر هؤلاء مع بعض القواد ، كان فيهم عبد الله الدريدي ورئيس عدوة الاندلس أحمد اللاريني ، واغتالوا محمد الدلائي سما سنة 1070 .

ثم خلفه ابن أخيه احمد بن عبد الله ، وكان حدثا صفيرا ، فعاد سريعا الى الدلاء ومعه كل ما كان بقصر عمه فى فاس الجديد . حينما أدرك نفرة الفاسيين منهم . فما كان من جنده محمد الحاج تجاه أهل فاس الا ان تصرف تصرفا شائنا أدى الى انفصال هذه العاصمة عن الدلائيين، ذلك أن هذا ((الدكتاتور)) استقدم من أعيان فاس أزيد من مائة رجل . فوبخهم على ما حدث لابنه من الاغتيال ، ثم زج بهم فى السجن ، واخيرا وجه بهم الى فاس الجديد ، حيث ذبحوا بها ذبح الاغنام . فكانت هذه الجريمة ــ وما أكثرها ــ فرصة للدريدي الذي أعلن نفسه حاكما مطلقا على فاس الجديد ، وآزره فى هذا صهره اللاريني ، صاحب عدوة الاندلس المذكور ، وابن الرئيس صاحب عدوة القرويين . فانفصلت بهذا فاس جميعها عن الدلائيين بعد 20 سنة من حكمهم المباشر . ولكن الدلائيين عادوا الى فاس بعد سنتين ، بقيادة عبد لله الدلائي ، فحاصرها عشرة أيام ولما لم تستنجب لهذا الحصار ، عاد يغذ السير ، بعد ان أفسد حرث المدينة وعاث رجاله فيه فسادا .

وبعد ذلك تشتد هجومات القبائل المجاورة ، على فاس ويشتد فسادها ، ويعجز القائمون على فاس عن درء هذا الفساد . فيضطر أهل فاس الى العودة لقبول سلطان الدلائيين عليهم ، ويتوجه وفد منهم سنة 1073 نحو محمد الحاج ، معتذرا عما فرط منهم ، وطالبا عودته لمد سلطانه على فاس . فاستجاب لهم ، وخرج الى آزرو سنة 1074 ، فمكث بها يعد العدة النهائية ، ويمهد السبل ، وأتاه بها شرفاء فاس مرحبين مهنئين . وقبل ان يعود الى الدلاء ، أقر على عدوة الاندلس أحمد اللاريني وابن الصغير على عدوة القرويين ، والدريدي على فاس الجديد . ولكن الجنوح الى الانفصال عاد من جديد الى مسرح فاس الجديد ، حيث كان القائد الدريدي ما زال مقيما بامره المطلق .

فكأن القوم اكتفوا من الحاج الدلائي بمجرد الاشراف الاسمـــي وأن يخضد شوكة القبائل المداهمة لفاس والقائمة بأطرافها . غير ان القائـــد الدريدي نجده تحول الآن من حاكم الى مغير برجاله على القبائل المجاورة ، فكان يستاق مواشيها وياتي بها الى فاس فلم يرض هـــذا التصرف فاسا القديمة ، وظلت على وفائها للدلائي ، وانفصلت في حكمها عن فاس الجديد، وتلا ذلك القتال بينهما في شدة .

وفي عام 1076 ، كان المولى الرشيد ياتي الى فاس ويعتبر هذا نهاية للحدث التاسع الذي كان على فاس بلاء عظيما وشرا مستطيرا .

الحدث العاشر لفاس : العهد العلوي الاول

كان المولى رشيد قد ظهر على الدلائيين ، وهدم زاويتهم واخـــرب معاهدهم ، ثم توجه الى فاس ، التي استعدت لملاقاته ، فحاصرها سنة ، استطاع خلالها أن يتصل سرا بأحمد بن عبد الرحمن الفاسي صاحب زاوية القلقليين . فكان بذلك القضاء على أحمد اللاريني الحاكم من قبل الدلائيين، والتسور على فاس الجديد والقبض على الدريدي . وبانطواء صفحة هؤلاء خرج أهل فاس لمبايعة المولى الرشيد ، وكافأ أحمد الفاسي بأن صير اليه ((فتوحات)) سيدي علي بن حرزهم .

وفي سنة 1079 ، تم القضاء على الدلائيين ، والاستيلاء على ما كان في عاصمتهم من مال وذخيرة وسلاح وغيرها ، وأمر المولى الرشيـــد من بقي من الدلائيين ، بالانتقال الى فاس ومغادرة المدينة التي سلط عليهـــا معاول التخريب . وكان في الآتين الحسن اليوســـي . اما محمد الحـــاج وبنوه ، فقد أمرهم بمغادرة المغرب نهائيا ، فتوجهوا الى الجزائر ، ونعم ما فعل بهؤلاء السفكة الذين لطخوا مجدهم بالدماء .

وفي سنة 1088 كان أحمد الدلائي يعود الى المغرب . ويقـــع قتال بينه وبين جيش فاس.وبعد هزيمته اختفى الدلائيون من فاس ولجأ بعضهم الى حرم المولى ادريس وضريح سيدي أحمد الشاوي . وقد استعد المولـــى اسماعيل للقضاء على هذا الدلائي نهائيا برماة فاس وغيرها فكان اللقاء بين

رجالها سنة 1089 بوادي العبيد من مراكش . وتم بذلك القضاء على الثورة التي قطعت رؤوس من رجالها ووجه بها الى فاس حيث كومت بها .

واذا كان من المصائب ما يفيد ، فان هذه استفادت الحركة العلمية بفاس منها . حيث ان علماء الدلائيين ، وكانوا يربون على عشرة اعتلوا منابر التدريس بفاس . وأفادوا بها وتخرج على يدهم علماء وأدباء ظهروا بالعصر الاسماعيلي خصوصا . كما كان آخرون استقروا بعد بالعاصمة الجديدة ((مكناس)) وكان محمد بن عبد الرحمن الدلائي ، يتولى الخطابة بمسجد الشرفاء العتيق ، وهو ضريح مولاي ادريس .

ومن قبل المولىا سماعيل ، كان المولى الرشيد يوليهم عنايته البالغة ، وهم مقيمون بفاس ، فكانت اقامتهم توحي الى المولى الرشيد ببناء مدرسة الشراطين سنة 1081 . فهذه المدرسة الضخمة من آثاره بها ، كما ان من آثاره القائمة بناء قنطرة وادي سبو خارج فاس سنة 1079، والقصبة الجديدة بفاس . ولما ألف جيش شراكة أعطاهم ألف دينار لبناء قصبة الخميس . وكان أخوه اسماعيل يلي فاسا نائبا عنه ، فلما توفي بمراكش وبويع أخوه أمر بنقله في تابوت الى فاس ، حيث دفن بضريح سيدي علي بن حرزهم سنة 1083 .

ومن المؤسف ، انه في هذه السنة بالذات انتقضت فاس على المولى اسماعيل ، وقد قفل الى مكناسة ، وقتلوا قائد جيشه بها . فزحف اليهم واستمر القتال بينهم وبين المولى اسماعيل ، وأعلنوا بيعة ابن أخيه أحمد ابن محرز ، الذي كان قد ثار وأتى الى مراكش فاحتل بها . وكانت فتنة اختلط فيها الحابل بالنابل ، وجاء المولى اسماعيل فحاصر فاسا سنة 1084 ، الى أن فتحت أبوابها له وعفا عن أهلها وجعل على فاس القديم واليا وعلى فاس الجديد واليا آخر .

وعلى هذا استقام الامر بفاس ، الى أن بدأ المولى اسماعيل يؤلف جيش العبيد البواخرة في حدود سنة 1090 ، فاعترض على هذا جلة من علماء فاس ، واشتدت المحنة في هذا الاعتراض ، واستمرت فاستفحلت سنة 1108 ، حيث أمر السلطان علماء فاس بالكتابة على ديوان هؤلاء العبيد . فكتب الى قاضي فاس وعلمائها يوبخهم ويعاتبهم على اعتراضهم ،

وتبع هذا عزل القاضي والشهود عن مهمتهم . وكان من ضحايا هذه المحنة ابو الفضل جسوس ، مرثي علي بن مصباح بالهمزية المؤثرة ...

وفى 1132 أمر المولى اسماعيل ببناء قبة الضريح الادريسي بفاس وتجديد بناء المقام المذكور كما أمر بتوسعة الصحن به وافامة الجمعة ، التي كانت قد انتقلت منه فى القرن الرابع الى مسجد القرويين .

وفى السنة التالية ، غضب المولى اسماعيل على أهل فاس ، ووجه اليهم حمدون الروسي وأخاه عليا لقبض المال منهم ومصادرة بعض الاملاك فكان لهذا وقع شديد على أهل فاس الذين لجأوا الى العلماء والاشراف ، يوسطونهم لدى السلطان لاعفائهم ، ولكن ذلك لم يجد أهل فاس شيئا ، فبقي الوضع متازما ، وسوء النية يستحفل أمره ، فكانت بذلك هوة سحيقة بينهم وبين السلطان .

وكانهم لم يقتنعوا بأن العهد الاسماعيلي البناء للدولة على دعائم قوية، كان يستوجب تلك الضرائب وغيرها من الجبايات ، فقد اضطرت اليه الدولة لسد حاجاتها التي كانت تتطلبها الرباطات للجهاد وبناء العاصمة الجديدة « مكناس » ونفقات الحرس الاسود وما ذلك من النفقات التي كان يتطلبها استخلاص الثغور والقيام عليها ، قياما عسكريا ومدنيا ، فكان اسماعيل المؤسس الحقيقي للدولة . وللاسف البالغ انه ما توفي المولى اسماعيل حتى قامت الفتن بين أولاده واضطرب حبل النظام والامن ، وكانت بفاس ضمن الفرق العسكرية فرقة الودايا ، فأغارت هذه سنة 1140 على سوق الخميس من فاس ونهبت وقتلت ، وقبضت على جملة من أهل فاس زجت بهم فى سجن فاس الجديد ، فوجه أهل فاس وفدا الى السلطان أحمد الذهبي يشكون من هؤلاء . فلما انتهوا الى مكناسة قبض عليهم محمد ابن يشي فأودعهم السجون قبل ان يتصلوا بالسلطان ، فما كان من الفاسيين ، الا ان أغلقوا باب المدينة ، وشمروا لقتال الودايا ، فبعث هؤلاء الى السلطان يعلمونه بان فاسا قد شقت عصا الطاعة . فسرب اليهم العساكر ، التي وجهت على فاس المهارس والمدافع ، واستمر القتال ، الى أن جاء المولى المستضيء بن اسماعيل ، ومعه الفاسيون الذين أطلق سراحهم بمكناس ، فانعقد الصلح بذلك وكف عن القتال . ولكنه انتقض

بعد يومين وعاد الوداية للحرب التي استؤنفت من جديد ، واستمرت حتى جاء القائد الجراري ، فأوقف القتال . واصطحب الجراري معه وفدا من اهل فاس أتى به الى قصر السلطان بمكناس ، ولكنه منع من الدخول على السلطان . فعاد الى فاس مخفقا في مهمة ابرام هذا الصلح ، وكان ذلك دسيسة من عبيد الديوان الذين كتبوا اليهم بعد يطلبون منهم ان يوافقوهم على عزل السلطان واقامة أخيه عبد الملك ، فأجابوهم الى ذلك في نفس السنة .

وهكذاقبض على أحمد الذهبي ، وجاء أخوه عبد الملك ، الذي بايعه علماء فاس وأشرافها بمكناس . وسرعان ما اختل أمره وفر الى فاس لاجئا بضريح مولاي ادريس ، ومستجيرا بأهل فاس الذين وعدوه الحماية من العبيد . فحبس العبيد الرماة الفاسيين الذين كانوا بمكناس ، حتى يعود المولى أحمد من منفاه بسجلماسة ، فيرى رأيه فيهم .

ولما عاد احمد الذهبي ، كان أول أعماله التوجه الى فاس بالاعذار والانذار ، بعد أن أمر بالتضييق على رماتها بسجن مكناس . ثم أفرج عن قائدهم وبعثه الى فاس ، طالبا اسلام أخيه اليه والبيعة له . فلما اجتمع القائد معهم وقرا عليهم كتاب السلطان قاموا اليه وقتلوه ، ثم صلبوه على التوتة بالصفارين ، وجددوا بيعتهم للمولى عبد الملك ، وهاجت الحروب مع الودايا الذين استاقوا مواشيهم فبيعت بأسواق فاس بابخس الاثمان .

ثم زحف أحمد الذهبي ، سنة 1141 على فاس بالعبيد والودايا ، فحاصرها وانتسف الجيش زروعها . وتوالت القذائف عليهم طيلة ستة اشهر ، هلك فيها ناس كثير وعمها الخراب . فاذعن أهلها للطاعة وتسليم المولى عبد الملك لاخيه . فاحتمى هذا بالضريح وكان اخوه قد أشار عليه بذلك . ولكنه تقدم الى الفاسيين في أن لا يجتمع أحد به او يبيعه شيئا ، تضييقا عليه بهذا . فاستسلم أخيرا له وبعث به سجينا لمكناس . ثم دخل بعدئذ فاسا اخوه وغادرها متوجها الى مكناس ، حيث مرض مرض موته . وقد أوصى بخنق عبد الملك ، فخنق أول شعبان ثم مات احمد بعده بأربعة ايام من السنة المذكورة ، 1141 .

فبويع عبد الله بن اسماعيل ، فكان أهل فاس على رأس الكاتبين بالبيعة ، وهو ما زال بسجلماسة ، فأقبل منها وانتهى الى ظهر المهراز ، حيث وجد فى استقباله أعيان أهل فاس وعلماءها ففرح بهم ، ووعدهم المجيء غده الى زيارة الضريح الادريسي ، واستعد الفاسيون لهذا وأتى السلطان فى محفله ، ودخل من باب الفتوح وتوسط المدينة . ولكن حادثا وقع من بعض الموتورين استغله القائد حمدون الذي كان يتقدم الوفد السلطاني ، فأوغر صدر السلطان وأرجف ، فعاد من قنطرة الرصيف ، ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزا ابن عامر ، وخرج على باب الحديد الى فاس الجديد ، ومن هناك توجه الى مكناس توا .

ومنذ هذه الحادثة ، تمكنت النفرة من قلب السلطان ، فصار يعبر عنها فى كل مناسبة بالاهمال والنكران ، الى أن وقع بذلك الحصار لفاس . وبعد أن ضاق ذرع أهلها أعلنوا بخلعه ، ووطنوا نفسهم على القتال ، وأغلقوا أبواب المدينة ، وواجهوا الجيش الذى سلط عليهم الخراب والدمار .

وكانت الكارثة لا تزداد الا شدة وضراوة فدعوا الى قبول الطاعة والصلح ، فتم ذلك بالضريح الادريسي . وعاد السلطان الى مكناس بعد ما تضرست المدينة بالحصار الخانق وغلاء الاسعار وقلة المؤن ، بل انعدمت الاقوات ، وكان ذلك سنة 1142 .

وفى سنة 1147 ، كان المولى عبد الله ، قد فسد ما بينه وبين رجاله ففر الى وادي نول ، واتى علي أخوه من سجلماسة وقد كتب اليه بالبيعة ، فلما انتهى الى صفرو ، كان وفد فاس يتلقاه بالبيعة والنصر وصحبوه الى فاس الجديد ، ثم نهض الى مكناس فبويع بها البيعة العامة .

ولم تمض مدة حتى كان عامل فاس مسعود الروسي يسيء فى الحكم، فاعلن أهلها الثورة عليه ، وفر مسعود ، فتوجهوا الى السجن وكسروا الابواب وقتلوا الحراس ، وأراد المولى علي ان ياخذهم بالحسنى ، فوجه اليهم أخاه المهتدي ووعدهم بعزل مسعود ، فأذعنوا أخيرا ، ووجهوا اليه بهدية مع وفد منهم ، فلما مثل بين يديه ، عدد عليهم ذنوبهم ، وأمر بسجنهم ، فعاد الفاسيون الى الثورة والخروج عن الطاعة ، واقفلوا باب

المدينة ، وأنشبوا الحرب مع الودايا ، بعد ما أتوا على أصحاب مسعـــود بالقتل ، ثم راجعهم السلطان ، وعقد الصلح بعد أن أطلق سراح وفدهم ، فعادوا الى الدخول فى طاعته .

وفى سنة 1149 ، كان المولى عبد الله يعود الى مكناسة ، فيفر منها أخوه علي ويلتجيء الى فاس الجديد ، ولكن الودايا يمنعونه من ذلك ، وتم الامر لمولاي عبد الله ، وتخلى أخوه عن الملك ، وبعد سنين دعاه اخـــوه اليه ، فأتاه وهو بدار الدبيبغ من فاس سنة 1169 ، فارسلـه الى مكناس معززا مكرما ، ثم وجهه الى تافيلالت فبقي هناك .

الآن نجد أهل فاس قد عاودوا البيعة للمولى عبد الله ، ولكن أمرا يرد عليهم من زرهون يدعوهم الى خلعه وبيعة أخيه محمد ابن عريبة، فاستجابوا لهذا وبايعوا ابن عريبة ، فانتهى الخبر الى المولى عبد الله بمبايعة ابن عريبة ، فقتل بذلك جماعة زرهون . وجاء ابن عريبة من تافلالت يطلـــب الملك ، فلما وصل الى صفرو أدرك حقيقة الامر وسقط فى يده، فاستخفى عند صديق له بفاس ، وأقبل السلطان فاستقبله الوفد الفاسي بقصبة أبي فكران كما استقبله المكناسيون ، فعنفهم وقتل من أعيانهم ، فعاد أشراف فاس وعلماؤها مذعورين .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أطلق الودايا أيديهم فعاثوا فسادا، مما جعل الفاسيين ، يثورون ويعلنوا خلع السلطان وبيعة محمد ابن عريبة سنة 1150 ، وكتبوا بذلك الى عبيد الديوان ، فوافقوهـــم على العـــزل والبيعة ، وانتقل محمد ابن عريبة الى فاس الجديد ، وفر المولى عبد الله من مكناس التي استقبلت محمدا بالبيعة والنصر . غير ان الامر لم يسر العبيد طويلا ، فعادوا الى الفتنة ووقعت حروب ومعارك عديدة بين الاخوين ورجالهما ، وذاقت فاس الامرين . وكان محمد ابن عريبة قد وجه اليهـــم أخاه الوليد يستصفي منهم الاموال ، فقتل بعض المثريين منهم ، كما فعل ذلك بأهل مكناس . واشتدت المجاعة ، وخرج جماعة من اهـل فاس الى تطوان لجلب الميرة بعد اشتداد المجاعة بهم .

فلما كانت سنة 1151 . ثار العبيد على محمد ابن عريبة ، فقبضوا عليه وعلى قائده بفاس ، وكتبوا يستقدمون المولي المستضيء من تافيلالت.

فأقبل مسرعا ، ولقيه أهل فاس بصفرو ، فبايعوه بها ، وجاءوا معـــه الى فاس الجديد . ومن هناك ارتحل الى مكناس ، فلما حل بها بعث بأخيه ابن عربية مقيدا الى فاس ، ومنها الى سجلماسة سجينا .

ثم عسف بأهل فاس ، وقبض على شريف من العراقييــن ، بحومـــة « كرنيز » فضربه وعذبه ، متهما اياه بمال للحرة « خناثة » بنـــت بكار أم المولى عبد الله ، كما طالب عائلات المساجين فيها ، بأموال طائلة يؤدونها ، فلما لم يستطيعوا ذلك أرهقوا ارهاقا عظيما ، وعذب آخرون وقتلوا وعلقت رؤوسهم بباب المحروق . وسيق المساجين مسلسلين الى مكناس حيث قتلوا بها ، ولم ينج من عسفه حتى أخوه زين العابدين الذى كاد يتلفـــه ضربا ، ثم وجه به الى تافيلالت سجينا . ولكن العبيد انتزعـــوه من يـــد حامليه ، وهم فى طريقهم ، واحتفظوا به فى بني يازغة .

ولما أدرك تغير الحال عليه ، فر ناجيا بنفسه ، ومتقلبا فى البـــلاد ، فتبعه المولى عبد الله ، الذي عاد العبيد الى طاعته فى سنــــة 1153 . وكتبوا بذلك الى أهل فاس ، فوافقوهم وعادوا الى بيعته ، وبعثوا بأشرافهم وعلمائهم اليه . فجاء الى مكناس ، وولى على فاس شيخ الركب الحجازي عبد الخالق عديل ، وأمره بعزل القضاة والخطباء الذين بايعوا المستضيء ..

وما كانت سنة 1154 ، حتى عاد العبيد الى الشغب على المولى عبد الله ، ففرت أمه « خناثة » من مكناس الى فاس الجديد وتبعها المولى عبد الله فى اليوم التالي فانتهى الى فاس ونزل برأس الماء منها .

فلما كان هناك يستقبل الودايا وأهل فاس ويعاهدونه على النصرة ، وافاه الخبر بمؤامرة تدبر لخلعه وبيعة اخيه زين العابدين الذي كان آنذاك بطنجة ، فوجم لهذا النبأ وخف الى الفرار نحو بلاد البربر ، وجـــاء زين العابدين فدخل مكناس سرا حيث بويع البيعة العامة ، ثم بعد شهرين توجه نحو فاس لتقاعسها عن بيعته ، ولكن جيشه ما وصل الى سيدي عميرة ، حتى اختلفت كلمة العبيد ، فقوضوا خيامهم وعادوا الى مكناس ، بعـد ان أحرقوا بيادر الزرع التي كانت للودايا بالخميس ، واضطربت الكلمة على زين العابدين فى عودته فسنحت بذلك الفرصة للمولى عبد الله الذي أتـــى متقدما الى فاس الجديد ، فلقيه أهل فاس والودايا بالسرور ، ثم احتـــل

بدار الدبيبغ قصد التوجه منها الى مكناس ، فلما علم بهذا المولى زين العابدين غادرها ، فكان آخر عهده بها وبالملك .

وهكذا تجددت البيعة للمولى عبد الله ، وقد جاءه العبيد من مكناسة وهو بدار الدبيبغ مبايعين فسر بمقدمهم وخرج اليهم الودايا واختلطوا بهم . وأجروا الخيل في ميدان المسابقة فرحا وسرورا ولعبوا بالبارود وزينت مدينة فاس لهذا .

ولكن لما طال مقامه بفاس ولم يعد الى مكناس ارتاب العبيد في نواياه، واستدعوا المولى المستضيء من مراكش ليبايعوه ، فعلم بذلك المولى عبد الله ، وشمر عن ساعد الجد وألف رجاله من البربر والعرب ، لمواجهة الموقف ، الذي صارت سياسة العبيد القدمة تتحكم فيه ، وآخى بين جيشه هذا وبين الودايا والفاسيين ، فأعطوا جميعا صفقة البيعة ، وجاء أثناء ذلك رجل من مراكش الى فاس فاتهم بمراجعة طاعة المولى المستضيء ، ونمي به الى المولى عبد الله ، فجر لمصرعه .

وفي السنة التالية ، وهي 1155 ، كان المولى المستضيء ياتي بجيشه فيدخل مكناس ، وبعد اقامة قصيرة زحف الى فاس فعسكر بظهر الزاوية خارج المدينة ، ففر المولى عبد الله ، الى آيت دراسن من بلاد البربر . وسرعان ما نشبت الحرب بين العبيد وبين الودايا وأهل فاس ، وبعد قتال شديد ، كان المولى عبد الله يعود بجيش لجب ، ارتاع له المولى المستضيء ورجاله ، فنكصوا على أعقابهم وتمكن المولى عبد الله من ضبط الامور ، ولكن سرعان ما عاد المولى المستضيء في السنة التالية فزحف الى فاس التي اضطربت نواحيها وبعثرت مزارعها وانتهبت مواشيها ، فركب مولاي عبد الله من دار الدبيبغ ، ناجيا الى آيت دراسن ، مستنصرا بهم ، ثم عاد الى محلته . وبعد معارك طاحنة انهزم المستضيء ورجاله ، تاركين معداتهم من المدافع التي كانوا يصوبونها نحو فاس ومن العتاد والخيام ، وشهد هذه الحرب لاول مرة الامير محمد بن عبد الله .

وفي نفس السنة ، عاد المولى المستضيء فدخل مدينة مكناس ، على حين كان المولى عبد الله يستعد لملاقاة أحمد الريفي الذي عاد لمهاجمة فاس ، بعد تلك الهزيمة المنكرة ، ولكن المولى عبد الله عاجله ، وهو في

طريقه اليها ، فقتل وحمل راسه الى فاس فعلق بباب المحروق ، على حين كان المستضيء قد انهزم من مكناسة بعد معارك وقعت بين رجالـــه وبين أهالي مكنـــاس .

واستمر مولاي عبد الله في طريقه ، فاحتل طنجة التي كانت قاعدة لاحمد الريفي ، وفى عودته الى فاس اعترضه المستضيء فوقعت الحرب بينهما وانتصر فيها مولاي عبد الله ، وقفل الى فاس الجديد فاحتل بهـــا وأسهم لاهل فاس فيما فرقه من أموال وغنائم .

وأقام بدار الدبيبغ الى سنة 1157 فتوجه الى مكنـــاس مستعـــدا للنهوض الى مطاردة المستضيء الذي كان ببني حسن ثم أجفل عنها منهزما الى مراكش فرفضته وأوصدت أبوابها فى وجهه ، وعاد المولـــى عبد الله الى العاصمة ، وقد دوخ جهات من البلاد .

وفى السنة التالية ، كان العبيد بمكناس يتآمرون على المولـــى عبد الله ، فعلم بذلك ، وانتقل منها الى فاس الجديد فدخل داره بها وأمن على نفسه ، من هؤلاء العبيد ، الذين قدم قوادهم على المولى عبد الله ، سنـــة 1159 مستشفعين متنصلين طالبين منه أن يعود الى مكناس ، فوعدهـــم بذلك ، ولكنه ظل مقيما بفاس ، الى أن حدثت الفتنة مرة أخرى وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا ، وانحاز البربر الى الفاسييـــن الذيـــن استنجدوا بهم ، وقتل الودايـــا منهم جماعة أمر المولى عبد الله بتعليق رؤوسهم على سور قصبة شراكة ، وبعد مفاوضة مع السلطان الذي اشترط شروطا قاسية على وفد فاس ، أقفلت فاس أبوابها منتقضة عليه ، ونهبت العامة قفاطين المخزن التي كانت بفندق النجارين ، وكانت ثلاثـــة آلاف فرقوها على الرماة الذين عيدوا بها عيد الاضحى .

وقد اتسع خرق الثورة والعصيان ، فقدمت على فاس قبائل البربر والعرب لمشايعة اهلها على الحرب ، وكانت هذه الطوائف يقوم على كل منها زعيم ، ذكرته التواريخ .

أما رجال السلطان ، فقد انجحر الودايا منهم بفاس الجديد ، على حين كان الحرس والعبيد قد أخذوا مكانهم بقصبة شراكة وكان السلطان

معسكرا بدار الدبيبغ ، ثم تفرقت جموع البربر الذين كانوا قد أتوا لمشايعة أهل فاس ، فبقيت هذه تعاني الحصار سنتين فبعثت حينئذ الى المولى المستضيء تستدعيه من نواحي طنجة فرفض طلبها ، وأتت الودايا سنة 1161 فأحرقت باب المحروق ويتدارك الامر أهل فاس ، فركبت أبواب اخرى غد الحادث ، وزحف البربر الى الودايا ، مظاهرين أهل فاس القديم، على حين كان أهل الريف قد قبضوا على المولى المستضيء ، وثقفوه ليسلموه للمولى عبد الله ، فهذا الحادث كان سببا في رجوع البصائر ، وانعقد الصلح بين المولى عبد الله ورجاله الودايا وبين أهل فاس ، بضريح المولى ادريس ، أواخر سنة 1161 ، وكان المولى عبد الله قد انتقل آنذاك الى مكناس .

وكأن هذا الصلح أساء البربر ، كما أساء العبيد ، ووقعت الدسيسة التي انتهت الى خروج العبيد على السلطان واعلان بيعتهم لولده المولى محمد ، وكانوا قد بيتوا الفتك به ، فخرج فارا الى دار الدبيبغ سنة 1162 وكان الامير محمد بمراكش واليا عليها ، فرفض بيعتهم ووبخ الوفد الذي إتى اليه بالبيعة ، ثم حاول هو وأبوه جهد المستطاع استصلاحهم ، فلجوا في طغيانهم والسلطان مقيم بدار الدبيبغ ، الى ان كانت سنة 1163 ، فأتى الامير محمد الى مكناسة ، وجمع العبيد ووبخهم وتبرأ من فعلهم ، فعادوا الى طاعة السلطان ، وأقلعوا عن الخطبة بابنه مولاي محمد ، فكانت هذه البيعة السابعة منهم لمولاي عبد الله ، ثم قدم الامير على والده بدار الدبيبغ ، وشفع للعبيد فشفعه فيهم ، ولكنه بقي بفاس محترسا منهم ، وقد عاد ابنه الى مراكش .

وما كانت سنة 1164 حتى عاد العبيد للعصيان ، واعلان الخروج على السلطان ، ثم لجوئهم الى الامير بمراكش فقالوا له : « اما أن تقبل بيعتنا واما نبايع عمك المستضيء » فالان لهم القول معاتبا ، ومنحهم اموالا ، وأعادهم بكتاب منه الى والده يستعطفه عليهم ، وكان المستضيء قد اعتذر لاخيه فقبل عذره ، واذن له بالاقامة في أصيلا ، بعد أن اطلق الريفيون سراحه ، ثم أخرج من أصيلا ، فلجأ الى اخيه بفاس ، ثم غادرها الى صفرو ، تاركا أولاده عند الشريف التهامي بالجوطيين ، ثم انتقل بهم الى سجلماسة نهائيا .

الحدث الحادي عشر : عودة العاصمة الى فاس ، بعد مراكش .

كانت اقامة المولى عبد الله بفاس ، هذه المدة الى أن توفي بهـــا ، ايذانا بكون فاس قد أصبحت عاصمة المغرب ، وقد شاهدت فاس خــلال هذه المدة نشاطات ديبلوماسية ، فانعقدت شروط الصلح بين المولى عبد الله ، وبين ولايات الاراضي الواطئة ، وهي تحتوي على اثنين وعشريـــن بندا ، ستصبح فيما بعد ، بنودا تقليدية ، فيما سيعقد بين المغرب ، وغيره من بلاد النصارى ، وفيهم أمريكا أيام المولى محمد بن عبد الله ، ثم ايـــام المولى عبد الرحمن ، فلم يقع الا تغييرات طفيفة فى بنود المعاهدات بعد هذه وقبل ((ايسلي)) كما كان من تلك النشاطـــات ، قـــدوم باشـــادور الصبنيول على المولى عبد الله ، بقصد فكاك بعض الاسرى .

حقيقة ان مراكش التي بويع بها خليفتها المولى محمد ، أصبحـــت عاصمة المغرب ، ابتداء من سنة 1171 ، الا أن فاسا كانت قد تهيأت لهـــا الظروف لتعود اليها مكانتها ، كعاصمة للبلاد ، بالرغـــم مما عانـــت مـــن اضطرابات وأهوال بعد المولى اسماعيل ، مما لا يقل عما عانته ، بعد وفاة المنصور السعدي ، ولم تتنفس الصعداء ويعود اليها والى الدولة رشدها، الا بعد اعتلاء المولى محمد بن عبد الله عرش أجداده ، وهكذا فاننا نجـــد السلطان مولاي محمد ، ياتي الى فاس اثر بيعته بمراكش ، فانتهـــى الى الصفصافة التي خرج اليه لملاقاته بها الودايا وأهل فاس ، ففرق فيهـــم المال والكسى والسلاح ، وطاف به الناس يقبلون أطرافه ولا أحد بحـــول بينهم وبينه . ثم تقدم الى فاس الجديد فصلى الجمعة به ، ثم أتى الى دار الدبيبغ حيث شاهد مخلفات أبيه بها ، ووفد عليه بفاس قبائـل الغـــرب والشرق ، وفى قدمته هذه أحدث نظام المكس بفاس ثم عم المغرب ، فان أهل فاس رفعوا اليه ما كانوا يؤدونه لوالده من وظيفة الموازين ، مثـــل ميزان سيدي فرج ، وميزان قاعة السمن ، وميزان قاعة الزيت ، وغيرها، فاستفتى السلطان علماء فاس فى هذا ، فافتوا بأنه اذا احتاج السلطان الى مال ، فانه يجوز ان يستخلص من الرعية ما تقوم به شؤون الدولة ، فاعتمد السلطان كتابهم فى هذا ، ووظف واجبات على الابواب والفلل والسلـــع ونحوها ، ثم توجه السلطان الى مكناس ، ومنها الى غمارة والاخماس ، ثم عاد الى مراكش مستصحبا معه بعض العبيد من مكناس .

وفى سنة 1174 ، اتى السلطان الى فاس ، فحط بدار الدبيبغ ، وكان القصد من هذا أن يكسر شوكة الودايا ويطهر المدينة من شرهم ، فقبض علي رؤسائهم ، وتمكن من الباقي وقد اعتصموا بفاس الجديد ، وبذلك وضع النهاية لهؤلاء الذين عانت فاس منهم شدائد كثيرة ، وأذاقوهم سوء العذاب ، وقد قاوموا المولى محمد مقاومة عنيفة ، ولكنه لما تمكن منهم ، وكسر شوكتهم عفا عنهم وعطفته الرحم لخؤلتهم ، فلما توفي المولى محمد وبويع ابنه مولاي اليزيد ، أعاد الى فاس جماعة الودايا الذين تربوا تربية عسكرية حميدة أيام أبيه فاستقروا بفاس الجديد ، بعدما خلا منهم طيلة ثلاثين سنة ، قضاها معظمهم فى مكناس ، ونعمت فاس ردحا من الزمن ولم تنغمس فى الفتنة التي حدثت بعد وفاة المولى محمد وبافتراق الكلمة وظهور الملوك الثلاثة ، هشام ، فمسلمة ، بعد مقتل اليزيد ، رحمه الله .

اذ كان من حسن الحظ ، أن الامير الصالح سليمان بن محمد ، كان مقيما بفاس ، فى هذا التاريخ ، فبويع بها ملكا بضريح المولى ادريس ، واجتمعت عليه كلمة اهل فاس والودايا ، فانتقل بعد البيعة الى فاس الجديد ، وكان ذلك سنة 1206 فوفدت عليه وفود المغرب بالبيعة ، ولم يتخلف عنه الا الجهات التي كان بها المولى مسلمة والمولى هشام ، فطارد مسلمة وألجأه بلاد المشرق واندثر أمر هشام وأخيه حسين بمراكش وأحوازها ، بعد حروب وقعت بينهما ، وصفا الامر لمولاي سليمان ، واجتمعت عليه كلمة المغرب كله ، ثم استرجع وجدة التي كان الترك قد استولوا عليها ، فجرد لها جيشا من فاس والودايا ، فاستخلصها منهم وردها الى حظيرة الوطن الام 1211 وهي السنة التي هاجر فيها الشيخ أحمد التجاني من الجزائر ، فاستوطن بفاس واجتمع عليه الناس فيها .

ثم كانت الرسل تاتي الى فاس ، فبعث صاحب تونس حمودة باشا ، رسوله ابراهيم الرياحي ، فقدم على السلطان بحضرة فاس التي احتفلت بمقدم هذا العالم الاديب ، وامتدح المولى سليمان بقصيدة ، اختتمها بقوله:

هذا الذي رد الخلافة غضـــة وسما به للمسلميـــن منـــار
واعز دين الله فهو بشكـــره في أيكها تترنم الاطيـــــار

كما وصل اليه كتاب صاحب الحجاز ، عبد الله بن سعود الوهابي ، الذي كان له صيت فى العالم الاسلامي بدعوته التجديدية فوجه المولـــى سليمان ابنه ابراهيم ، الى الوهابي المذكور ، مع الركب النبـــوي الذي خرج من فاس على هيئة بديعة سنة 1226 ، فادى السفارة خيـــر أداء ، وكان المولى سليمان ، على مذهب التجديد ، الذي نادى به الوهابي ، وان كانت ظروف المغرب لم تسمح باعلانه .

وبالجملة فقد نعم المغرب عامة وفاس بصفة خاصة ، مدة تزيد على نصف قرن من الزمان ، لكنها عادت اليها الفتنة اوائل العقـد الرابـــع من القرن الثالث عشر ، حيث قامت على عاملها الحاج محمد الصفار الـــذي تعصب له أهل عدوته ، وحصل قتال استعمل فيه الطلقات النارية ، التى ترومي بها من أعلا منارة جامع الرصيف ، وكان المولى سليمان بمكناس ، فحاول تهدئة القوم بالكتابة اليهم ، ولما لم يفلح ذلك أتى بنفسه الى فاس، فتعرض له البربر فى الطريق وسلبوا بعض رجاله الذين كانوا فى المؤخرة لجيشه ، فخلص الى فاس حانقا على هؤلاء البربـــر ، الذين انتقـــم من المقيمين منهم بفاس ، واقام بها بضعة أشهر ، يقر الامن فى نصابه ، ثـــم غادرها متنقلا فى المغرب .

وما عزم السلطان على السفر الى مراكش ، حتى تمرد العبيد بفاس ، فتركهم فى فوضاهم التي قوضوا بها الخيام وتوجهوا نحو مكناس ، فعمت الفوضى وعمد الودايا على حارة اليهود فانتهبوها ، وكان فيما نهبوه ذهب تجار فاس ، ثم توجهوا الى فاس القديم فحصل به هرج ومرج ، وحمـــل الناس السلاح دفاعا عن أنفسهم ومتاعهم ، وعينت كلتا العدوتين من يضبط شؤونها ، الى أن جاء كبراء الودايا فتلافوا الامر ، وهدأت الهيعة ، ولكـــن ذلك لم يدم ، بل تلاه ما هو أفظع منه ، وهو :

خروج أهل فاس على السلطان مولاي سليمان ، وبيعتهم لابراهيم بن يزيد ، وكانوا يكتبون الى السلطان بما هم فيه من محن وبـــلاء ، فكـــان

مشغولا عنهم بمراكش ، يعالج فتنا اخرى ، ويعدهم بالقضـــاء عليهـــا ، ويرشدهم الى التحالف مع البربر ، ريثما يعود اليهم ، وقرىء عليهم كتاب السلطان ، بمسجد زقاق الحجر ، ازاء دار ابنه المولى علي ، الذي قرأ على المجتمعين الكتاب ، فلما ازدحموا عليه ضجر وتركهم فدخل داره وأغلق عليه بابه ، فارجف الناس بأن السلطان قد خلع نفسه ، وصار بعضهم يقرع الباب صائحا ((إخرج الينا كتاب السلطان حتى نقرأه)) فقال لهم المولـى علي ((اني احرقته)) فازدادوا ريبة في الامر ، واجتمع اهـــل العدوتين ، والحرب قائمة مع الودايا ورؤساء البربر يستقدمون لنصرة أهـل فاس ، فوقع اختيارهم معهم على مبايعة ابراهيم بن يزيد ، وكان يسكن بدرب ابن زيان قرب المدرسة البوعنانية بالطالعة ، فعدوا عليه بداره التـــي كان لا يفارقها الا لصلاة الجمعة بالمدرسة ، واحضروه وشرطوا عليه ، شروطـــا منها طرد الوداية من فاس الجديد ، فكان ـ كما فى الاستقصا وهو اهـــم مصدر ـ يحرك راسه ، دلالة قبوله لكل شرط يملى عليه .

وهذا له دلالته على أن هذا السلطان لم يكن بتلك الشخصية التـــي تملي نفسها ، بل كان يملي عليها وهي في استسلام ، ويقال ، انه لم يكـن راغبا فى الملك ، وانه امتنع لاول مرة من قبول البيعة ، فقالوا له : ان لم نبايعك بايعنا رجلا من غير الاسرة ، فقبل على خوف

وهكذا بويع المولى ابراهيم ، فوجد حالة البلاد فى ضائقة مالية ، وبعد تفاوض بينهم قر الرأى على ان يتوجهوا الى المراسي لاستخـــلاص الاموال منها ، فتوجه المولى ابراهيم الى تطوان لهذا الصدد ، فدخلهـــا واستولى على ما للمخزن بها من مال وغيره ، ولكن الايام لم تمهله بهـــا الا شهرا ونصفا فتوفي بها وبعد يومين دعي أهل تطوان لمبايعة أخيه المولى السعيد فبايعوه مكرهين . وسرعان ما ورد الخبر بمجيء المولى سليمـان وانه بالقصر الكبير ، فبادر أهل فاس بالعودة اليها ، ومعهم المولى السعيد. فسار المولى سليمان فى اثرهم ، وانتهوا جميعا الى فاس فى يوم واحد،فنزل السعيد بأصحابه عند قنطرة سبو ، ودخل المولى سليمان فاسا الجديد ، وما كان فجر الغد من يوم دخوله حتى هبت الودايا على المولى السعيـــد وقومه فانتسفوا محلته ، واستولوا على ما فيها ، وفر السعيد وحاشيته ،

فدخل فاسا القديم وأغلق الابواب . فحوصرت المدينة ووقع القتال واستمر طيلة سنة تقريبا ، كما حوصرت تطوان كذلك ، وفي هذه الاثناء كان المولى سليمان ما بين طنجة وتطوان وقد استقدم ابن اخيه عبد الرحمن بن هشام ، فأتاه وهو ببلاد الهبط وكان اللقاء بالعرائش ، وهناك تفاوض المولى سليمان مع رجاله ، فاتفقوا على ان يتوجه المولى عبد الرحمن لتطوان ، ويعود المولى سليمان لفتح فاس القديم ، فجاءها سنة 1237 . وكان أهلها قد عضتهم الحروب وشئموها فاختلفت كلمتهم ، وأخيرا أذعنوا لطاعة السلطان . ثم جاء السعيد في جوار المولى عبد الرحمن ، فعفا المولى سليمان عنه ورجاله . وسكنت الفتنة واطمأن الناس بها ثم بتطوان.

وفي السنة التالية ، توفي المولى سليمان ، بعد ما جدد الولاية بالعهد لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام ، ووجهه الى فاس فبويع المولى عبد الرحمن بفاس سلطانا علي المغرب ، وحضر البيعة علماؤها وأشرافها والاعيان والتجار والقواد . ثم وافت من الامصار الوفود بالبيعة، واستبشر الناس بذلك ، وبقي المغرب في دعة وهناء الى ان كان غزو فرنسا للجزائر واحتلالهم لها وما تلا ذلك .

وفي سنة 1247 وقعت فتنة ، بين جيش الودايا ، فخرجوا على السلطان بفاس الجديد ، وثارت المغافرة بباب داره ، فخرج منها في ثلة من رجاله ، ناجيا بنفسه ، فلما علم الودايا بذلك ، ركبوا من فاس الجديد ومن قصبة شراكة ، فادركوا السلطان عند قنطرة عياد وتطارحوا عليه تائبين طائعين ، فاستجاب لهم وعاد الى داره . ثم بعد أيام انتقل الى بستان أبي الجلود ، ونزل شيعته بفاس القديم وترك الودايا وحدهم بفاس الجديد فساءهم ذلك ، وحصل قتال بين فريق منهم وبين عبيد السلطان، فترك فاسا وحمل متاعه الى مكناس فتعرض الودايا له وهو في طريقه ، وقاتلوا العبيد وانتهبوا المتاع والاثاث ، واراد أحدهم الفتك به . وجاء بعض قواد السلطان فضبطوا فاسا ، ونجت من شر الودايا . وبقي السلطان بمكناس ، ثم عاد اليها ونزل خارج البلد ونظر في الشؤون ، وارتحل عنه في اليوم التالي متوجها الى مراكش ، وكانت تلمسان ، قد بايعت المولى عبد الرحمن ، ثم ظهر الامير عبد القادر بنواحي وهران مجاهدا للعدو

المحتل ، فأغرى جيش السلطان تلمسان ، بعد مبايعة أهلها للسلطان واحتلاله بها مدة مديدة ، للمجاهد عبد القادر ، الذي اجتمع الناس عليه ، وانضوى هو تحت لواء السلطان ، فبر به وأحسن اليه . فانتقضت بذلك الهدنة بين المغرب والفرنسيين المحتلين للجزائر والمستولين عليه وكان ذلك سنة 1259 ، وبعد سنة كانت موقعة ايسلي ، التي مني بها المغرب ، واضطربت الكلمة وفسدت النيات ، وعاد الخليفة محمد ابن السلطان مفلولا ، وبقي السلطان بفاس الى سنة 1262 ، حيث خرج منها نحو مراكش التي خرج منها الخليفة ابنه ، متوجها الى فاس . فالتقيا بدكالة حيث عيدا بها عيد المولد . وتابع كل سيره ، فتوجه الخليفة الى فاس مرة أخرى ، وتتابعت المصائب على المغرب وتوفي السلطان 1276 ومن آثاره بفاس تجديد الضريح الادريسي وتوسعة مسجده وتنميقه ، وتجديد بستان آمنة المرينية بفاس الجديد والعناية به بعد خرابه ، وكان السلطان المولى سليمان قد ترك بفاس آثارا (1) عظيمة ، منها المسجد الاعظم بالرصيف ، وكان المولى اليزيد قد حفر أساسه ومنها مسجد الديوان الذي زاد فيه فجعله مسجدا جامعا ، كما زاد في مسجد الشربليين وجعله جامعا ، وبنى مسجد أبي الحسن ابن غالب وضريحه ، كما بنى ضريح الشيخ عبد الوهاب التازي ، وجدد مدرسة الوادي ومسجدها ، وجدد المدرسة العنانية وأصلح مسجد القصبة البالية ، وبنى باب الفتوح على هيأتها الحالية ، وباب بوجلود وباب بني مسافر ، وبنى القنطرة على الوادي بينهما ، وجدد قنطرة الرصيف وأصلح قنطرة وادي سبو ، وأصلح أبواب فاس الجديد كلها ، وجدد طرقاتها ، وقصور الملك الخربة بها وغيرها .

وعلى اثر بيعة المولى محمد بن عبد الرحمن ، ظهر حوالي فاس المولى عبد الرحمن بن سليمان ، وكادت الفتنة تقع بين الناس لولا الفقيه محمد العربي الجامعي الذي كان يلي أمر شراكة بها ، فقام في هذا الموقف خير قيام وحث الناس على الثبات فثبتوا على الطاعة ، وعاد المولى عبد الرحمن بالاخفاق ، فأقام بزاوية العياشي عند البربر واضمحل أمره .

(1) انظر « الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة » لابن زيدان .

واصيب المغرب بكارثة حرب الاسبان الذين احتلوا تطوان ، فى نفس السنة ، فكان لهذا ضجة عظيمة بفاس قام العلماء فيها بحث الناس على الجهاد ، وخطبوا على منابر المساجد ، وكان جامع القرويين وضريح مولاي ادريس مسرحا للتنديد بالعدو الكافر والحض على قتاله ، وتطهير البلاد من أرجاسه .

الحدث الثاني عشر : فاس من الحسن الاول الى الحماية (بداية التدخل)

لما بويع المولى الحسن اثر وفاة أبيه سنة 1290 ، ظهر قرب فاس المولى عبد الكبير بن عبد الرحمن المذكور آنفا ، مطالبا بالملك وكادت فتنته تنشب بفاس ، لولا أن عقلاءها وشراكة أخوال السلطان ، قاموا على قدم وساق فى مطاردة هذا الناجم الفاتن فانتهى أخيرا الى آيت يوس حيث كان القضاء المبرم عليه ، وأتى به مغلولا ، وكفى الله شره .

وفى نفس السنة ، وقعت فتنة بفاس ، بسبب ثورة الدباغين ومداهمتهم للامين بنيس ونهب دياره ، وذلك لانهم ثقلت عليهم الوظيفة التي كانوا يؤدونها عن جلودهم المدبوغة . كما كانت الترتيبات تؤدى بابواب فاس ، وقد تقدم أن المكس فرض أيام المولى محمد بن عبد الله ، وان العلماء أفتوا به . وكانت الدولة تجمع تلك الضرائب والاعشار لنفسها مباشرة ، ثم صارت تعرضها على من يشتري حقها من الحكومة ، ويستخلصها لنفسه ، بوساطة رجال المخزن ، ولما وقع الاتفاق مع الاسبان ، على نزوحهم من تطوان ، مقابل عشرين مليونا من الريال ، تؤديها لهم الحكومة المغربية ، مقسطة على السنين ، وكان بيت المال لا يفي بذلك ، اضطرت الحكومة الى احداث ضرائب وترتيبات جديدة ، والزيادة فى بعضها . فكان هذا مما أساء بعضهم وأسخط بعضهم فأعلنا سخطهم ، طيلة سلطنة المولى محمد بن عبد الرحمن ، وهي عشرون سنة كاملة ، فلما تولى ابنه مولاي الحسن ، ازيلت المكوس التي كانت موظفة على الابواب والاسواق ، وكان من جملتها ما يؤدى على بيع الجلد ، ففرح الناس بذلك ، ولكن سرعان ما عادت تفرض عليهم من جديد . فضاق بهذا الدباغون بفاس ، وتوجهوا الى الامين ثم أعلنوا الخروج عن ربقة الطاعة . واستفحل الامر ، فاتى

المولى الحسن لفاس ، وحاول تهدئة الحال بقدر المستطاع . ولما لم يكف الثائرون عن أعمال التخريب ، وتهديد المدينة البيضاء (فاس الجديد) وصار الرصاص يتساقط بساحة بوجلود ، أمر المولى الحسن بمقابلة الشدة بالشدة . فسرح عليهم العساكر وصاروا يرمون بالقنابل ، واقتحمت طائفة منهم فاسا من سور الطالعة ، فأذعنوا بعد قتال .

وكانت هذه الفتنة هي الوحيدة التي وقعت أيام المولى الحسن بفاس . ولم يرد هذا الملك أن ينقطع عن المدينة ، بل كان يتردد عليها في الفينة بين الاخرى ، ويريح بها ، وهو يتنقل في المغرب ، ويتفقد كل بقعة منه ، الى أن وافاه الاجل وهو كذلك في تنقله رحمه الله رحمة واسعة .

ومن أعماله بفاس اصلاح مجرى واديها ، وبناء دار السلاح ، داخل باب السكمة ، تحت اشراف المهندس الايطالي « نوطيرا »

توفي المولى الحسن سنة 1311 و لما بويع ابنه المولى عبد العزيز ، وقامت في عهده الفتن وكان على رأسها ثورة « بوحمارة » سنة 1319 ، وكان هذا الفتان قبيل اعلان ثورته ، يأتي الى فاس ، ويدعو للثورة سرا ، سمعت من شيخنا سيدي الحسن الزرهوني رحمه الله ، ان هذا الفتان ، جاء الى فاس ، وهو طالب علم بها ، فبعث في طلبه ، لانه كان على معرفة به ، فلمح فيه شيئا يختلج بنفسه ويعتلجه ، وكان يتصل بمختلف الطبقات. ولما أعلن الثورة ، وجد له من فاس أتباعا من التجار ، وفدوا عليه بتازا ، ولازمه بعضهم ، ثم سكنوا مليلية بعدما وقع القبض عليه ، وأراح الله منه البلاد والعباد .

لقد عادت قضية الضرائب الى مشاكلها ، وكانت فاس على راس المتذمرين منها ، وكانت الحماية الاجنبية المتوثبة ، تنخر في كيانها وتزيد في هذا التذمر . لان هؤلاء المحميين ، كانوا لا يؤدونها ، وفقا لمعاهدة مدريد ، وكان الانجليزيان ، القائد « ماكلين » والسياسي « هاريز » على اتصال تام بالمولى عبد العزيز ، يعتمد عليهما ويستشيرهما في المهام . فكان هذا من مباعث التذمر في مدينة فاس وخارجها . واخيرا رهنت الجمارك ، وامتلات الخزينة بستين مليونا من الفرنكات ، تقدمت بها الجمهورية الفرنسية ، على ضمانات مختلفة أحرزتها من الدولة .

هذه الاشياء مجتمعة عجلت بالكوارث التي واجهتها البلاد فيما بعد ، وكانت الاصابع الاثيمة تعمل من الخارج في تحريكها .

واستمرت فرنسا في سياستها الرامية الى تحطيم سيادة البلاد ، ولم تعبأ بتصريحات ((غليوم)) في طنجة وخطبه التهديدية . وقد وجدت الفرصة سانحة ، في حادث الدار البيضاء ، فاحتلت وجدة ، ووجهت مدافعها المدمرة على الدار البيضاء وفتكت بأهلها في وحشية وضراوة متناهية ، مهدت بها لاحتلال الشاوية ، فكان لهذا كله انعكاسات على فاس التي يغلي بركانها ، على حين كانت مراكش قد أعلنت بيعتها للمولى عبد الحفيظ ، وخلعها للسلطان الذي كان مقيما بقصره من فاس الجديد ، وقامت الحرب بين هذين الاخوين : هذا بجيشه من فاس ، وهذا بآخر من مراكش . وترجح بعد سنتين من المعارك القاسية ، كفة المولى عبد الحفيظ ويجتمع أعيان فاس وعلماؤها وأشرافها ، ويكتبون بيعتهم له ، في وثيقة أمضوها بأسمائهم .

وهكذا أصبحت فاس سنة 1326 ، تحت سلطان المولى عبد الحفيظ، فدخلها واستقبله أهلها في حفاوة ، وسلم أخوه نفسه لفرنسا ، وسرعان ما قامت عليه شراكة متفقة مع القبائل المجاورة لفاس ، فحاصرته بها . على حين ثار عليه بمكناس أخوه المولى الزين . وكانت الجيوش المغربية ، قد أنهكتها المعارك والحروب التي خاضتها للقضاء على ((بوحمرة)) وجاءت به الى فاس ، فوضع في قفصه المعروف بمتحفها .

وما تنفس المولى عبد الحفيظ الصعداء ، بعد القضاء على خصومه ومناوئيه ، حتى أذعن للحماية الاجنبية . ووزعت البلاد بينها . وقد ترك البلاد ، راكبا البحر الى فرنسا ، فلم يعد اليها الا في نعشه ، ودفن بفاس مسقط رأسه ومملكته الغابرة .

ومن آثار المولى عبد العزيز بفاس دار الآثار ، أما المولى عبد الحفيظ بها ، فكانت تلك المؤلفات والمنظومات التي نسبت اليه .

الحدث الثالث عشر : فاس من ظلمة الحماية الى فجر الاستقلال :

اذا كتب لمدينة ، تاريخ بالدماء ، فان فاسا تكون أحق بهذا التاريخ ، وقد مضت لنا صفحات من هذا التاريخ ، منذ الدولة الادريسية ، في تلك الحروب الداخلية . أما الآن فهي صفحة تكتب بأيد اجنبيـــة ، وتسطـــر سطورها التي لم نجف الا في عشرات السنين .

لقد فرضت الحماية البغيضة ، واستنام لها جل مدن المغرب ، ولكن فاسا ، قامت قيامتها ، وشمرت للدفاع عن حوزتها واستقبلـــت هـــؤلاء الضيوف الثقلاء ، بل الذئاب الكاسرة ، خارج أسوارهـــا ، فأذاقتهـــم من مرارة عزتها ، فكان العامة وعلى رأسهم هؤلاء ((الصناعيـــة)) وأهمهـــم الدباغون ، يخوضون المعارك بسلاحهم الابيض ، معلنين عن غضبة الشعب ، يشاركهم بعض الاشراف والعلماء ، الذين طوى صفحتهم التاريخ ، ولكـــن صورهم الفتوغرافية ، وهم يساقون أرتالا ، الى الاعدام ، وهم واقفـــون يستقبلون افواه البنادق من هؤلاء الذين يعشقون الحرية لبلادهم والعبودية لغيرهم ، صورهم هذه ما زالت تنطق بلغة الجهاد الفصيحـــة ، وتشهـــد لفاس ببطولتها واستشهادها .

لقد كبتت انفاس مدينة فاس ، بهذه الضغطة الخانقة ، ولكن فاسا ، ظلت تتنسم الهواء ، بالرغم من هذه الهمجية : هواء الامل في المستقبل ، وهواء الحرية الذي ينبعث من داخلها .

كانت الثورة الريفية ، بعد هذه البطشة الكبرى ، بعشر سنـــوات ، فكنا آنذاك بها لا نجد الا الاسئلة تنبعث من هنا وهناك في لهفة وفي تشوق الى الخلاص . وتستمر هذه الاسئلة طيلة خمس سنوات ، حتى يكـــون الجواب عنها قاسيا ، ويحل بطل الريف مقبوضا عليه ، مغلوبا عليها . وكان فرنسا ، تعمدت هذه الاقامة القصيرة ، لهذا البطـــل ، بهـــذه المدينـــة التحريرية ، حتى تكون العبرة للمعتبر ..

ولكن هذه العبرة ، لم توقع أصحابها في الياس والاستسلام ، بل ما مضت عشر سنوات اخر ، حتى كان البركان يقذف بحممـــه وحتـــى كان صوت الوطنية يرتفع عاليا ، في جامع القرويين ، وحتى كانـــت اصداؤه

تختلط باصداء الاضطهاد والتعذيب ، فى شوارع فاس وبمشوار الباشوية البغدادية ، وفى سجونها الزنزانية .

تلك كانت الصرخة الكبرى ، والغضبة العارمة ، على الظهير البربري، المشئوم ، إستغفر الله ، بل السعيد ، نعم السعيد ، لان فى غضبته النارية كان انصهار الشعور العام بالوطنية العارمة ، التي تاججت فى المغرب ، فكانت الشعلة المقدسة التي احترق بها الاستعمار البغيض الى الابد ، فكان هذا الاستقلال الذي بني أساسه على رضوان من الله ، ملكنا المجاهد فى الله حق جهاده المجاور الى قدسه ، محمد الخامس ، نور الله ضريحه ، وأثابه على ما خلفه لمغربنا الحبيب من أمجاد ، تلقاها باليمين ولي عهده وأمين سره ورفيقه فى التضحية والفداء ، الملك المناضل المظفر ، الحسن الثاني ، حامي حمى الوطن ، ورافع رايته خفاقة فى سماء العز والكرامة ، والساهر على رعايته واستكمال سيادته ، نامة غير منقوصة ولا مبخوسة ، فها هو المغرب بهمته وصدق عزمته ، يسترد ما ابتز منه في الجنوب منذ عهود وهو بعون الله ، على أن يضم اليه ما اغتصب منه فى الشمال منذ قرون ، وما ذلك على الله بعزيز .

تطوان   محمد ابن تاويت

الشعر والحياة

عبد الواحد أخريف

يـــا ظـــلال الخيـــال فى الوانـــه ونشيـــد الخلـــود فى ألحـــانـــه
ومجـــالي الجمال فى لوحة الـــفـــــــن وفى سحره وزهـــو افتـــنانه
وحديث الشعور من رعشة القلـــــــب لدى زهـــوه وفى أشجـــانه
وربيعـــاً يـــدوم حسناً اذا ولــــــت زهـــور الربيـــع فى ابـــانه
وعبـــيراً يذكي النفوس السكارى عاشقـــات القصيـــد فى أوزانـــه
لغة القلب أنت يـــا شعر فاسلم من عوادي الزمان أو شيطانـــه
انت همس الشفاه فى معبد الحـــــــب ، ودمع الكئيب من أحزانـــه
انت نجوى الضمير فى هداة الليـــــــل ، رحيـــم الفؤاد فى خفقـــانه

أنت فى الفجر غنوة ينشر الصبــــح عليها البديـع من عقيـانه

نغمـة النـاي ساقهـا بحنـان عنـد راعي القطيع نثـر بنـانه

منطق الطير حين ينشـد لحنـاً فـوق غصن يميـد فى بستـانه

وخرير الميـاه تجـري لجينـاً فى بسـاط يهيـم فى ألوانـه

وهديل الحمام فى القفص السـا جي بكـاء لـه على أوطـانه

وهدير الامواج تعلو على اليـــم وتحكـي السنين من أزمانـه

وحديث العيون بين حبيـبيــن ليبقى الغـرام فى كتمـانه

ونشيـج الام التى فقـدت طفـــلا فطـال البكـاء من فقـدانه

وحفيف الاوراق قـد مسهـا مــــر نسيم الصبـا على اغصانـه

نغم انت فى الكمـان وفى العـو د يزيـد انسجـامه ببيـانـه

ونضار الاصيـل خمر وكـم من شاعـر صاغ وصفه من دنانـه

انت فى الرعـد والريـاح اذا ولــول منهـا النذيـر فى خلجـانه

انت فى عـارض يسـح على الأر ض ويعطى الجزيل من احسانه

انـا القـاك اينمـا كان روحي هائمـا يجتلـي حقيقـة شانـه

انـت سر الحيـاة فى كل شىء لست ادرى سوى بهـا عنوانـه

* * *

« امرؤ القيس » فى ظلالك يخطو   « والمقري » يشجيه شدو حنانـــه

« ونبي القريض » يخطر تيــهـــاً   ويميـــل الدنـــا بسحـــر بيـــانه

« عمر الشعر » والعذارى منــاه   معجـــبـــات بسحـــره وجمـــانه

« وامير القصيد » قـــال بصـــدق   مظـــهـــرا قـــدره لـــدى خلانـــه

« لم تثـــر امـــة الى الحـــق الا   بهدى الشعر أو خطى شيطانه »

ذاك «شوقى» ومن كشوقى اذا غـــــــنى ففنى الزمـــان من الحانـــه

فليدم شعـــر امـــة مجـــد الحـــــــــق وحـــد الظـــلوم من طغيـــانه

ولتـــدم للقصيـــد دولتـــه الكـــبـــــــــرى امـــام العزيـــز من سلطانه

تطـــوان   عبد الواحد أخريف

مؤلفات
الإمام أبي عبد الله المازري
بالمكتبات المغربية

محمد ابراهيم الكتاني

توجد بالمكتبات المغربية ــ فيما نعلم ــ ثلاث مؤلفات للامام المازرى رحمه الله ، وهــــى :

كتاب المعلم ، بفوائد صحيح مسلم

وشرح التلقين للقاضى عبد الوهاب

وجــزء من شرح المــدونــة

فأما كتاب المعلم فيوجد فى الخزانة العامــة بالربــاط وفى المكتبــة الملكيــة بالرباط ، وفى مكتبــة جامع القرويــين بفــاس ، وفى المعهــد الاسلامى بتارودانت .

ففى الخزانة العــامة نسختــان :

احداهما فى جناح مخطوطات الاوقاف تحت رقم ق 94 وهى بخــط مغربى جيد ، وقع الفراغ من نسخها يوم الاحد أول يوم من شهر شعبان

المكرم عام 629 هـ وهى خالية من تسمية الناسخ وتقــع فى 383 صفحة مسطرتها 29 مقياسهــا 190/270 ·

وصور عنها شريط يحمل رقــم 716

وثانيتهما تحمل رقم 1829 تنقصهــا الورقــة الاولى وهى بخــط مشرقى ، ورقاتها 129 مسطرتها 32 مقياسها 170/250 ·

وفى المكتبة الملكية بالرباط ثلاث نسخ من كتاب المعلم أولاها تحمــل رقم 4348 ، وهى بخط احمد بن الحاج محمد التنغملتى ، وقع الفراغ من نسخها فى أواسط محرم 1085 هـ بخط مغربى واضح ، وهى فى حجــم كبير ، وصفحاتها غير مرقمة · وثانيتها رقم 5085 فرغ من نسخها ضحوة يوم السبت حادى عشر رجب 962 بخط مغربى جميل ، تنقصها من أولها أوراق يسيرة ولم يسم ناسخها نفسه كما أن أوراقها غير مرقمة ·

والثالثة برقم 320 ، النصف الاول ، مبــتور من أولــه وآخره ، بخط مغربى جميل ، فى قالب صغير بدون ترقيــم ، وفى مكتبــة جامــع القرويين بمدينة فاس نسختان من كتاب المعلم · تحمل احداهما رقــم ل 152/40 وقع الفراغ من نسخها عام 590 اى بعد وفاة المؤلف بنحو 54 سنة · وتقع فى جزء واحد ، وتحمل الثانية رقــم ل 164/40 ، الموجود منها الجزء الثانى فقط ، وقع الفراغ من نسخه فى حياة المؤلف فى رمضان 530 وهو من تحبيس احد ملوك بنى مرين على خزانة القرويين عام 807 هـ

كما توجد بمكتبة القرويين عدة اجزاء غير متلائمة من المعلم ·

وفى مكتبة المعهد الاسلامى بمدينة تارودانت نسخة ناقصة من المعلم كتبت سنــة 983 هـ وتحمل رقــم 96 ·

2 — واما شرح تلقين القاضى عبد الوهاب فتوجد منــه اجــزاء فى الخزانة العامة بالرباط .

ومكتبة جامـــع القرويين بفـــاس

ومكتبـــة ابن يوســـف بمراكـــش

والمكتبـــة الحمزاوية بالاطلـــس

فأما فى الخزانة العامة فيوجد :

مجلد يحمل رقم ق 30 مبتور الاول والاخر ولا توجد فيه تمسيـــة المؤلف ، مما جعل مسجله فى الدفتر يقول عنه انه مجهول المؤلف .

ولكن التعرف على مؤلفه ليس بالامر الصعب .

أولا من اسلوبه الذى لا يخفى ، وثانيا انه احال فى الورقة 38 على كتابه (قطع لسان النابح) فلم يبق اشكال .

وأوله : التحيات لله الزكيات لله ، الخ من كتاب الصلاة وبآخـــره باب الاستسقاء ، فيظهر انه المجلد الثـــانى .

والموجود من هذا الجزء 143 ورقة . وقد اضيفت اليه عند تجليده الورقة 14 مع انها ليست منه ، واثرت فيه الرطوبة المصحوبة بفتـــك الارضة ، فصار مخروم الجوانب وخلال السطور فضاعت حروف عديدة من كلمات علاوة على تمزيق بعض الورقات وقد وقعت معالجته بوضع ورقاته بين أوراق البلاستيك الشفافة حتى تمكن الاستفادة منه .

وهو بخط مغربى جميل مسطرته 29 مقياسه 200/275

وطريقة المؤلف ان يورد كلام القاضى عبد الوهاب عقب قولـــه : قال القاضى ابو محمد ، ثم يتبعه بقوله . قال الفقيه الامـــام ، مـــوردا أسئلة فى الموضوع ، ثم يجيب عنها .

ويظهر من اسلوبه انه كتاب الفه المازرى وليس تقريرات القاها فى الدرس وكتبها بعض تلامذته ، كما وقع فى المعلـــم كما هو معروف وفى شرح المدونة . حسبما سيأتـــى .

وقد قال القاضى عياض السبتى فى فهرسته الغنية عن شرح شيخه المازرى للتلقين : وليس للمالكية كتـــاب مثلـــه .

وفى الخزانة العامة شريط يحمل رقم 118 للجزاين الاول والثانـــى من شرح التلقين ، مصورين عن نسخة المكتبة الحمزاوية (مكتبـــة ابى سالم العياشى) ويحملان فيها رقم 107 .

ويوجد فى مكتبة جامع القرويين بفاس جـــزء من (شرح التلقـــين) تحت رقم ل 349/40 .

والجزآن الرابع عشر والخامس عشر تحـــت رقـــم ل 256/80 ، وهمـــا فى غايـــة التلاشى

وجزء تحت رقم ل 825/80 لعله الاول ، وهو مبتـــور

وفى القرويين تحت رقم 335/40 جزء من المعين على كتاب التلقين لم يسم مؤلفه ، فان صح ما قاله المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب من أن ذلك اسم شرح المازرى فيضاف هذا الى الاجزاء السابقة الذكر .

وفى برنامج الكتب العربية الموجودة بخزانة جامع القرويـــين الذى طبع بفاس سنة 1918 مصدرا بمقدمة للفرنسى أ . بيل ذكر لعشر قطع من شرح المازرى على التلقين تحمل فيه الارقام الترتيبيـــة التاليـــة : 818 ، 819 ، 820 ، 821 ، 822 ، 824 ، 824 ، 840 ، 842 ، 881 ، 944 ، ولعل هذه القطع هى التى جمعت منهـــا الاجزاء السابقة الـــذكـــر .

وفى مكتبة ابن يوسف بمراكش المجلد السادس من شرح التلقين فى مجلد ضخم حوالى 400 ص فيه بعض كتاب السلم الثانى وكتاب السلم الثالث . والاقضية ، وبعض الشهادات .

وهو بخط مغربى ردىء به تصحيف وتحريف وفى ورقته الاخيرة بياض وعلى أول صفحة منه وثيقة تحبيسه على خزانة جامع الحرة والدة السلطان زيدان السعدى بتاريخ أواسط المحرم فاتح عام سبعة وعشرين والف ، من طرف زيدان وبتوقيعه بخط يده وهو يحمل رقم 543 .

3 ـ شرح المدونـة

يوجد فى جناح الاوقاف بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط ، جزء فريد من شرح المدونة للمازرى ، تحت رقم 150 ق وهو من بين نوادر المخطوطات وفرائدها التى وفقت للعثور عليها فى مكتبة الزاوية الناصرية بتامكروت ـ بصحراء المغرب ـ وقد كنا عرضناه فى جامعة القرويين بفاس بمناسبة الاحتفال بمرور الف ومائة سنة على تأسيسها وذكرناه فى قائمة نوادر المخطوطات المعروضة بهذه المناسبة تحت الرقم الترتيبى 159 والتى نشرناها اذ ذاك ، وهذه المخطوطات كانت مختارة من عدة مكتبات مغربية ولا نعرف ـ لحد الآن ـ جزءا آخر من شرح المدونة للمازرى فى مكان آخر .

ولكن المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ذكر فى كتيبه الامام المازرى ص 63 ان بمكتبة القرويين جزءا فريدا من تعليق المازرى على مدونة سحنون . فهل يقصد هذا الجزء او جزء آخر . مع أن برنامج كتب القرويين المنشور بفاس مصدرا بمقدمة بتوقيع بيل لم يشر لوجود هذا التعليق ولا نعرف عنه شيئا من جهة أخرى .

ومما يلفت النظر ان كتيب المرحوم عبد الوهاب صدر سنة 1955 وانا لم اعثر على الجزء الا سنة 57 ولم انشر خبره فى القائمة الا سنة 60

وهذا الجزء بخط مشرقى جميل واضح خال من تسمية الناسخ وتاريخ النسخ ، صفحاته 277 ، مسطرته 25 ، مقياسه 190/260 .

وعلى ظهر الورقة الاولى بخط مشرقى غليظ : من شرح المدونة ، وتحته بخط مغربى دقيق للامام المازرى ، وعلى الجانب الايسر من وجه الورقة الاولى بخط جميل . الحمد لله ، صاحب الكتاب من تلامذة اللخمى وعبد الحميد ، انظر كتاب الوكالة ، وعن يمينها : وهو الامام المازرى وعلى الجزء تملكات ، واسم أحد قرائه من المشارقة ، ويتخلل الجزء تصحيف كثير جدا ، والغالب على الظن ان فيه ايضا اسقاط كلمات يقتضيها السياق .

وهو يشتمل على الموضوعات التالية :

كتاب النكاح الاول ، كتاب النكاح الموقوف ، باب نكاح التفويض ، كتاب النكاح الثالث ، انكحة المشركين ، كتاب الرضاع ، كتاب ارخاء الستور ، كتاب الايمان بالطلاق ، فصل فى طلاق المريض . كتاب التخيير والتمليك ، كتاب الايلاء ، كتاب اللعان ، كتاب الظهار ، كتاب العدة وطلاق السنة ، كتاب المفقود باب فى السكنى ، كتاب الوكالات ، كتاب القراض فصل فى القراض بالدين ، من كتاب كراء الرواحل والدواب ، كتاب الشفعة ، باب فى الشفعة بين أهل الذمة ، باب الشفعة بين أهل الميراث ، باب فيمن اذن لرجلين أن يبنيا عرصته والشفعة فى الانقاض ، باب فى اقسام الشفعة ، باب فى شفعة الصبيان والمريض والغائب والحاضر والمقيم والمأذون ، باب فى اختلاف الشفيع والمشترى والبائع ، باب فى عهدة الشفيع ، باب فيمن اشترى شقصا بثمن الى اجل ، باب فيمن اشترى شقصا له شفيعان سلم احدهما ولم يسلم الآخر ، وفيه فصول ، باب فى هبة الثواب والشفعة فيها ، وفيه ايضا فصول .

وهو يورد الآية الواردة فى الموضوع ، ويورد الحديث ، وقد ينسبه لمخرجه ، وقد يذكره بمعناه دون التزام لفظه .

وينص على الاجماع فيما اجمع عليه ، وربما ناقش دعوى الاجماع فى المسألة .

ويذكر مذاهب الصحابة والتابعين وائمـة المذاهـب ، كما يذكـر الخلاف فى المذهب

ويذكر دليل كل قول ، ووجهه ، وسبب الخـلاف

واحيانا يقول عن قول من الاقوال ، ولعل وجهه كـذا

واذا لم يظهر له وجه قول من الاقوال صرح بذلك

وقلما يقول : والصحيح قول فلان .

وكثيرا ما يقول عن قول ان قائله ذهب اليه مراعاة للخلاف

وكثيرا ما يرد الاقوال المختلفة الى قول واحد يقوله انها خلاف فى حال

وكثيرا ما يذكر صلة المسالة الفقهية بمسائل اصول الفقه

ويربط بين الخلاف بين الفقهاء والخلاف فى مسألة اصولية أو اعتقادية أو نحويـة

وتتجلى فى الكتاب بصورة واضحة ثقافة المؤلف المتيـنة فى الميادين اللغوية والنحوية والادبية والاصولية والقرآنية والحديثية والفقهية .
كما يتجلى فيه سمو اخلاقه . من التثبت والتحرى والحرص على الانصاف وعفة المنطق والتحرر الكامـل من التعصب المذهبـى الاعمى ، مع التحاكم الى الحجة والدليل .

فأنت لا تكاد تجد فى كلامه كلمة نابية ضد احد فقهاء ، أهل السنة بل يلتزم معهم كامل الادب والاحترام ولا يكاد يقسو الا مع المبتدعـة الخارجين عن جماعة اهل السنة ، حتى انه ربما عد خلاف بعضهم فى بعض المسائل غير خارق لاجماع المسلمين .

وبالجملة فهو يعامل اصحاب المذاهب السنية ــ من غير المالكية ــ كما يعامل مقلدة المذاهب اصحاب الاقوال داخل مذاهبهم ، من غير طعن فيهم ، ولا تعصب عليهم .

والى جانب ذلك فهو يشير الى نوازل وقعت فى عهده فاجاب فيها بما وافقه فيه بعض معاصريه أو خالفوه فيه .

فقد أورد مسألة من الصداق اختلف فيها عبد الحميد واللخمى ثم قال : ووقع هذا السؤال بعد ذلك وافتيت بمذهب عبد الحميد ونصرته فى ذلك (ص 35 — 36) .

وذكر فى ص 38 مسألتين افتى بخلاف ما أفتى به الجماعة فيهما ، قال : وتوقف القاضى حتى شهدت عنده بينة ان السيورى أفتى بذلك فى نازلة مشابهة .

والغالب على الظن أن شرح المدونة هذا ، املاءات أملاها الامام المازرى على المدونة عند تدريسها ، فسجلها بعض طلبته — كما هى الحال فى المعلم ، فانت واجد فيها أكثر من مرة عبارة موعد وهو ما نعبر عنه بالدرس ، كما أن اختلاف الاسلوب فيه يؤكد ان الكاتب متعدد وليس كاتبا واحدا .

الربـاط **محمد ابراهيم الكتانى**

عام الهجرة نحو الضفاف الخضر

أحمد مفدى

أيتها الساقية / الأنهار / الاشواق . . !

أيتهـا الساكنـة الأعمـاق . . .

يجرى فيـك هوى ناقتنـا

رمـلا . . .

يكبـر فيـك نخيـلا / عهـداً . . .

ونجائب ترقـل نحـو الاصبـاح

تمتد على كتفيها الأغصان الموصولة فى الاعماق . . !

بدبيب المسرى المنساب غمامة . . !

وتموج صحارى الغرب المعشوق / العاشق . . .

أصواتاً / أحداقاً / آمـــلا . . !

(تتناغم ! والجفن الزاحف منها حمامه !)

* * *

وأراك هـــوامـــل . . .

يكبـــر فيـــك المـــزن

هذا العهد الآتى ، يحمل دفئاً وشتـــاء !

وتلـــوب سحـــاب الخصـــب

من فوق سواحلك المنهوشة من جهـــة الشرق . . !

ومـــدائـــنـــك

ان عـــاشـــت مـــسبيـــة . . !

هـــا . . . أمست تغضى من شائنة الطامع . . !

فـــأعـــود الـــيـــك

أزبـــر منـــك بقايـــا النشرة

* * *

أيتهـا الساقية / الأنهـار / الاشواق . . !

انـفـتـحـى

بارجـة الشرق / الغرب . . !

منـك شراع الآتـى

يـقـطـر آمـالا

تسـؤر فى ضاحية البعث . . !

انـفـتـحـى

بـارجـة الشـوق / الاعـراض

منك رياح الدفء تفـرخ فى السـاح .

كتاكيـت الأظفـار ،

منـاقير الصقـر الرافـض . . !

أن يجتث الأوتار من القلب / الاوتاد من الارض . . !

ويـثـور اذا

قصت بحقائب أعـداء الرغبـة

أجنحـة تتمطـى . . !

فى صحف الكف خرائط أوطان . . !

* * *

فــانــفــتــحى . . .

هــا . . . آتيــة من طنجــة

أشياء سائمة ، وجياد سومها حب الاطلاق . . !

تخدى فيك ومنك اليك جيــاد

وطــريــدة . . !

أشيــاء سائــمــة غــرتى

وجــريــدة

آمــال طائفــة موقــوتــة . . !

والمسرى اسراء فى القلب مسيرة . . !

* * *

أيتهــا الاحــداق انفتحى

الآتــى من طــنــجــة

قد تغريــه تنــائــف هــذا الصحــو

فيسيـــح جنوبـــا أو شرقـــاً . . .

أو ينجـــر بـــه الارقال الى مرج الابحـــار . . !

أو يرتـــج يـــوم يصيـــح الكـــل :

الوحدة بلسم جـــرح الماضى

وتمـــام النـــشـــوة . . !

فانفتحى نـــافـــذة فى الغـــرب . . .

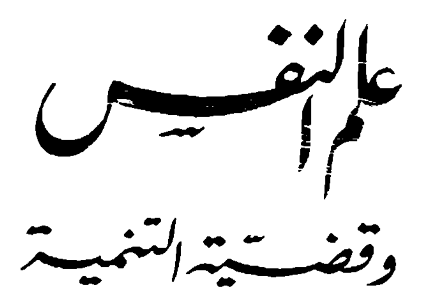
يـــا نـــاقـــلة الأسرى . . .

كونى بارجـــة الحلم الداهـــق بالأسرار

فهـــا أنت على بلـــد الأبطال وصال

وحمامـــه . . . !

فـــاس **أحمد مفدى**



د. فرج عبد القادر طه

تمهيد :

تعتبر التنمية (بمختلف جوانبها) قضية هامة تشغل كافة المجتمعات على اختلاف المذاهب الأيديولوجية التى تتبناها وتتخذها أساسا لتنظيم النشاط والانتاج والعلاقات فيها . بل ان كثيرا من المجتمعات تتباهى بأنها حققت معدلات تنمية ترى أنها فاقت فيها غيرها أو فاقت فيها ما توقعته أو خططت له ، بينما نجد مجتمعات أخرى فشلت فى تحقيق معدل التنمية الذى توقعته أو خططت له تشير الى هذا الفشل فى استحياء وتجهد نفسها بحثا عن تبرير مقبول بين أفرادها فى الداخل وأصدقائها أو منافسيها فى الخارج . والسبب فى اهتمام المجتمعات بقضية التنمية واضح ؛ ذلك أن التنمية فى نهاية الامر تعنى مزيدا من الانتاج الذى يحتاجه المجتمع لاستهلاكه ولرفاهيته ولتصدير فائضه أو المبادلة عليه لقاء سلع أخرى يحتاجها من مجتمع آخر ؛ كما أنها تعنى أيضا مزيدا من النجاح فى مواجهة المشاكل الاجتماعية الهامة وحلها ، سواء مشكلة الفقر أو مشكلة الامية أو مشكلة المرض أو مشكلة البطالة . . . وما الى ذلك من مشكلات يصعب حصرها ، ويضيق بنا المقام عن ذكرها .

وتقوم مختلف العلوم بمختلف فروعها بدور أساسي فى تحقيق التنمية . ولا شك أن معدلات التنمية الهائلة فى أمريكا وفى روسيا وفى الصين وفى اليابان وغيرها ، ما كانت لتتم لولا التقدم العلمى المذهل الذى وصلت اليه هذه البلاد والذى تبعه استخدامه التطبيقى لتحقيق التنمية . بل ان أوروبا التى تحطمت من جراء حربين عالميتين عنيفتين فى اقل من ثلث قرن ، ما استطاعت أن تقوم هذه القومة المذهلة فى سرعتها بعد هذا التحطيم الشديد الا على أساس متين من العلم واستخداماته التطبيقية . ويكفى دليلا على ذلك سرعة نهضة ونمو كل من روسيا وألمانيا واليابان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبعد كل التدمير الذى تعرضت له من جرائها .

وفى هذا المقال نحاول طرح الدور الذى يقوم به علم النفس كأحد العلوم المختلفة التى تتشابك فى وضع الاساس العلمى للتنمية فى أى مجتمع مهما كانت قيمه واتجاهاته . ونظرا لأن علم النفس يتخذ من الشخصية الانسانية وسلوكها موضوعه الرئيسى ، ونظرا أيضا لأن التنمية تعتمد بدرجة كبيرة على نوعية وخصائص الشخصية السائدة فى المجتمع الذى ينشد التنمية ؛ فان خدمة علم النفس — فى رأينا — لقضية التنمية ترتكز على منطلقات أربعة ؛ تتعلق ثلاثة منها بالشخصية فى حين أن المنطلق الرابع ينعكس فى نهاية الأمر بالتأثير عليها . أما هذه المنطلقات الاربعة فاننا نحددها فى التالى :

1 — تنمية امكانيات الشخصية وطاقاتها .

2 — الاستفادة المثلى من امكانيات الشخصية وطاقاتها .

3 — الحفاظ على امكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها اذا اضطربت .

4 — علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها .

ونتناول فيما يلى كلا من هذه المنطلقات الاربعة بشىء من التفصيل :

أولا : تنمية امكانيات الشخصية وطاقاتها :

ان الشخصية الانسانية منذ بداية تكوينها جنينا وطوال حياتها في حاجة مستمرة الى الرعاية التى تحقق لها تنمية امكانياتها وطاقاتها واستعداداتها الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة حتى تصل الى المستوى اللائق بما ينتظر منها فى مثل مراحل حياتها وظروفها . فالرعاية الطبية والاجتماعية للمرأة الحامل تتضمن رعاية للجنين وتهيئة أنسب الظروف لنموه الطبيعى . كما أن رعاية الأم لوليدها ، ثم بعد ذلك رعاية المدرسة لتلاميذها ، ومن بعد رعاية مؤسسة العمل لمستخدميها ورعاية المجتمع عامة لأفراده ؛ كلها تهدف الى تحقيق نفس الهدف الخاص بتنمية امكانيات الشخصية وطاقاتها واستعداداتها المختلفة حتى يمكنها أن تؤدى دورها وتواصله بالكفاءة اللازمة لعملية التنمية التى يستهدفها المجتمع .

ويقوم علم النفس بدور ذى قيمة كبيرة فى هذا المجال . فهناك الدراسات والتوصيات الهامة الكثيرة التى يقدمها علماء النفس والخاصة بكيفية رعاية الأم خاصة والأسرة عامة لاطفالها وتربيتها وتنشئتها لهم بالكيفية التى تسمح لهؤلاء الاطفال بتفتح امكانياتهم الجسمية والعقلية والشخصية ، وتحافظ على صحتهم النفسية ، وتغرس فيهم الفضائل الخلقية . بل ان وسائل الاعلام الجادة من صحافة واذاعة وتليفزيون كثيرا ما تعهد الى بعض علماء النفس ومتخصصيه باعداد المقالات والاحاديث والموضوعات والبرامج النفسية التى ترشد الآباء والامهات وأفراد المجتمع عامة الى كيفية تربية الاطفال وتنشئتهم ، وتناول مشكلاتهم ، وعلاج انحرافاتهم .

وتزخر كتب علم النفس عامة وتلك التى ألفها المحللون النفسيون وعلماء نفس الطفل خاصة بالبحوث والآراء التى تؤيد ما قلناه فى مجال رعاية الاطفال وتنشئتهم . ولا يتسع المقام هنا الا لايراد مثلين على ذلك :

1 ــ فى بحث شامل قامت به كمنجز Cummings (14 صـ 34) فى انجلترا نشر عام 1944 ؛ على 239 طفلا بين الثانية والسابعة

من العمر لدراسة الاضطرابات النفسية الشائعة بينهم ، وكانوا يوجدون فى دور حضانة وفى مدارس للاطفال ، تبين منه أن الآبــاء فى 35 حالــة يمكن تصنيفهم الى مجموعتين : مجموعة المهملــين لأبنــائهم ومجموعة المهتمين أكثر من اللازم (أو المنشغلين أكثر من اللازم بأبنائهم أو المفرطين فى تدليل أبنائهم) . كما تبين أنه كان يوجد فــارق كبــير بين أطفــال المجموعتين . فأطفال الآباء المفرطين فى تدليلهم أظهروا صفات العصبيــة أكثر من الاطفال المهملين . بينما أظهر الاطفال المهملون صفات مضــادة للمجتمع أكثر من الاطفال المدللين (مثل صفات العدوانيــة ، والقسوة ، وادمــان الكــذب) .

ولنا أن نتساءل : ما دلالة معلومة قد تبدو بسيطة كهذه ؟ لا شــك أن دلالتها كبيرة ، وهى ذات فائدة أكبر . انها تقــول لنــا بكــل بساطة ووضوح : اذا كان لنا أن نربى أطفالا تتحقــق لهــم الصحة النفسية ، ويتوفرون على الخصائص اللازمة لتنشئة رجال المستقبــل بمــا يضمن السلامة النفسية والخلو من الاضطرابــات السلوكيــة التى تضعــف الشخصية وتهد قواها وتقعدها عن أداء دورها المنتظر فى عملية التنمية ؛ فلا بد لنا من الاعتدال أثناء تنشئة أطفالنا بين الاهتمام والاهمال .

2 ـــ مشكلة الطفل الوحيد : من الملاحظات الشائعــة أن الطفــل الوحيد لوالديه ـــ سواء كان ذكرا أو أنثى ـــ غالبــا ما تشيــع فيــه الاضطرابات النفسية أكثر من أقرانه . ولقد لفتت هذه الظاهرة أنظــار المحللين النفسيين على وجه خاص ، بسبــب ميلهــم الى الغــوص فى أعماق العلاقات النفسية بين الابنــاء والآبــاء وبــين الاخــوة بعضهم البعض ، وبسبب أيضا كثرة ما يعرض على المحللين النفسيين من حالات مرضية طلبا للعلاج ســواء من الاطفــال الوحيدين أو الراشدين الذين كانوا أطفالا وحيدين .

وكنموذج لدراسات وتعليقات المحللين النفسيين على هذه الظاهرة سنكتفى بالرجوع الى علمين من اعلام التحليــل النفسى أحدهمــا هــو بريــل Brill ؛ وهو من أول وأشهر المحللين الامريكيين الذين تتلمذوا

على يد فرويد وزاملوه وصادقوه وترجموه الى الانجليزية ، أمـــا الثانية فهى ميلانى كلاين Melanie Klein ؛ وتعتـــبر من أشهـــر المحلـــلات النفسيات على الاطلاق ، ومؤسسة أشهر مدرسة ذات أتجـــاه تحليلـــى للاطفال هو العلاج باللعب بدلا من طريقة التداعى الطليق التى لا تناسب صغار الاطفال بقدر مناسبتها للكبـــار .

ولنبدأ بـــبـــريل الذى أفرد فصلا خاصا فى كتابـــه : ((المبـــادىء الاساسية للتحليل النفسى)) هو الفصل الحادى عشر والمعنون ((الطفل الوحيد)) (8 ص 254 — 268) . ومما يذكره عن اضطراب الشخصية والضعف النفسى فى الطفل الوحيد أنه يحتـــل مكانـــة خاصة فى المنزل ، وأن الآباء سواء تعمدوا أو لم يتعمدوا دائما يشبعـــون رغبـــات الطفل الوحيد ويفسدونه بالافراط فى تدليله ، ويحوطونه بالرعايـــة والتوجيـــه المحكم مما يجعله يعتمد عليهم اعتمادا زائدا فى تصريف أموره ويرتبـــط بهم ارتباطا انفعاليا شديدا ، الأمر الذى يؤدى به فى نهاية الأمر الى ان يصبح ضعيف الشخصية لا يقوى على مواجهة مواقف الحياة ومشكلاتها مواجهة مستقلة ناضجة . هذا الى جانب أن الطفل الوحيد يكون محروما من الاخوة الذين يدخل معهـــم فى علاقات تعـــاون ومنافســـة ويشاركهم مواقف معيشية تقترب فى طبيعتها من مواقف الكبـــار ، وبالتالى يحـــرم من التدريب على مواجهة هذه المواقف ومن تنميـــة مهاراته فى علاجها . ولذلك فهو ((لا يعرف كيف يتصرف ، ولا يثـــق فى الناس ، ولا يستطيع أن ينسجم مع أحد)) .

أمـــا ميـــلانى كـــلاين فأثناء عرضها لحالـــة ارنـــا Erna ؛ (13 ص 35—57) تلك الطفلة الوحيدة البالغة من العمر ست سنوات والتى كانت تعالجها من بعض الأعراض العصابية الشديـــدة ، لفتـــت ميلانى كلاين النظر الى أن الطفل الوحيد يعانى بدرجة أكبر من القلـــق الذى يشعر به ازاء أخته أو أخيه الذى يتوقـــع وصوله دائمـــا ، ومن احساسه بالذنب كنتيجة لدوافع العدوان اللاشعورية التى يوجهها نحـــو هؤلاء الاخوة أثناء توهم وجودهم داخل الأم ، لأنه لا توجد لديه الفرصة

لتنمية علاقات ايجابية معهم فى مستوى الواقع . و ((هذه الحقيقة غالبا ما تجعل الأمر أكثر صعوبة على الطفل الوحيد لكى يكيف نفسه مع المجتمع)) .

ويمكن أن نضيف الى كل من رأيى بريل وميلانى كلاين أن الطفل بين اخوته يتاح له أن ينفس عن مختلف انفعالاته ورغباته أثناء لعبه مع اخوته وبالتالى يتخفف منها ويجد لها اشباعا فى الواقع فلا يحبسها داخل نفسه فى عملية قمع أو كبت تضر بنفسيته . وهكذا يكون أفضل حظا من الطفل الوحيد من حيث الصحة النفسية .

وعند هذا نتساءل من جديد : ما دلالة حقيقة قد تبدو بسيطة كهذه ؟ . نحن لا نشك فى أن هذه الحقيقة على بساطتها شديدة الأهمية كبيرة النفع . انها تقول لنا أنه يفضل دائما لسلامة البناء النفسى للطفل ، ولتنشئته بالكيفية التى تكسبه الاتزان النفسى المطلوب لكى يصبح أكثر قدرة على الاسهام فى تنمية مجتمعه عند رشده ، نقول أفضل لهذا الطفل الا يكون الطفل الوحيد . لكن اذا اجبرت الظروف الأبوين على أن يكون طفلهما وحيدا فلا بد من اللجوء الى الحلول البديلة مثل تهيئة صداقات وزمالات للطفل تتواجد معه لفترات طويلة يلعب معها ويختبر معها العلاقات الاجتماعية ويعبر من خلالها عن الانفعالات والدوافع التى تعتمل فى داخله (مثل الحاقه بدور الحضانة ، واصطحابه كثيرا فى زيارة الأسر التى يتواجد بها أطفال ليلعب معهم . . .) . ومن جانب آخر فان مثل هؤلاء الآباء الذين لديهم الطفل الوحيد ينبغى عليهم أن يكونوا وهم يتعاملون معه على وعى بضرورة الاعتدال فى الاهتمام به والاستجابة لرغباته على نحو ما ذكرنا من قبل .

واذا كان المثلان السابقان اللذان أوردناهما كنموذج لاسهامات علم النفس فى مجال تحديد الاساليب المثلى التى ينبغى على الوالدين والاسرة اتباعها فى تربية الاطفال وتنشئتهم حتى يشبوا متمتعين بشخصيات ناضجة متزنة ، أقدر طاقة على الاسهام فى تنمية بلادها والنهوض بها ، فان الامر بالمثل أيضا فيما يتعلق باسهامات علم النفس

التى تزخر بها مؤلفاته ، خاصة ما تعلق منها بعلم نفـس الطفل وبعلم النفس التربوى ، والتى توضح الاساليب المثلـى فى توجـيـه التلاميذ وتعليمهم وفى ارشاد المعلمين والمسئولين عن التعليم الى أنسب طـرق التعامل مع التلاميذ وعلاج مشكلاتهم ، ورفع كفاءة المؤسسة التعليمية فى أداء رسالتها . ونظراً لأهمية دراسات واسهامات علم النفس فى هذا المجال فقد فضلنا معالجتها فى مقال مستقـل عن علم النفـس والمدرسة (تحت النشر) نرجو أن يتاح للقـارىء الاطـلاع عليـه بعد ظهـوره . وهذه الدراسات والاسهامات تهدف أيضـا الى تقديـم التوصيات الى المسئولين عن التعليم لرفع كفاءته ومساعدة مؤسسة التعليم على القيام بواجبها الذى يتكامل مـع واجب الاسرة فى تنميـة امكانيات الشخصية ورفع طاقاتها وتحسين مستوى نضجها وكفاءتها ، حتى يمكنها فى نهايـة الأمر القيام بدورها فى عملية التنمية خير قيام .

فاذا ما انتهينـا من دور الأسرة ودور مؤسسة التعليم فيما يخص تنمية امكانيات الشخصية وطاقاتها وصلنا الى الدور الذى ستضطلع به من بعد مؤسسة العمل التى سوف تمارس الشخصيـة من خلالها أداء وظائفها فى خدمة المجتمع وتنميته . وهو دور هام أيضـا فى مجال تنميـة امكانيات الشخصية وطاقاتهـا . ولعـل مؤسسات العمـل ووحداتـه بالمجتمع تقوم بدورها هذا بشكل أوضح ما يكون فيمـا يعـرف بالتدريب المهنى ، والذى تنظمه للملتحقين الجدد بالعمل أو من يريدون الالتحاق بـه لاكسابهم المعرفة اللازمة والمهارة المطلوبة لانجاز العمل الذى سيكلفون به ومواجهة مشكلاته ؛ أو الذى تنظمه للعاملين فيها بهـدف رفـع مستوى مهاراتهم فى أداء عملهم وفى مواجهة مشكلاته ، أو بهدف تعلـم أساليـب وطرق جديدة فى الانتاج . وتخصص مؤلفات علم النفس الصناعى خاصة فصولا توقفها على دراسات علم النفس واسهاماتـه المتعلقـة بالاساس النفسى لعملية التدريب ، وتوصيات علم النفس لرفع كفاءة العمليـة التدريـبـيـة .

وللتدليل على ذلك نكتفى بالاشارة الى مثل واحد كنموذج لتلـك الاسس النفسية الكثيرة التى أوضحتها دراسات علم النفس وتوصياته

لرفع كفاءة العملية التدريبية ، ويتعلق بتركيز وتوزيــع مــدة التدريب . فطالما كانت برامج التدريب تحدد زمنا معينا يقضيه العامل فى التدريــب فهل يكون من الاجدى لتدعيم أثر التدريب وزيادة درجة استفادة العامل منه أن يركز زمن التدريب فى فترة واحدة طويلة (أو فترات قليلة العدد طويلة المدد) أو يوزع الى فترات كثيرة كل منها تستغرق مــدة قصيرة . ان نموذج الدراسات التجريبية التى تجرى للاجابة على هــذا التساؤل هو اختيار واجب يستغرق التدريب على اجادة القيام به زمنــا معينــا وليكن ست ساعات على سبيل المثال . ثم تكوين ثلاث مجموعات أو أربع ــ على سبيل المثال أيضا ــ من العاملين المــراد تدريبهم على اجــادة القيام بهذا الواجب ، ويراعى قدر الامكــان تشابــه هذه المجموعــات فى قدراتها وامكانياتها الشخصية . ثم نجعل المجموعة الاولى تتلقى البرنامج التدريبى مكثفا فى مدة ست ساعات متواصلة . ونجعل المجموعة الثانية تتلقى نفس برنامج التدريب فى يومين متتالين على فترتين كل منهما ثلاث ساعات . ونجعل المجموعة الثالثة تتلقى نفس البرنامج فى ثلاثة أيــام متتالية على ثلاث فترات كل واحدة منها ساعتين . أما المجموعة الرابعة فتتلقى نفس البرنامج فى ستة أيام متتالية على ست فترات كل منهــا ساعة واحدة . ثم بعد الانتهاء من برنامج التدريب فى كل مجموعة نختــبر مدى استفادتها من هذا التدريب .

هذا نموذج يوضح الملامح العامة للدراسات التجريبية التى تجيبنــا عن تساؤلنا هذا ، أما التفاصيل فمن البديهى أنها سوف تختلف من دراسة لأخرى (مثل عدد مجموعات التجربة ، وعدد فترات التدريــب ، وطول كل فترة . . . الخ) . وتكاد تتفق نتائج الدراسات التجريبية بهــذا الشأن على أن التدريب الموزع يفضل التدريب المركز . ويورد لنا جون فريــزر John Fraser (9 ص 221) نتائج تجربة فى هذا المجال يتضح منهــا ان الانجاز قد ارتفع من 135 وحدة الى 265 بعد ان قسمت مدة التدريب من فترة واحدة طويلة الى اثنتى عشرة فتــرة قصيرة . ويعلــل فريــزر ذلك بأن تقسيم مدة التدريب الى فترات قصيرة يقلــل التعــب ويستحث دافع العامل أكثر نحو الانجاز والتحصيل ، ويثــبت أكثر عــادات العمل المفيدة . وفى دراسة لكروفــورد Crawford نشرت فى عــام 1947

(10 ص 405) عن تدريب القوات الجوية ، حيث كان برنامج التدريب للطيارين المقاتلين عبارة عن ألفى طلقة لاصابة هدف معين ؛ استكمل بعض الطيارين هذه الطلقات الألفين فى أربع طلعات وآخرون فى خمس وغيرهم فى ست ومجموعة أخرى فى سبع ، بينما الباقون فى ثمان طلعات . فتبين من هذه الدراسة أن دقة اصابة الهدف فى نهاية التدريب كانت تتزايد مع تزايد توزيع فترات التدريب ؛ حيث كان الطيارون الذين تدربوا فى ثمان طلعات أفضل بأكثر من خمس مرات فى استفادتهم من هذا التدريب عن زملائهم الذين تدربوا فى أربع طلعات فقط .

ولا شك أن لهذه المعلومة النفسية البسيطة قيمة كبيرة فى تخطيطنا لبرامج التدريب المختلفة لنرفع من كفاءتها فى اكساب المتدربين أكبر فائدة من برنامج التدريب . فهذه المعلومة توصينا بتجزئة مدة التدريب الى عدد مناسب من الفترات بدلا من تجميعها فى فترة واحدة طويلة أو فى عدد قليل من الفترات الطويلة ، اذ يساعدنا هذا على تحقيق استفادة أكبر من برامج التدريب .

ثانيا : الاستفادة المثلى من امكانيات الشخصية وطاقاتها :

ان تنمية امكانيات الشخصية وطاقاتها ، والتى سبق أن تعرضنا لها فى البند السابق لا تحقق الفائدة المرجوة منها الا اذا قام المجتمع عن طريق تنظيماته وهيئاته ومؤسساته المختلفة بتحقيق أفضل استفادة ممكنة من هذه الشخصية فى دفع عجلة التنمية بالمجتمع . وبمعنى آخر ينبغى على المجتمع أن يقوم بتخطيط ينظم عن طريقه كيفية اسهام كل فرد فى تنمية مجتمعه ، ويوزع على كل شخصية الدور المناسب لها ولامكانياتها فى عملية التنمية . فهذه الشخصية المعينة التى نشأها المجتمع ونمى طاقاتها وتعهدها فى مختلف مراحلها التى مرت بها اصبحت تتميز بميزات معينة وبخصائص خاصة تختلف عن غيرها . ومن ثم فهى اصلح من غيرها للقيام بدور معين فى عملية التنمية ؛ فى حين ان غيرها هذا يكون أصلح منها للقيام بدور مخالف فى نفس عملية التنمية وهكذا . هذه اذن هى جوهر القضية : أن يأخذ كل شخص الدور الانسب له

والامكانياته الخاصة فى عملية التنمية ؛ حتى نتوقع له أن يقوم بدوره خير قيام ، فتنجح فى نهاية الامر عملية التــنمية التى يستهدفهــا المجتمع . ويعرف المسئولون عن سياسة التشغيل هذا الامر بــ « وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب » ؛ أى أن يشغل كل فرد الوظيفة التى تتناسب وامكانياته الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة . ولمــا كانت الوظائف تختلف فيما تتطلبــه من الخصائــص الجسمية والعقليــة والشخصية ؛ وكذلك الامر ايضا بالنسبة للأفراد حيث يختلفون فيما بيــنهم فى هـــذه الخصائص ، فاننا سوف نجد أن شخصا يكون أصلــح من غيره لوظيفة ما ، وأن غير الصالح لوظيفة ما هو أصلح من يكــون لوظيفــة أخرى . فاذا وضعت كل شخصية فى العمل الذى يتناسب وامكانياتهــا وطاقاتهــا تحقق واحد من أهم أسباب نجاح التنمية فى مجتمع من المجتمعات . ولنا أن نتصور أن كل تلميذ يتعلم نوع التعليم الذى ينــاسبه (والتلمذة تعتبر وظيفة فى نظر علم النفس) وأن كل عامل يعمل فى العمل الذى يناسبه ، وأن كل موظف يعمل فى الوظيفة التى تناسبه ، وأن كل رئيس وكل مدير وكل مسئول يعمل فى نوع الرئاسة أو الادارة أو يتحمل نوع المسئولية التى تتناسب وامكانياته الشخصية . . . أقول لو أننا تصورنا أن هذا هو الحادث فى مجتمع ما لوصلنا الى قناعة كبيرة بأن تلاميــذ هذا المجتمــع سوف يحققون تفوقا علميا كبيرا ، وأن العاملين فيــه ســوف يحققون مستوى انتاجيا ممتازا ؛ وهكذا يحقق هذا المجتمع معدلا كبيرا فى التنمية .

ويقوم علم النفس بدور كبير فى « وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب » حيث يحلل نوع الدراسة أو نــوع العمل لمعرفــة الخصائص العقلية والشخصية اللازمة للنجاح فيــه ؛ وحيث يدرس الفــرد لمعرفة خصائصه العقلية والشخصية . وبناء على ذلك يوجه كل تلميــذ لنــوع الدراسة المناسب له وكل عامل لنوع العمل المناسب له ؛ أو يختار لكل نوع من الدراسة أو الاعمال من يناسبه من التلاميذ أو العاملين (ولمزيد من الايضاح والتفاصيل يمكن الرجوع الى مقالنــا : علــم النــفس فى مؤسسات العمل ، بنفس المجلة ــ العدد الثالث) .

ثالثـــا : الحفاظ على امكانيات الشخصية وطاقاتها
واستعـــادتها اذا اضطربت :

من الحقائق المعروفة فى علم النفس تلك التى أبرزها وتبناها علماء التحليل النفسى والقائلة بأن الصحة النفسيـــة ((هى القدرة على الحب والعمل)) . بمعنى أن أوضـــح علامات الصحة النفسية فى الشخصيـــة وأهمها هى قدرتها الكبيرة على أن تحب ، وقدرتهـــا العاليـــة على العمل والانتاج . وحقيقة ؛ ما أحوج قضية التنمية فى أى مجتمع الى توافـــــر هاتين الطاقتين فى الشخصية : طاقـــة الحب وطاقـــة العـــمل . فالحب يقوى الروابط بين أفراد المجتمع ومؤسساته ويزيد من تماسكه ، ويقاوم النزعات التدميرية والعدوانية الموجودة بين أفراده ؛ فينصرف الجميـــع كل يعمل لصالح نفسه وغيره ومجتمعه . أما العمل فهـــو لا شـــك جوهـــر قضية التنمية ومن أكبر عوامل تحقيقها ؛ فليست التنمية فى نهاية الامـــر الا عائد عمل الافراد بالدرجة الاولى . فكم من مجتمعات بسبب العمل حققت معدلات كبيرة من التنمية لا تتفق وما تتمتع به من امكانيات وثروات طبيعية كاليابان وسويسرا وغيرهما . ولعل هذه بديهيـــة لا تحتـــاج الى برهنـــة أو دليـــل .

خلاصة القول اذن أن هذه الشخصية التى اهتم المجتمـــع بتنميـــة امكانياتها وطاقاتها فى مختلف مراحل حياتها ــ جنينا ، وطفولة مبكرة ، وتلمـــذة ، وعمل ــ ووضعها المجتمع فى الدراسة المناسبة أو العمـــل المناسب ، لابد أن يتابعها المجتمع بالرعاية حتى تظـــل قدر المستطاع فى مستوى مناسب من الصحـــة النفسية ؛ فلا تـــتعرض للضغوط الشديدة والأزمات العنيفة التى تفقدها الكثير من اتزانهـــا النفسى وتبـــدد الجزء الكبير من طاقاتها الشخصية فى الصراعات النفسية ؛ تلك الطاقات التى كان ينبغى أن تعبأ لصالح التنمية فى المجتمع .

وليست هذه الحقيقة على المستوى المنطقى النظرى فقط ، بل هى بالمثل مؤيدة على المستوى الميدانى الواقعى . ففى الدراسات التى قـــام بها المتخصصون فى علم النفس ما يدعـــم ذلك بدرجة كبـــيرة . ففى بحث

ميــدانى للدكتــور محمود أبو النيــل (7) يتــضــح منــه أن المــرضى السيكوسوماتيين (المرضى النفسيون الذين تتبلور أمراضهم فى أعراض جسمية) لهم سمات معروفة بأنها تعوق الانتاج . وفى بحث ميدانى لنــا عن سيكولوجية العامل المشكل فى الصناعة (العامل الذى يعتبر سلوكه معوقا لعملية الانتاج) تبين لنا (4) أن العمال المشكلين تشيــع بيــنهم الاضطرابات النفسيــة الخطيرة فى المقارنــة بزملائهم غــير المشكلين .
واذا تركنا أثر الاضطراب النفسى على قدرة العامل الانتاجية عامة الى أثره على بعض ظواهر محددة تدل على قصور فى قدرة العامل الانتاجية مثل كثرة الحوادث التى يتورط فيها العامل ومثل كثرة غيــابه عن عمله بدون عذر . . . فسوف نجد نفس الأثــر الواضح فى البحوث الميدانية .
ففى دراسة لسوسن اسماعيل (1) عن علاقة مستوى القلــق بغيــاب العمال فى المجال الصناعى تبين لها وجود علاقة قوية بين مستوى القلق وأيام الغياب بدون اذن ، حيث وصل معامل الارتباط بينهما الى 695 و وكان دالا عند مستوى 001 و . مما يوضح أن العمال الذين يعانون من قدر كبير من القلــق النفسى كثــيرو التغيــب عن أعمالهــم بدون اذن .
أما فارس حلمى فقد درس فى بحثه الميدانى (2) عن سيكولوجية العامل المتغيب علاقة تغيب العمال الصناعيين بدون عذر بسبعة عوامل هى : مــدى بعد مسافة السكن عن مكان العمــل ــ الحالــة الاجتماعية ــ الأجر ــ فترة العمل ــ المؤهل الدراسى ــ العمر ــ سمات الشخصية ؛ فتبين له عدم وجود علاقة أو تأثير لأى من تلــك العوامل على التغيــب بدون عذر عن العمل باستثناء سمات الشخصية ؛ حيث تبين أن العمال كثيرى التغيب بدون عذر يتميزون بأنــا ضعيف لا يقوى على التمييز بين الجوانب المواتية وتلك المعادية فى مجالات الحياة ؛ وبالتالى لا يستطيع التعامل المناسب معها أو التوافق مع العالم المحيط . كما تبــين أيضا أن القلق النفسى كان يشيع بينهم بدرجة أكبــر ، كما كانــوا يحسون أكثــر بالاضطهاد وبالاحباط وبرؤية العالم المحيط على أنــه معاد ومهدد لهم . وهذا يؤيد شيوع الاضطراب النفسى فى العامل كثير الغياب عن عمله .
أما بالنسبة لحوادث العمل فقد تبين للدكتور قدرى حفنــى فى دراستــه الميدانية (6) عن أثــر الجمود الادراكى والجمود الحركى على التعرض للاصابات فى الصناعة أن هناك علاقــة واضحة بين الجمــود بمظهريه

الحركى والادراكى وبين الحوادث . ونظرا للعلاقة الوثيقـــة بين الجمود والتوتر النفسى فان هذا يشير الى تأثير الاضطراب النفسى على رفــــع معدلات حوادث العمل . كما أننا قمنا بدراسة ميدانية أخرى عن علاقة الحوادث فى الصناعة بالصفحة النفسية للذكاء (3) تبين منها أن مستوى الذكاء لم يرتبـــط بحوادث العاملين فى الصناعة ؛ لكن كان نمـــط الصفحة النفسية للذكاء هو الذى يرتبـــط بالحوادث ؛ حيث كانت تشيـــع فيهـــا العلامات التى تدل على الاضطراب النفسى بين العمال متكررى الحوادث . مما يؤيد نتائج البحث السابق وغيره من البحوث فى تـــراث علـــم النفس عـــامــــة .

واذا كانت القدرة على العمل تعتبـــر مظهـــرا أساسيا من مظاهر الصحة النفسية فى الراشدين ـــ على نحو مـــا سبـــق أن أوضحنـــا ـــ فان هذه الحقيقة تصدق بالمثل على الاطفال والتلاميذ فى كافة مراحلهم ؛ حيث يعتبر التحصيل الدراسى ممثلا لقدرة التلميذ على العمل . ولهـــذا كثيرا ما يكون اضطراب مستوى تحصيل التلميذ وتدهوره من أوضــــح الدلائل على اصابته بالاضطراب النفسى . ولهذا كثيرا ما يشيع الفشـــل الدراسى فى تاريخ الحالات التى يدرسها ويعالجها المحلـــلون النفسيـــون كعرض مرتبط بالمرض النفسى لهذه الحالات ، كما فى حالة ارنـــا السابق ذكرها والتى تولت ميلانى كلاين أمر علاجها . بـــل ذهبت ميلانى كلاين الى حد القول بأن كف القدرة التعليمية لارنا (أى عـــدم قدرتهـــا على التعلم على الرغم من امكانياتها العقلية المناسبة للتعليم) كان أكثـــــر أعراضها المرضية مقاومة للعلاج . وفى دراسة ميدانية نشرت عام 1970 لفيلد هسن Feldhusen وزميليه درسوا فيها العلاقة بين التحصيـــل الدراسى وكل من السلـــوك العـــدوانى والسلوك المقبـــول اجتماعيـــا (11 ص 388 ـــ 389) حددوا فيها مجموعة من التلاميذ تمثـــل نوعية السلوك العدوانى وأخرى تمثل نوعية السلوك المقبول اجتماعيا . وبعد خمس سنوات من ذلك قامـــوا بعمل مقارنـــة بين مستوى التحصيـــل الدراسى فى كل من المجموعتين فاتضح أن مجموعة التلاميـــذ العدوانيين كانت أقـــل فى القراءة والكتـــابة والدراســـات الاجتماعيـــة والعلـــوم والرياضيات . ولما كان السلوك العدوانى الذى حدده هـــؤلاء الباحثون

كمعيار لاختيار مجموعة العدوانيين يمثـل الاضطراب النفسى بوضوح ؛ مثل احداث فوضى فى حجرة الدراسة ، وكثرة الغضب وشدته ، وحب السيطرة ، والتأخير أو الغياب بدون عذر ، والاجابـة بفظاظـة وبعدم احترام ، والكذب ، والسلوك المتصف بالشر ؛ فان هذا يؤكـد لنـا تأثير الاضطراب النفسى على مستوى تحصيل التلميذ .

اذن نخلص الى القول بأنـه اذا كنـا نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة الجسمية للشخص فى مختلف مراحل عمره وعلاج مـا يضطرب منها ؛ كما هو الواقع فعلا حيث انتـشار التأمين الصحى ومستشفيات العلاج الطبى وعياداته ، فانه ينبغى علينـا بالمثـل أن نسلـم بضرورة الحفاظ على الصحة النفسية للشخص فى مختلف مراحل عمره وعـلاج ما يضطرب منها . وعلى علم النفس تقع مسئولية ذلك . وهو يقوم بهذه المسئولية عن طريـق مكاتب وعيـادات التوجيـه والارشـاد النفسى ومستشفيات العلاج النفسى ، سواء منهـا مـا هو ملحـق بالمدارس والجامعات أو بالمصانع ومؤسسات الدولة أو مـا هو خـاص يتـولاه الاختصاصيون بصفتهم الشخصية . وبذلك نحفظ الطاقة الخاصة بالفرد دون أن يبددهـا الاضطراب النفسى فيقـوى الفـرد على تأديـة دوره فى عملية التنميـة .

رابعا : علاج المشكلات الاجتماعية العامة او الوقاية منها :

خصصنا البنود الثلاثة السابقة للحديث عن الاسهامات التى يمكن لعلم النفس تقديمها لتهيئة افضل تكوين وتنمية ورعاية ممكنة للشخصية وطاقاتها ، على اعتبار ان الشخصية من اهم عناصر النجاح فى تحقيـق معدل عال للتنمية فى المجتمع . لكن مع انطلاقة المجتمعات نحو التنميـة تنطلق بعض المشكلات الاجتماعية او قد تتفاقم مثل الجريمة ، وانحراف الاحداث ، والبغاء ، وتعاطى المخدرات ، وتفكك الأسرة . . . وما الى ذلك من مظاهر الاغتراب او الاستلاب النفسى . وتحتاج تلـك المشكلات فى دراستها وعلاجها أو الوقاية منها الى اسهامات المتخصصين فى علم النفس . وكثيرا ما تنشىء المجتمعات مراكز للبحث العلمى يكـون من بين اهدافها دراسة مثل هذه المشكلات ومحاولة علاجها او الوقاية منها على

المستوى القومى . ومن امثلة ذلك تلك الدراسات التى يقوم بهـا المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر ، والتى يشترك فيها علماء النفس ومتخصصوه مع آخرين . وان نجـاح علماء النفـس فى ذلـك لا شك مفيد فى تقليل نزف الطاقة البشرية التى تـتبدد هبـاء من جراء انتشار مثل هذه المشكلات الاجتماعية وتفاقمها ؛ وبالتالى يحفظها لتعبـا لصالح تنمية البلاد وتقدمها .

تدريـس علـم النفـس :

لعلنا انتهينا الآن الى قناعة باهمية علـم النفس واسهاماته التى يمكن أن يقدمها لفائدة المجتمع عامة ولصالح التـنمية خاصة . وقبل أن ننتهى من مقالنا هذا لابد من الاشارة الى الاعتراف المتزايد الذى يلقـاه علم النفس من مختلف بلدان العالم شرقه وغربه ، وان كانت اتجاهات هذا العلم التفصيلية وتركيز مجالات اهتمامه تختلف بالضرورة من بلـد لآخر تبعا لاختلاف ما يعتنقه كل بلد من اتجاهات ، ومـا تشيع فيـه من مشكلات ، وما يتعرض له من ظروف . فاذا كان علم النفس فى امريكـا يتجه اكثر نحو الصناعة وخدمتها ، فهو فى روسيا يتجه اكثر نحو التنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية التربوية ، دون ان يعنى ذلك تجاهل بقيـة الاهتمامات الاخرى لعلم النفس فى كل من البلدين ؛ وانمـا يعنى فقـط مراكز ثقل اهتمامات العلم .

واذا كان اهتمام امريكا بعلم النفس ليس محل جدل ، فان الاهتمام المتزايد لروسيا بعلم النفس هو حقيقة واقعة ايضا . فقـد كان يوجـد بجامعة موسكو قسم لعلم النفس بكلية الفلسفة ، وكنتيجة لتزايد الاهتمام والاعتراف بعلم النفس تحول هذا القسم الى كليـة كاملـة لعلم النفس بجامعة موسكو منذ عام 1966 تدرس علـم النفـس العـام وفروعه المتخصصة المختلفـة (12 ص 64) . الى جانـب ان كل الجامعات فى روسيا والمعاهد التربوية بها تدرس مواد علم النفس . وفى مصر ظلـت هناك شعبة واحدة لتخصص علم النفس بكليـة الآداب بجامعـة عين شمس من اوائل الخمسينات حتى اواخر الستيـنات حيث اضيفت اليها شعبة اخرى لعلم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ومنـذ اواخر الستينات واوائل السبعينات جاهدت هاتـان الشعبتان لعلـم النـفس

للانفصال والاستقلال استقلالا تاما منذ السنة الاولى بالجامعة ونجحتنا حديثا فى هذا الانفصال والاستقلال مكونة كل منهما قسما خاصا بعلم النفس اعترف له فى الجامعة بكامل الاستقلال من السنة الاولى للتعليم الجامعى . أما تدريس مواد علم النفس فهو شائع فى كافة جامعات مصر ومعاهدها التربوية .

خاتمة :

استعرضنا فى هذا المقال نماذج فقط من بعض اسهامات علم النفس التى راينا انها يمكن أن تسهم بشكل جدى وبتأثير كبير على نجاح المجتمع فى تحقيق أهداف التنمية به . واذا كانت بلاد العالم المتقدمة تسعى نحو تحقيق اكبر استفادة ممكنة من اسهامات مختلف العلوم بما فيها علم النفس لخدمة قضايا التنمية بها فان مجتمعاتنا السائرة فى طريق النمو احوج منها لهذه الاستفادة ، وبالتالى ينبغى ان تكون أحرص منها عليها .

ولعل القراء قد اقتنعوا الآن باهمية علم النفس لبلد نام كالمغرب . وتقديرا لذلك من جانب المسئولين عن جامعة محمد الخامس ، واعترافا منهم بحاجة المغرب الى هذا التخصص فى الجامعة ، فانهم قد استجابوا لاقتراحنا بضرورة انشاء شعبة خاصة بعلم النفس فى كلية الآداب بالجامعة وكلفونا بوضع برامجها . وبالفعل تم افتتاحها بالعام الجامعى الماضى (1974 — 1975) لتمد المغرب بحاجته التى ولا شك ستتزايد مع الزمن الى متخصصين فى علم النفس ، يسهمون الى جانب زملائهم من التخصصات العلمية الاخرى فى دفع عجلة التنمية ببلادهم لتنطلق باوسع خطى ممكنة . وفى بداية هذا العام الجامعى (1975 — 1976) ثار جدل شديد بين بعض اساتذة الجامعة واشتركت فيه بعض الصحف حول حاجة المغرب الى مثل هذا التخصص فى الوقت الحاضر ، وما اذا كان الصالح العام يقتضى بقاء هذا التخصص داخل الجامعة أم يقتضى الغاءه . وفى النهاية انتصر الراى القائل بضرورة استبقاء هذا التخصص لعلم النفس بالجامعة مع العمل على تدعيمه ؛ لأنه فى نهاية الأمر هو الراى الذى يساير التطور ، ويتفق والمنطق .

الربــاط — د . فرج عبد القادر طه

(1) سوسن اسماعيل عبد الهادي : العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال فى المجـال الصناعي ـ فى ـ قراءات فى علم النفس الصناعي ـ للدكتور فرج عبد القادر طـه ـ القاهـرة ـ مكتبـة سعيـد رأفـت 1973 .

(2) فارس حلمي أحمد : سيكلوجية العامل المتغيب ـ فى ـ قـراءات فى علـم النفـس الصناعـي السابـق ذكـره .

(3) دكتور فرج عبد القادر طـه : العلاقة بين الاصابات فى الصناعة والصفحة النفسية للذكاء ـ القاهرة ـ المجلة الاجتماعية القومية ـ المجلد السادس ـ العدد الثالـث ـ سبتمبـر 1969 .

(4) دكتور فرج عبد القادر طـه : سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة ـ القاهرة ـ المجلة الاجتماعية القومية ـ المجلد التاسع ـ العدد الثاني ـ مايو 1972 .

(5) دكتور فرج عبد القادر طـه : علم النفس فى مؤسسات العمل ـ الرباط ـ المناهل ـ العـدد الثالـث ـ يونيـه 1975 .

(6) دكتور قدرى محمود حفنى : دراسة تجريبية لأثر الجمود الادراكي والجمود الحركـي على التعرض للاصابات فى الصناعة ـ فى ـ قراءات فى علم النفس الصناعي السابق ذكره.

(7) دكتور محمود السيد أبو النيل : علاقة الاضطرابات السيكوسوماتية بالتوافق المهني فى الصناعة ـ فى ـ قـراءات فى علـم النفـس الصناعـي السابـق ذكـره .

8 — Brill, A.; Basic Principles of Psycho-analysis ; Simon Q. Schuster, Inc. 1972.
9 — Frazer, J.; Psychology, Pitman Publishing, 1971.
10 — Ghiselli, E. Q. C. Brown ; Personnel and Industrial Psychology, Mc Graw-Hill, 1955.
11 — Johnson, R. Q. G. Medinnus; Child Psychology, John Willy Q. Sons, 1974.
12 — Luria, A. ; L'Enseignement de la Psychologie a l'Université de Moscou, Bulletin de Psychologie, XXV 294, 1971-1972, (Paris).
13 — Klein, M. ; The Psycho-analysis of Children, The Hogarth press, 1975.
14 — Valentine, C. ; The Normal Child, Pelican Book, 1956.

د / ف. ع. ط

قصة

من على الخط ؟

احمد عبد السلام البقالي

رن جرس التلفون بحدة على مكتب غيثة فقفزت فى كرسيها .. ولم تكن تدرى انها ، برفعها السماعة ، ستفتح الباب على عالم رهيب مخيف .. كانت تضرب على آلتها الكاتبة فى انسجام وغياب عن العالم حولها .. الساعة تشير الى الحادية عشرة ليلا .. وكل شىء هادىء فى شقتها الصغيرة بالطابق الخامس بعمارة بشارع الجزائر .. وفى الخارج كان المطر ينزل خفيفا على سطوح المنازل المقابلة والارصفة وظهور السيارات الجاثمة .. ولم يكن يقاطع الصمت الدافىء الا مرور سيارة عابرة من حين لاخر ..

ولم تكن تتوقع أن يرن التلفون فى تلك الساعة رغم ان عملها يعتمد الى حد كبير عليه .. كانت تشتغل ترجمانة وصحفية وضاربة على الآلة وباحثة ، وتتعامل مع عدد من السفارات والشركات وتعرف عددا كبيرا من الناس .. وكانت دقات التلفون تعنى عملا جديدا ، او سؤالا عن عمل فى طريق الانجاز أو تصحيحا لفقرة أو الغاء الى غير ذلك ..

وكانت غيثة تعيش فى رضى كامل على حياتها الخالية من عواصف العاطفة بكل ما تاتى به من سعادة عارمة أو شقاء مبرح .. ويظهر انها تخفى ندوبا عميقة من آثار حب فاشل اقسمت بعده الا تعود اليه ..

والتقطت السماعة بسرعة حتى لا يعود التلفون الى رنينه المزعج مرة أخرى ، ومالت برأسها لتزيل شعرها الاسود الناعم عن اذنهـا ووضعت عليها السماعة بحركة رشيقة :

— الـو ..

ولم تسمع جوابا ..

وحسبتها مكالمة خارجية فانتظرت ثم عادت :

— الـو ؟

واحست أن هناك احدا على الخط يسمع ولا يتكلم .

— الـو .. الـو الـو .. من انت ؟

وحين لم تسمع جوابا أعادت السماعة الى مكانها محركة راسها فى استغراب ، وعادت الى آلتها وهى تفكر : بعض الناس تنقصهم حتى لباقة الاعتذار عن ازعاج الاخرين حين يخطئون الرقم .

وما كادت تضرب كلمتها الاولى حتى رن التلفون مرة اخـرى ، فالتقطته صائحـة :

— الـو .

ولم تسمع جوابا ..

— الـو .. من انت ؟ ماذا تريد ؟

وخيل اليها انها سمعت شيئا فكفت عن الكلام وانصتت حابسة انفاسها ؟

ومن الطرف الاخر سمعت تنهدا عميقا طويلا ثم تلاحقت الانفاس ، فداخل غيثة الخوف ، واقشعر بدنها فمسحت ذراعها المتشوك بيدها لتزيل القشعريرة .

وقررت تعليق السماعة ولكنها عادت تقول لمناديها فقط لتسمع صوتها وتطرد خوفها :

— اسمع .. اذا كنت تريد الكلام فتكلم .. ولا تضع وقتى بمزاحك السخيف .

والقت بالسماعة فى عصبية ، وشبكت ذراعيها ، ودفعت بالكرسى الدارج الى الوراء ، ثم فتحت الدرج واخرجت علبة سجاير قديمة اخرجت منها واحدة وقامت تبحث عن وقيد فى المطبخ ..

ولم تشعر بالوحدة والوحشة فى شقتها المفروشة الدافئة فى اى وقت كما شعرت بهما هذه الليلة .

ودارت حول نفسها ، ونفثت دخان السيجارة الحائلة الطعم ثم سحقتها كاملة فى منفضة ، وذهبت الى مطبخها الصغير لتعد لنفسها فنجان لويزة كعادتها قبل النوم ..

ونامت نوما عميقا ..

وفى الصباح افاقت نشيطة ناسية المكالمة الليلية المخيفة ، فكدست أوراق العمل الذى انجزته فى محفظتها ، وخرجت لتسليمه لاصحابه ..

وفى المساء ، انهت ترتيب قصاصات الصحف التى تعدها لبعض السفارات المعتمدة فى المغرب والمقيمة فى العواصم المجاورة، ووضعتها فى ظروفها الخاصة المعنونة ، وأعدت لنفسها شطيرة وجلست امام جهاز التلفزيون ، وقد رفعت نظارتها فوق شعرها ، ووضعت ساقيها على الاريكة واسترخت تستمرىء الدعة والهدوء ..

ولم يطل هدوءها حتى رن جرس التلفون ، فنهضت بسرعة لتلتقطه قبل ان يرن لثانى مرة ، دون جدوى ..

وما ان وضعت السماعة على اذنها حتى عرفت انه صاحبها فقالت :

— الو .. اهلا . انت مرة اخرى . ماذا تريد هذه المرة ؟

ولاحظت انه يلهث بدل ان يتنهد كما كان يفعل بالامس ، فعلقت :

— مالك تلهث ؟ صعدت الدرج جاريا من حر الشوق للكلام معى ؟

ام كان أحد ضحاياك يطاردك .

وضحكت على تعليقها ثم عادت تقول :

— انا شخصيا افضل الحالة الاولى .. افضل ان تكون عدت مسرعا وفى شوق للحديث معى .. ما رايك ؟ هل انت وحيد ؟ اذا كنت كذلك فمرحبا بك فى نادى القلوب الوحيدة .. انا عضوة بارزة فيه .. ولكنى لا اضايق أحدا .. هل تعرفنى ؟ هل رأيتنى من قبل ؟ لابد أنك تعرفنى جيدا وتراقبنى فى روحاتى وغدواتى فى غفلة منى .. فمن أنت ؟ لا داعى لاعطائى اسمك .. صف لى نفسك فقط ، طويل .. قصير بالمناسبة كم سنك ؟

واثارها بسكوته فقاومت سؤالها التالى ، وغطت فم السماعة بكفها وقالت هامسة لنفسها وهى تنظر الى مرآة الحمام عبر الصالون :

— هل تريد ان تقضى بقية عمرك فى الحبس ؟

ويظهر ان ذلك نفس من نرفزتها فعادت اليه :

— اسمع .. هل تريد أن نلتقى ؟ اختر أنت المكان والزمان .. نلتقى ونتعارف .. ونتحدث كبشرين متمدنين عاقلين .. قل لى ما ستلبس، واقول لك أنا اذا لم تكن تعرفنى .. آه ؟ لا تعجبك الفكرة .. أم أنت من هواة ركن « أشواق عبر الاثير ؟ » ويظهر أنك تفضل ذهب الصمت على فضة الكلام ؟ كم أنت حكيم !

ثم أضافت ثائرة :

— اذا كنت تعتقد أن الصمت من ذهب ، فهو فى حالتك هذه من .. من حشـا الناس .

وصفقت التلفون ، ووقفت تهدده بقبضتها . ونامت ليلتها نوما متقطعا ..

وتغيبت عن شقتها يومى السبت والاحد ، وعادت صباح الاثنين من الدار البيضاء حيث كانت تزور بعض الاقارب

وما كادت تضع حقيبتها حتى رن التلفون فالتقطته ، وفى الحال ادركت أنه صاحبها المجهول ، كان هذه المرة يمضغ شيئا .. علكا ربما ، فقالت :

— الله يسلمك .. عرفت انى عدت من سفر فخرجت عن عادتك الليلية لتناد.. بالنهار ؟ .. هل فكرت فيما قلت لك ليلة الجمعة ؟ نسيت ؟ سأنعش ذاكرتك : قلت لك : لنلتق ونتعارف ..

وحين لم يجب اسدلت يدها بالسماعة محركة رأسها تحاول التفكير فى شىء يثيره ، ثم اعادت السماعة الى اذنها يائسة :

— ينبغى أن أهنيك على سعة خيالك وثقافتك .. منذ تعارفنا تكلمت معى بثلاث لغات مختلفة ، لغة التنهدات ولغة اللهاث والان تثبت لى براعتك فى لغة المضغ واللوك .

ولاحظت وهى تخاطبه جهاز الراديو فوق مكتبها فأشعلته وانتظرت لحظة ، ثم وضعت السماعة على بوقه ، ورفعت صوته الى اقصاه .

وعادت لاطفائه ضاحكة وسألته :

— كيف وجدت حفلتى الموسيقية ؟ أرجو أن تكون قد اصمتك يا ابكم .

وصفقت السماعة فى وجهه ، وانصرفت الى أعمالها متجاهلة رنين الجرس المتواصل ..

ولما لم ينقطع رفعت السماعة وقالت له :

— اخـــرس !

وقلدت لهاثه السريع وأعادت السماعة .. وعاد الجرس فرفعتها وقالـــت :

— أنفاسك كريهـــة !

واعاد الكرة ، فقالت :

— ارم نفسك فى بئـــر !

ووضعت السماعة ثم التقطتها بسرعة بعد أن خيل اليها أنها سمعت صوتـــــا ..

وفعلا كان أحد على الخط يصيح يائسا :

— لا تقطى ! اسمعى !

فأجابته لاهثة :

— اخيرا قررت الكلام .. مبروك !

وجاءها صوت زبون صديق تعرفه :

— غيثة ؟ هل جننت ؟ ماذا اصابك ؟ ثلاث مرات وانا أتصل وانت تقطعين المكالمة بالشتائم !

فضربت جبينها بيدها معتذرة :

— آسف يا خليل ! ظننتك مجنون التلفون !

— مجنون التلفون ؟

— مجنون ينادينى ولا يقول شيئا ..

— لعله عاشق خجـــول ..

— لقد عرضت عليه كل شىء .. لم يبق الا الزواج ، ولم يتكلم ! هـــل تحتاجنى ؟

ودخلا فى حديث يتعلق بالعمل ..

وفى تلك الليلة ايقظها زئير التلفون الحاد من نوم ثقيل ، فأفاقت مرتعشة مرهقة ، واخذت تبحث فى الظلام عن روبها وعن السماعـــة ، ومفتاح النور ، وتخاطب التلفون وتستمهله فى نفس الوقت .. ووقعـــت يدها على السماعة فرفعتها الى أذنها قائلة بصوت متهدج :

— هالـــو .. من ؟

وادركت بعد جهاد للخروج من اغمائها أنه مجنون التلفون، فصاحت فيه فاقدة أعصابها :

— أنت ؟ ! فى هذه الساعة من الليل ، أيها الحقير ؟ كنت اظنك من أصحاب المقالب السخيفة .. ولكنك مريض ، لماذا تعذبنى ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا تريد منى ايها الدنىء .. أنت لص حقير .. تسرق منى سعادتى وراحتى وامنى ونومى .. ارجوك دعنى وشأنى ، أنا فتاة وحيدة ولا أعرف احدا آذيته أو يحمل لى ذرة حقد .. فمن اين خرجت لى ؟ ارجوك ارجوك ، اتركنى وشأنى .. فارقنى وأخرج من حياتى .. ارجـوك .

وانفجرت باكية من القهر ، ووضعت السماعة وعادت الى سريرها لتدفن وجهها فى وسادتها ، وتنتحب فى عصبية ..

وبعد مدة من التقلب والتمرغ فى الفراش دون الاحساس بالراحة على اى جانب نامت على وجهها نوما عميقا حتى دق جـرس الساعـة فقفزت جالسة فى فراشها مرتاعة ، ومدت يدها فأسكتت المنبه ، ثـم استلقت وهى تلهث

وفى الحمام نظرت الى وجهها فى المرآة فلاحظت احمرار عينيـها ، وانتفاخهما .. فدعت فى سرها على مزعجها المجنون .. واحست بموجة من الحقد ، ورغبة عارمة فى الانتقام منه ..

واخذت حماما سريعا ، وزينت وجهها ، ولبست ثم خرجت دون فطور لتلحق بالجلسة الاولى لمؤتمر اقتصادى بأحد الفنادق الكبرى ..

وركبت سيارتها الصغيرة وراحت تخترق شوارع المدينة محملقـة فى وجوه جميع الذين ينظرون اليها لعلها تتعرف على خصمها الصامت

وفى الفندق اندمجت مع أعضاء المؤتمر والزمـلاء الصحافيـين والملاحظين ونسيت عالمها الشخصى

ولم تعد الى شقتها الا بعد العشاء مرهقة من تسجيل المحاضر ، والقاء الاسئلة واعداد التقارير .. فرمت بحذائها على عتبة الباب، ووضعت حقيبتها ورزمة وثائق كانت تحت ابطها على مكتبها وقصدت الاريكـة

فاستلقت عليها ، وأقفلت عينيها ، وراحت تستمع الى دورتها الدموية تجوب اقطار بدنها المنهوك .

ولم تدر كم مضى عليها من الوقت فى ذلك الوضع حتى خطرت فى بالها صورة مجنون التلفون فزال نعاسها ..

كانت تحاول تصوره على طرف الخط الآخر .. فتراه من النوع الذى تصفه القصص البوليسية : نحيفا شاحبا ذا لحية سوداء قصيرة ، وعينين حاقدتين كعينى الممثل المصرى (محمد المليجى) وهو يلبس معطفا وسخا على جسمه العارى النحيف الا من رجلى بنطلون يربطهما فوق ركبته بشريط لتغطية ساقيه ، ويتدليا على حذاء دون جوارب .. تتخليه واقفا فى صندوق تلفون عمومى وهو يدير القرص بأصابع عجفاء مرتجفة ويعض على لسانه بأسنان مسوسة صفراء .. ويبدأ فى اللهاث والتنهيد ..

وكلما مرت به امراة وحيدة كشف لها عن عورته وراقب وجهها بنظرة سادية وابتسامة شامتة وهى هاربة مشمئزة .

وقفز الى ذهنها سؤال : « ماذا لو كان مجرما خطيرا يستدرج ضحاياه بهذه الطريقة » ..

وتذكرت أن لها كتابا فى الموضوع هو (موسوعة جرائم القتل) للكاتب الانجليزى (كولين ويلسون) فنهضت تبحث عنه فى رف كتبها حتى وجدته ، فجاءت بتفاحة من الثلاجة ، وجلست تتصفح أوراقه ، ثم تبحث فى الفهرس ..

ورن جرس التلفون فى تلك اللحظة فتشنجت أعصابها ، وأحست بسائل (الادرينالين) يفرز فى دمها فنهضت نحو الجهاز الصارخ فى هداة الليل وكأنه وحش غير مرئى من الفضاء الخارجى أو عفريت من الجان يوشك ان يتقمص روحها ..

وقررت ان تقابل .. ان ترد العدوان بكل ضراوة .. ان تدافع عن نفسها .. عن امنها وراحتها بكل ما تملك .

وامسكت بالسماعة بعد ان تركتها تدق عدة مرات خفضت خلالها من صوت الجرس حتى صار لا يسمع الا كنقر خفيف على لوح خشب .

وبهدوء قالت ..

— آلو ؟

وفى الحال ادركت انه هو .. فقالت بتحدى :

— كنت انتظرك ، كنت انتظرك لاقول لك رايى الحقيقى فيك .. انت اما مريض ، وتحتاج الى علاج نفسى يعيد لك توازنك العقلىوالعاطفى — أو مخلوق ضعيف الشخصية ، تافه لا يستطيع مواجهة الناس الا من وراء حجاب — فاذا كنت مريضا فاذهب الى طبيب — انا أستطيع أن أساعدك اذا اردت ذلك .. وما عليك الا أن تتكلم وتعطينى عنوانك فآتى عندك فى الحال .. ماذا تقول ؟

وانتظرت لحظة دون جدوى ثم قالت :

— فكر فى الموضوع — وحين تصل الى قرار نادينى .. ما رايك ؟

وهمت بوضع السماعة ثم أعادتها قائلة ..

— اذا كنت لا تستطيع الكلام ، فلنتفق على لغة نتخاطب بها .. اسالك أنا وتجيب أنت بالتنهد اذا أردت أن تقول نعم ، وباللهاث اذا أردت لا ، ما رايك ؟ فكر وعد الى !

ووضعت السماعة وهى تظن أنها سمعت صوت قهقهة مكتومة فعادت الى رفعها ، ولكن المكالمة كانت قد انقطعت .

ووقفت قليلا تقرض ظفرها وتفكر .. ثم وضعت السماعة ، واطفأت الانوار ، وذهبت لتطل من النافذة ورفعت الستارة الشفافة ومسحت بعينيها جميع نوافذ الشقق المقابلة لعلها ترى أحدا يراقب شقتها أو يستعمل التلفون ثم اطلت على الشارع الخالى وتركت النافذة الى المطبخ لتعد فنجان اللويزة ، وقد عقدت العزم على شىء .

وفى الصباح ذهبت مبكرا الى ادارة التلفون ، وسألت موظفة الارشادات عن القسم المسؤول عن تغيير أرقام التلفون ، فنظرت اليها باستغراب ، ثم أخرجت راسها من نافذة الحجرة الصغيرة ونادت رجلا .. وجاء شاوش يلبس حلة رسمية ، فسألته الفتاة :

— هل لنا قسم يتكلف بتغيير أرقام التلفونات ؟

فأجاب الشاوش :

— نعم .

ونظر الى غيثة وسألها .

— تريدين تغيير رقم تلفونك ؟

— نعم .

— لماذا ؟

— لاسباب شخصية .

فرفع راسه مدركا تدخله فيما لا يعنيه ، وقال :

— تعال معى ..

وعلى الدرج التفت ليسألها :

— أيـن تسكنين ؟

— قريبا من هنا — فى شارع الجزائر .

فحرك الشاوش راسه قائلا :

— لا اعتقد انهم يستطيعون تغيير رقمك — الزحام شديد على هذه المنطقة .. الادارات والسفارات كما تعلمين .. والخطوط قليلة بل معدومة . ولكن لا بأس من السؤال — بالامس جاءت سيدة أخرى لنفس الغرض ولم يكن المسؤول هنا ، فقلت لها ترجع اليوم — وها هى تنتظر أن ترى المسؤول .

وفتح لها باب غرفة عارية الارض :

— تفضلى .

فدخلت — وأشار لها الشاوش الى امرأة فى مثل سنها تلبس جلبابا أنيقا وتتصفح مجلة :

— ها هى السيدة التى قلت لك عنها ..

وخاطب الفتاة القاعدة شارحا :

— هذه الآنسة لها نفس مشكلتك — تريد تغيير رقم تلفونها .

وحيت غيثة الفتاة ، فردت هذه التحية بأدب ، وراحت تدرس مظهر غيثة بدون فضول .

وخرج الشاوش قائلا :

— سأخبره بوجودكما بمجرد انتهائه من المكالمة التلفونية .

ورد الباب وخرج ..

وقعدت غيثة صامتة لحظة ثم التفتت الى الفتاة الاخرى وسألتها :

— انت كذلك تريدين تغيير رقمك ؟

— نعـــــم .

ولم ترد أن تسألها لماذا فتطوعت باخبارها هي الأولى عن السبب:

— أنا أريد تغيير رقمى ، والابقاء عليه سريا حتى لا يعود أحد الثقلاء لمناداتى وازعاجى بالليل والنهــار ..

وهنا أقفلت الفتاة مجلتها ودارت نحوها فى اهتمام لهذا الانفتاح :

— غريب — أنا كذلك أريد تغيير رقمى لنفس السبب .. أنا أعمــل ممرضة فى عيادة توليد .. ولو كنت أستطيع الاستغناء عن التلفون لاقتلعته من الحائط ورميت به من النافذة — ولكنه ضرورىلعملى .. أنت تعرفين — فى اية ساعة من الليل أو النهار يمكن أن تحتاج لى العيــــــادة ..

— وأنا كذلك — انا صحفية .. وترجمانة وضاربة على الآلة — (سبع صنايــع ..)

وضحكت ثم استأنفت :

— وكل عملى أتلقاه بالتلفون .. والا كنت ، أنا الأخرى ، ضربت بـــه الارض منذ بدأ هذا الخنزير ينادينى ..

وسألت الممرضة :

— وماذا يقول لك ؟

— يا ليته كان يقول شيئا .. لكنت حاورته ووصلت معه الى نتيجة ما، المصيبة هي انه يمسك بالسماعة ويتنهد مرة ويلهث اخرى ..

واخذت غيثة تقلد اللهاث والتنهيد ، والممرضة تضحك — فأضافت:

— وصديقني ، انه لشيء مخيف أن تسمع في جوف الليل تلك الأصوات قادمة من مكان مجهول .. من مخلوق بلا وجه ولا صوت ولا انسانية .. وكأنه قادم من الفضاء السحيق ، واصيح فيه : من انت؟ من هناك ؟ من على الخط ؟ ماذا تريد ؟ تكلم ، فيبتلع اسئلتي في صمت ..

وظهر الخوف على الممرضة التى احتضنت نفسها بذراعيها ، فابتسمت لها غيثة ، وقالت مغيرة للموضوع :

— وانت ماذا يقول لك صاحبك ؟

فاسترخت اعصابها قليلا وقالت :

— صاحبي انا .

وتوقفت لتضحك من كلمة (صاحبي) ثم استأنفت :

— صاحبي انا يتكلم — ويتكلم بسخاء .. ولكن كلامه من القذارة والبذاءة بحيث (لا يرفد باللقاط) ، ورغم اني ممرضة .. والتقى بالحياة البشرية في ابشع صورها فكلامه يصدمني ويزعجني .

وهنا انفتح الباب وظهر راس الشاوش يناديهما ليكلما الموظف المسؤول .. وذهب الاثنتان الى مكتبه .. وبعد لحظة خرجتا تحملان منشورين لملئهما وتقديمهما للقسم المختص ..

وعلى باب المكتب تبادلتا العناوين وأرقام التلفون . وقبل أن يفترقا صاحت غيثة في الممرضة قائلة :

— لا أعرف حتى اسمك .

فضحكت الممرضة وقالت :

— اسمى عائشة ..

— وأنا غيثة .. سأتصل بك لنشرب قهوة مع بعض ، ونفكر كيف نتخلص من اصحابنا .. مع السلامة .

وافترقتا ..

وعادت غيثة الى شقتها لتجد أمها تنتظر عودتها على باب العمارة، فاحتضنتها وضمتها بقوة ، وهى تعاتبها :

— لماذا لم تخبرينى حتى انتظرك بالسيارة على المحطة ..

— لم ار داعيا لازعاجك .. ثم اننى لن أمكث طويلا .. جئت فقط لأطمئن عليك .

فدارت غيثة أمامها فى مرح قائلة :

— أنا بخير ونص .. انظرى الى .

ودخلتا المصعد الضيق فسألتها غيثة :

— هل كنت قلقة على ؟

— جدا .

ووضعت غيثة يدها على صدرها وشهقت استغرابا :

— ولكن لماذا ؟

ودخلنا الشقة فساعدت غيثة امها على خلع جلبابها، واجلستها على الاريكة وجلست على (فرتالة) قبالتها وركبتاهما تتلامسان ..

— قولى لى يا عزيزتى .. ما الذى اقلقك على لهذه الدرجة ؟

— انت لا تصدقين هذا ، ولكنها رؤيا رايتها — رأيتها مع آذان الفجر — وأنت تعرفين صدق رؤى الفجر ..

— قولى لى .. ما رايت ؟

— لا احب ان احكى رؤاى — فهى من الاسرار الالهية .. ولكن بما انها تخصك .. وأنت بنتى ومنى ، فسأقول لك ..

وتنهدت ثم قالت :

— رايت ان احدا يعذبك .. يعذبك بسوط من بعيد ، ولا سلطان لك عليه .. كان يدفعك شيئا فشيئا الى حافة فقدان العقل ، والعياذ باللـــــه .

ورن جرس التلفون فاستيقظت غيثة من سعادتها بمجالسة والدتها، والاستماع الى احاجيها ..

وقامت فتناولت السماعة :

— آلــو .

وفى الحال ادركت انه صاحبها ، فأعادت السماعة بدون كلمـــة ، وعادت تجالس والدتها . ولم تتمالك الام من السؤال عن المتكلم فحكت لها غيثة القصة من البداية ، وانتهت بقولها :

— يبدو أن رؤياك صادقة ، فعلا عذبنى هذا الحقير مدة شهرين — وما يزال يطاردنى وانا لا ادرى ما افعل لرد عدوانه .

ونظرت غيثة الى ساعتها ثم وقفت :

— هذه ساعة الغذاء — وسأنزل لشراء ما نطبخ — ارتاحى انت قليلا حتى اعــود . لا تجيبى التلفون .

وما كادت توصد الباب خلفها حتى رن التلفون بحدة — وتــرددت الام فى اجابته وبعد بضع دقات قامت فالتقطته ، واجابت :

— الــــو ..

ولما لم تسمع جوابا عرفت أنه المنادى المجرم فانبرت له معيرة :

— اعرفك يا عدو الله .. حكت لى عنك بنتى .. ورايتك فى المنام قبل أن اسمع منها .. رايتك تعذبها وتشقيها .. ماذا فعلت لك يا عدو الله؟ ولكنى أعرف كيف سأنقذها منك .. سأشعل فيك سبعين شمعة على قبور عشرة أولياء .. وسأخرج فيك سبع سلكات من القرآن الحكيم ، واللطيف الكبير .. وسيدعو عليك الحفاظ بأكف مقلوبة . الله يبتليك .. الله يبتليك .. الله يبتليك بما لا طاقة لك به . الله يبتليك بما يشغلك به عن الناس .

وعادت غيثة لتجد والدتها خاشعة فى الدعوات علىعدوها المجهول، فحاولت اخذ السماعة من يدها ولكن هذه اعادتها بنفسها قائلة :

— لقد قطـــــع .

وصفقت غيثـــة :

— قطع ؟ لاول مرة يحدث هذا . كان ينبغى ان تجيئى منذ البداية .

فقالت الام فى خيبة امـــل :

— انت لا تحتاجين لاحد . لو كنت متزوجة ما تجرأ عليك أحد .

فضحكت غيثة محولة الموضوع :

— الاحسن أن يبقوا على التلفون بينى وبينهم الحبل والفضاء الواسع ودخلت المطبخ لتعد الغذاء .

وتبعتها أمها ، وتناولت منها السكينة ، رغم اعتراضها ، وأخذت تقشر البطاطس .. وبعد صمت وتردد ألقت السؤال :

— وحيدر ؟

فتوقفت غيثة لحظة عن ضرب البيض ثم التفتت الى أمها :

— ما لحيدر ؟

— ما هى أخباره ؟

— انه بخير ..

— هل يكتب لك ، أو يزورك ؟

— يكتب من حين لاخر .. ولم يعد الى المغرب منذ ان سافر الى نيويورك ..

فتنهدت الام وأضافت :

— خسارة .. كان يصلح لك .. وكنت تصلحين له .. انه شاب طيب وكنتما منسجمين .. لماذا لم تتزوجيه ..

فتنهدت غيثة ، ورفعت شعرها عن وجهها بحركة من رأسها وقالت:

— حيدر متزوج ..

وفتحت أمها فمها فقاطعتها :

— متزوج بالثورة الفلسطينية ولا مكان فى قلبه لامرأة ..

— كلام خاوى . كلنا متزوجون بالثورة الفلسطينية .. كلنا ننتظر اليوم الكبير ، يوم عودة الفلسطينيين الي ديارهم .. ولكن لا يجب أن تتوقف الحياة حتى تعود فلسطين .. ينبغى أن نتزوج ونلد ونفرح ونعيش من أجل فلسطين ..

واجابتها غيثة ، وقد اغرورقت عيناها ، فلم تدر أمها من التأثر ام من تقشير البصل :

— ان شاء الله ..

واحترمت أمها صمتها فسكتت ..

وطارت الذاكرة بغيثة الى أيامها العاصفة مع حيدر ، والى الارهاق العاطفى الذى كانت تتعرض له من جراء ثوراته حين يصاب بأزمة يأس وكيف انها قطعت علاقتها معه ، وسافرت فجأة الى افريقيا محاولةنيسانه.

وحين عادت من رحلتها الطويلة وجدت انه تلقى الامر بالذهاب الى نيويورك فترك لها رسالة مطولة ما تزال تحتفظ بها كدستور لحبها ، وعلاقتهما الشاذة النارية ..

وما يزال يناديها من حين لآخر ليسأل عن احوالها .. وكانت مكالماته السبب الأول فى عدم تخليها عن ذلك الجهاز الجهنمى .

* * *

وكانت تربطنى بغيثة علاقة عمل ومودة .. فكنت كلما ذهبت الى شقتها لاعطيها أو اتسلم منها عملا أصرت على بقائى لشرب كأس شاي أو فنجان قهوة .. وكنت دائما ألبى دعوتها مسرورا .. فقد كانت موسوعة متحركة لاخبار المجتمع الدبلوماسى والاجنبى فى المغرب .. وكنت أنا أستلذ حديثها ، وأعجب بطريقة تفكيرها ..

(وذهبت لزيارتها ، وجلست أستمع اليها وهى تتحرك حركاتهـــــا الرشيقة بين غرفة الجلوس والمطبخ تعد أدوات القهوة .. ورن التلفون فالتقطته وازاحت شعرها عن اذنها بحركة راسها الرشيقة ، وانصتت ثانية ، ثم أخذت تلهث فى السماعة لهاثا سريعا مضحكا ثم وضعتها وعادت الى حديثها ..

وما كادت تدخل المطبخ وتخرج حتى رن الجرس مرة أخـــــــرى فالتقطته فى طريقها ، وقالت بحدة :

— مشغولة يا سخيف .

واعادت السماعة بسرعة ، ووضعت ابريق القهوة على الصينية أمامها وجلست تصب قائلة :

— هذا مجنون ابتلانى الله به منذ شهرين ..

فســالـــت :

— ماذا يريــد ؟

— لا أدرى .. ينادى ولا يقول شيئا يلهث أو يتنهد ، ولا يقــبول شيئـا حاولت معه كل وسيلة لاعرف صوته على الاقل فلم أفلح .. ربما كان أحدا اعرفه أو شخصا أسأت اليه فاعتذر ..

فقلت : لاتجيبيــــه .

— كيف أعــرف انه هو ؟

— علق عليه كلما نادى حتى يتعب .

— جربت ذلك .. أنا اتعب قلبه .

وفكرت فى الموضوع .. ثم قلت منتصرا ..

— لماذا لا تطلبين تغيير رقمك ؟

— حاولت ذلك فقيل لى لا توجد خطوط فارغة فى المنطقة .. وعلى أن ارحل الى منطقة اخـــرى .

فقلت : لماذا لا تحاولى معرفته ، وتشكينه للشرطة ؟

فقالت محركة راسها :

— تضحك علـــى ؟ كيف ؟ لو عرفته لاعترضت طريقه وعضضته مـــن قفاه .. أو دسته بسيارتى أو القيت فى وجهه وهو نائم بقطة سوداء مسعورة .

فضحكت لخيالها وقلت :

— الا تعرفين أن هناك مصلحة تقنية بادارة التلفون مختصة بهـــذه الاشيـــــاء ؟

— باللـــه عليـــك ؟

— ما عليك الا ان تطلبى منهم مراقبة تلفونك .. ان تقدمى طلبا كتابيا لهم بذلك ، وتذكرى الاسباب ، فيضعون جهازا خاصا على خطك .. وحين تاتيك المكالمة ما عليك الا أن تديرى رقم (4) وتشغليه بالكلام أطول مدة ممكنـــة ، ثم تطلبى القسم المختص فيضبط رقم صاحبك فى الجـــال .

فصاحت غيثة ونهضت فى حماس رافعة يديها :

— رائع . هائل . ولكن لماذا لم يخبرونى بهذا حين شكوت لهم ؟ حين طلبت منهم تغيير رقمى ؟

فقلت ببساطة :

— لم تسأليهم ..

فقالت :

— يا للذكاء . من أين للمواطن العادى أن يعرف ما تتوفر عليه مصالح التلفون من امكانيات ..

ودق التلفون فالتقطته ووضعت يدها على السماعة ومدتها نحوى قائلة :

— تريد أن تسمع بنفسك .. خذ جرب حظك ..

وامسكت بالسماعة كما امسك بحيوان حى غريب واستمعت .. وفعلا كان لهاث المنادى المجهول مخيفا رهيبا ..

وعادت فأخذت منى السماعة وقالت فيها :

— مع السلامة يا عزيزى .. يا حبيبى .. يا ولد الحرام .

وصفقتها مشبكة ذراعيها . فضحكت أنا ، وقلت :

— لعله عاشق خجول لا يستطيع مواجهة فتاة فى مثل قوة شخصيتك فهو ، بهذه الطريقة ، يشعر بالتفوق عليك .

فقالت : لقد فكرت فى ذلك .. وبلغ بى الامر أن طلبت منه موعدا .. المرأة أطلب موعدا من رجل . وقلت له اذا كنت تنفق على هذه المكالمات فلابد انني عندك غالية .. اتعرف بماذا رد الخنزير ؟ بشخرة عالية !

وودعت غيثة بعد ان وعدتها بأن اكلم صديقا بادارة التلفون ليعجل باجابة طلبها وذهبت ..

* * *

وسافرت الى أوروبا ذلك الصيف للقيام بدراسة قصيرة .. وعدت بعد شهرين .. وفى أول أسبوع من عودتى اخذت لها عملا وذهبت للسلام عليهـــا ..

واثناء وجودى عندها دق جرس التلفون وهى فى المطبخ فصاحت بى ان أرد عليه . ورفعت السماعة وانصتت فاذا بلهاث ثقيل على طـــرف الخط الاخر .. وحينا تذكرت قصة العاشق الصامت الذى حكت لى عنه غيثة .. فأغلقت فم السماعة بيدى وقلت لها :

— يظهر انه عاشقك المتنهد اللاهث .

واعدت السماعة الى أذنى فاذا بقهقهة امرأة تقطع اللهاث .

وخرجت غيثة من المطبخ وعلى وجهها علامة استفهام ، فقلت :

— يظهر أن عاشقك الخجول فتاة تضحك بصوت مؤنث ناعم ..
وهنا فهمت فجاءت نحوى وتناولت السماعة وهى تضحك :

— الو .. عيشة ؟ لقد انزعت ضيفى بلهاثك المخيف .. مرحبا بك فى ناد المضايقات .

وضحكت عيثة للمعنى المزدوج والتورية فى كلمة (المضايقات) .

وانسجمتا فى حديث بناتى كزقزقة الطيور فى أماسى الصيف ..

وحين وضعت السماعة التفتت الى تحاول أن تتذكر شيئا كانـــت ستقوله لى .. ويظهر انى اسعفتها بسؤالى :

— ماذا فعلت مع مجنون التلفون ؟

فضربت جبينها بكفها وضحكت :

— الم أقل لـك ؟

وجلست تحكى لى مبتدئة بشكرى على تسهيل مهمة حصولها على جهاز المراقبة ، فقالت :

— فى القسم التقنى يسمونه المصيدة .. وفعلا ، فالذين يختفون وراء التلفون ليهينوا او يخيفوا أو يصدموا شعور المواطنين والمواطنات ليسوا الا نوعا من الفيران أو القوارض البشرية القذرة .

فقلت مستعجلا حكايتها :

— وهل اشتغل الجهاز ؟

— بكامل الدقة . لم يكادوا يركبونه ويجربونه معى على أحد أرقامهم حتي دق صاحبنا .. وما كاد يلهث لهثته الاولى حتى ضغطت على زر التلفون وناديت قسم المراقبة ، فأخبرنى انهم ضبطوا رقمه .. وحين سألته ، هل سيعطينى اسمه وعنوانه اجابنى بأن ذلك ممنوع ، وبأنهم سيقومون بالواجب نيابة عنى كاحدى زبناء البريد وبانهم سيقدمونه للمحكمة ، وينزعون تلفونه ..

فقلت نادمة :

— انا لا اريد تقديم أحد للمحكمة .

فقال :

— هذه هى الاجراءات المتبعة .. وقد خرج الامر من يدك الآن .. الا اذا أردت كتابة رسالة تنازل وتصالح للوزير راسا ..

ووعدته أن أفكر ..

وبعد يومين عاد موظف قسم المراقبة ينادينى ليخبرنى بأن صاحبى تكلم من تلفون عمومى . وطلب منى أن أعيد معه الكرة .

وفعلا نادى مرة أخرى فكررت العملية .. ونادتنى المراقبة لتقول انه تكلم هذه المرة من دكان ، وان الشرطة سألت عنه فلم يتذكره أحد ، الا ان صبى الدكان أخبرهم بأن رجلا طويلا نحيفا يلبس سلهاما أسود امسك بالتلفون ولم يقل شيئا .. وطلبت منه الشرطة اخبار صاحب الدكان اذا رآه ولكن ليس من المحتمل أن يعود للنداء من نفس المكان .

وتكررت المكالمات من دكاكين مختلفة وقهاوى ، وتلفونات عمومية وتكرر اتصال المراقبة التلفونية بى لاخبارى .

وكدت أيأس .. ولكنه بعد أن نادى ذات ليلة ، عاد قسم المراقبة فنادانى ليعلن بحماس انه نادى من تلفون أحد المنازل ، وانهم ضبطوا الرقم والعنوان ..

ومرت أيام .. وانتظرت انقطاعه عن مضايقتى دون جدوى .. وناديت قسم المراقبة مرة أخرى فقال لى نفس الموظف :

— اننا بعثنا بالملف للشرطة .

ويئست من أى عمل عاجل لاعتاق رقبتى من يد هذا الجلاد ، فقمت بمحاولات شخصية مع بعض الصديقات واستطعت الحصول على رقم المجرم واسمه وعنوانه ..

وقضيت بياض ذلك النهار وطرفا من الليل أحاول الوصول الى قرار فى شأنه ..

ولسوء حظه .. ايقظنى تلك الليلة من نوم عميق ، فأصبت بأرق وصداع حاد . . وقررت الانتقام منه بنفس طريقته حتى ولو اضطررت للنزول الى مستواه ..

وركبتنى شهوة الانتقام فبت أخطط وابنى واهدم حتى توصلت الى طريقة عبقرية فى خيالى .

وصدقنى ، ليس ألذ من التخطيط للانتقام من عدو ظالم قاسى .

وفى الصباح كان أول ما فعلت هو أن ناديت صديقتى عيشة — التى سمعت لهاثها فى التلفون — تعرفت عليها فى قسم الشكايات بمكتب التلفون .. لها نفس المشكل .. فقلت لها عن الجهاز المعجزة ، عن المصيدة .. وارسلتها فى الحال الى الشخص المكلف لتركيبه على رقمها.

ولحسن حظى كانت مستعجلة فلم تطل استنطاقى ، وتواعدنا على اللقاء فى المساء ..

ثم لبست واخرجت سيارتى وذهبت ابحث عن عنوان صاحبى ، أو عاشقى المجهول ، كما تسميه انت ، عملا بالنصيحة القائلة « أعرف عدوك » .

ووجدت العنوان بسهولة .. كان عبارة عن دار صغيرة متفرعة عن شارع عنابة .. واوقفت سيارتى بعيدا عنها وجلست اراقب بابها من خلف نظارة سوداء ، وانظر الى ساعتى وانا اشعر باهمية المفتش السرى فى قضية خطيرة ..

وعلى الساعة الثامنة والربع انفتح الباب وخرج رجل طويل القامة يلبس سلهاما ونظارة سوداوين ويقبض بأسنانه على سيجارة فأقفل الباب وراءه بالمفتاح وسوى هندامه وتحرك خارجا من الدرب الى الشارع .. وتأملت وجهه من خلف نظارتى فاذا هو نحيف معروق شاحب اللون ، معقوف الانف .. ذى شعر بنى فاتح وشارب ولم تتطابق هذه الصورة مع تلك التى رسمتها له فى ذهنى من خلال مكالماته او (ملاهثاته) ان صح التعبير ..

ووقف على الجانب الاخر من سيارتى فخلع نظارته واخرج منديلا ليمسحها ونظر نحوى فلم اتحـــرك .. ولاحظت انه لم يطل النظر الـــى ، ولم يبد على وجهه ما ينبىء بأنه تعرف علــــى ..

وقلت فى نفسى ربما كان قصير النظر فلم يرنى .. أو بعيد النظر فلم يرد اشعار.. بأنه يعرفنى .. ولاحظت ضيقا واغورارا فى عينيه اعطيـــا وجهه تعبيرا خاصا بالمخبولين والساديين من زبانية التعذيب ..

وقلت فى نفسى ، وانا الاحقه بعينى : « هذا اذن هو الواسطى بوخروب » وجددت له اللعنات .. ما كان اشبه « بدراكيولا » .

وانتظرت حتى لوى الناصية وخرجت من السيارة بسرعة واقفلتهـــا وتبعته .. واعطيته العين من بعيد حتى رأيته يدخل احد المكاتبالحكومية وعدت الى سيارتى ..

وترددت قبل ان افتح بابها ، ثم عدلت، وتوجهت نحو الدرب وكأنى ابحث عن عنوان حتى لا أثير شكوك الجيران . ودرت بالدار احاول ان أسرق نظرة الى داخلها ، فكانت عبارة عن قلعة مغلقة النوافذ محاطة بحديقة متوحشة كثيفة الاغصان ، ومتسلقات تكسو الجذران الرطبـــة الباردة .

فقلت فى نفسى : « لا يسكن مثل هذه الدار الا فار أو افعوان » :

وفى المساء التقيت بعيشة وحكيت لها عن مغامرتى العظيمة وهى فاتحة عينيها من الدهشة والاعجاب .. ثم جلسنا نخطط معا للايقــــاع بغريمنا وقبل ان نبدأ استوقفتنى :

— لنبدأ بصاحبك ، فلا اعتقد ان صاحبى سينادينى بعد اليوم .

فسألت مستغربة :

— ماذا حـــدث ؟

— جاء أخى لزيارتى .. وهو طالب بكلية الحقوق ، (هيبى) بمعنى الكلمة .. ولسوء حظ مكلمى نادى اثناء وجوده فأخبرته عنه ، وناولته السماعة واقفلت عليه الباب ، فنزل فيه بكل ما يسمع ولا يسمع من شتائم وتحديات ومناقشات عنيفة اضطر المعتدى الظالم بعدها ان ينسحب من المعركة مدحورا مهزوما .. وعاد مرة اخرى فتناوله أخى العزيز وصارعه مدة نصف ساعة ، وكأنه يخرج عفريتا من التلفون حتى أهلكه . ومر يومان لم يناد فيهما .. وارجو ان يكون قد مات بسمه .

فتنهدت حزينة وقلت :

— انا سعيدة من اجلك .. ولو كان صاحبى المجرم يتكلم لاستمرت أخاك ولو ليومين .

وضحكنا ثم انكببنا على دراسة خطتى ..

وفى ذلك المساء قمت بزيارة لاحد أصدقائى الدبلوماسيين الشباب وكان مولعا بالتصوير السينمائى والالات السمعية البصرية الاليكترونية.. وحكيت له قصتى مع الواسطى بوخروب ، وعرضت عليه خطة دفاعى، فتحمس لها ، واضاف اليها بعض التعديلات التقنية ، والسيكولوجية مثل اعداد الضحية نفسيا لتقبل الايحاء والانفعال له ..

وقادنى الى غرفة هوايته بدهليز الدار ، وكانت أنيقة التأثيث ، حسنة الاضاءة ، وهناك عرض على آخر ما عاد به من بلاده من أسطوانات وافلام المؤثرات الصوتية والضوئية الجديدة ، وعلمنى طريقة استعمالها ..

* * *

وعاد الواسطى بوخروب الى داره ففوجىء بامراة موشومة الوجه ملتحفة بالسواد ، وهى خارجة من دربه على استعجال ..

وحين اقترب من باب داره لاحظ بقية دخان صادر من تحت العتبة فاستغرب له .. وبحث عن عود نكث به مصدر الدخان ، وأخرجه وقد انطفأ فاذا به صرة قماش بداخلها بخور ونيلة وأعشاب مختلفة ، وورقة مكتوبة بالسمق احترق أغلبها

واقشعر بدنه ، وزاد وجهه شحوبا وهو يمد يدا مرتعشة بالعود لفتح الورقة المكتوبة وقراءة ما بها من كلمات ورموز ، وأطراف من الآيات القرانية تنذر بالشؤم والشر الغامض ..

ووقعت فى ذهنه صورة الموشومة المجللة بالسواد ، فأسرع فى الحال الى اللحاق بها .. وعلى مدخل شارع عنابة التفت كالمجنون يمينا ويسارا فلم يعثر لها على أثر ..

وراقبت غيثة حركاته فى مرآة سيارتها ، وهى ممسكة بحق زينتها تمسح الوشم الغريب من جبينها بليقة قطن ندية ..

وفى شقتها جلست فى كرسيها الهزاز تخيط دمية من الاسفنج والقماش كبيرة الشبه بغريمها الواسطى بوخروب .. والبستها سلهاما أسود ، ورسمت حول عينيها نظارة سوداء ، وخرقت قلبها بابرة كبيرة، ثم أوثقتها الى حجر ووضعتها فى حقيبة يدها وجلست تتأرجح وعلى وجهها ابتسامة ماكرة ..

ورن التلفون فى الساعة التى توقعته بالضبط فمدت يدها والتقطت السماعة :

— الـو

ومن بعيد سمعت صوتا حسبته فى البداية انتحابا .. وأرهفت سمعها مصغية فاذا هو صوت شخص أوهنه الضحك ، وكأنه يغالب القهقهة . فقالت لـه :

ـــ هذه البداية فقط .. لقد بدأت تفقد عقلك ايها الخنزير دعـــوات الوالدة مقبولة .. وقد أخرجت فيك سبع سلكات من القرآن الكريـــم ، وكذلك اللطيف الكبير .. واشعلت فيك سبعين شمعة فى أضرحة الاولياء .. وفى المدينة الان عشرات الحفاظ يدعون عليك بالاكف المقلوبـــة ، ويطلبون لك الخبال .. وانت تعرف دعوة المظلوم .. الله يبتليك ! اللـــه يبتليك !

ثم صفقت السماعة ، ونظرت الى ساعتها : الحادية عشـــــرة واربعون دقيقة ليلا .. ولبست مستعدة للخروج ..

***

وفى داره الخربة جلس بوخروب فى فراشه يستعد للنوم ويقرأ بعـــض الجرائد فى هدوء مطلق وفجأة انفجرت زجاجة نافذته المفتوحة الوحيدة، وسقط منها على الارض شىء غريب ..

وصدرت عنه صرخة لا ارادية وانكمش على نفسه ، وكأنه يتوقع هجومـــــا .

وعاد الهدوء .. فقام من سريره وذهب نحو الكومة الساقطة لينظر اليها بحذر شديد .. وارتعدت فرائصه وهو ينظر الى الدمية التى كانت تشبهه الى حد ما ، وقد اخترقت الابرة قلبها ، وسال الدم على صدرها قانيا خاثرا ..

وخطر بباله ان يمسك براميها فخرج فى منامته حافيا يجرى الـــى الشارع ، فدار حول الدار من كل جانب ، ثم خرج نحو شارع عنابة ، وشارع مولاى حفيظ والشوارع الاخرى المتفرعة فلم يجد احدا ..

واحس ببرد قارس يتسرب الى عظامه ، وبدات اسنانه تصطك فعاد الى داره مهرولا ليجد الباب قد اقفل خلفه .. وحاول فتحه بدفعه بيديه وكتفه فلم يفلح .. وراح يبحث عن شىء يكسره به ..

وما ان دار حول الحديقة حتى تذكر أن زجاج النافذة مكســــــور فتسلق حافتها وأدخل يده ، وفتح النافذة ، وقفز الى الداخل وهو يرتجف وعاد ينظر الى الدمية فادرك أن بينها وبين صرة الصباح ترابط ومعنى ينذر بخطر غامض .. ولم يدر ما يفعل .. حاول التقاطها فلم تسعفه يده.. حاول كنسها فخاف أن يرتمى ساكنها فى وجهه

وخيل اليه انها تحتضر وتئن فوضع يديه على أذنيه وابتعد .. وشل تفكيره فجلس على حافة السرير فى شبه غيبوبة .

وأخرجه من غفوته جرس حاد فوقف لا يــــدرى أهو البـــاب أم التلفون .. وحين ادرك انه الاخير التقط السماعة وهو يلهث من انحباس أنفاسه :

— الــو .. الــو ..

ولم يسمع ردا .. ونظر الى فم السماعة ثم ارهف سمعه فـــاذا اصوات الصراصير والضفادع تأتى من مكان مقفر بعيد .. ولاول مرة احس انه يسمع ظلام ليلة دامسة بأذنيـــه

وصاح بملء رئتيه :

— من ؟ من على الخط ؟ تكلم او اقطع ؟

وجاءه عصف ريح باردة وزئيرها بين الشوك والعوسج فى ما خيل اليه انه قرية مهجورة ..

واحس بقشعريرة البرد فرمى السماعة على الجهاز وراح يتدثر بغطائه ..

وخيل اليه انه راى بطرف عينيه الدمية الدامية تتحرك فالتفـــت بسرعة لينظر اليها .. ولكنها كانت كما تركها

وقام ، وقد ارتفعت حرارة راسه ووجهه فجاة ، الى المطبخ فجاء بطنجرة قلبها فوقها ، وعاد الى فراشه وقد بدا يهذى من وطأة الحمى ..

ورن التلفون مرة اخر.. فتركه يرن .. ولوى راسه فى الغطاء حتى لا يسمعه .. ولكن الرنين كان يزداد حدة واصرار حتى خاف أن يحتج عليه الجيران . فأخرج يده من تحت اللحاف والتقط السماعة لاهثا شاتما وادخلها معه :

— آلـو ..

واستمع وهو يرتعد فاذا صوت امرأة تئن وتتوسل وتستغيث بحرارة تقطع نياط القلوب ، ثم تنخرط فى بكاء يثير الرحمة والاشفاق .. وفجاة تصرخ صراخ الموت وكأنها ترى شبح مارد مخيف ..

وانتفض الواسطى فى فراشه وقد استولى عليه الرعب ، فرمى بالسماعة على الارض واقفل اذنيه بكيفيه اقفالا محكما ، ولكن الصوت المعذب كان يخترق يديه الى راسه ، ويتفجر فى مخه .

ومد يده فضغط زر الجهاز وبقى كذلك حتى تأكد من انهاء المكالمة .. ثم رفع اصبعه على مهل متوجسا ان يسمع الصوت المخيف مرة اخرى .. ولكنه ارتاح لسماع صوت الخط فارغا ، فتناول وسادة ووضعها عليه حتى لا يسمع الطنين .

وتنهد بعمق ، واخذ ينصت الى لهب الحمى وهى تحرق عظامه وكأنها نار فى غابة يابسة ..

وبدأ يهذى فى سكون الليل .. وخيل اليه انه سمع من خلال هذيانه صوتا فسكت ليصغى وفعلا كان صوت أزيز غريب يصدر عن جهاز التلفون ..

وتردد قليلا ثم تدلى من فراشه فالتقط السماعة من تحت المخدة وانصت . وجاءه صوت عاملة تلفون :

— علق السماعة من فضلك .. هناك من يريد الاتصال بك باستعجال.. فرد عليها بصوت مبحوح :

— لا اريد ان يتصل بى احد .. انا مريض ..

ولم يبد انها سمعته ، فقد كانت تقهقه مع احدى زميلاتها وهـــى توصله بخط طالبـــه :

— تكلمى من فضلك ..

وجاءه نفس الصوت الادمى المرعب ، لا يستغيث هذه المرة ولا يصرخ ، بل يلهث حاقدا وهى تقول :

— قتلتنى ..! قتلتنى يا عدو الله ..! ماذا ستقول لربك وانت مقبل على الموت الان ؟ قاتلك الله .. قاتلك الله .. قاتلك الله ..

ولم يستطع ان يستمع ، فرمى بالسماعة بعيدا ، ثم تدلى من سريره ليلتقط حبلها ويجرها نحوه ، وصوت الانثى المسعورة ما زال يرعـــد ويزبد وهى داعية عليه بكل الويلات ..

وقطع المكالمة ، ثم ادار رقم عاملة التلفون فأجابته ، بعد انتظار قاتل ، نفس العاملة وهى تمضغ العلك :

— نعـــــم ..

— اريد ان اعرف رقم هذه المراة التى تكلمنى .. اريد ان ابلغ الشرطة انها تهددنى

— لا استطيع اعطاءك رقمها

— ارجوك يا آنسة .. انها مسالة حياة او موت . ارجوك لا خيب الله لـــك رجـــاء .

فتنهدت الفتاة ، وقالت :

— علق السماعة الآن وسوف اراقب خطك لاعرف رقمها واخبرك بـــــه ..

— جازاك الله بكل خير يا آنســـة ..

وعلق السماعة .. وعاد الى فراشه يمسح العرق البارد عن وجهه..

وما كاد يستريح حتى دق التلفون مرة اخرى ، وجاءه صوت الفتاة :

— ها هو الرقم ..

واعطته رقما .. فقال :

— هل يمكن أن تقولى لى اسم صاحبه ؟

— انتظر قليـــلا ..

وأدارت قرصا امامها ثم عادت اليه :

— انه أحد أرقام المستشفى .. انتظر .. وسأعرف من بالحراسة لعلها ممرضة سخيفة تريد ان تتسلى .

وبعد دقائق ظنها الدهر كان يسمع خلالها أزيز الاسلاك ، وتقاطع المكالمات والاصوات البعيدة الخافتة ، رجعت اليه العاملة مرة أخرى لتقـــــول :

— اخشى أن هذا الرقم لا يجيب ولا يمكن أن يتكلم منه احد ..

فقـــال مستغربا :

— كيف لا ؟ أنت بنفسك

فقاطعتـــه :

— أنا الاخرى استغربت .. وقد ناديت المركز التلفونى بالمستشفى فقيل لى انه رقم مخصص لمستودع الاموات

فردد غير مصدق :

— مستودع الامـــوات ؟

— نعم .. ثلاجة الجثث .. وقد سألت عن سبب وجوده حيث لا يحتاج اليه أحد فقيل لى انهم ركبوه هناك بعد حادثة غريبة .. اكتشفـــوا جثة ميت عادت اليه الحياة فزحف ليفتح الباب فلم يستطع ولم يجد وسيلة للاتصال بالخارج فمات من البرد وجدوا جثتـــــه وراء الباب .. وقد بحث الحارس فى المستودع عمن يكون قد استعمل التلفون فلم يعثر على شىء ..

وفغر فمه وهو يستمع اليها حتى غاب صوتها وانقطعت المكالمة ، فوضع السماعة على الجهاز ، واستلقى يحملق فى السقف ..

وشق رنين الجرس هدوء الليل .. ونظر الواسطى الى السماعـــة وكأنها يد تمتد لتمسك بخناقه ، فابتعد عنها

وتلاحقت رناته كزعيق جهنمى .. كل واحدة أمضى من الأخرى .

وسمع دقا مكتوما من حائط الجيران ففكر أن يجيب على الدق بمثله، ولكنه كان أضعف من أن يعقد قبضته .. ففضل التقاط السماعة والنظر اليها دون وضعها على أذنيـــــه ..

ولم يكن فى حاجة الى الانصات ، فقد كان صوت المرأة عاليا وكأنها معه داخل الغرفة .. ولم يكن هذه المرة يدرى هل تبكى أم تضحـــك .. تقهقه أم تولول

ولم يملك أعصابه فنهض من مكانه وامسك بحبل التلفــــون ، وبمجهود هائل استله من الحائط حتى وقع على الارض .. وسحب الحبل فنظر الى أسلاكه النحاسية بعينين جاحظتين فيهما نظرات شماتة وانتقام وجنون ، وكأنه خنق مكلمته واسكتها الى الابد

***

وبعد يومين لم يذهب فيهما الواسطى الى عمله اشتبه زمــلاؤه وجيرانه فى أمره ، واخبروا رجال الامن فكسروا باب الدار ودخلوا عليه ليجدوه ملقى على الارض الى جانب التلفون جثة هامدة ..

ويروى اول الداخلين عليه باستغراب كبير انه سمع صوت امــرأة تقهقه فى سماعة التلفون قبل ان يكتشف ان حبله مخلوع من الحائط ..

***

ولم تعلم غيثة بما حدث للواسطى بوخروب .. مرت ثلاثة أيام دون أن يناديها فظنت انه ثاب عن غيه بعد الدرس القاسى الذى لقنته اياه ..

وفى تلك الايام بدأت تحس احساسا قويا بوجود مخلوق آخر معها داخل الشقة

عادت ليلة متأخرة وحين فتحت الباب شعرت بقوة ان النور كان مشعولا فانطفأ قبيل دخولها بجزء ثانية ؟

وكانت تسمع الابواب تفتح وتوصد بهدوء وحذر فتقوم لتبحث فلا تــرى شيئا ..

ووجدت مرة سيجارا فى منفضتها ، ورائحته تمــلأ المكــان دون ان تتذكر ان احدا زارها ممن يدخنون السيجار ذلك النهار

وفى ليلة ، وهى خارجة من الحمام ، لمحت ذيل سلهام اسود يدخل بسرعة غرفة النوم فشهقت رعبا .. واسرعت نحـــو المطبخ فاخرجـــت سكينا كبيرة وتبعته الى غرفة النوم ، وكأن يدا خفية تدفعها نحوه دون ارادتها ، فلم تجد شيئا ..

وظنت ان الشقة مسكونة .. او انها بدات تفقد صوابها .. فاشعلت الاضواء كلها ، وأخذت تبحث فى الخزائن وتحت قطع الاثاث بدقة المصاب بالوسواس ، وهى تتوقع أن يخرج لها الواسطى بوخروب من خلف ستارة أو من تحت سرير دون جدوى ..

وفى الصباح الباكر ، وبعد ليلة بيضاء من البحث والخوف ، خرجت قاصدة دار الواسطى بوخروب ، فوجدتها مفتوحة الابواب والنوافذ ، خالية من الاثاث .

ولم تعلم بموت الواسطى الا حين سألت بعض العمال الذين كانوا يتهيأون لهدم الدار .. فقال لها أحدهم ، وهو يستعيذ بالله ، انه مات ميتة شيطانية .

وفى تلك الليلة رفعت سماعة التلفون لتطلب والداتها .. ولكنها بدل أن تدير رقم والدتها طلبت نيويورك .

ورن جرس التلفون فالتقطته بسرعة .. وما كادت تسمع صـــوت حيدر حتى أجهشت باكية ، وهى تردد :

— حيدر .. تعال خذنـــى

الربـــاط **احمد عبد السلام البقالى**

مهرجانات مصارعة الحيوانات
في
غرناطة وفاس

عبد القادر زمامة

عادة التمتع بمشاهدة صراع الحيوانات مع بعضها ، او صراعها مع الانسان عادة قديمة جدا فى تاريخ المجتمع البشري . ولها رواسب واصداء فى عقليات الشعوب ، والتاريخ الحضاري ، والآداب الشعبي ، والاساطير والامثال .وذلك شيء طبيعي لان الحيوانات الضارية وغيرها كانت تتمتع بحظها الوافر من سطح هذه الكرة الارضية ، الذي كان مشتركا بينها وبين الانسان فى مختلف القارات والمناطق والعصور ، وكانت هذه الحيوانات تمرح فى غابات شاسعة الاطراف تحمي حوزتها بما تملك من قوة وهيبة وسلاح طبيعي فى أنيابها وقرونها ومخالبها وكل ما تملكه من وسائل الهجوم والدفاع التي تظهرها عند الحاجة .

وعندما نشأت الحضارةالاسلامية فى المشرق والمغرب كانت هذه العادة معروفة عند الامم التي عاصرتها او سبقتها وكان من المعتاد فى تاريخ الحضارات ان ترتبط حلقات بعض العادات فى الجديات والهزليات ارتباطا عفويا فى كثير من الاحوال ، وهذا ما حدث بالنسبة لهذه العادة حيث اخذت طريقها الى الظهور فى بعض عواصم الحضارة الاسلامية بالمشرق منذ العصر العباسي ، حيث تسابق الهواة الى تهيئة الاسباب لابرازها فى نطاق ضيق خاص ، او واسع عام على الرغم من الراي الذي

كان يبديه أهل العلم من النهى عن اظهار هذه العادة فى الحفلات والمهرجانات لما فى ذلك من تعريض الارواح البشرية لاخطار القتل أو الجـرح أولا . . . وتعذيب الحيوانات ثانيا . . . ! (1)

وهدفنا الآن متجه الى الحديث عن نقطة معينة من هـذا الموضـوع الواسع الاطراف الذي تتجاذبه الحضارة . والتاريخ . والفنون الشعبية وغيرها من العلوم الانسانية . وهذه النقطة هي عادة اقامـة الحفـلات والمهرجانات فى المناسبات المختلفة للتمتع بمشاهدة مصارعة الحيوانات مع بعضها او مع الانسان وذلك فى كل من غرناطة عاصمة بني الاحمـر . وفاس عاصمة بني مرين خلال القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي. فى نطاق ما نملكه لحد الآن من اشارات تاريخية شحيحة جدا ... وغنـي عن الايضاح ان المؤرخين ـ فيما نعلم ـ كانوا لا يهتمـون بتسجيل هـذه العادة وشبيهاتها لمقاصد شتى ... !

والاشارات التي نملكها لحد الآن ، الى هذه العادة ، هـي اشـارات تاريخية ، وأدبية ، شعرية ، ونثرية ، نجدها عرضا فى مخطوطات ومطبوعات قليلة من آثار ذلك العصر . الا ان اهميتها ترجـع الى ان اصحابها قـد حضروا فعلا فى هذه المهرجانات وشاهدوا الصراعـات المختلفـة بين حيوانين . او بين انسان وحيوان .

ومن الطريف فى هذا الموضوع ان مهرجانات فاس اشار اليها كل من لسان الدين ابن الخطيب . وابى الوليد اسماعيل ابن الاحمر كما حضرها كل منهما رفقة السلطان ابي عنان المريني . والاول كان سفيرا لدولتـه . والثاني كان لاجئا ابعدت اسرته عن الاندلس ... ! فاقـام بفاس ملحقـا ببلاط ابي عنـان ... !

وينبغي ان نشير الى نص ابن الخطيب اولا ...

ثم الى نص ابى الوليد ثانيا ...

فلسان الدين ابن الخطيب تحدث عن مهرجان البيضـاء « فـاس الجديد » بنص اورده فى (الاحاطة) الا ان هذا النص التوى على الطابـع

فظهر في صورة تحتاج الى اصلاح وتقويم (2) لتتضح ارتساماته عن الصراع ونتيجته . ثم اتبع النص بقطعة شعرية ارتجلها بين يدي السلطان ابي عنان. وقد تجاول بين يديه الاسد والثور فظهر الثور على الاســـد وذاك محـــط العجب الذي استبد بابن الخطيب فأنشد :

انعام ارضك تقهـــر الآســـــادا   طبع كسا الأرواح والأجســـــادا
وخصائص الله بـــث ضروبـــهـــا   في الارض ساد لأجلها من ســـادا
ان الفضائل في حماك بضائــــــع   لم تخش من بعد النفاق كســـادا
كان الهزبر محاربــــا فجزيتـــــه   بجزاء من في الارض رام فســـادا
فابغ المزيد من الآلـــه بشكـــــره   وارغم بما خولتـــه الحســـــادا

ويظهر ان ابا عنان كان مولعا بهذه المهرجانات وانها كانت متنوعـــة فتارة كانت تقام من اجل صراع الاسد مع الثور وتارة كانت تقام من اجل صراع الاسد مع الانسان يخاتل الاسد الى ان يقضي عليه بعد جولات .. ولا يبعد انه كانت هناك انواع اخرى من الصراعات لم نطلع عليها ... !

كما يظهر ان ابا عنان كان يجلس في « علية » بقصره يتابـــع الصراع كما يقول أبو الوليد ابن الاحمر وكما سياتي ... أو في « برج » كما يقول لسان الدين ابن الخطيب في ديوانه : « الصيب والجهام والماضي والكهام »

« وقلت في البرج المعد لذلك :

ابو عنــــان خيــــر مستخلـــــف   أصلح من أمر الورى ما فســـــد
لا ينكـــر الفضــــل لمـــلاكـــــه   الا امرؤ غطـــى عليه الحســــد
وحـــق من جمـــع في الخلـــق بيـــــن النفس والروح والجســـــدا
لانت يا مـــولاي شمس العـــــلا   حقا وهذا البرج برج الأسد (3) »

والمظنون ـ كما تقتضيه قرائن الاحوال ـ ان الباب المسمـــى بفاس « باب السبع » قديما . وباب « المكينة » حديثا كان يقع فى مكان قريب من مكان المهرجانات التي تقام من اجل صراع الاسد مع الثور ... او مـــع انسان ... ؛ ومن أجل ذلك أخذ هذا الاسم « باب السبع »

وتجدر الاشارة هنا الى أن المستشرق الفرنسي « لوتورنو » في كتابه: « فاس فى عصر بني مرين » يقول :

وكان يسمى باب السباع ولعل ذلك يعود الى سباع كانت صورتهـــا منقوشة هناك الا انها امحت (4) »

الباب ليس باب « السباع » ولكنه باب « السبع » وقصـــة صـــور السباع المنقوشة مستبعدة جدا فى هذا الموضوع ... ! وقرائن الاحوال كلها تدل على أن لمهرجانات صراع الاسد أثـــرا واضحا في تسمية هـــذا الباب باسم « باب السبع » عند المؤرخين الذين كتبوا عن دولة بني مرين وعاصمتها البيضاء « فاس الجديد »

واما النص الثاني الذي كتبه أبو الوليد ابن الاحمر عن مهرجانـــات الاسد على عهد ابى عنان فى البيضاء « فاس الجديد » فهو موجـــود فى مخطوطـــة كتـــاب :

« نثير الجمان فى شعر من نظمني واياه الزمان » فى الباب العاشر عند تقديم شعر صديقه الشاعر احمد بن يحيى ابن عبد المنان ... يقول ابـــو الوليـــد :

« وكان السلطان مولعا بقتل الاسود . فسيق اليه يوما أسد فقتل بين يديه بقصره من دار الامارة المدينة البيضـــاء والسلطـــان المتوكـــل (ابو عنان) جالس باعلى علية بالقصر ينظر للاسد وأنا اذذاك جالس فى ذلك الموضع اتنزه في قتل الاسد في جملة من حضر ذلك الموطن مع السلطان . .»

وكرر ابو الوليد ابن الاحمر هذه الاشارات فى كتابه المطبوع :

« نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان » عند تقديمه أيضا لشعر صديقه أحمد بن يحيى ابن عبد المنان (5) وبذلك يكون ابو الوليد قد وضح لنا بعض التوضيح ما اجمله قبله لسان الدين ابن الخطيب ...

وبعد هاتين الاشارتين اللتين أمدنا بهما كل من ابن الخطيب فى (الاحاطة) وديوان (الصيب والجهام) وابن الاحمر فى كتابيه : (نثير الجمان) (ونثير فرائد الجمان) عن مهرجانات صراع الاسد فى فاس ، ننتقل الى قصيدتي ابن عبد المنان الشاعر المغربي الذي سجل هذه المهرجانات في شعره عند مدحه لابى عنان ... والقصيدة الاولى مقصورة ، غنية بالمعاني والاوصاف تشتمل على 93 بيتا يمكن الرجوع الى نصها الكامل فى نثير فرائد الجمان ص 351 - 356 كما انها موجودة فى مخطوطة كتاب نثير الجمان فى آخر الباب العاشر . وهي من أدب المقصورات .

أما القصيدة الثانية فهمزية تشتمل على 45 بيتا فى الموضوع ذاته احتفظ لنا بها ابن الاحمر فى مخطوطة نثير الجمان ولم يشر اليها فى كتاب نثير فرائد الجمان المطبوع . ولا داعي هنا الى ذكر نص القصيدتين اذ فى الاحالة على مصدرهما كفاية لمن يريد مزيدا من الاطلاع على هذا الموضوع الطريف ... ! المتعلق بدولة بني مرين .

والى هنا ونحن نتحدث عن المصارعة فى فاس . أما عن المصارعة فى غرناطة عاصمة بني الاحمر فاننا نلاحظ ان ابن الخطيب يذكر طريقتين :

— طريقة المصارعة بين الاسد والثور (6)

— طريقة المصارعة بين الثور والانسان (7)

والصورة التي يقدمها ابن الخطيب عن الطريقة الثانية شبيهة بما هو معروف فى اسبانيا وامريكا اللاتينية الى الان ...

وعلى كل فاننا لا نعرف مؤرخا آخر غير ابن الخطيب أشار الى هذه العادة التي كانت معروفة فى غرناطة سوى ان الشاعر ابن زمرك اشار الى

ذلك فى بعض قصائده ومقطعاته التي مدح بها محمد بن يوسف الملقب بالغني بالله والتي ذكرها ابو العباس المقري فى نفح الطيب مثل قوله : (8)

وطاردت الصوار بكل ضار	كما اتبعت عفريتا شهابا
ضربت به على الآذان منها	فلم تستطع حراكا واضطرابا
ومعصوب الجبين بتاج روق	يروع خواره الأسد القطابا
تعرف ان تحت الارض ثورا	فرام بأن يشق له الترابا
وكلت به هضيم الكشح اجنى	حديد الناب تحسبها حرابا
تباعد مجمع الشدقين منه	وسال الموت بينهما لعابا
فاثبته كوحي الطرف حتى	ثوثق منه جازره غلابا
وصاح به الصوار وقد رآه	حبيس الكلب قد منع الايابا
« فغض الطرف انك من نمير	فلا كعبا بلغت ولا كلابا (9) »

ومن نص ابن الخطيب فى مخطوطة (الاحاطة) بالاسكوريال نعلم ان العادة كانت جارية بتسليط نوع من الكلاب على الثور قبل ان يتصدى له الفارس المصارع ليجد قوته قد أخذت فى الانهيار بمفعول تحرش الكلاب ونهشها واذ ذاك يقدم على مصارعته والقضاء عليه امام الجمع الحاشد من الناس ... !

ولعل الأيام ستجود علينا بنصوص واشارات أخرى عن هذه العادة التي نتطلع فى ابحاثنا الحضارية الى المزيد من المعلومات حولها . . . !

فاس   عبد القادر زمامة

المصادر والمراجع

1 ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ج 2 ص 258
الترجمة العربية . ط. الثالثة القاهرة 1957 م

2 ـ ابن الخطيب : الاحاطة . ج 2 ص 6 ـ 7 ط الاولى القاهرة 1319
والقطعة مذكورة فى ديوان الصيب والجهام
والماضي والكهام . ص. 464 . ط. الجزائر 1973

3 ـ ابن الخطيب : ديوان الصيب والجهام ص. 464

4 ـ روجى لوتورنو : فاس فى عصر بني مرين الترجمة العربية ص. 37
بيروت 1967 م

5 ـ ابن الاحمر : نثير فرائد الجمان ص. 350 . بيروت 1967 م

6 ـ ابن الخطيب : الاحاطة ، ج 2 ، ص. 6 ـ 7 ، ط. الاولى
القاهرة 1319

7 ـ ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوطة) الاسكوريال ورقة 441

8 ـ ابو العباس المقري : نفح الطيب ج 7 ص 297 ط. بيروت 1968

9 ـ البيت لجرير ضمنه ابن زمرك قصيدته الوصفية .

ع . ق . ز .

في رحلة الشوق

حسن الطريق

أى صوت اذا تمـاوج فيه اللحـن واخضلـت المنى بصـداه

يتـوالى عبر الضيـاء ويفـشى بالذى تزدهى بـه نجـواه ؟

أى صوت يسيل فى دنف العاشق عيـداً تزهـو بـه رؤيـاه ؟

ضـج فى لهفـة مبرحة البـوح بهـا استعـذب المحب لظـاه

بالـدفء الهوى ، تفجـر فى قلبـه حتى ارتـوت بـه عينـاه

وارتمى فى قصيدة حلـوة اللحـن ، وألقى على الحروف هـواه

واحتوى كل همسة فى حنـــايـــاه وألقى المنى على مـــا احتواه

حمل الحسن صبوة كل ما فيهـــا نقـــاء يلـــوح فى مـــا يـــراه

وتوالى رهو الخطى ينـــثـــر البسمـــة فى كل طلعـــة تلـــقـــاه

طفـــق السحر فى توهج أعراســـه طلـــق اللمـــى يمـــد سنـــاه

أى صوت يـــذوب فيه من الشـــوق حنين تطـــول فيـــه الآه ؟

واكب الغيـــم فى سراه الى ســـدرة مـــا يبـــتغـــيـــه فى مسراه

وانـــتحى كاتمـــا جراحـــه حتى هتكـــت سر جرحـــه بلـــواه

عبر أعـــراس مبتغاه توالى النـــور يقصى الظـــلام عن دنيـــاه

ما اجتبى من ضيائه ، فى رمال البحر ، الا الصدى الذى بحشاه

كل مـــا فى حصاد عمره ، دنيـــا حلـــم جـــددت لـــه ذكـــراه

القصر الكبير **حسن الطريبق**

اسبانيا الاسلامية

الى ولاية عبد الرحمن الأوسط

202 هـ/ 822 م

(2)

ابتسام مرعي خلف الله

نشـأة عبـد الرحمـن

هكذا كانت أحوال اسبانيا الاسلامية عند وفاة الحكم الربضى بن هشام عام 206 هـ/822 م وولاية ابنه عبد الرحمن . ولهذا كانت البلاد فى أمس الحاجة الى تثبيت دفة الادارة والنظام فى الداخل والاستمرار فى مواجهة الاعداء فى الخارج ، فيتجدد عهد عبد الرحمن الداخل وتسير امارة قرطبة الأموية فى تطورها التاريخى نحو القوة والعظمة والخلافة الاسلامية الثالثة . وأثبت عبد الرحمن أهليته لهذا الطور من تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، بمواهب شخصيته المتميزة — وهي مواهب صقلتها النشأة الخاصة والبيئة الحضارية المحيطة بها .

وعبد الرحمن بن الحكم هو أكبر ابناء الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ويكني بأبي المطرف . واشتهر فى التاريخ باسم الأوسط لتوسطه بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر ، ويطلق عليه أيضا اسم عبد الرحمن الثانى . وفى التعريف به ، يذكر ابن عذارى :

« أبو المطرف (1) ، أمه تسمى حلاوة . مولده : سنة 176 هـ . حاجبه : عبد الكريم بن عبد الواحد . وزراؤه : تسعة ، رزق كل واحد ثلاثمائة دينار . كتابه : ثلاثة : عبد الكريم بن عبد الواحد وسفيان بن عبد ربه ، وعيسى بن شهيد . قضاته : أحد عشر ، منهم يحيى بن معمر وقبله مسرور بن محمد بن بشير ثم سعيد بن محمد بن بشير ، ثم يحيى بن يحيى الليثى . . .

صفته : طويل ، أسمر ، أقنى ، اعين ، أكحل ، عظيم اللحية ، يخضب بالحناء والكتم . . . وتوفى ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين . وعمره : اثنان وستون سنة . خلافته : احدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام ، بنوه الذكور : خمسة وأربعون وبناته : اثنتان وأربعون (2) . وذكر ابن حزم فى نقط العروس أن ولده مائة ، النصف ذكور . . طال عمره وفشا نسله . . وكان حسن الوجه بهي المنظر . ومن بديع التعارض فى كماله نقص ولادته ، لأنه ولد لسبعة أشهر (3) .

ولد عبد الرحمن بطليطلة فى شعبان عام 176 هـ/792 م ، واعتنى أبوه بتربيته وتعليمه وتخريجه فى علوم الشريعة والفلسفة وغيرها مما عرفته حضارة الأندلس الى عهده .

فالتأريخ لحياة هذا الامير تأريخ للحضارة الاندلسية فى طور شبابها الاول — وهى الحضارة التى بدأت مع بداية تاريخ الامارة الاموية بقرطبة ، فيعتبر عبد الرحمن الداخل أول من نشر بذور الحضارة الاسلامية فى البلاد . وكانت النظم الاموية التى دخلت الاندلس فى عهود الولاة السابقين محدودة مثل تقسيم البلاد الى كور ومثل النظام الحربى . فلما استقرت أركان دولة عبد الرحمن فى الاندلس عمل على توثيق النظم الادارية المعروفة فى المشرق الاسلامى فى عهد بنى أمية ، وتطبيقها تطبيقا

(1) كان بين أولاد عبد الرحمن الثاني ولد يدعى المطرف ، كما كان جده عبد الرحمن الاول يكنى أيضا بالمطرف .
(2) ابن عذارى ، البيان ، ج 2 ، ص 80 — 81 .
(3) ابن سعيد ، المغرب فى حلي المغرب ، ج 1 ، ط 2 ، ص 45 .

علميا ، وقد تم ذلك على نحو يثير الاعجاب ، وسرعان ما ارتقت الاندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الى مصاف الدول الكبرى المستقلة (4) .

وتلقب عبد الرحمن هو وخلفاؤه الى عهد عبد الرحمن الناصر بلقب « ابناء الخلائف » الذى تحول الى لقب « الخليفة » على يد الناصر فى عام 316 هـ . واحاط امراء قرطبة من عهد الداخل بلاط ملكهم بهالة من فخامة الملوك وابهة الخلفاء ، فنشطت حركة المعمار والعمران فى قرطبة ، التى تشهد على روعتها : منية الرصافة ، وقصرها البديع ، وقصر الدمشق وقصر الحائر وجامع قرطبة ، من عهد عبد الرحمن الداخل . وفى قصر الدمشق يقول ابن عمار الشاعر :

كل قصر بعد الدمشق يذم   فيه طاب الجنى ولذ المشم

وفى جامع قرطبة الذى اعاد عبد الرحمن بناءه سنة 169 هـ ، يقول الفتح بن خاقان : « قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرت بهما جوانبه وارجاؤه » (5) .

ونشهد فى عهد هشام حبه لبناء المساجد (6) وتعمير المبانى ذات المنافع العامة ، فهو الذى اكمل سقائف جامع قرطبة ، واسس منارته القديمة ، وبنى الميضأة فى صحنه . وكانت قنطرة قرطبة قد تهدمت فى حياة عبد الرحمن الداخل بسبب السيل ، فنظر هشام فى بنيانها وانفق فى اصلاحها اموالا عظيمة وتولى بناءها بنفسه . وعرف عن الحكم أيضا حبه لبناء المساجد ، فهو الذى جعل جارياته يقمن بانشاء المساجد على نفقاتهن الخاصة مثل مسجد عجب الذى أمرت جاريته عجب ببنائه غربى قرطبة ، ومقبرة متعة ، والمسجد المعروف بهذا الاسم ، اللذين اقامتهما جاريته متعة (7) .

(4) سالم ، تاريخ المسلمين ، ص 206 . العبادي ، المجمل فى تاريخ الاندلس ص 83 .
(5) المقري ، نفح الطيب ، جـ 2 ، ص 161 .
(6) ذكر صاحب اخبار مجموعة (ص 121) أنه كان يصر الصرر بالاموال ويبعث بها فى ليالي المطر والظلمة الى المساجد فتعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد .
(7) سالم ، المصدر السابق ، ص 227 .

ولم تكن حركة المعمار وما تحمله من روائع الفن المعمارى الاسلامى أن ترقى الى هذا المصاف من غير أن تحاط بهذا الجــو الفكرى والفنى الذى ذاعت شهرته فى تاريخ اسبانيا فى مراحل ازدهار الدولة الاسلامية بها . ففى عهد عبد الرحمن الداخل عرفت الاندلس بذور نهضة علميــة زاهرة بقرطبة نمت على مر الايام لتصبح قرطبة فى عهــد أحــد أحفاده عاصمة الدنيا ومركز العلم والحضارة . وشهد عهد هشام حركة فكرية كبيرة بدأت برحيل عدد من رواة الحديث الى المشرق ونقل معالم الفكر الاسلامى فى المشرق الى الاندلس . وفى مقدمة هؤلاء أبو عبد الله زيــاد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون (8) . وكان شبطون قد رحل الى المشرق فى بداية عهد هشام ، بعد عام واحد من امارته ، وذهب الى المدينة حيث أخذ عن مالك ، وسأله مالك ابن أنس عن هشام فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته ، فقال مالك : ليت الله زين موسمنــا بمثله . وبين رواة الحديث أيضا ممن رحلوا الى الشرق : عيسى بن دينار وسعيد بن أبى هند ، فلما رجعوا الى الاندلس وصفوا ما رأوه من فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره . وأخذ بمذهب مالك الفقيــه يحيى بن يحيى الليثى ، واشار عليه شبطون بالرحيل الى مالك مــادام حيــا ، ففعل وأخذ عن مالك وسمع منه الموطأ ، ولازمه كمــا سمــع بمصر من الليث بن سعد وعبد الرحمن بن القاسم وبمكة سفيان بن عيــينة (9) . وعندما عاد الى الاندلس عمل على نشر المذهب المالكى فى البلاد ، وتولى الرئاسة فى الفقه والقضاء ، ونال مكانة سامية لدى الامير ، وأصبــح امام عصره وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة فى الاندلس فى عهد هشام .

وكان هشام بطبعه تقيا ورعا ، واختلف فى ميوله هذه عن ابنــه الحكم الذى شابه حكمه جعفر المنصور فى شدة البــأس وتوطيد الدولة وقمع الاعداء (10) ، ومع ذلك كان عادلا بين رعيــته ، متخيرا لحكامه

---

(8) يذكر مؤنس (فجر ، ص 654) انه كان من علماء الحديث فى الاندلس وانه واحد من ثلاثة ادخلوا الموطأ ونشروه بين الناس ، ويرى سالم انه كان أول من ادخل مذهب مالك الى البلاد . (تاريخ المسلمين ص 218) .

(9) المقــري ، نفــح الطيــب ، ج 1 ، ص 217 .

(10) نفــس المصــدر ، ص 319 .

وعماله ولم يستسلم مثل ابيه للفقهاء ، بل حاول أن ينتزع منهم سلطتهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد ابيه ، وكف أيديهم عن التدخل فى شئون دولته ، فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، فاستغلوا نفوذهم الروحى فى اثارة الناس على الامير ، الى حد انهم كانوا ينادونه ليلا من اعالى الصوامع « الصلاة الصلاة يا مخمور » . وانتهى الموقف بينه وبينهم بواقعة الربض الشهيرة ، كما سبق الذكر .

وكان الحكم رغم فظاظته وقسوته شاعرا مطبوعا احاط نفسه بالشعراء المجيدين أمثال عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وابراهيم بن سليمان الشامى الذين اصبحوا فى عهد ابنه عبد الرحمن الاوسط الشعراء المفضلين (11) . وكان الاندلس بالنسبة للمهاجرين من المشارقة ذوى العلم والمعرفة والحضارة بلدا بكرا والفرص فيه واسعة . ومن الحق أن نقول ان معظم الذين وفدوا على الاندلس من المشارقة كانوا من جلة العلماء واهل الادب والفن . وكان الغرب عامة ملجأ أولئك الذين ضاقت بلاد المشرق بمواهبهم ، ووقف الاستبداد والحسد أمام عبقرياتهم . وكان للاندلسيين انفسهم الفضل فى اظهار كفايات الاكفاء ، واخلاء المجال للافذاذ من الرجال ، فقد كان الاندلسيون قوما نقدة لا يكاد الغريب يفد عليهم حتى يتباروا فى امتحانه والايقاع به ، ونتيجة ذلك أنه لم يبق فى الاندلس الا الجيد من العلماء وذوى الفنون ومن سمن به كفايته من ذوى المواهب . كذلك نشط الاندلسيون فى شراء تحف قصور الشرق وجميلات الجوارى من ذوات الصيت الحسن ، فعمرت قصور الاندلس بترف المشرق ورجاله وعلمه ، وحاملي حضارته وكان من أقوى الاسباب فى تحول مجتمع الاندلس البدوى الى الصورة المهذبة المصقولة التى كان الامير عبد الرحمن نموذجا لمظهرها الراقى (12) .

(11) العبادي ، المجمل ، ص 84 ـ 85 .

(12) نفس المصدر .

ثقافته وخبراته :

بين معالم هذه الحضارة الاسلامية النامية ، عاش عبد الرحمن الاوسط وصقلت شخصيته ومواهبه بما حظى من ادب وفقه وحفظ للقرآن الكريم ورواية ومشافهة الحديث . وقد ذكر صاحب اخبار مجموعة فى ذلك قوله : « حكى عنه أنه تمادى مع بعض جلسائه فى حديث عن المشاهد فلما تلاحيا فيه قال اسمع كتب المشاهد حفظا فقراها ظاهرا ، وحكى بعض ناقلة الاخبار أنه لم يصل أحد الى رويته ومشافهته فسأله شيئا مما عز أو هان فانصرف دونه . » (13) .

وكان عبد الرحمن مكرما لأصناف العلماء محسنا لهم ، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى الليثى كثيرا ويشاوره . ومن الروايات فى هذا المجال أن بعض صقالبته سرق بدرة فلمحه ، ولما عدت البدر نقصت ، فأكثروا التنازع فيمن اخذها فقال السلطان : قد أخذها من لا يردها ورآه من لا يفضحه ، فاياكم عن العودة لمثلها فان كبير الذنب يحجم عن استنفاد العفو ، فتعجب من افراط كرمه وحياته (14) .

وفى الروايات عن بلاغته الشعرية وما تضمنته من صور تلك التى تتعلق بموقفه من شاعره ابن الشمر (15) حين بدر منه ما أوجب سجنه . فكان بين ما كتبه الى ابن الشمر شعرا :

قل لمن أمس بأرض الغرب للخلق ربيعا
لا يضيق لي منك ما قد وسع الناس جميعا

وكان ابن الشمر قريب المحل منه أيضا لصحبة كانت له به وهو ولد ، وذكر انه دخل عليه يوما وقد ولى الخلافة وقربت خاصة ابن الشمر

(13) اخبار مجموعة ، ص 135 . انظر ايضا : النويري ، مخطوط ، ورقة 99 . المقري ، نفح الطيب ، ج 1 ، (طبعة قديمة) ص 159 .
(14) ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص 46 .
(15) هو عبد الله بن الشمر بن نمير القرطبي ـ منجم وشاعر سلطان الاندلس عبد الرحمن ابن الحكم ونديمه . انظر : ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص 124 .

منه ، وعليه ثوب عراقي وعقارة عراقية فقال لــه : « يـــا ابن الشمر تظاهر العراقى على العراقية ما فعلت غفيرتك التى كنت تختلف الي بها وانا ولد ، فقال له قطعت منها جلا وبرقعا لبغلك الاشهب ، ولم يكــن لعبد الرحمن وهو ولد الا ذلك البغل الاشهب اذ كان لــه اخ يعمـره ويــرجــا للامر » (16) .

وذكر عنه ابن حيان « انه كان نسيج وحده مجموعا له من الخصال النبيلة ما فرق فى عمر من جميع التعاليم والادب والشعر والنثر . وكان لطيفا حلوا ، تغلب على قلب من شاهده . وصحــب عبد الرحمن قبــل السلطنة أيام والده الحكم ، ولما صار الامر اليه وفى له ونادمه » (17) .

ومن القصائد التى القاها الشاعر ابن الشمر عن حياة الامير عبد الرحمن أبيات تصور هواية الامير فى الصيد ، وقضاء جانب كبــير من نشاطه اليومى فيها :

ليــت شعرى أمن حديد خلقتنــا	أم نحتــنـــا من صخــرة صماء
كل عـــام فى الصيف نحن غـــزاة	والغرانيق (18) غزونا فى الشتاء
اذ نــرى الارض والجليــد عليها	واقــع مثــل شقــة بيــضـــاء
وكــأن الانــوف تجــدع مــنــا	بالمــواسى لــزعــزع ورخـــاء
نطلب المــوت والهــلاك بالحـــا	ح كأنـــا نشتـــاق وقت الفنـــاء

وذكر ابن سعيد نقلا عن (عبادة) أن ابن الشمر كان قد بشر عبد الرحمن بأن الامر سيصير اليه من جهة التنجيم ، فلما كان ذلــك أحسن جزاءه ، واجرى عليه رزقا للشعر ورزقا للتــنجيم . وفى روايـــة اخرى جعله الامير « رئيس المنجمين بالاندلس ، الى ما حباه الله به من حسن الخلال ، التى بأقلها يبلــغ الكمـــال » .

(16) ابن القوطيـــة ، افتتـــاح ، ص 82 .
(17) ابن سعيـــــد ، المصـــــدر السابـــق .
(18) طائــر مائـــي اســـود اللـــون .

وذكر ابن حيان ، أن « الامير عبـــد الرحمن كان مصغيـا لأحكام التنجيم ولم يكن عنده فى المنجمين مثل ابن الشمر . وغض يوما فى علـم المنجمين ، وقال : انه مخرقة ورجم بالغيب ، فأراد ابن الشمر أن يقيم له برهانا على صحته : « بأن قال للامير ، اختبر فى مقامك بما شئت ، فقال : ان انبأتنى على اى باب من أبواب هذا المجلس اخرج فى قيـامى صدقت بعلمك فكتب ابن الشمر فى ورقة مختومة ما اقتضى له الطالع ، ودعا الامير من فتح له بابا محدثا فى غارب المجلس الذى يلي مقعده ، ثم خرج منه وترك الخروج من أبواب المجلس الاربعة وفتح الورقة ، فوجد فيها ما فعله الامير فتعجب ، ووصله (19) » .

وعن توقيعاته البلاغية ما كان بشأن الذكر على بعض مواليه تردد عليه وسأله استخدامه بلطائف الرغبة وترفيق الملاطفة ، فـرد عليـه : « لم يتقدم لك عندنا خيرة نوليك بها ، ولا تجربة نقدمك بسببها ، غـير ما رأيناه من بلاغتك وحسن خطابك فيما يرد علينا من كتبك . فان كنت كاتبها ، فقد جودت وأحسنت ، وان كنـت تطلبت بعنايتـك ، وتخيرت بفضل همتك من حسن ذلك عنك ، فقد أحسنت فى العنايـة وفضلت فى الهمة ، (فأنت) بكلتى الحالتين متقدم ! وقد رجونا باستلطافك لعلمك وتهذيبك لخدمتك وقد وليناك على الرجاء فيه ، فصدق ما خيـله الظن بك . فانك ان حافظت على أدنى حظك ، ادركت اقصاه ، وان أحسنت فى بدئه نلت أحسن عقباه ! ! » .

ومن بلاغته أيضا فى توقيعاته رده على بعـض عمـاله الذى بعث يسأله عملا رفيعا ليس من شاكلته ، فكان ردا مقنعا بليغا من قولـه فى أسفل كتابه : « ومن لم يصب وجه مطلبه ، كان الحرمان أولى به » (20) .

وكان الختم الذى يمهر به عبد الرحمن توقيعاته من نقش خاتمه : عبد الرحمن بقضاء الله راض ، وفى هذا الصدد يقـول ابن عـذارى : « كان له قبل ذلك خاتم باسمه ، فتلف ، وامر يطلبـه ، فلم يوجـد ،

(19) انظر ابن سعيـد ، المصـدر السابـق ، ص 125 ـ 127 .
(20) اخبار مجموعة ، ص 136 . ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص 49 .

فأعاد نقش خاتم جده عبد الرحمن ، بعد أن خرج نصر الفتى من عند الامير هذا بالخاتم للنقش . وبعث فى عبد الله بن الشمر الشاعر ، وقال له : « ان الامير أمر بنقش هذا الخاتم ، فقل ما نقش فيه ! » فقال :

خاتم للملك أضحى　　حكمه فى الناس ما مضى
عابد الرحمن فيه　　بقضاء الله راضى

فاستحسن ذلك الامير عبد الرحمن ، وأمر بنقشها فى الخاتم (21) .

والى جانب ما بلغه عبد الرحمن الاوسط من مستوى عال فى الثقافة والعلم وتبحر فى علوم الشريعة والفلسفة ، صار قائدا عسكريا فذا بما اكتسبه من خبرات عسكرية كثيرة لخروجه مشاركا فى حملات ابيه الحكم ضد نصارى الشمال ، واغزاه أبوه قائدا على حملة عام 193 هـ/809 م . فيذكر المؤرخون العرب أن لذريق بن قاله ملك الفرنج (لويس بن شارلمان) جمع جموعه سنة 193 هـ/809 م وزحف بها لحصار طرطوشة (22) ، فأغزى الحكم ابنه الامير عبد الرحمن فى جيش كثيف ، وكتب الى عمروس وعبدون عاملى الثغر بالغزو معه ، فجمع اهل الثغر ، وتقدم الامير عبد الرحمن بالجيوش وانضمت اليه قوات المتطوعة ، واشتبك المسلمون مع لويس ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصارا حاسما على جيش الفرنجة (23) .

وبين الاحداث الحربية الهامة التى ورد فيها ذكر لعبد الرحمن ، وقعة الحفرة أو الخندق بطليطلة التى جرت فيها مذبحة نبلاء طليطلة

---

(21) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج 1 ص 81 . المقري ، المصدر السابق ج 1 ص 162
(22) يقول ارسلان : ((ان طرطوشة Terosa كانت تعرف باسم « جولية السعيدة » ، ولها حق سك العملة ، وبالنظر الى موقعها الجغرافي كانت لها دائما أهمية بين المدن الاسبانية لا سيما انه بالقرب منها غابات الصنوبر المتين الصالح لانشاء السفن فلا تخلو طرطوشة من دار صناعة بحرية ... وعلى طرطوشة وقعت الوقائع بين لويس الحليم بن شارلمان والحكم بن هشام الذي أرسل ولده عبد الرحمن بجيش أخرج منها الافرنج . ج 3 ، ص 7 ـ 8 .
(23) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص 109 . المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ص 138.

الثائرين تحت ستار ذلك الحفل الذى أقامه عمروس المولد — والي المدينة — لولي العهد الامير عبد الرحمن (24) ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره . وفى رأى كوندى أن الامير عبد الرحمن لم يوافق عمروس فى تدبيره واعترض على المذبحة ، ولكن عمروس اقنعه بقوله : « ان طليطلة قد الفت العصيان من زمن طويل ، حتى صار لها خلقا ملازما وأنه لابد لسكونها من قطع عدة مئات من رؤوس أعيانها .. (25) » .

وفى هذه الحملة وواقعة الخندق واشتراك عبد الرحمن بها ، يقول ابن الأثير : « فحشد الحكم الجيوش من كل ناحية ، واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمن ، وحشد معه قواده ووزراءه ، فسار الجيش واجتاز بمدينة طليطلة ، ولم يعرض عبد الرحمن لدخولها ، فأتاه وهو عندها الخبر من ذلك العامل ان عساكر الكفرة قد تفرقت ، وكفى الله شرها ، فتفرق العسكر ، وعزم عبد الرحمن على العودة الى قرطبة ، فقال عمروس عند ذلك لأهل طليطلة ، قد ترون نزول ولد الحكم الى جانبى وأنه يلزمنى الخروج اليه وقضاء حقه ، فاذا نشطتم لذلك والا سرت اليه وحدى ، فخرج معه وجوه أهل طليطلة ، فأكرمهم عبد الرحمن ، وأحسن اليهم .

وكان الحكم قد أرسل مع ولده خادما له ، ومعه كتاب لطيف الى عمروس فأتاه الخادم وصافحه ، وسلم الكتاب اليه من غير أن يحادثه ، فلما قرأ عمروس الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على أهل طليطلة . فأشار الى أعيان أهلها بأن يسألوا عبد الرحمن الدخول اليهم ليرى هو وأهل عسكره كثرتهم ، ومنعتهم وقوتهم ، فظنوه ينصحهم ، ففعلوا ذلك ، وادخلوا عبد الرحمن البلد ، ونزل مع عمروس فى داره ، وأتاه أهل طليطلة ارسالا يسلمون عليه واشاع عمروس أن عبد الرحمن يريد أن يتخذ لهم وليمة عظيمة ، وشرع فى الاستعداد لذلك ، وواعدهم يوما

---

(24) انظر البحث ، الفصل الاول (المناهل ، العدد 5) .
(25) أورد أرسلان أيضا رأيا لدوزي يقول بتواطؤ عبد الرحمن مع أبيه الحكم والوالي عمروس فى هذا العمل . ارسلان ، المصدر السابق ، ص 138 .

ذكره ، وقرر معهم انهم يدخلون من باب ، ويخرجون من آخر ليقل الزحام ، ففعلوا ذلك .

فلما كان اليوم المذكور أتاه الناس أفواجا ، فكان كلما دخل فوج ، اخذوا وحملوا الى جماعة من الجند على حفرة كبيرة فى ذلك القصر ، فضربت رقابهم عليها . . . » (26) .

وكان لعبد الرحمن أن يخرج من تمرسه للمعارك ومشاهدته للاحداث الدموية العنيفة فى عهد أبيه ، بدروس خاصة تتفق وطبيعة شخصيته . فقد كان فى شخصه رجلا تربى تربية مترفة ولكنها غير فاسدة ، فهو رجل متحضر مهذب واسع الثقافة مصقول الذوق ، محب للحياة الرافهة والمستوى العالى فى الحياة للفرد والمجتمع . وفى انعكاس تلك الدروس على شخصيته وبالتالى على أسلوب حكمه ، كان مزيجا من أبيه وجده ، فلم يكن بالضعيف المستسلم ولا بالقوى المتحكم ، فهو يعرف كيف يضع السيف فى موضع السيف وكيف يستعمل اللين فى موضع اللين (27) . ومهد ابوه له الملك ، حين أضاف الى جهوده فى تثبيت الامارة والحكم مبادرته بالوصية لابنه عبد الرحمن بولاية العهد قبل وفاته .

وصية ولاية العهد :

استدعى الحكم ابنه الاكبر عبد الرحمن ، والقى بين يديه وصيته التى يقول فيها : « انى قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الاعداء ، واقمت اود الخلافة وامنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن اولي الامر بك ، واوجبها عليك ، حفظ أهلك ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم انصارك وأهل دعوتك ومشاركوك فى حلوك ومرك ، فيهم انزل ثقتك ، واياهم واسى

---

(26) ابن الاثير ، الكامل ، جـ 6 ، ص 200 .
(27) العبادي ، المصدر السابق ، ص 83 .

من نقمتك وعصابتهم واستشعر دون المتوثبين الى مراتبهم من عـوام رعيتك الذين لا يزالون ناقمين على الملوك افعالهم مستثقلين لاعبائهم ؛ فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهـم ، واحسام أولى الفضـل والسداد لأحكامهم ، وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وان رأيت فيمن يرقى من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشق بخصلة ، وتطمـع نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يريبنك خمول أوله ، فان أول كل شرف خارجيته ، ولا تدعن مجازاة المحسن باحسانه ومعاقبة المسىء باساءته ، فان عند التزامك لهذيـن ، ووضعك لهـما مواضعهما ، يرغب فيك ، ويرهب منك ، وملاك أمرك كله بالمال وحفظه بأخذه من حله وصرفه عن حقه ، فانه روح الملك المدبر بجثمانه فلا تجعل بينك وبين أحدا فى الاشراف على اجتنائه ، وادخاره والتـثقيف لانفـاقه وعـطـائـه .

وختام وصيتى اياك باحكامك فى أحكامك ، فاتق الله ما استطعت والى الله أكك واياه استحفظك فقد كان على الموت اذ خلقنى مثلك (28) ».

ولكى يصبغ الحكم هذه الوثيقة بالصبغة الشرعية ، جمع الامراء والوزراء ، وقاضى القضاة والولاة والقواد وعهد الى عبد الرحمن أمـام ذلك الجمع الغفير بولاية العهد من بعده ، فارتضوه جميعا وحلفوا لـه يمين الطاعة (29)وأخذت البيعة لأخيه المغيرة من بعده (30) ، وتوافدت العامة والخاصة الى دار عبد الرحمن بن الحكم لمبايعته ، وبايعوا أخاه

---

(28) عنان ، دولة الاسلام ، ص 231 . أحمد الشعراوي ، الامويـون أمـراء الاندلـس ، ص 267 - 268 .

(29) محمود ديـاب ، العـرب فى اسبانيـا ، ص 130 .

(30) كانت ولاية العهد فى أيام الخلفاء الراشدين تقوم على أساس الشورى ثم أصبحت وراثية فى عهد الدولة الاموية والعباسية ، وصار اختيار ولي العهد صوريا ، بمعنى أن الخليفة أصبح يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد فى حضرته وعن طريق الولاة فى الاقاليم وكثيرا ما كان يعمد بولاية العهد لاكثر من ابن من أبنائه ، مثال ذلك تولية المتوكل العباسي العهد لابنائه المنتصر والمعتز والمؤيد ، الامر الذي أثار المنافسة والكراهية بين أفراد البيت المالك وأدى الى قتل الخليفة المتوكل نفسه . انظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، جـ 3 ، ص 251 .

المغيرة فى نفس الدار ، ثم نـــزل المغيرة الى الجامع وبايعوه عند المنبـــر أيـــضـــــا .

وكانت وفاة الحكم بعد اشتداد المرض عليه فى عام 206 هـ/822 م . ولوصية الحكم دلالتها الهامة فى الرد على أى طعن فى شرعية ولاية عبد الرحمن ، فى وقت اشتد التنافس بين افراد الأسرة الاموية على منصب الامارة فى قرطبة ، وواجه الحكم فى سبيلها نزاع اثـــنين من أعمامه ، وكان لعبد الرحمن — رغم الوصية — أن يعانى فى ولايته من آثار هذا النزاع الأسرى وما تحمله من اتهامات بالطعن فى شرعية ولايته .

ولاية الامارة وخطبة البيعة :

كانت ولاية الامير عبد الرحمن بن الحكم الامارة الاندلسية فى اليوم التالى لوفاة ابيه فى السابع والعشرين من ذى الحجـــة عـــام 206 هـ/822 م . واتجه أول ما اتجه الى طلب أهله واخوته ووزرائـــه وقـــواده ليشهدوا على مبايعته طبقا لما جاء فى وصية أبيـــه . وتمت البيعـــة بين العامة والخاصة ثم صلى على والـــده ، وجلس مطأطىء الـــراس حتى افترش الارض وفعل الجميع مثله ، ثم خطب فى الجماعة المجتمعة حوله خطبته المشهورة التى وعد فيها أن يترسم خطى ما عهد به ابـــوه اليه ، وفيها يقول : « الحمد لله الذى جعل الموت حتما من قضائه ، وعزما من أمره ، وأجرى الامور على مشيئـــته فاستأثر بالملكوت والبقـــاء وأذل خلقه بالفناء ، تبارك اسمه وتعالى جده ، وصلى الله على محمد نبـــيه ورسوله وسلم تسليما ، وكان مصابنا بالامام — رحمه الله — مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه واياه نسأل الهـــام الصبر ، واليه نرغب فى كمال الاجر والزخر ، وشهد الينا فيكم بما فيـــه صلاح أحوالكم ، ولسنا مما يخالف عهده بل لكم لدينا المزيـــد ان شـــاء الله . » (31) وانفض المجلس بعد أن قـــام بتوزيـــع الكســـاء والغطاء والامـــوال عليهـــم .

(31) ابن الخطيب ، اعمال ، ص 18 . الضبي ، بغيـة الملتمس ، ص 16 . الحميـري ، جذوة المقتبس ، ص 11 . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص 180 .

وورث عبد الرحمن عن أبيه ملكا ممهدا ، ودولة أمورها هادئة وخزائنها عامرة (32) . واتسم عهده بالسلم والرخاء بالمقارنة بعهد الفتن والثورات التى اتسم بها عصر عبد الرحمن الداخل والحكم الربضى ، فعرفت أيامه بأيام العروس لكثرة خيرات الاندلس فى عهده (33) . وبلغ عبد الرحمن بالاندلس الى عداد الدول العظمي فى العالم الاسلامى والمسيحى على السواء رغم أن امارته قد واجهت ما واجهته الامارة فى عهد اسلافه من أخطار وتهديدات .

أمويو الاندلس (أمويو قرطبة)

مدة الولاية بالسنة الهجرية	الاسم	مدة الولاية بالسنة الميلادية
138 — 422 هـ		756 — 1031 م
138 — 172	عبد الرحمن الأول	756 — 788
172 — 180	هشام الاول	788 — 796
180 — 206	الحكم الاول	796 — 822
206 — 238	عبد الرحمن الثاني	822 — 852
238 — 273	محمد الاول	852 — 886
273 — 275	المنذر	886 — 888
275 — 300	عبد الله	888 — 912
300 — 350	عبد الرحمن الثالث (الخليفة الناصر لدين الله) .	912 — 961
350 — 366	الحكم الثاني المستنصر بالله	961 — 976
366 — 399	هشام الثاني المؤيد بالله	976 — 1009

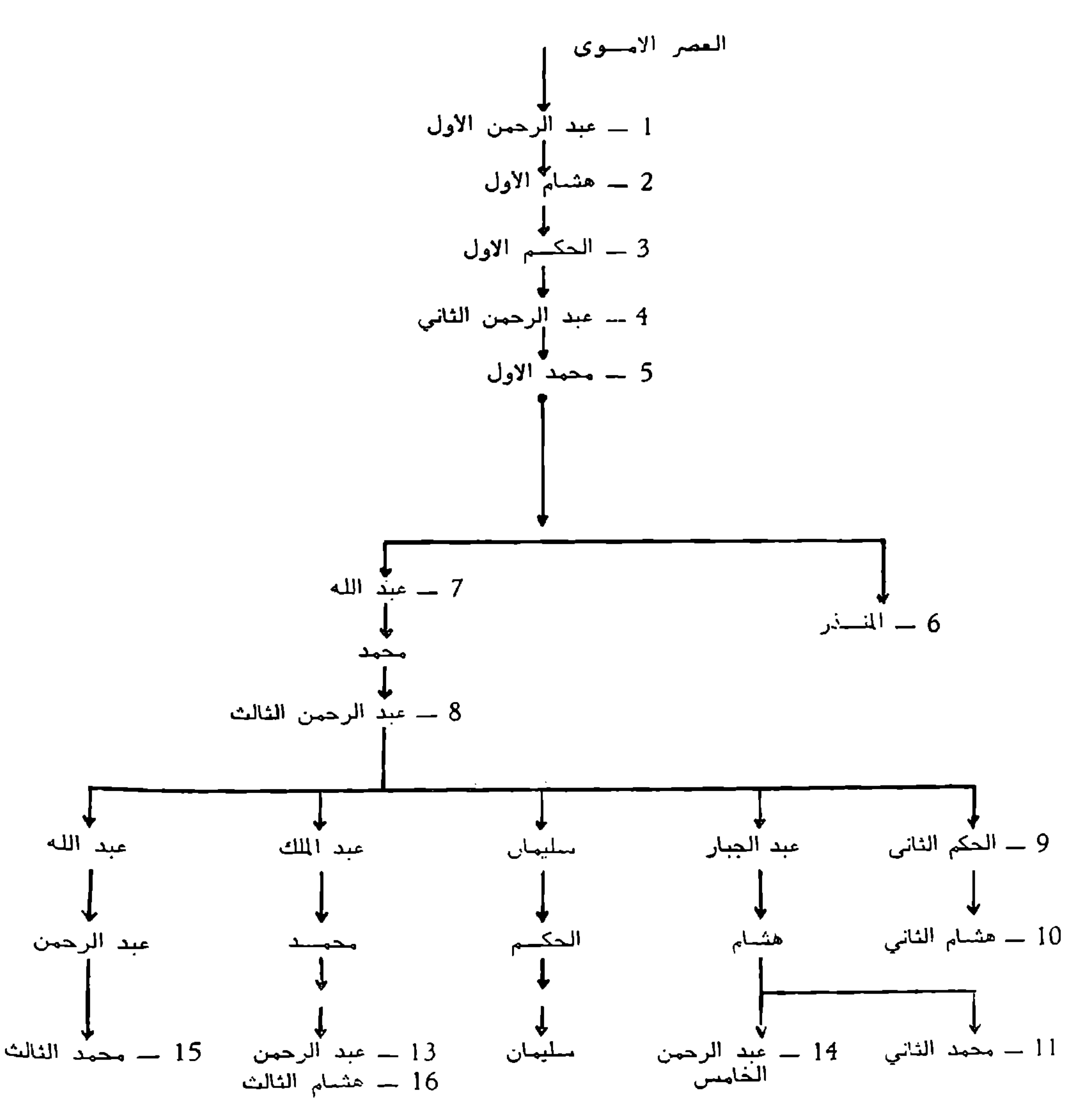
(32) العبادي ، المصدر السابق ، ص 83 .
(33) سالم ، المصدر السابق ، ص 228 - 229 .

مدة الولاية بالسنة الهجرية	الاسم	مدة الولاية بالسنة الميلادية
399 — 400 هـ	محمد الثاني المهدى بالله	1009 — 1009 م
400 — 400	سليمان المستعين بالله	1009 — 1010
400 — 400	محمد الثاني (مرة ثانية)	1010 — 1010
400 — 403	هشام الثاني (مرة ثانية)	1010 — 1013
403 — 407	سليمان (مرة ثانية)	1013 — 1016
407 — 408	علي بن حمود (من بني حمود)	1016 — 1018
408 — 408	عبد الرحمن الرابع المرتضى	1018 — 1018
408 — 412	القاسم بن حمود (من بني حمود)	1018 — 1021
412 — 413	يحيى بن علي بن حمود (من بني حمود)	1021 — 1022
413 — 416	القاسم بن حمود (مرة ثانية)	1022 — 1025
414 — 414	عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله	1023 — 1024
414 — 416	محمد الثالث المستكفى بالله	1024 — 1025
416 — 418	يحي بن على بن حمود (مرة ثانية)	1025 — 1027
418 — 422	هشام الثالث المعتد بالله (ثم ولى ملوك الطوائف)	1027 — 1031

(1) أحمد السعيد : تاريخ الدولة الاسلامية ، جـ 1 ، ص 28 . انظر ايضا :
G.C. Miles, The coinage of the umayyads, I, PP. 17-19.

أمـويـو الانـدلـس

عصر الـولاة 92–138 هـ/711–756 م



لم يدرج الخلفاء من بنى حمود فى هذه السلسلة

الربـاط **ابتسـام مرعى خلف الله**

الراية الحمراء

كمال رشيد

بلد الجمال وموطن الأحرار ... يــا ملهم الأوزان والاشعار

أنا مذ أتيتك خلت أنك جنــة ... مزدانة بالطيــب والأشجار

فى كل شبر من ثراكم نبعــة ... للخــير والبركات والأنــوار

حسن الطبيعة عندكم متفرد ... وكــأنــه سر مــن الأسرار

ما بين طنجة والعيون ، وبين ... وجدة والفجيج مرابع الأخيار

أحفاد طارق وابن نافع انكم ... رمز لبــذل الروح والايثــار

عين الى ذاك القديم وأختها ... تدنــو الى التجديد والاعمار

فى فاس علم، فى الرباط مرابط ... والسحر فى مراكش الآثــار

ومدينة البيضاء تشهد أنكم ... أصلاء فى التصنيع والاتجار

* * *

وأعدتم الصحـــراء للأم التى قد أنقذتها من نيوب الضارى
حررتموها من متاهات مضت ومساوىء من عهد الاستعمار
بالرأى بالتحكيم عاد سليبكم بالمنطــق المقبــول بالأصرار
واستقطتكم وحدة علويـــة تدعو الى التعظيم والاكبــار
والراية الحمراء فى عليائهــا خفاقة ، فى حفظ عين البارى
لكن بعض الخارجين تمردوا لم يقبلوا توحيد أهــل الدار
مدت لهم أيدى المحبة والاخا لكنهــم ساروا مــع الأشرار
وتنكروا للحــق وهو موضح فى صادق الاخبار والاسفار

* * *

وأتيت من عمان أحمل حبهــا ومعى أكاليل العــلا والغــار
ومعى جراح من فلسطين التى هى أختكم من سالف الأعمار
انــا لنــدرك أنكــم أديتــم ما حق من حب ومن ايثــار
والفعل يسبق قولكم اذ أنكم لا تلجــأون لمنطق الثرثــار
ومرابع الجولان تشهد أنكم اخواننــا ، شركاؤنا فى الدار
يامغرب العزمات ياصوت العلا يــا منحة الأيــام والاقدار

هذى تحيـــة قـــادم لبلادكم لبـــلاده ، للصيـــد ، للأصرار

شدتم وأعليتم وصرتم قصة تهدى السبيل لسائر الأقطار

لكنما مـــدح العظيم يزيـــده سعيـــاً الى الابداع والاكثار

كمال رشيـــد

عبد الله كنون شاعراً...

وحيد الدين بهاء الدين

اذا كان العلماء والباحثون على امتداد الوطن العربي ، يعرفون بسبب من تقصيهم للمذاهب السياسية والدينية المتصارعة ، والاتجاهات الفكرية والادبية المتعاصرة ، فان للعلامة المغربي عبد الله كنون قسطا ظاهرا في احياء التراث العربي الاسلامي ، من تحقيق المخطوطات الشعرية ، على منهج علمي أصيل ، وتقويم صيغ الشعر القديمة والحديثة ، وتحديد ملامح الشعراء ومنازلهم ، الى جانب رصد حركات الاصلاح والتجديد والثقافة هنا وهناك ، تعليلا وتحليلا ، وفى ضوء من التجرد والنصفة ، فان كثيرا من هؤلاء ، لا يعرف انه استهل شبابه الاول بقول الشعر اتفاقا مع مرحلة العمر ، الحافلة بالعواطف والعواصف ، واتساقا مع نضاله المبكر . فالاستاذ كنون ، شاعر له ديوان مطبوع بعنوان (لوحات شعرية) .

قال عبد الكريم غلاب في كتابه (الادب والادباء) : (.. واما الثاني فهو الاستاذ عبد الله كنون وقد عرف كباحث ومؤرخ ادب ، أكثر مما عرف كشاعر ، ولو انه كان يقول الشعر في بداية شبابه ، ويظهر انه استمر على قلة) .

ولعل العلة اوضح من ان يشار اليها .

لئن كان الوزن والقافية ، وهما من قوانين الشعر الاساسية ، يضيقان بجميع الافكار والخوالج التي يضطرب بها الواقع الانساني ، على مختلف المستويات ، والتي يراد التعبير عنها والتطرق اليها والتعريج عليها ، كما تقتضيه أسباب الموضوعية والشمولية ، فان النثر لا يضيق ولا يمكن ان يضيق بذلك على أي وجه من الوجوه ، لسعة آفاقه ، وتعدد أبعاده .

بمعنى ، أن النثر مطلق حر ، يتقبل أي شيء فى حين أن الشعر محدد باطار ، مقيد بالوزن والقافية ، وان اي خروج عليهما ، ينفي عنه صفة الشعر ، هذا الذي توارثناه عبر عصور الادب ، ويجرده من معناه المتعارف عليه ، وكان أقرب الى أية تسمية منها الى الشعر ذاته .

تلك هي العلة الرئيسية القائمة بين النثر والشعر منذ أن وجدا فى العهود السحيقة الموغلة فى القدم . انما هناك خصائص أخرى يتميز بها كل من النثر والشعر ويفترق عنه ، نزهد فى التنويه بها لانتفاء الحاجة اليها الآن .

يقول عبد الله كنون فى مقدمة ديوانه : (على اني تقللت من قول الشعر شيئا فشيئا ، حتى كان يمر علي الحول والحولان لا أقول فيهما بيتا شعريا واحدا ، لانصرافي الى الكتابة والبحث ، وهما قلما يجامعان الشعر الذي يصدر عن عفو السجية وفيض الخاطر ..) .

غير ان التقليل من قول الشعر او الاعراض عنه ــ كما أحسب ــ عند عبد الله كنون ، لا يعني عجزا ذاتيا عن التطور والمجاراة والاستيعاب ، لما يحف بالواقع الحياتي والحضاري ، ويحدق بالانسان فكرا وروحا ، بقدر ما يمثل حركة انتقال كبرى الى عالم ذي رحابة وسماحة .

وحركة الانتقال هذه ، تشكل ظاهرة مميزة مشتركة بين الشعراء بوجه عام . فقد بدأوا نشأتهم الادبية الاولى شعرا ، ثم امسكوا عنه ، او زهدوا فيه ، او قللوا منه ، لدواع أبعد وأعمق ، فرضت نفسها عليهم ولاءمت واقع نضالهم الفكري وواجبهم الادبي ، وهم يضطلعون بهما تحقيقا

لصيغ ومفاهيم الصق بالانسان المعاصر وديمومته ، ما دام يواجه حضارة مائجة بالتناقضات والحساسيات ، ويخوض غمرات حياة مزروعة بالمحن والاقـــــدار .

* * *

رحت أطيل النظر وأعمل الفكر فى شعر عبد الله كنون ، فاذا بي أجد ان الشاعر يحاول بما أوتي ان يوفر على الدارس الناقد عناء التجول الطويل، وعملية التوغل المرهقة ، وهو يجوس عالمه ، مستنطقا ما فيه .

ذلك انه يدل الدارس على مفتاح شخصيته الشعرية ، لكيلا يخبط فى متاهات تقطع عليه الطريق ويتردى فى تعقيدات تمسخ حقيقـــة الشاعـــر بالذات كانسان وفنـــان .

ثمة الموقف المنبثق عن جوهر المذهب .

اذا ما اختلفا حينا فقد اتفقا أحيانا ، بحيث يمكن أن ينسحب تأثيـــر كل منهما على أي شيء آخر ، مبدأ وغاية ، سلبا وايجابا .

مذهب الشاعر ظاهر فى تعاطيه فن الشعر وغايته المتوخاة منه .

هل الشعر الا حديث النفـــوس — وسجع الحمـــام على القضـــب

وروح لافهام مغــزى الحيـــاة — على السن الشعرآ النجـب . . .

يجدد للشيـــخ عهد الصبـــا — فيطـــرب للهـــو واللعـــب

ويوقد فى المرء نـــار المـــاس — فيغدو على الموت والحـــرب

وكم من شعوب بـــه نهضـــت — ونالـــت بـــه منتهـــى الارب

وكم من جبـــان تقـــوى بـــه — وتـــم لـــه النصـــر بالغلـــب

انه يريد بالشعر التعبير عن ما يجيش بخاطره ، ويعتمل في طيـــات المجتمع الذي اليه انتماؤه تارة وعن ما يساور ذاتية أمته من آمال وأحلام ، ويكتنف واقع العرب والاسلام تارة أخرى .

ولي بين اضلاعي وبين جوانحــــي فؤاد يرى في حادثات الدنى صخرا

أحمله ما ناء رضــــوى بحملــــــه فيحمله لا يستحس له وقـــــرا

ويأبى التصابي والتعلــق بالهـــوى لانهما للهون كانا معـــا جســـــرا

فلا حــب الا للبـــلاد وأهلهــــــا تخلل انفاسي واشربته خمــــــرا

ارى انني ان لم اعد بسعـــــــادة على امتي يا حسرتا مت مضطــــرا

واني اذا حققت ما ابتغي لهـــــم كفاني بأن حققته ثم لا فخـــــرا

فيا وطني لا بـــت الا محــــــررا ويا أمتي لقيت في سعيك البــــرا

اما الموقف فواضح وصريح من كل شيء . من الحدث الذي يتراءى له بعجره وبجره .. من القدر الذي يتربص به وبغيره .. من القضية التي يعيشها بعقله وقلبه . من الحياة التي يبلو شؤونها وشجونها .. من الناس الذين يلقاهم ويتعامل معهم على الاصعدة كافة .

أحيد بنفسي أن تهان كرامتــــــي وأربأ ان أسعى لما يوجب العـــذرا

اذا قيل هيا للفضيلــة لم يكــــــن ليسبقني من جد في نيلها السيرا

وفي طلبي للمجد ذقت منيتــــــي وما زلت استحلى لادراكه المـــرا

واني على قصدي وتسديد منطقـي لدن صغري لم آلف الا الفتى الحرا

ثباتي وحزمي واعتصامي بمبــدأي ثلاثتها تكفي لان اقهر الدهـــــرا

* * *

شاعرية عبد الله كنون ، تستقي معطياتها من ثلاثة روافد :

فالرافد الاول يتضمن الذاتية والانسانية .

لا بد ان عبد الله كنون ، كأي انسان آخر ، قد رقت مشاعره ، والتهب مزاجه ، وتناهت رؤاه ، وهو فى طور الشباب الاول ، يطل على الحياة من زاويتها الوجدانية ، ليعانق جمالاتها ولذاذاتها ، ويستشـــرف آفاقهـــا ومكنوناتها ، ثم ليتطلع الى ما هو أسمى وأبهى ، والا لما أعار لذاتيته ، وقد جعلت تعتلج وتفيض على ما حولها ، ما يتناسب حجم واقعها من أهمية ، فصور فى شعره ما يضنيها ويشغلها ما يعرض لها ، ويتعاور عليها من مظاهر الدنيا ومفارقات الزمان . تصويره لهذا كله ، وتعبيره عنه متشح بالتلقائية والمعانـــاة .

فالحب ظاهرة انسانية . لا مكان له ولا زمان ، لا دين له ولا جنس ، انه الحب وكفى !! من هذا الذي لم يقف فى بابه معانيا ، ولم يسجـــد فى محرابه مصليا ؟؟ ومكابدة الحب العنيف تذهب باللب والاحساس ، ناهيك بتفجير الطاقة الكامنة فى النفوس ، وتحريك الرابض القابع فيها .

لا يعلم الشـــوق الا من يكابـــــده	ولا الصبابـة الا من يعانيهـــــا

هذه أشواق الشاعر تنز رقة ورفقا ، حتى لتهتف الذات الولهى بها ، وتجنح بها الى التحليق فى جواء عاليات :

عدتك العوادي كم لنا بـك وقفـــة	تمثل فيها الحب بالطهـر يشهـــد
على حين كان الحبل ما زال موصلا	وكان جميع الشمــل ما ان يبـــدد
أقول وقلبي بالبعـــاد معــــــذب	الا هل الى ان يدنو الحب موعـــد
لقد مر وهنا من ذيالكـم الحمـــى	نسيم على قلبي من الثلـج ابـــرد
فقالت دموع العين اني على الوفـــا	وقال كما قالت زفيري المصعـــد
ولم يبق مني مفصل متماســك . .	فجسمي من الشوق المبرح مجهد
فمهلا رويدا يا نسيـــم فانهـــــا	حشاشة نفس بان عنهـا التجلـــد

لكن هل يثير الاشواق ويزهو بها الا ذلك القلب المعنى المضنـــى ، وقد غمره نور الحب وسقاه ماء الحياة ، وهدهده اللقاء الموعود المنشود . القلب الذي لا يأسره الا الحب ولا سواه . كذلك حقه . انه الطبيب الذي يعرف كيف يداويه ويداريه :

كان لي قلـب ولكـــــن صار منـي لحبيبـــــي
ليتــه يشفيـــه ممـــا يعتريه من وجيـــب !
ثم يرتـــاش المعنـــى بوصال عــن قريـــب
فهو والامر عجيب ..... ممرضي وهو طبيبــــي

والحبيب وقد انفرد بالقلب ، وان شئت فقل استملكه بكل جبروته وأنانيته ، آثر الرحيل والبعاد تاركا ــ والمسافات تترامى به ، والحسرات تتعالى من ورائه ــ الجسد السقيم سليب الارادة ، لا يقوى على المقاومة ؛ والتحدي . فكان الاسى المحرق يطويه ، والعين الجامدة تدميه ، والوداع المشؤوم يشجيه .

أيها الظاعن الذي أخذ القلب وخلى الجسم النحيل سليبا

قف قليلا فان روحي على اثـــــر ك لولا الآسا لفاضـــت لغوبـــا
ما شفى نفسي الـوداع وانـــــى للوداع الكئيب يشفـي كئيبـــا
ولقد زادني جمـود بعينـــــي ، وبكاك الحزين وجـدا وحوبـــا
اتراه منــي فتـــورا ولكـــن أيشب الفتور هـــذا اللهيبـــا
ان من هـــول مــا يلاقـــي المحبـــون لما يجعل المحـــق مريبـــا
فارث للعين حين تجمـــــد لا ان ارسلت دمعها المرير صبيبـــا
يفرج الكرب بالبكـــا ويزيـــد الصــــدر بالمدامع الشحيـح كروبـــا
شاعك الأمن والسلامـة أنـــــى ما توجهت يا بعيـــدا قريبـــا

مثل هذه الذاتية حرية بان تنعطف بنا الى الانسانية .

انها تومىء الى الحقيقة الجوهرية للاشياء التي يؤمن بها الفـــرد ذو الحساسية الواقعية المفرطة .

احسب ان فى شعر عبد الله كنون ، لمحات مشرقات من هذه الروح الانسانية . ترمز اليها بآيات ناطقات ساطعات ، وقد نبتت فى الاعمـــاق ، ثم أورقت حتى انبرت بنور الايمان ، وعامل الزمان للوجود خضراء رائعة ، تطفح بالرجاء والطهر ، وتشف عن التجربة والمشاطرة ، حيث يقول :

قلب بـــراه الوجـــد	ونال منـــه الجهـــد
فكلـــه أهـــواء	تضعف او تشتـــد ..
قد امتلأ حنانـــا ...	يستوعـب الاكوانـــا
ولا يخـــص منهـــا	ذالكم الانسانـــا ...
يرثـي لوحـش الغـاب	يضيق بالاسبـــاب ..
فيفتـــدي مضطـــرا	يسطو بحـد نـــاب .
وان خبـا شـهـــاب	أصـأبـه اكتئـــابم
كأنمـــا عليـــه	قد نـــزل المصـــاب
يكربـه الشقـــاء ...	يمنـي بـه الاحيـــاء
على اعتقـــاد منهـــم	انهـــم بـــــراء
ويسـأل الرحمانـــا ...	ان يغفر الكفرانـــا !!
فانـــه تعالـــى	قد غفـــر العصيانـــا
وكـم هفـا للقـــرب	من قلب كـل صـــب
بلـى وكـل قلــب	بحـاجـة لقلـــب

كذلك يمكن أن تكون هاته الابيات معبرة أيضا عن قدر كبير من الروح الانسانية . ولكم يجمل ان يتصف بها كل فرد ، في عالمنا الجائر الفائر ، ما دامت تجرف أمامها الاحقاد والسخائم ، وتنير سراديب النفوس المغلقة ثم تعطيها القدرة ، كل القدرة ، على الاحساس بالجمال ، بالطيبة ، بفعل الخير :

انكر الذات امام الواجب   فاذا اديته تم سروري ..

لا ابالي بكلام العائب   انما اصغي الى صوت ضميري

مثلي الاعلى اتحاد وائتلاف   في سبيل النفع والخير العميم

ابذل الوسع لاسعاف الضعاف   انجد الصارخ ارتاش العديم

* * *

رافد آخر يتمثل في الوطنية والقومية والاسلامية .

لقد ناضل عبد الله كنون ، بكل ما وهب من حول وطول ، وبسلاح القلم الذي حمله وما ينفك ، تخليصا لبلده : المغرب ، من نفوذ الاجنبي الجاثم على صدره ، الخانق لحريته ، المستغل لثرواته ، وتحقيقا لسيادته المطلقة ؛ في السياسة والاقتصاد والثقافة . يقول :

مغربي ليس تخفى سمتي   اتفاني في اقتحام الخطر

عربي الدم والنفس التي   نزعت بي لتحدى العصر

بين جنبي فؤادي خافق   ملؤه حب وعطف وحنان

وطني فاقبله اني سائق   لك في طياته عهد الامان

كل يوم لست ابني لك عزا   وفخارا ـ يا بلادي ـ مستجد

فانا لست لذاك الحب رمزا   لا ولا أبغي لمجدي من مرد

مبـــداي اخدمـــه مجتهـــــدا — في ثبات في اعتقـاد بالنجـــاح

بيـــد انـي لن أرى معتمــــدا — غير نفسي غير عزمي في الكفــاح

قصيدة (حوادث الدار البيضاء في السابع من نيسان عـام 1947) لوحة واقعية بألوانها وخطوطها ، رسمها شاعرنا بشجو وصدق تجربـــة ، لتبقى على الاجيال (معلقة) في معرض التاريخ السياسي ، ولتدين جرائر الاستعمار الفرنسي يوم كان يحكم المغرب بالحديد والنار . ذلك الاستعمار الذي طالما اوغل في اذاقة المغاربة مر العذاب والارهاب ، وصنوف الكبت والحرمان ، حتى لم يتردد في قتلهم وسحلهم والتمثيل بهـــم بلا رادع من ايمان ووازع من وجدان ، لا لشيء سوى أن شعبا مظلوما ، مغلوبا على أمره يريد استنشاق أنسام الحرية وبلوغ مبتغاه في الاستقلال والعدل ثم صنع تاريخه وأمجاده بارادته الذاتية ، تعبيرا عن وجوده وصونا لتراثه في مضمار الحضارة الانسانيـــة .

اما في حادث البيضاء وعــــظ — لمن يرجـو من الاغـــراب رفـــدا

اما في حادث البيضــاء زجـــــر — لداعية لهم ما شام رشـــــدا ..

الــم يبلـــغ صـــداه كـــل ارض — فمن منهم تعطـــف او تنـــــدى

الم تنظر فظائعــــه الجوالــــــي — فما صدت عن الاجــرام صـــــدا

ترى الام الحنون على صــــواب — كأن جيوشها لـــم تـــــأت ادا .

كأن عبيدهـــا لـم تجن شيئـــا ، — ولم تحصد نفوس العزل حصـــدا

ولم تبقــر بطونـــا من نســـــاء — حوامل ثم تقتل بعـــد ولـــــدا

ولا جـــاءت بتمثيــــل فظيــــع — تذوب له النفوس اسى ووجـــدا

مات من ضعاف الخلـــق يجنـــى — عليهم دون ما ذنـــب ويعـــــدى

براءتهم لهم ذنب كبيـــــر ... — فيـا لله من ظلـــم تعـــــدى

ذلك واقع مأساوي مروع ، قاساه المغرب العربي، وأوجده الاستعمار الفرنسي ، باسم الاحتلال يومذاك ، ترسيخا لأقدامه فى أرض ليست له . وهل فى ما اقترفه ادعياء التحضر والتجدد فى حق الابرار شيء من العدل، من القانون ، من الخلق ؟ وان هي الا شريعة الغاب فى عصر تزايد فيه التشدق بحقوق الانسان :

ومن متوحشين غزوا بشعب ... ضعيف ليس يملك ان يردا
ومن متحضرين راوا فاغضوا ... وما ردوا عن البؤساء زندا
اهذا عدلكم يا قوم فينا ... لظلم ولا تنا قد كان اجدى
اهذا من نظامكم ، فخير ... لنا الفوضى نرد اليها ردا
لقد فشلت مهمتكم تماما ... فلا ترجون بعد اليوم مهدا
سبيلكم سبيل طغاة روما ... وان مصيركم اخزى واردى !

ثم يلتفت الشاعر الى بني قومه حانقا ، لائما ، ثم حاثا اياهم على الاتحاد . فالاتحاد قوة لها حساب وتصور . انما نالت الفجيعة منه ومن الشعب منالا استحال معه الركون الى اللامبالاة والانهزامية ، ما دامت الارض المدنسة باقدام المحتلين البغاة تبغي تطهيرها وتخليصها ، والوطن المكلوم يجأر بالشكوى والعتبى ، والضحية البريئة ؛ تستصرخ ضمير الانسانية ، ومن ثم فحياة العزم تلزم القوم ، كل القوم ، كبيرهم وصغيرهم، بالنضال والمقاومة :

بني قومي أفيقوا من سبات ... فان الحادثات تجد جدا
وهذا خصمكم يرمي لامر ... فلا يخذكم فردا ففردا
عليكم باتحاد فى كفاح ... لمن لكم بقوته تحدى
وان الله ناصركم عليه ... فشدوا يا بني الاحرار شدا

اضافة الى هذا كله ، فان قصيدة (الأم وأحلام) ذروة فى الوطنية والاحساس العميق الحزين بها . فيها يؤنب عبد الله كنون قومه ، وهم راسفون فى اغلال المستعمر ، على تخاذلهم وتواكلهم ، بل وعلى تواطؤ بعضهم معه خنوعا وارضاء دون عمل ايجابي من شأنه ان يحيي الرجاء ، ويهز الجماهير ، ويحرر الارض :

رباه ما هذا الـذي اودى بنـا	واقتادنا لمواطن الاعصار
حتى بقينا لا نحرك ساكنـا ..	ناوى الى الاجداث والاحجار
فتحكم الاعداء فى أرقابنـا	وتداولتنا ايدي الاستعمار !!
آه وليس تأوهي بمخفف ،	من وجد قلبي السيىء التذكار
آه لشعب خانه ابناؤه	فدهاه منهم اعظم الاخطار

ولكن الشاعر لم ييأس . لا معنى لليأس مع الحياة . بل ظل يقرع أجراس الوطنية والكفاح ، حتى ايقظ الهاجعين فى سبات الذل والاستسلام، مستثيرا فيهم نخوتهم الخامدة وكرامتهم المهدورة ، كيما يتحدوا ويتحفزوا ويثبوا وثبة جبارة ، وليكن بعدها الطوفان . فما احلى الموت فى سبيل الوطن .

يا للرجال ألا شعور باعث	بالفرد منكم لاجتناب العار
هاذي شبيبتكم تنادي جمعكم	هلا اجبتم صوتها الانذاري
فى أي يوم تكبحون جماحكم	وتجنبون النفس كل ضرار
وتوحدون كبيركم وصغيركم	وتسارعون لنيل كل فخار
تسعون فى طلب المعارف والهدى	وتمهدون الى بنين صفار
وتؤكدون الى الاجانب انكم	شعب له كالفير روح سار

هذا وعبد الله كنون ، كان وما برح يذود عن العرب وحضارتهم وسيادتهم فى كل أقطارهم . لا يعنيه من أمرهم الا ارتقاؤهم فى معارج الحرية والعزة،

والا وحدتهم الكبرى ، وهي الامل النابض فى أعماقهم والدرع الواقي لهم من كل المؤامرات السياسية والتيارات الفكرية الوافدة والهجمات الامبريالية الشرسة .

وبنوع خاص ، يتطرق عبد لله كنون الى قضية فلسطين ، قضية العرب المركزية ، اسهاما منه فى تصوير ، هذا الحدث الدرامي القائم على التاريخ المعاصر ، وارتفاعا منه الى مستوى المسؤولية الحقيقية .

من هنا يقول فى قصيدته : (رثاء بلفور) ــ وزير خارجية بريطانيا ، هذا الذي تجرد من أبسط قواعد الاخلاق ــ دعنا من القانون أو العرف او ما شاكلهما ــ وهو يعد اليهود بانشاء وطن قومي لهم فى فلسطين ، فى الثاني من شهر تشرين الثاني عام 1917 .

لك الخيرات يا ناعي الطغام	فابرد حر انفسنا الظوامي
قضى بلفور هم فليقض وعد	آتانا فيه بالموت الزؤام !
هو الايعاد يحمد فيه خلف	وان سموه بالوعد التمام
ولكن سوف ينقض منه عقد	وينسى ذكره بين الانام
ويدمغ حقنا بطل الاعادي	وكان البطل داعية انهزام
نمزقه بأطراف العوالي	اذا هجنا وبالجيش اللهام
ونقبره ونقبر من يراه	سبيلا للتعدي والترامي
ونحمي قدسنا من كل باغ	يقول انا لكم فى القدس حام
ونعزم امرنا فى طرد قوم	هم اصل البلية والخصام

فرد الفعل فى نفس الشاعر عميق شديد ، وكيف لا يكون ، فهو الذي قد سمع ورأى نتائج ذلك الوعد المشؤوم :

فاخزى الله كل رسـول شـــر معـاد للسكينـة والسـلام
ولا مطر السحاب عظام ســوء رمتنـا بالبليـات العظـام

ثم يبدع عبد الله كنون في قصيدة (عربي حر) . اذ قالها في جندي عربي جريح من جرحى ثورة 1936 ، كان راقدا بمستشفى القدس ، حين عاد المندوب الانكليزي ، وتتذاك . (وسأله ما يؤذيك ؟ فأجاب الجريح : أن أراك . فكظمها المندوب في نفسه . وقال : هل تريد شيئا ؟ فقال : نعم ! ان تخرجوا من فلسطين وتدعوها لابنائها .) .

عربي سيم خسـفـا وهوانـا اترجى منه سلمـا وامانـا ؟؟؟
هو نضـو البـؤس الا انـه ناقم يسعرها حربا عوانـا ..
أتظـن الجرح اوهـى عزمـه ساء ظنا بالفدائي وشانـا ..
جذوة للحقد لـم تزدد علـى نفخها الا اضطراما واضطغانـا
عد عن اسعـافى في بؤسـه انه اولى له ان يتفانـا ! ....
عد عن تنميـق الفـاظ لـه لست تلقى منه ضعفـا او ليانـا
لا تساومـه علـى اخلاصـه انه لله بالاخـلاص دانـا ..
أتمنيـه وقـد أثخنتـه فعل صياد بكى الصيد دهانـا

انها لعميقة التصوير ، عميقة التعبير ، ولعلها تغني الباحث الفاحص عن التحليـل والتقويـم .

ويناجي الشاعر ابناء فلسطين بأن ليس أمامهم الا واحد من اثنين : اما الموت ، واما استرداد الحق :

فثباتا في مجـال المـوت أو تأخذوا الحق وتستوفوا الضمانـا

بعد هذا كله ، فان عبد الله كنون ، كان وما يفتأ يعمل ما بوسعه على اظهار العلامات الفارقة والحقائق المضيئة للاسلام ، وتفنيد افتراءات خصومه واعدائه ، هذا الاسلام الذي قاد البشرية ، باصالته وسماحته ، الى الهدى والخير ، وبنى لها حضارة مكينة الاركان ، انسانية المضمون ، ظلت وسوف تظل مآثرها عبر الدهور المنصرمة ، شاهدة لجلالها ، وكمالها ، خالدة تحظى بتقويم العلماء والمفكرين فى الشرق والغرب ؛ وتفرض نفسها ، للاهتداء بها ، والامتثال لها ، والاعتماد عليها . .

اغلب الظن أن اسلاميات عبد الله كنون ، واهتماماته المستديمة والمعمقة لها ، تتضح فى مؤلفاته وكتبه اكثر من ما تتضح فى شعره ، هذا القليل الذي بين يدينا .

وبالرغم عمن ما بدا ، فان قصيدته (لسان حال الدولة الاسلامية) كشف عن أمور عديدة ارادها الشاعر أن تصاغ وتساق ، وبها يبدو ثائرا .

ثورة الشاعر على المسلمين وواقعهم تبدا بالمقارنة بين الدول الغربية والدولة الاسلامية ، أملا فى احياء الموات فى القلوب ، وايقاد النور فى العقول . حيث يقول :

دول الافرنج تعلى شأنها ... وانا فى كل شيء دونها
وبنوها أحرزوا كيانها ... وبني الغفل نهب بينها
يا بني الاسلام ما هذا الجمود ؟

سارت الدول تترى للأمام ... وامتطت من ذروة المجد السنام
وانا رهن احتلال فى النظام ... واحتكام من عداتي واهتضام
يا بني الاسلام ما هذا الجمود ؟

اقدم الافرنج لـم يستأخـــروا بسطوا سلطانهم واستعمـــروا ..
ثم انتم بعـد لـم تعتبــــروا ، فكأن لم تسمعوا او تبصــــروا

يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

رب يا عالم اســـرار الـــورى ما لقومي يرجعون القهقــــرى ؟
ما لهم صاروا الى ما قـــد ارى بعدما كانوا ارتقوا شـم الـذرى

يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

وينحو الشاعر منحى آخر فيلقي باللوم الكبير على بنـــي الاســـلام لجمودهم ، لنكوصهم على اعقابهم ، لتذبذبهم فى تحقيق ما ينبغي ان يساور بالهم ويصاحب حالهم :

ما لقومي لا يخلـــون الوســـن ما لهم لا يتحامـــون الـــددن
ما لهم لا يطلبـــون المرتهــــن من حقـوق لهـم او للوطـــن

يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

حتى اذا استرسل الشاعر فى تعداد فضائل العرب والاســلام على الامم ، وما استقام لهم ودان فى اقامة حضارة انسانية شاملـــة ، عـــاد فنبههم للهوة السحيقة التي تفصل ماضيهم المزدان بكل أسباب الرفعـــة والمنعة ، عن حاضرهم الصارخ بكل اسباب التقهقر والهوان ، لعلهـــم أن يغيروا ما بأنفسهم ، وينهضوا نهضة علمية عملية ، انتشالا لهم من ما هم فيه، واستعادة لبعض من سالف امجادهم :

رحـــم اللـه أبـــاة العــــرب انهم فى الحـق امـــي وأبــــي
لم يقم فى مشـرق او مغـــرب قائـــم مثلهـــم قـــد بر بــــي

يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

انما الاسلام بالعــــرب سمــــــا ‏ ‏ وبهم أوفى على قطـب السمـــــا
من به قدمــا تحــدي الامـمــــا ‏ ‏ فاستكانت غير اعراب الحمـــى ؟
يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

يا لقومـــي فاعرفـــوا غابركـــــم ‏ ‏ وارفعوا بين الورى حاضركـــــم
ان يكن رب العـــلا ناصركـــــم ‏ ‏ كيف لم ترموا بــه قاهركـــــم ؟
يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

الى ان يقـــــول :

ارفعوا رايتكم عنـــد الطـــــراد ‏ ‏ ثم نادوا فى العدا باسـم الجهـــاد
واضربوهم ضربة تــورى الزنـــاد ‏ ‏ يخل منهم لكم وجـــه البـــــلاد
يا بني الاســلام ما هــذا الجمــود ؟

* * *

اما الرافد الثالث فينتظمه الوصف والحكمة .

وما دام الوصف وثيق الصلة بجميع الاغراض الشعريــة ، بحكـــم طبيعته الفنية ، فان وصف الطبيعة ، لدى عبد الله كنون هو ما يطالعنـــا ويتجلـــى لنـــا :

ما حـــلا فى موقــــع النظــــــر ‏ ‏ مثــــل بستـــان على نهـــــــر
مـــا جـــرى فى أن مستمـــــع ‏ ‏ كجـــواب الطيـــر للوتـــــــر
وغــديـــر حفـــه شجـــــــر ‏ ‏ يا سقاه الغيـــث مــن شجــــر
كلما مر النسيـــم بــــــه .... ‏ ‏ مال فى ميس كـــذي سكــــر
وانبـــرى للسجـــع بلبلــــــه ‏ ‏ فنفــى ما كـــان من كـــــدر

ثم يقول :

برزت فيها الطبيعة من	خدرها موشية الطرر
كعروس راق منظرها	بالحلى والحسن والخفر
وخرير الماء فى أذني	كبنان مر فى وتر
بتمنى القلب اغسله ...	بلجين منه منهمر
ولقد زاد الصفاء به	فحكى البلور للبصر
والحصى فى حافتيه كما	نيط جيد الغيد بالدرر

فالشاعر يمزج ذاته بالطبيعة لاغناء تجربته الشعورية ، ولطرح هويته فى التجاوب مع المظاهر الجمالية والروحية المشتقة من الطبيعة وكيانها المهيب . هنا كان اعراب الشاعر عن ما يريد عفويا نابعا من مورد ثر نقي :

آه من ذاك السكون ومن	خطوات الظل فى حذر
انا لولا منظر انق	التجي منه الى وزر
سارحا فى روضة انف	منه او فى مربع نضر
نابذا هم الحياة ورآ	مستريحا من عنا الفكر
لرأيت الدهر يشمت بي	ان هذا الدهر ذو غير

كذلك انظر اليه يقول ما يعزز ذلك :

مسرحي بين الروابي والبطاح	اذ اجيل الطرف فى الكون الفسيح
وأروض الجسم فى جو انشراح	فصحيح العقل فى الجسم الصحيح

تتألق الطبيعة بلطائفها وبدائعها فى قصيدة (المتعة المنغصة) . اذ سكن اليها الشاعر وعشراؤه ممن (جمعتهم محبة الاوطان) الى حد

اكتنفتهم معه نشوة غامرة وانطلاقة جامحة ، مثل ما يكونون احـرارا ، فى (جنـــة الخلد) :

رب روض جئناه حين اطلـــــت	من علاهـــا منيـــرة الاكــــوان
وافاقــت اطياره من كراهـــــا	فتغنـــت بمطـــرب الالحـــــان
وتهادى النسيم يسحب ذيـــــلا	فوق قضبان البان والريحـــــان
ودعانـــا للأنس داع فلبينـــــاه	بالرغـــم من عنـــاد الزمـــــان
فتيـــة خالصـــوا السرائـــر ودا	جمعتهم محبـــة الاوطـــــــان
يتعاطون من رحيـــق هواهـــــا	ما زرى عندهم بخمـــر الدنــــان
ولقد خلتنـــا ونحـــن نشـــاوى	من جمـــال الطبيعـــة الفتـــان

مثلما قد نكـون في جنـــة الخلـــــــــد مع الحور العيـــن والولـــــدان

لكن اين (الحرية) فى مرابع الطبيعة من (العبوذيـــة) فى سجـــن الواقع المعاش :

غير انا فى جنة الخلـد احـــــرا ر ولسنا هنا سـوى عبـــــدان

ذلك تصوير مقارن ذو دلالة .

ومن الطبيعة (حقول الذرة فى الصيف) . فقد استوعبتها نظـرات الشاعر النفاذة ، وتجاوبت معها ذاتيته الحساسة ، حتى جعلته يصفهـــا مصورا اياها بألوان هادئة :

ذرة لا درة تنتـــخـــــــــــب	حقلها فى الصيف شـيء عجـــب
رفرف من سندس مخضوضـــــر	وحواليـــه بســـاط مذهـــــب
هل رأيت البحـــر فى روعتــــه	كسماء ليس فيهـــا سحـــــب !

خالص الزورقة رهـــوا رائقــــا   شاطئـــاه فضـــة او ذهــــب !
انـــه دون حقـــول اخرجـــت   شطئها فيما الثـرى يلتهـــب !
جنة وسط جحيـــم سعـــرت   وحيـــاة دون مـــاء يثعـــب !

حكيم ، داعية هو عبد الله كنون .. حيث استطـــاع فى كثيـــر من الاحوال ان يقول فيصدق . يرمي فيصيب . وتلك غاية لا تتأتى الا لمـــن اثخنته جراحات الصراع مع الزمان ، وصقلته مـــرارات المجابهـــة فى معتـــرك الحيـــاة :

نجاح السعي فى حسن الثبـــات   وعقبى الصابر النصر المواتـــي
تأمل يا فتى ما ســـوف يلقـــى   اليك من العظـات البالفـــات
وكن للخير واعية وبـــادر ..   به زمن الصبا خوف الفـــوات
فاما شئت ان تحيـــا شريفـــا   فكن رجـــلا على ليـن القنـــاة
وايـــاك التخنـــث والتصابـــي   فتخسر دائمـــا شرف الحيـــاة

من هنا ما في بعض من ابيات عبد الله كنون الشعرية ، المتناثرة فى قصائده من معان حكيمة فلسفية ، وان كانت مطروقة مكرورة ، فانها تدل فى صياغتها وتركيزها ، كما لو كانت قد ارتدت رداء الجدة :

اذا ماشئت فوزا فى الحيـــاة   فلا تطـع الفئـــام الجاهـــلات
وجد وجد بما تقوى وتحـــوي   لتدرك اشــراف المتمنيـــات
وخذ بيقين نفسك فى التوانـــي   ودع عنك الظنـــون الكاذبـــات
ولا يغـــررك مـــدح او ثنـــاء   فـــانهمـــا كتفليـــل الظبـــاة
ودونـــك فادرع عزمـــا قويـــا   تخوض به غمـــار المعضـــلات
فليس يحول دون تمـــام أمـــر   كضعف الشخص عنـــد النائبـــات

هي دعوة صادقة صريحة الى تخليد المثل والمبادىء الصحيحة ، فانها أبقى واجدى . بينما الناس : عظماؤهم وحقراؤهم ، الى زوال وفناء. ولنا من التاريخ الانساني أدلة قاطعة حاسمة لا يجادل بها حتى المكابر .. الداعي :

لعمرك ما ينال العز الا فتى أنضى متون اليعملات
ولا يجني ثمار العلم شخص ضعيف العزم ذو نفس موات
يظل يهيم فى وادي الاماني فيدرك قصده خلل السبات !!
هي العلياء لا ترضى بكفاء اذا عدم الزماعة فى الصفات
ولا يحظى بها الا شجاع يفكر فى النتيجة لا النجاة

والمقدرات محتومة ، لا فرار منها ، ولا ندحة عنها ، والحذر لا يمنع القدر كما يقال ، فعلام يستكين الانسان لجور البغاة ، راضيا به ، خائفا منه ، ولا يسلم بارادة الله . فتراه ناقما ، ساخطا . وتلك عجيبة من عجائب الزمان :

وبتسليم حكيم لقضاء رب حكيم
لا يشب الحزن منا جاحم الخطب الاليم
لا نسيء الادب الوا جب للمولى العليم
عجبا للعبد يرضى حكم ظلام غشوم !
ثم يملأ صدره السخط من الله العظيم ؟
ايها الساخط عذرا لست عندي بملوم
انما اطفاك حلم جل ربي من حليم

والدنيا في مدها وجزرها ، تقاليد وقيود . هذا طابعها . والانسان في اقباله وادباره عبد أسير . هـــذا واقعـــه :

انما الدنيـــا تقاليــــد	وهي للانسان تقييـــــد
ففطـــام ثـــم تربيـــــة	ثم حكـم فيم تهديـــــد
كلها ســلـــب لحريـــــة	يومها فينا هو العيــــد
ما الورى من اجل عيشتهم	هـــذه الا أعابيـــــد

* * *

وبقيـــــت كلمـــــة :

عبد الله كنون في شعره ، على نحو عام ، معبر مصور ، لا يتخطاهما. لعل ذلك الى اخلاصه لفنه وواقعيته ، ثم الى صدقه مع نفسه ومع غيره . من هنا كان ملتزما التزاما داخليا .

تعبيره عن ما رام وقصد اليه ، كان خاليا من الغلو والاغراق . كذلك كان تصويره له ، بعيدا عن الافتعال والزيف . تلك هي الغاية القصوى في الشعر . وان ادعى بعضهم أن الغلو الشعري ضروري بعـــض الشـــيء ، لاكساب المراد قوة في المضمون ، وبعدا في الشكل ، وتأثيرا عند التلقي.

وغير ذينك من المهمات ، يترك لغير الشعراء .

ثم ما كانت موهبة عبد الله كنون – وهي الارهـــاص في الفنـــون قاطبة – تستقيم لها بواعث التفتح والظهور ، لولم تساعفه على ذلك ثروتـه اللغوية الدفاقة ، وأداؤه المتين الذي كم كنت اتمنى أن تعظم شأنـــه ، وتعمق تأثيره ، تلك الروعة الجمالية التي لا بد منها في الشعـــر ، كيمـــا تستميل العقل والقلب معا وعلى مستوى واحد .

على ان ايثار عبد الله كنون للشعر العمودي ، لا يعني بالضرورة عدم الخروج على هذا التقليد ، فقد كتب الشعر الحر مسايرة منـه لحركـة التطور الشعري ، وايمانا منه بروح التجديد الذي ينبغي أن يسود ويؤخذ به ، تأكيدا لموقع الانسان فى غمرات الحياة ، وترسيخا لمثل الحيـاة الاصيلـة .

قال فى مقطوعتـه : (الانحنـاءة) :

رمـز الخضـوع
شعـار مـن
الـى الخنـوع
قـد اطمـأن

انظـر لـه
كيـف انحنـى
ثـم انثنـى
يـا ويلـه
امـا رنـا
الـى الـذي اذلـه
كيـف ابتسـم !
امـارنـا
الى الجمـوع حولـه
ممـا جنـى
تـود ان تركلـه
كـي يستطيـع
ان يستـوى
علـى قـدم

بغـداد

وحيد الدين بهاء الدين

أبجدية الأصالة

المهدي الدليرو

بضاعة مزجاة

عقيدة تقدس الرفات .

كأنما الكون بعرضه الفسيح

صدقة جاد بها شحيح .

وقدرة الحياة

« بفائض اعتمادها »

ومرقص الغناء فى انشادها

تفاهة ، كالعنكبوت . . كالعبث

كـــواعـــد نـــكـــث .

رحمهـــا عقيـــم

عمـــرانهـــا رمـــيـــم

يقظتهـــا سبـــات .

حدود خارطتهـــا كمقعـــد محتـــاج

سلبية التأثـــير مثـــل منطـــق الأزواج

تحـــذره بعض طبـــاع الحمـــوات .

انسانها ، كالظل . . كالمرآة . . كالصـــدى

يعكس ــ فى دوامة التقليد والجمود ــ صدأ ترمـــدا

كحـــالـــة الاجهـــاض

تحلـــم بالمخـــاض ،

كعابث يقـــر واقعـــا مزيفـــا ،

أو هـــدفـــا محرفـــا .

كقاصر يرى أن ليس بالامكان ،

أبـــدع ممـــا كـــان .

كقــدر « الحريم » حجر العرف عليه ما وراء الحجرات .

* * *

أصالة الأمة فى استلهامها التــراث

أرضيـــة انبعـــاث

تعانق « الحجاب » و « السفور » كاحتضان الصدر حلمتين

والنهــر ضفتــين

كالقلــم التحــم بالدواة .

مشرعة أمامها النوافذ

تستقبل الجديد من تشعب المنــافــذ

كملتقى تقــاطــع الجهــات .

ومن يدين لاستلاب بــولاء

سطحية الثرثار واجترار الببغــاء

أثمن ذخــر يملكــه

فهل يعى أى انحراف يسلكــه ؟

ومن عجيب « الانفتــاح » أن يعيــد

شيخوخة الفكر الى عطائنـــا الوليـــد
كسوسة تعيث فى نـــواة .

* * *

وطاقـــة الابـــداع
تكمن فى تمثـــل يبحـــر بالشراع
من مرفـــأ بالمـــد والجـــزر
كمثل موسى بالعصا يهـــزأ بالسحـــر
رصيفـــه من معـــدن صلـــب
يثبت فى السلم وفى الحـــرب .
ومن متين عملـــة الماضى
يستـــثـــمر الحاضر فى منتـــج أغـــراض
مستقبـــلا مؤكـــدا للـــذات . .

تـــطـــوان **المهدى الدليرو**

ابن سيدة المرسي

دراسة في حياته وآثاره

(6)

بقلم: المستشرق الاسباني
الدكتور داريو كابانيلاس رودريكس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

ترتيب « المحكم »

يجب أن نضع فى حسابنا أن ابن سيده ألف معجمه هذا بعد الخليل بما يقارب ثلاثة قرون ؛ بمعنى أنه ألفه فى فترة كانت المعرفة فيه باللغة العربية الفصحى قد ضعفت ، بشكل محسوس ، ولا سيما فى الاقاليم النائية عن موطن نشأتها مثل الاندلس حيث كانت اللهجات المختلفة قد نمت وتطورت ؛ ومن أجل ذلك كان على مؤلف « المحكم » أن يدخل تغييرات على نهج الخليل الذى اتبعه ، وهى تغييرات استلزمها ما كان يرمى اليه من تأليف معجمه ، فاذا كان الخليل قد اهتم بشرح كل أصل أكثر مما اهتم بتعريف كل كلمة ، فان القيمة الرئيسية « للمحكم » ليست تعود الى ادراج أصول جديدة بل الى احصاء يتميز بالشمول للكلمات المشتقة من كل أصل .

وفى هذا الفصل سنعنى بابراز التجديدات التى أدخلها ابن سيده على منهج الخليل ، ثم نعقب على ذلك بشرح مميزات المحكم بالنظر الى المعاجم التى عاصرته ، وأخيرا نبين قيمته فى الحاضر .

تجديدات ابن سيده

برغم تمسك ابن سيده بالترتيب الألفبائى الذى وضعه الخليل فانه قد أفاد من جميع التعديلات والتغييرات التى أدخلت على منهج الخليل قبله ، وتبنى منها ما بدا له أحسن وأكمل ، وقد فصل ابن سيده بادىء ذى بدء الهمزة عن حرفى العلة : « الواو والياء » على نحو ما فعل القالي قبلا ، كما أنه لم يعالج ألف المد على حدة تمشيا مع التفكير اللغوى الشائع يومئذ والذى كان يعتبر الألف المذكورة مجرد ابدال يطرا على الواو والياء اذا حدث ذلك فى موضع حرف اصلى فى الكلمة ؛ ولم يلبث أن تسرب ذلك الى معجمين يعدان من أشهر المعاجم العربية وأضخمها ، وهما : لسان العرب والقاموس .

وقد اتبع ابن سيده الزبيدى — وكان والده قد روى عنه — فى تقسيم كل « كتاب » الى الابواب التالية وفقا لعدد ونوع الحروف الاصلية فى الكلمة : الثنائى المضاعف الصحيح ، والثلاثى الصحيح ، والثنائى المضاعف المعتل ، ثم الثلاثى المعتل ، والثلاثى اللفيف ، والرباعى والخماسى ، وهو يعتبر الثنائى المضاعف ما نسميه نحن اليوم الثلاثى المضاعف مثل عد (1) ، على أن ابن سيده يضيف الى ذلك بابا جديدا لا يذكره الا نادرا ، وقد سماه أحيانا بـ « السداسى » ، وأحيانا أخرى بـ « المماثل بالسداسى » ، وقد أورد فى هذا الباب كلمات أعجمية وأسماء أصوات وأسماء ، على أن هذه مسألة لا يتفق عليها النحويون ، فهم يقولون بعدم وجود كلمات سداسية ، وبأن الكلمات الاجنبية ليس يصح وزنها ، لأن الوزن مقصور على الكلمات العربية الاصيلة .

وقد رتب ابن سيده المواد فى كل باب وفقا للحروف الاصلية التى تتألف منها كل كلمة او مادة ووفقا لما يتفرع عنها من مقلوبات نتيجة

---

(1) انظر : هايوود .H « Lexicography Arab. ص 66 ، هذا وتوجد بالاسكوريال نسخة مخطوطة من مختصر العين للزبيدي بأرقام : 569 ـ 570 ـ 571 ، وللوقوف على وصف وجيز للمخطوط المذكور ، انظر هـ. د. رنبورك : المخطوطات العربية بالاسكوريال (بالفرنسية) ج 1 ، (باريس 1884 .) الصفحات : 392 ـ 395 .

للتغير الذى يمكن ان يطرا على مواضع حروف المادة من حيث التقديم او التأخير ، وهكذا ، مثلا ، يبدأ كتاب ((العين)) الذى يتصدر كل الكتب كما نعلم بباب الثنائى المضاعف الصحيح ، ويبدأ هذا الباب بالعين حين تتصل بالحاء ، بيد أن ابن سيده لم يعثر على هذين الحرفين فى كلمة عربية ثنائية ، وحينذاك تركها لينتقل الى العين مع الهاء ، فوجد الكلمة ((عه)) وهى تستعمل لزجر الابل ، وأتى بمقلوبها وهو ((هع)) ، ثم انتقل بعد ذلك الى العين مع الخاء ، ثم الى العين مع القاف ، ثم الى العين مع الكاف وهلم جرا ؛ وهكذا سار ابن سيده على هذا المنهج فى كل ((الكتب)) وفى كل أبوابها (2) .

وبالاضافة الى التغييرات الدقيقة التى ادخلها ابن سيده على ترتيب الابواب — ولن نمضى فى استقصائها وعرضها لأن المجال لا يتسع لها هنا — فانه طبق على مواد المحكم منهجا جديدا على جانب كبير من الاهمية ، وقد وصف ابن سيده هذا المنهج فى مقدمة معجمه ولكنه لم يلتزم بتفاصيله تماما حين التطبيق ، ويرى محققا ((المحكم)) أن هذا المنهج يقوم على ثلاث شعب : حذف أمور ، وتنبيه على أمور ، وتمييز بين امور متشابهة .

اما الحذف فللمشتقات القياسية لاطرادها والامور التى تفهم من سياق العبارة ، وطبقا لهذا المبدأ العام ، وضمن مظاهر كثيرة للاختصار والتبسيط ، يقول ابن سيده (3) (انى اذا ذكرت ((مفعلا)) لم اذكر ((مفعالا)) لعلمى أن كل مفعل مقصور عن مفعال ، على ما ذهب اليه الخليل ، ولذلك صمت العين من ((مفعل)) اذا كانت واوا أو ياء ، نحو : مجوب ، ومخيط ، لأنهما فى نية مجواب ومخياط . . .) و (انى لا اذكر الجمع المسلم الا أن يكون تشبيها بالمكسر فى كونه سماعيا ، نحو : أرضين واحرين ، وغير ذلك مما جمع بالواو والنون ، وقد كان

(2) مقدمة محققي المحكم ، ج 1 ، ص 16 — 17 .
(3) اكتفى المؤلف بالاشارة الى بعض ما نص عليه ابن سيده من وجوه الحذف ، فاشرنا ، اتماما للفائدة ، نقل كلامه برمته ، وكذلك صنعنا بالنسبة للشعبتين الثانية والثالثة .
— المترجم —

حكمه ألا يسلم الا بالألف والتـاء ، نحـو بـاب فرسنـات وسجلات وسرادقات ، ونحو ذلك من الجموع التى يستغـنى فيهـا بالتسليم عن التكسير) و (لا أذكر اسم المصدر الذى يجىء من « فعل يفعل » على « مفعل » لاطراده ، فأما ما جاء منه على « مفعـل » كالمرجع والمقيـل والمحيض ، فلازم ذكره لكونه سماعيا ، وكذلك لا أذكر ما جاء من أسماء الزمان من « يفعل » على « مفعل » لاطراده ، ولا اذكر ما جاء منهـا على « مفعل » من « فعل يفعل » أو « فعل يفعل » ، وكذلك أسمـاء المكان الا أن يشذ شيء كمشرق ومغرب ومسجـد ومنبـت ومطلـع) و (لا أذكر اسم المصدر والزمان والمكان من الافعال الثلاثية المعتـلة العين أو اللام ، لأن بناء ذلك فى جميع هذه الانواع مطرد ، فان شذ من ذلك شيء ذكرته نحو مأوى الابل . . .) و (لا أذكر أفعال التعجب فيـه البتة لاطراد صيغها . . .) الخ (4) .

أما تنبيهه على أمور فهو يلفت فيه نظر القارىء الى شاذ النسب ، والجمع ، والتصغير ، والمصادر ، والافعـال ، والامالـة والابنـيـة والتصاريف ، والادغام ، ومن ذلك (أني اذا رأيت فعلا لا مصدر له ، أشعرت بمكانه ، وذلك نحو يذر ويدع) (ومن ذلك تنبـيهي على كل ما يهمز ، مما ليس أصله الهمز ، من جهة الاشتقاق ، كقولهم : « الذئب يستنشىء الريح » وانما هو من النشوة ، وكذلك ما زيدت فيه الهمـزة مما لا أصل به فيهـا ، ولا هو مبـدل من بعض حروفهـا ، كقولهـم : « استلأمت الحجر » ، وانما هو من السلام) و (منه تنبيهي على البدل اللازم فى حروف العلة .) و (اشعارى بالكلمة التى تقال بالياء والواو عينا كانت أو لاما .) (ومن ذلك : التنبيه على ما لا يستعمل الا ظرفا .) (ومنه اشعارى باللفظة التى تكون للواحد والجمع .) (ومنه اشعارى باللفظة التى تكون للواحد والجمع .) (ومنـه تحريـزي للمتدرس من الاسماء الاعلام التى هى صفة فى أوضاعها ، كالحسن والعباس ، وأن اللام فى ذلك اشعار بالصفة ، وحذف اللام اشعار بالعلمية .) (5) الخ .

---

(4) انظر حديث ابن سيده عن مختلف وجوه الحذف فى مقدمته للمحكم ، ج 1 ، ص 10–11

(5) انظر امثلة اخرى من تنبيهات ابن سيده فى مقدمته للمحكم ، ج 1 ، الصفحات 10–13.

وعن التمييز بين أمور متشابهة يقول ابن سيـــده : (ومن غريـــب ما تضمنه هذا الكتاب ، تمييز أسماء الجموع من الجموع ، والتنبيه على الجمع المركب ، وهو الذى يسميه النحويون جمع الجمع ، فان اللغويين جمـــا لا يميزون الجمع من اسم الجمع ، ولا ينبهون على جمع الجمع) (ومما انفرد به كتابنا ، الفرق بين القلب والبـــدل ، وعقد اسم الفاعل بالفعل اذا كان جاريا عليه ، بالفاء ؛ وعقده اذا لم يـــك جاريـــا عليـــه بالواو .) (ومن أعجب ما اختص به هذا الكتاب : تخليـــص اليـــاء من الواو ، وتعيين ما انقلبت عنه الألف المنقلبة من ياء أو واو ، وتميـــيز الزائد من الاصل ، بتخليص الثلاثى والرباعى والخماسى .) الخ (6) .

وبالنظر الى المعاجم التى الفت قبل المحكم ، يمكن القول بأن هذا المعجم يعكس فى مجموع بنيته معرفة مؤلفه العميقة بالمنطق وتضلعه فى الصرف والنحو والعروض ، وها هو ذا ابن سيده نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول : (وذلك انى أجد علم اللغـــة اقـــل بضائعى ، وايسر صنائعى ، اذا اضفته الى ما أنا به من علم حقيـــق النحـــو ، وحوشى العروض ، وخفي القافية ، وتصوير الاشكال المنطقية ، والنظـــر فى سائـــر العلوم الجدلية (7)) ، وانه ليطلب أيضا توفـــر مثل هذه المعرفـــة عند قـــراء معجمه اذا كانوا يرغبون فى الافادة منه : (وليست الاحاطة بعلم كتابنا هذا الا لمن مهر بصناعة الاعراب وتقدم فى علم العروض والقوافى .) .

لقد كان ابن سيده من خلال هذه التجديدات يهـــدف الى الاختصار والتنظيم ، وهذا هو ما يستشف من كلماته التالية : (ان كتابنـــا هذا مشفوع المثل بالمثل ، مقترن الشكل بالشكل ، لا يفصل بينهما غريب ، ولا اجنبي بعيد ولا قريب ، مهذب الفصول ، مرتب الفروع بعد الاصول ، ومن شافه علما من علم الضرورة ، لم يأل فى التحفظ بتقديم المادة على الصورة ، هذا الى ما تحلى بـــه من التهذيب والتقريـــب ، والاشبـــاع

(6) مقدمة ابن سيده ، المحكم ، ج 1 ، الصفحات : 8 – 14 .
(7) نفـــس المصـــدر ، ج 1 ، ص 16 .
(8) نفـــس المصـــدر ، ج 1 ، ص 15 .

والاتساع ، والايجاز والاختصار مع السلامة من التكـرار ، والمحافظة على جمع المعانى الكثيرة ، فى الالفاظ اليسيرة . (9)) .

المحكم فى عصره

الحق ان معجم « المحكم » يعد أحسن المعاجم التى احتذى أصحابها فى تأليفها منهج الخليل ، من حيث ترتيب الابواب داخل كل « كتاب » من « كتبه » ومن حيث توزيع المواد اللغوية فى أبواب « الكتب » ومن حيث ايجازه فى العرض ، كما أنه أحسن تلك المعاجم بما تضمنه من تعليـل وتخريج وتعليق حول مسائل صرفية ونحوية ولما اشتمل عليه من صيـغ ومصطلحات وشروح ؛ ومع ذلك فانه لم يظفر بانتشار واسع فى الشرق ، فما هى أسباب ذلك يا تـرى ؟

لسنا نحسب من هذه الاسباب ما استهدف له معجم ابن سيده من نقد من مثل ما يقول الصفدى : (وكان ابن سيده ثقة فى اللغة ، حجة ، لكنه عثر فى المحكم عثرات (10)) . وقد صنف أبـو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن المعروف بابن برجان تأليفا انتقد فيه المحكم وبين أخطاءه ؛ ولم ينته الينا كتاب ابن برجان (11) ، غير أننـا نجـد على هوامـش

(9) نفـس المصـدر ، ج 1 ، ص 7 .
(10) نكـت الهميـان ، ص 205 .
(11) لا شك أن متتبع سقطات ابن سيده فى المحكم هو الاشبيلي ابو الحكم ابن برجـان (وقد ضبطه محققا المحكم بسكون الراء) الذي أخذ عن صوفي المرية الشهير ابن العريف ، انظـر : M.A. Palacios
« El mistico Abul Abbas Ibn Al-Arif de Murcia y su « Mahasin al Mayalis », en « Boletin de la Universidad de Madrid (1931), 441-458.
وقد نشر هذا البحث ضمن الاعمال المختارة لاسين بلاثيوس ، ج 1 ، (مدريد 1946) الصفحات : 219 ـ 242 ، وعن ابن برجان ، انظر من الاعمال المذكورة ، الصفحات: 219 ـ 225 ؛ وانظر عنه كذلك ، بروكلمـان ، ج 1 ، ص 559 ، والملحـق ج 1 ، ص 775 ـ 776 ، وفيه ذكر لمقال جولد تسهير عن « ابن برجان » .

النسخة المخطوطة من المحكم والمحفوظة فى القاهـرة (12) ، تعليقـات وانتقادات يبدو منها أن ابن سيـده وقـع فى بعض الشروح الخاطئة وصحف ألفاظا حين كتابتها أو شكلها وبعض الشواهد واختلت لديـه بعض الابيـات الشعرية (13) .

وفى رأيي أن السبب الرئيسى والهام فى عدم انتشار المحكم بالشرق انتشارا واسعا ، يعود الى ظهوره المتأخر ، وليس يخلـو من غموض ـ كما يلاحظ هايوود ـ الباعث لابن سيده على احتذاء منهـج الخليل فى وقت كان ترتيب المواد اللغوية فى المعاجم باعتبار أواخر الكلمات قـد شاع استعماله بعد أن ظهر على يد الجوهرى ، كما أن ابن فارس من جهته كان وضع الترتيب الحالى للمعجم ، ويذهب بعض الدارسين الى القول بأنه ربما لم يكن منهج الجوهرى ولا منهج ابن فارس قد انتشر فى الاندلس على عهد ابن سيده ؛ أو لعله كان يرى فى المعاجم التى التزمتهما ـ كما يقول الدكتور درويش ـ مستوى دون ما يتطلـع اليـه بكثـير المتخصصون الذين ألف المحكم أساسا لهم ؛ يؤيد هذا مـا تتطلبه قراءة هذا المعجم ـ كما رأينا من كلام ابن سيده نفسه ، وقد أشار اليه لنفس الغرض أيضا صديق حسن خان ـ من صاحبها من تسلـح بألوان من المعرفة والاطلاع (14) .

ولعل هذه الاسباب لم تحل وحدها دون انتشار المحكم ؛ فهناك ، أيضا ، سبب آخر ، وهو تأليف هذا المعجم فى أرض الاندلس النائيـة وخلال فترة قلقة ، مضطربة ، هى فترة حكم ملوك الطوائف .

(12) انظر « مقدمة محققي المحكم » ج 1 ، ص 23 ، توجد هذه النسخة من المحكم فى دار الكتب المصرية « (لغة 51) وهي احدى النسخ التي اعتمد عليهـا الاستـاذان السقا ونصار فى تحقيق وطبع الجزء الاول من المحكم ، وانظر عن وصفهـا ووصـف النسختين الاخريين المعتمدتين أيضـا فى التحقيق « مقدمـة المحققيـن ، ج 1 ، الصفحـات : 24 ـ 25 .

(13) كان من بين الذين انتقدوا ابن سيده فى المحكم السهيلي فى كتابه « الروض الانف » ؛ وفى لسان الميزان ج 4 ، ص 205 : (وطعن فيه السهيلي فى الروض عند الكلام على نقض الصحيفة فقال : وما زال ابن سيده يعثر فى هذا الكتاب « يعني المحكم) . ـ المترجـم ـ

(14) هايوود « ص 65 « د. رويش ، المعاجم العربية ، ص 42 ، صديق حسن خـان « البلغة فى أصول اللغـة ، ص 167 .

وعلى أية حال ، فالذى لا شك فيه هـو أن محكم ابن سيده كان موضع اعجاب وتقدير فى الاندلس ، والى جانب ما يـدل على ذلك فى كتابات المترجمين ، لدينا شهادة الشقدى (ــ 629 هـ/ 32 ــ 1231 م) التى تضمنتها رسالته فى الدفاع عن الاندلس ، التى كتبها ردا على أبى يحيى ابن المعلم الطنجى الذى كان يفضل على الاندلس بـر العدوة ؛ والشهادة هى : (وهل لكم فى حفاظ اللغـة كابن سيده صاحب كتـاب « المحكم » وكتـاب « السماء والعـالم » الذى ان أعمـى الله بصره فما أعمى بصيرته (15)) .

قيمة « المحكم » فى الحاضر

وبرغم مآخذ « المحكم » وعيوبه فانه ، اليوم ، ــ فى رأي محققيه ــ خير معجم للعربية ألف فى القرون الوسطى ؛ ذلك أنه يمتاز عن صحاح الجوهرى بكونه أكثر استيعابا للغـة منه ، كما أنه يمتـاز على لسان العرب لابن منظور بخلوه من الحشو والاستطراد ، الا أن ترتيبه المربك قد يصرف الناس فى أيامنا عن تداوله واستعماله ، وفى رأي هايوود أنه من الممكن التغلب على هذا العائق وتفاديه ؛ وذلك بأن يعاد نشره مرتبة ما فيه من مادة لغوية على نسـق المعاجم الحديثـة مثلما رتبت جمهرة ابن دريـد ونشرت (16) .

ومهما يكن من أمر فان الصعوبة فى استعمال المحكم لن تظـل من الضخامة بالدرجة التى تتراءى بها لأول مرة ، اذا وضع فهرس ــ دليل لمحتوياته ، لا يقتصر فيه على تعيين موضـع بدايـة كل حرف جديد ؛

---

(15) رسالة فى فضل الاندلس ، ترجمة فرسية غومث ، ص 54 ، هذا وبما أننا لا نجد من بين مترجمي ابن سيده من ينسب له كتاب السماء ، فمن المحتمل جدا ان يكون ثمة خلط فيما نقل عنه الشقندي بين ابن سيده وابن سيد (أحمد بن أبان) مؤلف كتاب الاسماء (لا السماء) ، وقد خلط بعض المترجمين بينه وبين ابن سيده كما اسلفنا الاشـارة فى الفصـل الرابـع .

(16) حيدر آباد : 1345 ــ 1351 هـ / 1926 ــ 1932 م ، اربعة اجزاء ، والجزء الرابع عبارة عن فهرس بكلمات المعجم مرتبة على أسلوب المعاجم الحديثة .

بل أيضا تعيين موضع بداية باب الثنائى والثلاثى وهلم جرا من كل باب (17) .

وسنرى الآن ، رأي لان lane في المحكم ، وتجدر الاشارة الى أن لان يعتبر حجة فى دراسة المعاجم العربية ، وقد كتب منذ ما يزيد على قرن يقول (18) : (محكم ابن سيده أضخم ما ألف من معاجم فى الفترة الممتدة من تأليف الجوهرى للصحاح الى تأليف السيوطى للمزهر ، وهو يتبع ترتيب كتاب العين ، وهو يحظى بتقدير كبير نظرا لثرائه ودقته ولما تضمنه من ملاحظات نقدية وعديد من الشواهد الشعرية ، ثم انه أغنى مادة من الصحاح ، وهو يمتاز عن هذا من زوايا أخرى متعددة ، ولا يكاد يقصر عنه الا فى بعض المناحى ، وهو أحد المصدرين الرئيسيين للقاموس ، والمصدر الثانى هو « العباب » للصفاني (19) ، ولقد أفدت منه جدا فى معجمى بشكل مباشر حينا وعن طريق لسان العرب أو تاج العروس حينا آخر .) .

ولقد سبق أن أوردت فى أول الفصل السابق كلاما للدكتور طه حسين حول الاهمية التى تعلقها اللجنة الثقافية للجامعة العربية على نشر « المحكم » ; والآن نختم هذا الفصل بالكلمات التى صدر به هذا الكاتب الجزء الاول من « المحكم » (20) : (هذا كتاب يعتبر أصلا خطيرا من أصول المعجمات العربية ، فصاحبه قد جمع كل ما سبق اليه الذين وضعوا المعجمات ودرسه وحقق منه ما يحتاج الى تحقيق ، وصحح منه ما لم يكن بد من تصحيحه ، وأهدى الى العالم العربى كتابه هذا الضخم مرجعا أساسيا بألفاظ اللغة العربية ; ودقته فى البحث ، وحسن تجليته للمشكلات ، يعرفه كل من رجع الى المخصص الذى نشر فى مصر ، والذى لا يقل خطورة عن هذا الكتاب .

---

(17) انظر بحث هايوود المنشور فى :
Actas del Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos de Cordoba. pp 312-316.

(18) انظر :
E.W. Lane « Arabic-English Lexic » 1- (London) 1863, p. XV

(19) لعل العباب للصفاني (660 هـ / 1262 م) اضخم معجم بعد المحكم ظهر بعد صحاح الجوهري .

(20) طبعة القاهرة ، ج 1 ، ص 3 .

ولكنه على دقته ، يعسر البحث فيه على غير المتخصصين ، لأن مؤلفه قد رتبه على الطريقة القديمة التى اصطنعها القدماء من أصحاب المعجمات .

ولكنا سنيسر لهؤلاء البحث فى هذا الكتاب عما يحتاجون الى البحث عنه بما سيوضع من الفهارس لمواده المختلفة ، بحيث يصبح الرجوع اليه يسيرا بالقياس الى المتخصصين وغير المتخصصين ، والذين ينظرون فى المعجمات التى ألفت بعد هذا الكتاب يستطيعون أن يلاحظوا أن أصحاب المعجمات يرجعون دائما الى كتاب المحكم وكتاب المخصص ، وربما أخذوا منهما دون الاشارة اليهما ، وربما ذكروا اسم المؤلف ولم يذكروا اسم الكتاب الذى رجعوا اليه من هذين المعجمين) .

((المخصص))

لم يذكر هذا المعجم فى جملة التصانيف الهامة لابن سيده الا ستة من مترجميه — من بين أحد عشر مترجما نفيد منهم فى هذه الدراسة — وهم : صاعد الطليطلى ، وابن بشكوال ، وابن خير ، وياقوت ، وابن خلكان ، والصفدى .

وفى دراستنا لبنية المخصص وترتيبه ، وهو الفرض الاول من هذا الفصل ، سنقف عند البواعث التى حدت بابن سيده الى تأليف معجمه هذا ، ثم نمضى بعد ذلك فنلم بملاحظات جوهرية تستدعى الانتباه فى بنيته ، حتى اذا فرغنا من هذا انتقلنا لدراسة المنهج الذى سار عليه المؤلف فى هذا المعجم .

بواعث التأليف

اختبر ابن سيده ما ألف قبله فى اللغة ((المعربة ، الفصيحة)) ، وبعد أن اعترف بفضل أولئك الذين ((أورثونا بذلك فيها علوما نفيسة

جمة)) ، أضاف : ((الا أنى وجدت ذلك نثـرا غير ملتئـم ونـثرا ليس بمنتظم ، اذ كان لا كتاب نعلمه الا وفيه من الفائدة ما ليس فى صاحبه ، ثم انى لم أر لهم فيها كتابا مشتملا على جلها فضلا عن كلهـا ، مع أنى رأيت جميع من مـد الى تأليفها يـدا وأعمل فى توطئتها وتصنيفها منهم ذهنا وخلدا قد حرموا الارتياض بصناعة الاعراب . . . فاشرأبت نفسى عند ذلك الى أن أجمع كتابا مشتملا على جميع ما سقط الي من اللغـة الا ما لا بال به ، وأن أضع على كل كلمة قابلة للنظـر تعليلهـا وأحكم فى ذلك تفريعها وتأصيلها ، وان لم تكن الكلمة قابلة لذلـك وضعتهـا على ما وضعوه وتركتها على ما ودعوه (21)) .

والواقع أن ابن سيده يبدو من خلال كلامه المتقدم مطمئن النفس من تمكنه واطلاعه ، واثقا من أنه ليس دون أشهر اللغويين الذين عاشوا قبله ، ومن ثم فهو يتطلع الى استدراك ما فى مؤلفات أسلافه من مآخذ ونقائص ، بكتاب يحيط بعلم اللغة فى مختلف مناحيه ويفيد فيه من أوثق المصادر وأشهرها ، ولكى يحقق مشروعه على أكمل صورة ، ويتجنب سقطات سابقيه وعثراتهم ، ينص على أنه سيلتـزم فى كتابـه (ركوب أساليب التحرى وحفظ نظام الصدق وايثار الحق) ، وأراد ابن سيده بهذا وبتوزيع المادة اللغوية فى أبواب أو ((كتب)) معجمه بحسب تشابه الكلمات فى المعنى وما يقوم بينها من علاقات وصلات ؛ نقول : أراد بكل هذا أن يجعل من معجمه أداة مرنة ، مفيدة ، وقد أوضـح هدفـه من تأليف ((المخصص)) فى هذه الكلمـات (22) : (وأنـا واصف لفضائل هذا الكتاب ، ومعدد لمحاسنه ، ومنبه على مـا أودعتـه من جسيـم الفائدة ، ومبين ما بان به من سائر كتب اللغة حتى صار له كالفصل الذى تتباين به الانواع تحت الجنس ، وذاكر ما راعيت فيه من ركوب أساليب التحرى وحفظ نظام الصدق وايثار الحق ، ومبين قبل ذلك لـم وضعته على غير التجنيس بأنى لما وضعت كتابى الموسوم بالمحكم مجنسا لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة أردت أن أعدل به كتابـا أضعه مبوبا حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المدره والبليغ المفوه والخطيب

(21) مقدمـة ابن سيـده للمخصـص ، ج1 ، ص 7 ـ 8 .
(22) نفـس المصـدر ، ج 1 ، ص 10 .

المصقع والشاعر المجيد المدقع ، فانه اذا كانت للمسمى أسماء كثيرة ، وللموصوف أوصاف عديدة تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاء ، واتسعا فيما يحتاجان اليه من سجع أو قافية على مثال ما نجده نحن فى الجواهر المحسوسة كالبساتين تجمع أنواع الرياحين ، فاذا دخلها الانسان أهوت يده الى ما استحسنته حاستا نظره وشمه) .

ولا مراء فى أن تباين هدف ابن سيده بين تأليف ((المحكم)) وتأليف ((المخصص)) هو نفس التباين فى الهدف بين المعاجم العادية وبين المعاجم العامة المصنفة أو المخصصة ، فعلى حين تقتصر مهمة الاولى على توضيح ما غمض على القارىء من المادة اللغوية ، تؤلف الثانية أداة عملية للكاتب ، تمده بالكلمات التى يراها أكثر ملاءمة من غيرها لعرض أفكاره فى دقة وأناقة حول موضوع محدد .

ملاحظات جوهرية

قبل أن نخوض فى الحديث عن بنية ((المخصص)) وترتيبه ، أود أن أعرف ، فى ايجاز ، بما تحتفظ به بعض المكتبات من نسخ مخطوطة من المخصص ، وأعرف كذلك ، وفى ايجاز أيضا ، بطبعة هذا المعجم نظرا لاعتمادى عليها وتكرر ذكرها فى هذا الفصل والفصلين التاليين .

ويعرف ، اليوم ، من ((مخصص)) ابن سيده نسختان مخطوطتان ، احداهما تامة وهى نسخة القاهرة (23) ، والثانية ناقصة وهي نسخة الاسكوريال ، وهي عبارة عن الجزأين الاخيرين (24) من المعجم المذكور الذى يتألف من سبعة عشر جزءا .

(23) برقم 4 ـ 187 ، حسب احالة الاستاذ محمد الطالبي (المخصص لابن سيده ، ـ دراسة دليل (تونس ، 1956) ، ص 18 .

(24) مع أن الجزأين (16 ـ 17) يؤلفان معا المخطوط رقم 575 ، فان الجزء الاول وهو فى مائتي صفحة نسخ فى مرسية عام 599 هـ / 1202 م ، فى حين نسخ الجزء الثاني فى عام 562 هـ / 1166 م هذا وقد كتب المخطوط بخط مغربي ، وتتألف كل صفحة فيه من خمسة وعشرين سطرا ، انظر وصفا موجزا عنه عند درينبورك ، ص 399 ـ 400 ، وليس بين هذين الجزأين من المخصص وما يقابلهما من نسخة القاهرة الا اختلافات طفيفة

هذا ، وقد طبع « المخصص » فى بولاق على مخطوطة القاهرة باشراف الشيخين محمد عبده ومحمد محمود بن التلاميد الشنجيطى ومساعدة بعض المتخصصين (25) ، وقد كتب الشنجيطى على هوامش هذه الطبعة شروحا وجيزة وتعليقات سريعة ، اقتبسها بعامة من معجمين يعدان من أضخم المعاجم العربية وأوسعها ، وهما : القاموس المحيط للفيروزآبادى الشيرازى (817 هـ/ 1415 م) ولسان العرب لابن منظور المصرى (711 هـ/ 1311 م) ، وقد ظهرت أجزاء المخصص كلها ، وعدد صفحاتها حوالى ألفين وخمسمائة صفحة ، فى مدة ست سنوات ، أى من 1316 هـ/ 1898 م الى 1321 هـ/ 1903 م .

ولا بد من التنبيه الى أن تجزئة المخصص — كما هى فى الطبعة المذكورة — فيها فوضى واضطراب بالغان ، يثيران الاسف والحسرة ، ولعله لا مبرر لذلك غير الصدفة وحدها أو تصرف ناسخ المخطوطات على هواه فى توزيع الابواب و « الكتب » والاجزاء دون أن يعير أدنى اهتمام للعرض المنطقى لمادة المعجم ، مما أخل بانسجامه وأفسد التوازن بين أطراف بينته ، وهكذا تطول مختلف الاجزاء أو تقصر دون أن يعنى فيها بفصل الموضوعات المتباينة عن بعضها أو جمع ما تشابه من مادة لغوية (26) ؛ وعلى هذا النحو يبدأ الجزء الاول بـ « كتاب خلق الانسان » وينتهى بوصف الذراع ، فى حين يبدأ الجزء الثانى بالحديث عن الكف ، وفى نفس الجزء يستهل « كتاب الغرائز » الذى لا ينتهى الا فى الجزء الثالث ، وفى هذا الجزء نفسه يبدأ « كتاب النساء » ولا يفرغ منه الا فى الجزء الرابع ، وهكذا تتكرر مثل هذه الظاهرة فى بقية الاجزاء ، ولولا الخوف من الاطالة لتتبعناها حتى النهاية .

---

(25) انظر : المخصص ، ج 17 ، الصفحات : 167 — 169 ؛ وعن كل ما يتعلق بطبعة « المخصص » هذه راجع المنشور « المخصص لابن سيده » (الاسكندرية ؛ 1904)، الصفحات : 1 — 7 ؛ وقد طبعته جمعية « احياء العلوم العربية » التي تكلفت بالاشهار عن « المخصص » وبيعه .

(26) انظر : الطالبي ، المخصص لابن سيده ، ص 18 — 19 ، ونثبت هنا عدد الصفحات التي يتالف منها كل جزء من المخصص ؛ ج 1 — 168 ؛ 2 — 158 ؛ 3 — 162 ؛ 4 — 143 ؛ 5 — 136 ؛ 6 — 206 ؛ 7 — 197 ؛ 8 — 186 ؛ 9 — 178 ؛ 10 — 225 ؛ 11 — 222 ؛ 12 — 329 ؛ 13 — 290 ؛ 14 — 262 ؛ 15 — 311 ؛ 16 — 191 ؛ 17 — 166 .

وليس من المنطق فى شىء أن يعزى هذا الاضطراب فى ترتيب أجزاء و ((كتب)) ((المخصص)) الى المؤلف نفسه ، فذلك مما يتناقض و ((ركوب أساليب التحرى وحفظ نظام الصدق وايثار الحق)) كما يقول هو نفسه فى معرض حديثه عن فضائل معجمه ومحاسنه ، وأملنـــا أن يتفـــادى فى طبعة أخرى للمخصص كل ذلك الاضطراب الذى لم ينتبه له الناشرون ، ونظن أنهم أبقوا نص ((المخصص)) على ما وجدوه فى النسخة الخطية ثقة بالناسخ الذى لم يكن من الكفاءة بحيث يقـــدر مـــا لجانـــب حسن التنظيم من أهمية فى الترتيب العام للمعجم .

يتألف ((المخصص)) من ((كتـــب)) تندرج فيهـــا أبواب ، وتحمل ((الكتب)) أحيانا نفس الاسماء التى عرفت بها مؤلفات قديمة ، تعالـــج موضوعات لغوية معينة ، وفق المناهج القديمـــة على نحـــو مـــا سنرى فيمـــا بعـــد .

وكما لاحظنا الاضطراب وسوء التوزيع فى ترتيب المواد اللغوية بين اجزاء المخصص السبعة عشر ، نلاحظ نفس الامر فى ترتيب تلك المـــواد داخل كل ((كتاب)) من ((كتب)) المخصص فى طبعته المشار اليها آنفا ، وهكذا نجد ، على سبيل التمثيل ، فى نهاية ((كتاب الخيل)) ودون أدنى اشارة للمحافظة على حسن الترتيب ، كلاما عن الاشجار المثمرة والنبات ومطلق الاشجار وعن العطور والمروج والمعادن وعن جوانب بعينهـــا من حيـــاة الانسان الاجتماعية والصناعية ، وهذا أمـــر يحملنـــا على الافتراض باختفاء بعض العناوين التى لا شك أن الناســـخ أسقطها أو أغفلها ، تدلنا على هذا عبارة ((تم كتاب الاصوات بحمد الله وعونه)) التى وردت فى نهاية نص من ((كتاب)) سقط عنوانه (27) .

ولعل الاغفال والاسقاط سواء كانا من طرف الناسخ أو الناشرين ، لا يشكلان تبريرا لتلك الفوضى وذلك الاضطراب اللذين طبـــعـــا ترتيـــب ((المخصص)) ، وبصرف النظر عما يكون من اغفـــال المـــؤلف نفسه أو سهوه ، وهو أمر لا يستغرب فى مؤلف ضخم كما هـــو ((المخصص)) ،

(27) انظر : المخصص ، ج 2 ، ص 148 ؛ الطالبي ، المخصص لابن سيده ، ص 20 .

فان نسج هذا المعجم القائم على تناظر الخواطر وتشاكلها يهدد بالاستطراد وتشقق الكلام وتفرغه ، على أنه ينبغى ، فى أحيان أخرى ، أن يلتمس سبب ذلك عند المؤلف الذى كان يرى ما نستغربه نحن اليوم فى مصنفه بدهيا ؛ ومن ذلك ، مثلا ، ((كتاب السلاح)) فقد أدرج فى آخره أبوابا تحدث فيها عن طرائق القتل والجرح والضرب والعقاب ، وعن الدم والموت والكفن والقبر (28) ، ولا شك أن هذه خواطر دارت بمخيلة المؤلف وهو يفكر فى طبيعة السلاح ، فلما فرغ من كتابه عنه أوردها فى آخره لأنه انسب موضع لها فى الاطار العام لمعجمه ، ولأنه لم ير من المناسب تخصيصها بكتاب ، غير أنه فى بعض المرات يكون من العسير جدا تفسير أو تعليل بعض مظاهر الفوضى والاضطراب المتمثلة فى التحول المفاجىء من موضوع الى آخر ، ومثال هذا ما نجده فى ((كتاب السلاح)) ذاته الذى يختم ببابين خص أحدهما بالبهائم ، والثانى بحوافرها ، بينما كان من الطبيعى ادراج البابين المذكورين فى ((كتاب الخيل)) (29) .

وكما تقدمت الاشارة فان ((كتب)) المخصص تنقسم الى ابواب ، وهى تختلف من حيث حجمها اختلافا واضحا ، فبعضها لا يتألف الا من بضعة أسطر ، بينما تقع أخرى فى عدة صفحات (30) ، وفى مجموع المعجم لا يطالعنا التقسيم الى فصول الا سبع مرات ؛ ومن ثم فلا داعى لشرح هذه الظاهرة خاصة وأن مصطلح ((فصل)) انما استعمل هناك مرادفاً لـ ((باب)) وهو العنصر الطبيعى فى بنية ((الكتب)) ، غير أنه ينبغى ملاحظة أن بعض الابواب تأتى أحيانا مستقلة الذات ، تحتوى على

(28) انظر : ((كتاب السلاح)) فى الجزء 6 من المخصص ، الصفحات : 16 ـ 79 ، اما الابواب التي أدرجت فى آخره ، وهي فى غاية الاختلاف من حيث حجمها ، فانظرها ابتداء من ص 79 الى ص 133 .

(29) انظر : ((كتاب الخيل)) فى الجزء السادس ، وهو يبدأ من ص 135 وينتهي فى صفحة 204 ؛ وانظر : الطالبي ، المخصص لابن سيده ، ص 20 ـ 21 .

(30) انظر أمثلة المجموعة الاولى فى الجزء الثالث ، ص 139 ، والرابع ، ص 66 ـ 118 ؛ والسادس ، ص 133 و 134 ؛ والثامن ، ص 84 الخ ، وانظر أمثلة المجموعة الثانية فى الجزء الثاني ، ص 112 ؛ والسادس ، ص 135 ؛ والسابع ، ص 95 ، الخ .

فصول مختلفة لا يجمعها موضوع خاص ؛ وللتمثيل نذكر « أبواب النسب » ، و « باب الفصاحة » (31) .

وعلى نحو ما سنرى فى الفصل التالى ، فان جل مادة « المخصص » اللغوية ، من الممكن أن نلفيها منثورة بنسب مختلفة فى المعجمات القديمة ، بيد أنه اذا كان مؤلفو هذه قد اقتصروا على شرح معنى الكلمة فان ابن سيده أراد أن يجعل من معجمه أداة عملية تزود الكاتب والشاعر والخطيب بالمادة اللغوية التى تعوزه سواء فى حالة الجهل بالمصطلح أو اللفظة أو فى حالة نسيانه اياها — للتعبير عن خواطره فى دقة وحسن أداء ، الأمر الذى لم يغب عن « جمعية احياء العلوم العربية » فكتبت فى تقديمها للمخصص ما نصه (32) : (أن معجم ابن سيده يمكن — بالعكس من المعاجم الاخرى التى لا تعنى الا بشروح كلمات عثر عليها أثناء المطالعة أو وقع سمعها — من الوصول الى الكلمة المعبرة عن أمر ما قد تصورناه مجرد تصور ، فهو يمدنا باللفظة الخاصة بكل فكرة ، أى أنه يذهب بنا بكل يسر من رأى ما ، ولو كان توهمنا اياه توهما غامضا ، الى تعبير دقيق ، بل أحيانا الى تعابير عديدة مترادفة .)

منهج « المخصص »

استطاع ابن سيده أن يحقق ، نسبيا ، ما رمى اليه من تاليف معجمه هذا ؛ وذلك بفضل المنهج الذى سار عليه فيه ، وهو منهج يقوم ، أساسا ، على تجميع الكلمات حول بعض المحاور الرئيسية ، تختلف من حيث طولها ووفرة مادتها ، واليها يتجه مضمون « الكتاب » و « الباب » فان الخيط الذى ينتظم الكلمات هو تناظر معانيها وتشابهها ، وهذا يؤثر كذلك على بنية الكتاب أو الباب أو غيرهما ، لأن بعض

(31) انظر : « أبواب النسب » فى ج 3 ، الصفحات : 147 — 154 ، و « باب الفصاحة » فى ج 2 ، الصفحات : 112 — 148 .

(32) منشور « المخصص » ، ص 5 .

الكلمات تؤلف فيما بينها مركز جذب لكلمـــات أخرى وتعابـــير تـــؤدى نفـــس المعنى .

على أن المؤلف من خلال طريقته فى ترتيب معجمه يؤثر على نحو حاسم عن طريق تمكنه الخاص فى المـــادة ومذكراتـــه وضروب تأملاته والبحث فى مؤلفات سابقيه من اللغويين وغيرهم ، يوالى تنقله — فى هذا المنهج البنائى — من الافعال الى الاسماء ، ومن هـــذه الى الصفـــات والعبارات والملاحظات المختلفة ، بيد أن هذا المركب جميعه يبـــدو وهو يدور حول الكلمة المركزية التى أطلقت الشرارة الاولى فى ذهن المؤلف ، وهكذا ، وفى ظل فكرة بسيطة معينة تتجمع مختلف الكلمات أو المصطلحات لتشكل فيما بينها دليلا يرشد الباحث الى ما ينشده .

ونريد ، هنا ، ان نطرح هذا السؤال : هل ابتكر ابن سيـــده هذا المنهج ابتكارا ؟ الحق ان ابن سيده لم يكن هو الذى ابتكر هذا المنهج ، كما أنه لم يكن أول من طبقه ، ذلك أن هذا المنهج يطالعنا فى أقدم ما عرفه العرب من معاجم ، فلقد تبلورت جهود بعض المؤلفين القدامى فى تدوين اللغة أول ما تبلورت فى تأليف رسائل مفردة حول موضوع واحد من تلك الموضوعات التى كانت لها أهميتها بالنسبة للعربى الذى يسكن البادية من مثل الخيل والنخل والابل وما الى هذا ، فكان اصحاب هذه الرسائل يحشدون فى اطار كل موضوع ما يرتبط به من كلمات وتعابير ، وكان عدد الموضوعات يكثر فلا تلبث ، أحيانا ، أن تؤلف أبوابا فى كتب أطول واكثر تفصيلا ، وبهذا نشأت المعجمات العامة المصنفة .

واذا استبعدنا الكتب التى تعنى بغريب القرآن والحديث وبعض اللغات المتميزة ، وجدنا أول ما تذكره المصادر من الرسائل المفردة هو « كتاب الهمز » لأبى بكر عبد الله بن نريـــد المعروف بعبـــد الله ابـــن اسحاق الحضرمى (117 هـ/ 735 م) ، و « كتـــاب الحشرات » الذى الفه أبو خيره بن زبد الاعرابى أستاذ أبى عمرو بن العلاء (33) .

(33) انظر عن أبي بكر الحضرمي ، بروكلمان ، الملحق ، ج 1 ، ص 338 ، وعن أبي خيرة ، انظر : مثلا ، فهرسة ابن النديم (طبعة القاهرة ، 11348 هـ / 1929) ، ص 68 .

أما فيما يتعلق بالكتب التى عرفت بكتب الصفات أو كتب الغريب المصنف فان أول من يعزى اليه تأليف فيها هو أبو خيرة الاعرابى المتقدم الذكر ، وقد جاء بعده القاسم بن معن الكوفى معاصر الخليل فوضع هو ، الآخر كتابا فى نفس الاتجاه ، غير أنه اذا كنا نجهل كل شىء عن هذين الكتابين ، فاننا نعرف الموضوعات التى كان يحتويها ثالثهما وهو الذى وضعه النضر ابن شميل المازنى التميمى ـ تلميذ الخليل ـ والمتوفى عام 203 هـ/ 818 م ، فلقد وصفه بعض المؤلفين ، ومن بينهم ابن النديم الذى يقول عنه (34) : (هو كتاب يحتوى على عدة كتب (فى خمسة أجزاء) : الجزء الأول يحتوى على خلق الانسان والجود والكرم وصفات النساء ، والجزء الثانى يحتوى على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة ، والجزء الثالث للابل فقط ، والجزء الرابع يحتوى على الغنم ، والطير ، والشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والألبان ، والكمأة ، والآبار ، والحياض ، والأرشية ، والدلاء ، وصفة الخمر ، والجزء الخامس يحتوى على الزرع ، والكرم ، والعنب ، وأسماء البقول ، والاشجار ، والرياح ، والسحاب ، والامطار .) .

وهكذا لم تنقطع العناية بتأليف هذا النوع من المعجمات حتى أملى أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى (224 هـ/ 839 م) كتابه الذائع الصيت « الغريب المصنف » ، وتوجد ، اليوم ، منه ثلاث نسخ خطية : واحدة فى القاهرة ، وثانية فى القسطنطينية ، وثالثة فى تونس ، وهو يتألف من حوالى ثلاثين « كتابا » تفرعت من مجموعها مائة باب ، ويتناول المؤلف فى « كتبه » موضوعات شتى ، وذلك مثل خلق الانسان ، واللباس ، والاطعمة ، والخمر ، والدور ، والخيل ، والسلاح ، الخ (35) ، وقد أفاد مؤلف « الغريب » من كتاب النضر ، غير أنه أضاف

---

(34) الفهرست ، ص 52 ، وعن ابن شميل ، انظر بروكلمان ، الملحق ، ج 1 ، ص 101 ، و ص 161 .

(35) يمكن الاطلاع على عناوين « الكتب » السبعة والعشرين التي يتألف منها « الغريب المصنف » فى كتاب الاستاذ الطالبي ، « المخصص لابن سيده » «دراسة ودليل » حاشية 3 ، ص 24 ، وقد نقلها عن نسخة تونس الذي كان الاستاذ الطالبي أول من أشار اليها ، أما النسختان الاخريان ـ نسخة القاهرة ونسخة القسطنطينية ـ فقد أشار اليهما بروكلمان ج 1 ، ص 106 .

أبوابا عديدة ووسع بعض الابواب المشتركة بينهما بكلمات جديدة استخرجها من مختلف الرسائل المفردة ، ومع أن الغريب المصنف لا يخلو من عيوب لها ما يبررها ، فقد كانت له أهميته البالغة فى عصره ، وقد فطن ابن سيده لذلك فعرف كيف يفيد منه فى ترتيب « المخصص » .

لقد سار ابن سيده فى تأليف معجمه على نحو شبيه بما سار عليه أبو عبيد فى الغريب المصنف ، فأخذ عنه تقسيم « الكتب » والابواب والفصول ، كما أخذ عنه أسماء بعضها ؛ غير أنه فى الآن عينه أضاف أبوابا جديدة ، وأغنى الابواب المشتركة بينه وبين أبى عبيد بعدد كبير من الكلمات الجديدة التى لم ترد عند أبى عبيد ، واستقاها هو من أحسن ما ألف بعد هذا .

والسؤال المطروح بعد ذلك ، هو : أين يمكن التماس الطرافة أو الجدة عند ابن سيده ؟

لقد أفاد ابن سيده من الخطوط العامة للمنهج الذى سار عليه القدامى من مؤلفى المعاجم المصنفة ولا سيما أبو عبيد الهروى ، ثم مضى يسد الثغرات ويحكم هيئة البنية الاساسية الملائمة ، أكثر من غيرها ، لوضع هذا اللون من المعاجم ، وهو فى خلال ذلك يجيد اختيار المادة اللغوية ويحسن توزيعها على نحو اختصاره لبعض « كتب » الغريب المصنف ككتاب الخيل ، فلقد اختصره فى باب واحد ، أو توزيعه مادة كتاب واحد من الغريب على بابين مختلفين ، مثلما صنع بمادة « كتاب الطيور والهوام » من الغريب ، فلقد وزعها فى المخصص على كتابين هما : « كتاب الطير » و « كتاب الحشرات » ، وينبغى أن نضيف الى ما تقدم أن المخصص — مثله مثل المحكم — يكتسى صبغة صرفية ونحوية فريدة من نوعها ، وهى تتمثل فيما نجده فيه من أبواب كاملة خصصها المؤلف لعرض مسائل فى الصرف والنحو ، وهذه ظاهرة لا مثيل لها فيما نعرف من المعجمات المصنفة ولم يقتصر الأمر على هذا ؛ بل اننا نجد أثر الثقافة المنطقية لابن سيده يبدو فيما أدرج من « كتب » جديدة فى معجمه ، كما يبدو فى تناوله للمادة اللغوية من حيث الترتيب

والعرض ، واذن ، فان لنا أن نلتمس فى هذا وذاك ما يدل على ملامح الطرافة والجدة عند ابن سيده ، وها هو ذا نفسه يصور لنا تلك الملامح فى معرض حديثه عن فضائل معجمه ومحاسنه (36) : (فأما فضائل هذا الكتاب من قبل كيفية وضعه ، فمنها تقديم الأعم فالأعم على الاخص فالاخص والاتيان بالكليات قبل الجزئيات ، والابتداء بالجواهر والتقفية بالاعراض على ما يستحقه من التقديم والتأخير ، وتقديم كم على كيف ، وشدة المحافظة على التقييد والتحليل ، مثال ذلك ما وصفته فى صدر هذا الكتاب حين شرعت فى القول على خلق الانسان فبدأت بتنقله وتكونه شيئا فشيئا ثم أردفت بكلية جوهره ثم بطوائفه وهى الجواهر التى تأتلف منها كليته ثم ما يلحقه من العظم والصغر ثم الكيفيات كالالوان الى ما يتبعها من الاعراض والخصال الحميدة والذميمة . . . ومن طريف ما أودعته اياه بغاية الاستقصاء ونهاية الاستقراء واجادة التعبير ، والتأنق فى محاسن التحبير المدود والمقصور والتأنيف والتذكير وما يجيىء من الاسماء والافعال على بناءين وما يبدل من حروف الجر بعضها مكان بعض) .

ولقد تضخمت المادة اللغوية فى المخصص وتنوعت بحيث اذا قارناه « بالغريب المصنف » لاحظنا بوضوح ضآلة الاطار العام لهذا الاخير بجانب ذاك ، وكان من نتيجة ذلك التضخم والتنوع فى المادة أن ابن سيده عندما لم يوفق الى زيادة عدد « الكتب » فى معجمه بقدر المادة التى تجمعت لديه ، جعل يبحث عن وحدة راقية ، يكون من شأنها أن تربط ربطا ملائما ، بين « الكتب » والابواب ، والفصول ، والخواطر ، والتعابير الاساسية ، فتشكل بذلك النقطة الجوهرية فى بنية المعجم ، وحول هذه النقطة سيورد المؤلف الكلمات وتعاريفها ؛ وذلك على نحو اذا لم يكن مستقطبا للغة كلها فهو متضمن لأكبر جانب منها .

والحق أن ابن سيده استطاع أن يظفر ، الا فى بضع حالات ، بموضوع تلك الوحدة ؛ وذلك عند ما اتخذ من الانسان محور معجمه الاول ومركز التنسيق فيه وهكذا أدار حول الانسان ، وبكيفية منطقية ،

(36) مقدمة المخصص ، ج 1 ، ص 10 - 11 .

متدرجة ، مختلف الموضوعات ، وأقام ، برؤيـــة فيهـــا سداد واحكام بالنسبة لعصره ، هندسة معجمه كله ، ولقد أتاحت له اضافاته المتوالية أن يساير حياة الانسان خطوة خطوة من المهد أو قبله ، ويدرس جوانب مختلفة من نشاطه المتعدد ، اجتماعية ، ودينية ، وفكريـــة ، ومادية ، ويمكن القول بأن ذلك هو الذى أتاح لابن سيده أن « يـــبـــنى » معجمه بناء عضويا حقيقا باثارة الاعجاب .

ودون أن نصرف النظر ، كما هو منطقي ، عما سيرقى اليـــه هذا المنهج من مراتب الكمال بعد ابن سيده ، فانه ينـــبغى أن نقـــدر مـــدى التوفيق الذى حالف هذا الاخير حين جعل من الانسان ، الذى هو فى ذات الوقت وسيلة اللغة وغايتها ، نقطـــة الارتكاز فى وحـــدة المخصص ، جمع حولها شعث اللغة .

لكن ، ينبغى التنبيه الى أنه اذا كانت بنية « المخصص » تبدو لنا منطقية ، فان المنطق لا يشمل جميع تفاصيل تلك البنية ؛ ومن أجل ذلك قلت فيما سلف بأن ابن سيده ظفر بموضوع وحدة معجمه الا فى بضع حالات ، والحق أنه ، أحيانا ، كان يستسلم للعاطفة مفضلا اياها على العقل ؛ وذلك حين ينقاد لتوارد الخواطر فاذا به وهو ينســـق الكلمات لا يعنى بتجاورها بقدر ما يعنى بتجانسها وتناقض معانيها .

مما تقدم ندرك التشابه القائـــم بين « المخصـــص » والمعجمات الموضوعية الحديثة مع ملاحظة الفروق الطبيعية التى تفصل بين هذه وذاك. ان « المخصص » يقدم لنا ، مثل المعجمات الموضوعية الحديثة ، اطاره العام متمثلا فى تقسيمه الى طبقات (الكتب) ومجموعات (الابواب) ، موزعا المادة اللغوية فى تلك (الخانات) وفق تقارب الموضوع وتشابهه .

واننا لنحسب أنه لا حاجة بنا الى القول بأن منهج ابن سيده قـــد نضج بشكل ملحوظ فى المعجمات الموضوعية التى أشرنا اليها ، غير أنه ليس يمكن أن ينكر أحد فضل ابن سيده فى أنه كان أول من أدخل هـــذا اللون من المعجمات العامة المصنفـــة الى الغـــرب الاسلامى ، ففـــاق

بالمخصص من حيث ضخامته وضبطه التجارب الاولية التى عرفها الشرق فى هذا المجال ، وسبق أوربا التى لم ينضج فيها هذا النوع من المعجمات ــ بعد ما عرف منها بصورة أولية فى ايطاليا على عصر النهضة ــ الا حين نشر « روجت » P.M. Roget معلمة المعجم الانجليزي « Thesaurus of English words » وبواسيير J.B.P. Boissière معجم الكلمات المتناظرة فى الفرنسية (37) « Dictionnaire analogique de la langue française ».

تطوان — حسن الوراكلي

(37) انظر عن هذين المعجمين دراسة موجزة تعتمد المقارنة بينهما عند ، Julio Casares « Nuevo concepto del diccionario de la lengua y otros problemas de lexicografía y gramatica » (Madrid, 1941), 98-104.

ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد

(٥)

عبد الرحمن الفاسي

نزل القضاء بالمامون بن ذي النون ، فنزل بالجزيرة قدرها المحتوم معقودا بنزوات عواطف الملكين المتصارعين ، شهوة ((الفونش)) الهائمة بالظفر بطليطلة ومجالي قفصه المسحور ، ونقمة المعتمد بن عباد الجارفة التى تلهبه فى اليقظة والمنام لأخذ ثأره من مملكة ابن ذي النون كاملا غير منقوص ؛ وأن طبيعة سير الاحداث لتوحي أن غصة المامون بن ذي النون بمنية عمره ((قرطبـــة)) أنعشت المعتمد وسرت عنه ، فانجاب عنـــه ذهول المصاب بفلذة كبده وبجنده ، واستيقظت عزماته كرة أخرى على اشراقة ارهاصات الاقدار ، التي أنزلت بغريمه المامون الجزاء ، ودحرجته بين الصفائح والتراب .

وهكذا زفرت نوازع أخذ الثأر زفرتها فى خلـــد العبـــادى الموتور ، فتفاقم فيه الحنق ، وتأججت عواطف ضغنه على بني ذي النون ؛ وما كان

---

* وقع سهو بجزء ((المناهل)) الخامس ، فوضعت بالصحيفة : 347 ، قرطبة مكـــان ((طليطلة)) ، وصحفت كلمة ((رواء)) بالصحيفة : 349 ، الى ((وراء)) ، وصحفت ((على)) الى ((عـن)) بالسطر الثاني بالصحيفة : 355 ، كما صحفت ((يجبي)) الى ((يحيـــى)) بالسطر الاول بالصحيفة : 362 .

له فكاك من تأثير نشأته تحت هيمنة الطاغية الغالب ، ولا لــه حيــــلة للتخلص من لعنة العصر التى أصلت فى جيله استعداده لالقاء يده فى يده ، والاستظهار به فى مآربه ؛ وستوافينا القصة التاريخية لنأخذ منها مـــا هو منصوص ، وما يستجلى من بين السطور ، ومن وراء العصور .

وأما شهوة ((الفونش)) فى التربع على عرش طليطلة ، فقد كانت لازمة خواطره ، ونجي مناوراته التي عرفنا مشاهد منها عند ضربــــه الجزية ، وفرضه الحماية على ملك غرناطة ، ومما انكشف خلال ذلـــك من سيئات وسوءات ، الى أن وافت المامون بن ذي النون منيته على غير انتظار ، وعندها برح الخفاء ، وانطلقت شهوة ((الفونش)) انطلاقتها ، وأصبح نجيه جهارة تدوى على مداها ، وخطة الاعتداء الصراح علـــــى مملكة مضيفه المامون تأخذ مجراها ، وبذلك مادت دعوى المؤرخـــين النصارى أن ((الفونش)) قد تجمل بالوفاء لصديقه المامون فى أثنـــــاء الحياة ، وأنه بذلك وفى بما عاهده عليه .

وان هذا الذى تحكيه الرواية النصرانية بالفخر والتنويه ، ليلبسه لباس النقيصة ، فى حين أنهـــا تحاول أن تضفى عليـــه رداء الفضيلة ؛ ففى أخبارهم أن قساوستهم الفقهاء أجمعوا أمرهم بعد ادبار المامـــــون لينجدوا ((الفونش)) بحيلة فقهية تبيح له مهاجمة طليطلة ، وهو فى حل من عهده الذى نعلم عن طريقها ومما يوحي به تحيل فقهائها ، أنه التزام بتأمين مظاهرته ، وحماية المملكة التى ذكرت (بابوائه ونصرتـــه (1)) وبزنادها ، كما قيل (2) : (ووريت ناره ، ومن التلاع المامونية تدفـــــق تياره ، أيام كان اسم هذا الطاغية مخمولا ، وصعبه ذلولا) ، وبهذا كان العهد دينا فى عنقه يجب له الوفاء والأداء ، وهو على أيسر تقدير فريضة أخلاقية تقليدية واجبة فى حق الملوك ، ومن تنزعهم الى أصالة السلالات عروق ، وان من اليسير حتى على فقهاء بيزنطـــة أن يخرجوا فتواهـــم تخريجها السخيف المعروف ، الذى ابتذل فيه عنصر الحيلة ، فلا يقابـــل بغير الابتسام الساخر المألوف ، فقد جاء فيها أن التعهد انما هو قائـــم

(1) أعمـال الاعـــلام ، جـزء الاندلـــس ، ط. بيـــروت ، ص : 330 .
(2) الذخيـــرة لابـــن بســـام ، القســـم : 4 ، ج : 1 ، ص : 124 .

فى حق المامون ، وقد مات وفات ، ولا ينسحب على ذريته فضلا عن حفيده القادر ، الذى آلت اليه المملكة ؛ وهكذا جاؤوا بها هزيلة عجفاء ، مع أن المشاهد فى القسيسين والرهبان أنهم بحكم مهنة الجلوس والفراغ ، ضخام الجثث والبطون ، طوال اللحى والصلبان ، وما هزال الفتوى الا من هزال الطوية ، وما كان عجفها آلا من عجف الأخلاق ، وهل التطلع لحيلة النكول عن رعاية المواثيق ، والتملص من قيود الأعراف والتقاليد ، غير الرذيلة بعينها ، ماثلة بالاصرار ، قائمة بالتخطيط .

والواقع أن « الفونش » قد كان أدرك فى هذه الفترة من حياته أن زمام الاندلس قد حصل فى كفه ، والمكاسب أخذت تحبو الى معسكره كمن ينتصر بالرعب من مسافات وأبعاد ، من غير كلفة ولا اجهاد ؛ ومن الملاحظ أن نفوذه قد انساح ليستعيد فى نفس الوقت نشر ظله على المنطقة الشرقية ، على ما عرف من وقوعها بين كماشتين من امارتى « أرجون » (3) و « نبرة » قبل توحيدهما وبعده ، فقد كانت سرقسطة ، وهى أكبر الممالك فى هذه المنطقة تدين بدفع الجزية لسانشو راميرز وتفزع أحيانا — كما فى ذيل سابق — الى المناورة بالاستنجاد بقشتالة ، فيتجاذب الجزية الطرفان ، فى بعض الاحيان ، وقد كان « فرذلند » والد « الفونش » قد فرضها عام 452 على سرقسطة ، واقتطع من ترابها حصن غرماج ، جريا على خطته المعروفة فى الاهتمام باجتياح المعاقل والحصون أولا وبالذات ، كما عرفنا من أحد الذيول السالفات ؛ وعاد اليها ابنه وخلفه (4) شانجة مجلبا عليها بخيله ورجله ، ولم يفصم عنها بحصاره الا بعد أن ضرب عليها الجزية ، وملأ أحماله أحجارا كريمة ، وأقمشة فاخرة ، وذهبا وفضة ؛ وبعد اعتلاء « الفونش » عرش قشتالة ، التفت ناحية الشرق ردا — كما يبدو بوضوح — على

---

(3) وردت كلمة « أرجون » محرفة الى « أرجونة » بالعدد الثالث من « المناهل » الذيل الثالث ، بالصحائف : 342 ، 350 ، 353 ، والصواب « آرجون » أو « أرغون »، كما يكتبها أحيانا صاحب نفح الطيب ، مع العلم بانه واضح فى السياق أن المقصود « أرجون » الامارة النصرانية فى أقصى النصف الشمالي من الجزيرة ، والتي تتصل حدودها الشمالية بجبال البرتات ، مباشرة ، وليس المراد « آرجونة » البلد الواقعة بناحية « جيان » فى الجنوب .

(4) انظر التفاصيل فى كتاب « دول الطوائف » للاستاذ الكبير محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، صحائف : 270 ، 391 .

تجديد حلف قام بين سرقسطة وسانشو صاحب « نبرة » و « ارجون » سنة 1073 ، أى فى نفس الوقت الذى كان فيه « الفونش » منصرفا الى تثبيت عرشه بتصفية « غارسيا » أخيه ، ولعل هذا أصل اهتمام « الفونش » بتأكيد فرض الجزية على سرقسطة التى يذكر أن صاحبها المقتدر جنح الى النكول بموجب تجديد حلفه المذكور ، وتتجلى مبادرة « الفونش » هذه ضربة معلم ورثها عن والده ، واجهز بها على عصفورين بحجر واحد ، لأنها أفهمت من يسمع ويرى من ملوك الجزيرة المسلمين أن لا مناص من الخنوع لما انجر بالارث عن والده « فرذلند » من مفروضات ، وعلى الوجه الكامل بالولاء والانحياش ؛ كما أنه افهم بها كل أمير أو مغامر نصرانى فى تلك الاصقاع ، أن التصرف فى دنيا الاسلام انما هو حق للملك « قشتالة » ، دون سواه ولا شيء غير هذا يصح فى الاحتمال .

وتعرض علينا القصة التاريخية وجها آخر لانسياح هذا النفوذ ؛ ففى نفس السنة التى توفي فيها المامون بن ذى النون (467) ، انتزى صاحب سرقسطة المقتدر بن هود (468 — 474) على « دانية » (5) من يد صاحبها علي بن مجاهد العامري غنيمة باردة فيما يقولون ! (6) وأخذ يتلمظ للطمع فى « بلنسية » محاولا استغلال الرجة التى سرت فى الاندلس عند تسيير كتائبه ، ونشر أعلامه ، ومغتنما ظروف أبى بكر بن عبد العزيز صاحب « بلنسية » الذى كان يومئذ قريب عهد بالاستبداد بها على صاحبها المنكود ، القادر بن ذى النون ، ولكن المقتدر سرعان ما أدرك أن مثل هذه الخطوة لا تتم بغير تصديق من « الفونش » ومساومة على التغافل ، ان صح أن غفلة العامرى فى « دانية » هى وحدها التى سهلت له مرامها ، وأباحت له قرع عصا الوعيد لصاحبها .

ويهدينا الأمير عبد الله للسير فى هذا المعنى فيقول (7) : (وان ابن هود لما حصل على « دانية » ، انفسد طبعه ، وادركته الرغبة فى البلاد ،

---

(5) الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص : 206 .
(6) الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص : 208 .
(7) كتاب التبيان (مذكرات الامير عبد الله) ، ص : 78 .

وزال عما كان عليه من جهاد الروم ، وطمع في « بلنسية » عند ذلك ، وأعطى عليها أموالا جسيمة لألفونش ، و « الفونش » في هذا كلـه ، على ما قدمنا ذكره يأخذ الاموال ولا يحقق لأحد أن يهاوده على أخـذ بلـده) .

ولا يستبعد أن يقال بوحي من هذا النص الذى وردت فيه الافادة بجنوح المقتدر عن « جهاد الروم » (8) الى استلطافهم ، أنه مـا أقـدم على « دانية » نفسها الا بعد التحصيل على صفقة تغافل قشتالية (9) ، لاسيما ونحن نعلم أن المقتدر قـد كان له وزيـر يعـرف بابن الريولة ، ولهذا الوزير صلات معروفة « بالفونش » ، ويتحدث الامير عبد الله عن هذه الصلات المشبوهة ، فيقول : (10) (وشعر المؤتمن (ولـد المقتدر وخلفه) لابن الريولة وزير أبيه بأعمال فاسدة مع « الفونش » ليتخـدم له خدمة ابن عمار ، فيرأس لذلك عنده على أهل زمانه خذلانا وطغيانا) .

---

(8) لعل أهم ما يذكر به جهاده المشار اليه في كلام الملـك عبـد الله ، هـو مناجزتـه ، « لردمير » (راميرو الاول ، الابن الغير الشرعي لسانشو العظيم) ، وهو أحد اخوة « فرذلند » ، فهو عم « الفونش » ، وقد أوقع المقتدر برد مير في المعركة الشهيرة على أسوار مدينة « كرادوس » سنة 1063 ، ومن أهم مآثره في الجهاد انه تم بفضله جمع ثغور الاندلس لاسترداد مدينة « بربشتر » (شمال سرقسطة على أحد فروع الابره)، والانتصاف لاهلها وللاسلام بعد تسعة أشهر من استيلاء أهل « غاليش » و « الردمانيين» عليها عام 456 ، أي في نفس السنة التي استولى فيها « فرذلند » على « قلمرية » ، وجال جولته الشهيرة لفرض الجزية ولمحاصرة اشبيلية ، مما يدل على توقيت مبيت بينه وبين أولئك الغزاة حسبما سبقت اليه الاشارة في أحد الذيول السالفات ـ انظر ما يتعلق بالفتح الرودماني وهمجيته الصليبية ومعركة الاسترداد في « نفح الطيب » ، ج : 2 ، ص : 749 ، وما بعدها ، طبع أوربا ـ البيان المغرب ، ج : 3 ، ص : 225، الحلة السيراء ، ج : 2 ، ص : 247 ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الروض المعطار للحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص 39 .

(9) أقصد التعبير بكلمة التغافل قصدا ، وذلك ان « دانية » قد كانت بموقعها شمال اللسان المثلث الممتد من « لقنت » في الابيض المتوسط ، بعيدة عن متناول نفوذ « قشتالة »، فظل صاحبها ابو الجيوش مجاهد العامري ، ثم ابنه علي من بعده ، بمنجاة من اصـر دفع الجزية وعنت المضايقات القشتالية ، مما أتاح لمجاهد العامري ان يضطلع ـ وفتنة الاندلس المبيرة في العنفوان ـ بفتح الجزر الشرقية ، ثم احتلال جزيرة « سردانية » كما هو معروف ، ومن ثم كان التعبير بالتغافل علما بان « الفونش » لم يكن يتطلع اليها، ولكنه الآن ، وهو في ابان اظهار السيطرة الشاملة قد أظهر التغافل للتحصيل على عوض يعلم أنـه مقبـول .

(10) كتـاب التبيـان (مذكـرات الاميـر عبـد اللـه) ، ص : 78 .

ولندع الآن التعليق على ما كان « للفونش » من عائدة فى استقلال ابى بكر بن عبد العزيز (458 — 478) « ببلنسية » ، لنشير الى أن أبا بكر بن عبد العزيز لم يكن غير ابن زمانه ، ولم ير الا بحاسة قومه ، فبادر الى تحصين مركزه الجديد ، والتوقى من وثبة المقتدر بعرض غنيمته على حماية « الفونش » فكان كمن يستجير من الرمضاء بالنار ، ويستنيم لحراسة الضرغام ، وحسبها سلمت له ، ولكنه انما سلمها (لملمها الفادح) ولمآرب « الفونش » ، الذى سخرها فى احكام الحملة على طليطلة ، كما هو معروف ، ولم يبخل على صاحبها بلسانه الرطب ، فكان يطلقه بالثناء على عبقريته من حين الى حين .

ولعلنا وقعنا هنا على أصل كلمة « الفونش » السائرة التى جعل فيها أبا بكر بن عبد العزيز ثانى ثلاثة حين كان يقول : (رجال الاندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وششنند) .

ولنستدبر الجانب الشرقى لنلتفت لما هو اقرب الينا من ذلك المحيط ، فقد كنا مع « الفونش » فى فصل سابق على ابواب غرناطة حين فرض عليها الجزية والحماية ، وشاهدنا على هامش ذلك صراع النحائز والاطماع ، وانصياعها الى مشيئته ليصرفها على هواه ، وعاينا حجم الثغرة فى جبهة بنى عباد ، بما انكشف من اطماع الوزير ابن عمار ، وراقبنا خنوع المامون للقيام على مآرب « قشتالة » انطلاقا من جو عهد الضيافة ، وحلف المناصرة ، الذى انعقد فى طليطلة تحت خمائل قصرها المسحور .

وجماع امر هذه الصورة المعروضة عن بسطة نفوذه ، انه ظهر فى هذه الفترة الممتدة من تاريخ اعتلائه عرش « قشتالة » (ديسمبر 1072) الى موت المامون ، ياخذ بلا عطاء ، ويغنم بلا حرب ، ويحارب بلا جند ، ويعرض سيفه ورمحه ليضرب بعضهم ببعض ، على سنة حركة الاسترداد التى ما حادوا عنها فى حرب أو سلام .

وان الباحث وان جعل نصب عينيه جانب المامون فى هذه الفترة شاخصا قائما فى حساب « الفونش » بوازع مفترض من رعاية الجميل ،

والعهد المقطوع ، كما زعم أولئك القسيسون ، فان الذى يفهم بالبداهة ومن دون أدنى عناء ، هو أن مظاهرة المامون على ابتزاز قرطبة من يد المعتمد بن عباد ، أو فسح المجال له بالتغاضى ــ ان لم يصح أنه عززه بالاجناد ــ تفيد أن هناك تحولا فى نظرة حركة الاسترداد الى وضعية قرطبة عاصمة الخلافة الدابرة ، حتى لا تظل بين جزر ومد هذه الانتزاءات من آن الى آن ، ومعنى هذا أن القشتاليين قد أمنوا جانب المامون فى استغلال مركزها الدينى والادبى ، فسهلوا له ضمها ، والتمكن من مقادتها ، وبذلك استوفى فى نظرهم دينه ، واسترد جميله ، واما الباقى من التعهدات فلا موقع له عندهم فى حسبان ، لأن عقليتهم لا تتحرك الا فى نطاق الآصرة التى يبسوا عليها فى تعاملهم مع المسلمين منذ قيام هذه الحركة ، وهى آصرة السوق التى تنحصر فى الارتزاق والأجور ، فما لمستنيم اليهم ولو على هينة واستخذاء ، أى مطمع فى مكسب أو استعلاء ، ولا عندهم لجميل متاب الا فى نطاق هاك ، وهات .

والذى يستبين من خلال الضباب الذى يلف أحداث هذه الفترة ، وتصرفات أهلها على وفرة ما بيض وسود فيها الناس ، هو أن « الفونش » ربما كان ينظر بحكم انقياد الاندلس اليه بالغلبة ، وبطواعية الاستعداد ، الى اقامة ولاية صورية للمامون ، قوامها تقويته وتعزيزه فى الانتصاب كوال مسخر من قبله فى أندلس تهيمن عليها « قشتالة » ، وتصرف امورها ، وتحكم حركاتها وسكناتها بهذه الولاية الصورية ؛ وفى هذا تأمين لتطويق بوادر أى انتفاض ، وتخفيف للمعاناة ، واختصار لطريق الاهداف ، وسيكون السمو الى قصر طليطلة على أدنى من قاب قوسين ، وقريب المنال بمطلق التفاهم الذى يؤخذ من المقامات ، ومن مجرى المعاملات بين الغالب والمغلوب فى مثل هذه الاحوال .

ويستأنس لهذا بما يذكر من ان « الفونش » ، بعد استيلائه على طليطلة ، وعد القادر بن ذى النون أن يساعده على أخذ « شنتمرية الشرق » و « دانية » ، وقيل عندها انه ما وعده بهذا الا تأكدا منه ان حكمهما بواسطة القادر انما يعنى ويؤول الى وقوعهما تحت سيادته ونفوذه ، وصدق القائل ، فقد كانت « شنتمرية الشرق » أو « سهلة

بنى رزين » ــ كما دعوها ــ تخضع عندئذ ، مثــل جارتهــا امــارة « البونت » لأداء الجزية « لقشتــالة » لأول مــرة ، وكانــت جبــاية « السهلة » ــ وصاحبها يومئذ ذو الرياستين أبو مروان عبــد الملــك بن رزين ــ تفوق جباية أكبر ممالك الشرق ، نظرا لخصب أراضيها (11) التى تدر الغنى على أهلها ، ولتلك الثروة الطائلــة ، التى كان يمــرع فيها صاحبها الذى قضى زهاء ستين سنة فى حكمها (436 ــ 496) ، وبذلك كانت الجزية على قدر مبلــغ الجباية ، وحجم الخزينــة بطبيعة الحال ، وطبيعة « الفونش » ، ومن أبعد البعيد ، أن يوثر بها القادر ، ما لم يكن أمرها اليه بدخلهــا وخرجها ، كما فهــم الفاهمون ، وكأنهم قاسوا وضعية القادر فى الولاية الصورية على وضعية جده المامون .

وعلى هدى هذا التحليل ، فقد يقال بتعبير آخر ، ان مبلغ القول فى هذه الأريحية المدخولة بالانتفاعية انها وليدة شعور عاطفى ، كــان يخامر « الفونش » فى أثناء حياة المامون ، لأنــه يستعيــد فى شخصه ذكريات قفصه الذهبى ، فتثير عطفه الذى مثل فى هذه الرعاية الموقوتة والمدخولة ، وما كان أشبهه فى هذا بمن يحاول التماس خلــق فاضل فى نفسه ، ليس من طبعه ولا هو من أهله ، وانما يمارسه وكأنه يتمــرن على الاخلاق والشيم المعروفة عن ملوك المسلمين من وفــاء بالعهــد ، ومراعاة للجوار ، وفضائل أخرى ، مما خبره أو تفرسه فى صديقــه المامون ، وذلك استعدادا لممارسة الحيــاة فى مجاليها الوضــاءة بقصر طليطلة المسحور .

وشتان ما بين الأصالة والتقليد ، ولا سيما فى شيم النفوس .

ولا مجال بعدها لما قالته الفتوى من آنه قــابل الجميل بالجميل ، وأدى ما عليه كاملا غير منقوص ، لأن ازماعه التعدى فور ادبار المامون قد كشف عن زيف ذلك الشعور .

---

(11) « الروض المعطار » لابن عبد المنعم الحميري (صفة جزيرة الاندلس) ص : 115 .

ويسلمنا هذا الى تقسيم حياة « الفونش » منذ تربعه على عرش « قشتالة » الموحدة سنة 1072 ، الى ثلاث فترات :

الاولى : من تاريخ جلوسه المذكور الى تاريخ وفاة المامون بن ذى النون (465 — 1075) .

والمفهوم من مسايرة تصرفاته أن هذه المرحلة قد كانت من أدق منعرجات نشاطه ، حيث جنح فيها الى العمل السياسى بالاتصال المباشر والمواجهة فى المداخلات ، مما أتاح له أن يسبر من قريب أغوار معنويات ملوك ورؤساء المسلمين ، ومدى ما فعلته الحرب النفسية فيهم جيلا بعد جيل ، فانفتح له بذلك باب الاجتهاد فى خطة السير ، وطي المراحل فى الوقت ، وتقدير موضع رجله قبل الخطو ، ولا يعني هذا أنه كان أمضى من والده « فرذلند » ، وألمع عبقرية ، فان الباحث لن ينسى أن هذا انما تيسر له بفضل ما سبق التعبير عنه بالارض الباردة التى هيأها « فرذلند » بخطوته الفارعة ، وجاء بعده « الفونش » ليسقي من قليبه ، ويقطف ثمار مكاسبه التى حققها لحركة الاسترداد فى الأنفس ، والتراب ، والثمرات ، ولكن سير « الفونش » على النهج ، وتوفقه فى تصريف ما انجر اليه ، يعد من مظاهر عبقريته على أى حال .

الفترة الثانية : وتبتدىء مباشرة منذ ادبار المامون ، ويظهر اتجاهه فيها ابتداء من سنة 1078 الى الاعداد للغزو بوضوح ، فينصرف الى الحرب النفسية ، والى غارات العيث والفساد فى المحاصيل والغلال ، واستطال فيه عنفه الباتر فأخذ يستولي على مدن المنطقة ذات الاهمية ، فى تطويق العاصمة الذنونية ، عندما يحين الأوان .

الفترة الثالثة : وتبتدىء بمباشرة غزو طليطلة بالذات ، وذلك منذ احتمى به القادر بن ذى النون اثر قيام الثورة عليه ، فأعاده سنة 474 — 1081 ، الى عرشها فى حماية كتائبه ، وتحت ظل راياته .

وان السياق بعد هذا ليحدو الى غير ما تساؤل فى المقام :

كيف أتيـــح للمعتمد بن عباد أن يستوفى الانتصاف لثـــأره ، ويعيد قرطبة ـــ كما سنرى بعد ـــ الى مداره ، ويتلع هامته بالاعتداد ، وبالامتلاك والامتداد ، حتى (انتظم له فى ملكه من بلاد الاندلس مـــا لم ينتظم لملك قبله (12) وهو فى أتون محنة استغلاظ ((الفونش)) (الذى شغل بـــه) كما قدمناه ، ويعانى من صفار دفع الجزية ، ومن صولة الطاغية ما يخني على كل همة واهتمام ؟

كيف مع هذا (أصبح عصره أجمـــل عصر ، ومصره أحسن مصر) و (أقامت به خيل السرور الطراد) كما يقول الفتح بن خاقان (13) .

وكيف (كانت أيامه موصوفة باخضرار الجناب) (14) كما يقـــول ابن الخطيب ؛ واشبيلية لا يكاد يفصم عنها حصار حتى تضطرب أرجاؤها برجل جباة الاتاوات ، وتفزع ألباب أهلها على نذر حصار آخر أو انذار ؟

وكيف جرى المعتمد فى لهوه حتى استوفاه ، وجرى فى جـــده حتى رفع لدولة بني عباد ذلك العماد ؟

ذلك ما سنحاول تناوله فى فصل تـــال .

الـــربـــاط   عبد الرحمن الفاسى

(يـــتـــبـــع)

---

(12) المعجـــب للمراكشـــي ، ص : 75 ، ط : ســـلا .
(13) قلائـــد العقيـــان ، ترجمـــة المعتمـــد .
(14) أعمـــال الاعـــلام ، جزء الاندلس ، ص : 189 ، ط. الربـــاط .

تحقيق كتاب :

"التعازي والمراثي"

للمبرد

محمد الديباجي

من اثار المبرد التي سلمت من الضياع ، كتاب عظيم القدر ، جليل الشأن هو كتاب ((التعازي والمراثي)) الذي وفقنا الله لتحقيقه .

وقد عثر منذ عهد بعيد على نسخة منه ، موجودة في ((الاسكوريال)) تحمل رقم : اسكوريال ثاني 543 . وقد أشار اليها بروكلمان (1) . وهي النسخة الوحيدة التي كانت معروفة عن هذا الكتاب حتى السنوات الاخيرة أي حتى عثر أستاذنا ابراهيم الكتاني على نسخة ثانية بالزاوية الناصرية بتمكروت (2) بجنوب المغرب . وهذه النسخة الثانية محفوظة الآن بالخزانة العامة بالرباط ، وتحمل رقم : 226 ق .

ويبلغ عدد اورق نسخة الاسكوريال 130 ورقة ، مكتوبة وجها وظهرا، وهي من الحجم المتوسط ، وفي كل صفحة 17 سطرا ، وفي كل سطر

---

(1) تاريخ الادب العربي لبروكلمان 2 / 166 .

(2) تعتبر الزاوية الناصرية من أشهر مراكز العلم والدين في المغرب الاسلامي ، وتاريخ اهتمامها بالمخطوطات تاريخ حافل مجيد ، لا يتسع له المجال هنا . انظر في ذلك ((طلعة الناصري في النسب الجعفري)) للناصري صاحب الاستقصاء.

معدل عشر كلمات . وقد كتبت بخط ردىء جدا . وكان الفراغ من كتابتها سنة ثلاث وستين وخمس مائة . وفيها كثير من التصحيف والتحريف والبياض . ولعل هذا كان أهم الاسباب التي صرفت عنها كثيرا من الباحثين الذين هموا بتحقيقها .

ومن الصعوبات الكبيرة التي واجهتنا فى تحقيقنا لهذه النسخة اضطراب السياق فى بعض الاحيان وتفاوته بين النسختين : فقد كان يحصل للناسخ ان ينتقل من صفحة الى أخرى لا تليها فى الاصل ، او من خبر الى خبر بينهما صفحات في النسخة الثانية ثم يعود بعد ذلك الى ما ترك .

وقد احتجنا احيانا الى مجهود يسير فى تصويب هذه الاخطاء وتقريب النصوص وضم بعضها الى بعض ، ولكن الامر شق علينا احيانا اخرى اذ كانت النصوص تدور كلها فى موضوع واحد ، فلا يختل السياق او المعنى العام بتقديم بعضها على بعض . ومن هنا كان يصعب علينا ان ندرك ــ متيقنين ــ السياق الاصلي الذى أملى عليه المبرد كتابه : أهو السياق الوارد فى النسخة التي اتخذناها اصلا او التي اتخذناها فرعا .

وتزيد هذه النسخة ــ نسخة الاسكوريال ــ على الاخرى بسبع عشرة ورقة ، وشاء القدر ان تكون هذه الصفحات الزائدة اسوأ ما فى الكتاب خطا ، وأكثرها تصحيفا وتحريفا وبياضا . كما شاء القدر ان تكون كثيرا من النصوص الواردة فى هذه الصفحات مفقودة كلا او جزءا من المراجع الكثيرة التي رجعنا اليها .

وعلى الرغم مما فى هذه النسخة من عيوب ، فقد اتخذناها اصلا لثلاثة أسباب :

1) ان النسخة الثانية اكثر منها تصحيفا وتحريفا
2) انها اوفى النسختين
3) انها اقدمها .

اما النسخة الثانية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط ، فعدد اوراقها 106 ورقات من الحجم المتوسط ، في كل صفحة 17 سطرا ، وفي كل سطر عشر كلمات تقريبا . وقد كتبت بخط شرقي جميل واضح في جل الاحيان . وكان الفراغ من كتابتها بالكرك (3) سنة سبع وخمسين وسبعمائة.

ونظن ان الذي نسخها كان ذا حظ قليل من العلم ، فصحف فيها وحرف كثيرا . وقد جلبها الى الزاوية الناصرية حاج من الحجاج الذين كانوا يتوجهون كل سنة الى قبر الرسول ، ويعملون في نفس الوقت على جلب المخطوطات النفيسة من الشرق والغرب .

وفي تقديرنا ان عوامل ثلاثة تضافرت في انقاذ هذا الكتاب الجليل من هوة الضياع السحيقة ، هي : موضوعه ـ والدوافع التي ادت الى تأليفه ـ وقيمته .

أما موضوع الكتاب فهو ـ كما يتجلى في عنوانه ـ العزاء والرثاء : فقد ساق فيه مؤلفه مجموعة من عيون المراثي التي فاضت بها قرائح الفحول من الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، والعباسيين الذين عاصروا المؤلف أو سبقوه . كما ساق فيه مواعظ وخطبا وأقوالا مأثورة ووصايا « يؤثر بعضها عن اهل الدين ، وبعضها عن اهل الاداب والطبائع المحمودة».

ويبدو لنا ان المؤلف لم يسر في ترتيب كتابه على منهج محدد ، فهو يسوق الاشعار والاخبار دون ترتيب زماني او مكاني ، وانما قسم الكتاب الى أبواب شاملة نجمل ذكرها فيما يلي : فقد بدأ كتابه بذكر السبب الذي دفعه لتاليفه وهو وفاة حميمه القاضي اسماعيل بن اسحاق الازدي (4) (200 ـ 282 هـ قاضي القضاة ببغداد ، ثم عرض لبعض ما روي عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وغسله ودفنه . وذكر زمرة من التعازي

---

(3) الكرك ؛ قلعة في طرف الشام من نواحي البلقاء ، معجم البلدان 1 / 240 .

(4) ترجمته في الاعلام 1 / 305 ـ واخبار القضاة لوكيع 3 / 280 ـ وترتيب المدارك للقاضي عياض 3 / 168 .

البليغة . وعقد بعد ذلك بابا ((لمراثي الجاهلية المشهورة المستحسنة والمستجادة المقدمة)) فذكر مراثي لمتمم بن نويرة ودريد بن الصمة وكعب بن سعد الغنوي ، واعشى باهلة ، واوس بن حجر وابي ذؤيب وابي خراش الهذليين وليلى الاخيلية والخنساء . كما ساق المبرد مع هذه الاشعار طائفة من التعازي النثرية البليغة والاخبار المستجادة المتصلة بالعزاء والرثاء .

ثم عقد بعد هذا بابا للوصايا فذكر وصية ابي بكر عند موته ، ووصية عمر وعلي ومعاوية وابي عبيدة بن الجراح ، وعبد الملك بن مروان ، وابي قيس بن صرمة الانصاري ، والربيع بن خثيم والمهلب بن ابي صفرة .

ومضى المبرد بعد ذلك يسرد اخبار بعض من اصاب الموت اعزاءهم فتجلدوا او جزعوا ، والذين اوتوا الحكمة وحسن الخطاب فعرفوا كيف يخففون من وطأة الحزن عمن فجعهم الموت بمن يحبون .

ولكي ينزل المؤلف بالقارىء ((من خشونة اشعار القدماء الى لطف المولدين لمشاكلة الدهر وملاحة القول)) عقد بابا لاشعار المحدثين ، فذكر مراثي لمسلم ابن الوليد ، وابراهيم بن المهدي ، وابي العتاهية وبشار والعبلي ، و ابي عبد الرحمن العتبي ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسين بن مطير وعبد الصمد بن المعذل ومروان بن ابي حفصة الاكبر والحسن بن وهب وأشجع السلمي .

ثم عقد ((بابا لمواعظ وتعاز داخلة فى ذلك موصولة به)) وشغل هذا الباب الحيز الاكبر من الكتاب ، فذكر فيه كثيرا من اشعار الجاهليين والاسلاميين والعباسيين واخبارهم ، واخبار الطواعين ، واخبار الجفاة عند الموت وبعض ايام العرب ، وختم كتابه بمرثية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا عن موضوع الكتاب ومضمونه ، اما اسباب تاليفه فقد صرح المبرد باحدها فى مقدمة الكتاب وهو وفاة حميمه القاضي اسحاق بن

اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم الازدي قاضي القضاة ببغداد ((وكان اسماعيل فاضلا عالما ، متقنا فقيها ، على مذهب مالك بن أنس)) (5) ولا غور فالقاضي من بيت علم وفقه ، بل من اجل بيوت العلم في العراق وارفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا .... (6)

فالقاضي اذن رجل جليل القدر ، من بيت له شان عظيـــم ، فهو من اعلام الازد الشامخة في العراق . وكذلك كان المبرد ، على الرغم من انـــه نبث في اسرة متواضعة فلا عجب اذن ان يتقرب كل منهما للآخـــر ، ثم تتوطد بينهما صداقة حميمــة .

ونحن نقدر ان هذا التقارب بدأ في البصرة ، وان هذه الصداقة تمت في بغداد . ذلك ان القاضي ولد بالبصرة ونشأ فيها ثم استطون ببغداد (7) شانه في هذا شان المبرد .

وقد كان القاضي يحدب على المبرد ويكرمه ، وكان المبرد يحبه حبا صادقا ويجله اجلالا كبيرا . فقد قال فيه في مقدمة كتابه هذا : ((ولقـد كان رحمه الله في اكثر الامور انجع وانفع . ولوعد كامل لا سقطة فيه لكان اياه . لكن الله جل ثناؤه جعل في المخلوقين النقص ، وجعلهم ضعفـاء ، وحكم بانهم لم يؤتوا من العلم الا قليلا . ولقد كانت انصباؤه في ذلك القليل كالمحتوية على اكثره ـ رحمة الله عليه ـ مع ما جمع الله فيه من حكم عادل، ورأي فاضل ، وادب بارع ولب ناصع ، وتصرف في العلوم ، وحلم يربـــي علي الحلـــــوم)) .

وروي نفوطية (8) انه كان مع شيخه المبرد فمر اسماعيل بن اسحاق القاضي فوثب المبرد اليه ، وقبل يده وانشده :

فلما بصرنـــا بـه مقبـــــلا حللنا الحبى وابتدرنا القيامـا

فلا تنكرن قيامـــي لـــــه فان الكريم يجـل الكرامـا

---

(5) تاريـــخ بغـــداد 6 / 284 ـ 295 .
(6) ترتيـــب المـــدارك 3 / 166 .
(7) انظـر المراجع المذكورة في ترجمته .
(8) تاريـــخ بغـــداد 3 / 289 .

وكان المبرد يقول ـ معترفا بعلم القاضي : ((القاضي اعلم مني بالتصريف (9))) .

وقد دامت هذه العلاقات الطيبة بين القاضي والمبرد زمنا طويلا ، فلما توفي القاضي سنة 282 هـ حزن عليه المبرد حزنا عميقا ، ومضى يعزي نفسه بتأليف كتاب فى ((التعازي والمراثي)) وقد صرح المبرد بذلك في مقدمة كتابه فقال : ((دعنا الى تأليف هذا الكتاب واجتلاب محاسن من تكلم فى اسباب الموت من المواعظ والتعازي والمراثي ... مصابنا برجل استخفنا لذلك وبعثنا عليه وهو ابو اسحاق القاضي)) .

على اننا نرى ان وفاة القاضي اسماعيل بن اسحاق لم تكن السبب الوحيد الذي دفع المبرد لتأليف هذا الكتاب ، فالى جانب هذا السبب اسباب اخرى نجملها فيما يلي :

فمنها سبب فني ، فالمبرد مولع بانتقاء النصوص الادبية الرفيعة ، والرثاء من أهم الاغراض وأشدها وقعا فى النفس : ((انه احسن مناطق الشعر)) كما قال ابو عبيدة معمر المثني . وقال ابو الحسن : كانت بنو أمية لا تقبل الرواية الا أن يكون رواية للمراثي ، قيل : ولم ذلك ؟ قال : لانها تدل على مكارم الاخلاق)) (10) وقيل لاعرابي : ما بال المراثي اجود اشعاركم ؟ قال : لانا نقول وأكبادنا تحترق)) (11) .

فولع المبرد بجمع النصوص الادبية الرفيعة ، وقيمة الرثاء كانا من الاسباب التي دفعته لتأليف هذا الكتاب .

كما ان الظروف السياسية فى العصر العباسي وما دعت اليه من اراقة الدماء ساعدت على ازدهار ادب الرثاء ، ودعت شيوخ الادب والرواية الى أن يفردوا له التآليف الخاصة ، أو أن يخصصوا له فصولا

---

(9) المرجع السابق .
(10) البيان والتبيين 2 / 320 .
(11) المرجع السابق .

مهمة من كتبهم الادبية : فنحن اذا رجعنا الى تاريخ الطبري او ابن الاثير او ابي الفداء او غير هؤلاء من المؤرخين القدماء ، وجدناهم يسودون الصحائف الطوال بأسماء من قتل فى هذه السنة او تلك ، حتى يخيل الينا ان التاريخ فى هذا العصر ـ وخاصة منذ مقتل المتوكل ـ تاريخ فتن وحروب وسفك الدمـــــاء .

لذلك كان من الطبيعي ان يرتاح الناس فى هذا العصر ـ وفى مثلـــه حينما تكثر الفتن وتراق الدماء ـ للتعازي والمراثي وتشتد رغبتهم فيها ، لذلك ايضا وجدنا اساتذة الادب والرواية يكثرون من التآليـــف فى أدب الرثاء والعزاء فقد وضع ابو الحسن المدائني ، وهو من شيوخ المبـــرد « كتاب التعازي » خصه لادب الرثاء والعزاء (12) ، ويذكر محقق كتـــاب « معجم الشعراء » ان المرزباني (المتوفى سنـــة 384 هـ) ألف كتـــاب « المراثي » فى نحو خمس مائة ورقة (13) .

وقد خصص المبرد نفسه فصولا مهمـــة للتعـــازي والمراثـــي فى الكامل (14) والفاضل (15) ، كما خصص ابن قتيبة فى عيون الاخبار (16) وابن عبد ربه فى العقد (17) فصولا مهمة فى ادب الرثاء . وقبلهم جميعـا عقد محمد بن سلام الجمحى فصلا خاصا بأصحاب المراثـــي فى كتابـــه « طبقـــات فحـــول الشعـــراء » .

وقد نضيف الى ما ذكرنا من اسباب تاليف المبرد لهذا الكتاب سببا نفسيا ونعني به ترقبه للاجل المحتوم : فقد شرع المبرد فى تاليف كتابه

---

(12) يظهر انه لم يوجد من هذا الكتاب الا جزءان فى أربع وعشرين ورقة وقد « حققـــه » الاستاذان ابتسام مرهون الصفار وبدري محمد فهد . وقد جاء الكتاب مشوها مليئا بالتحريف والتصحيف لذا ينبغي اعادة تحقيقه من جديد .
(13) مقدمـــة كتـــاب معجـــم الشعـــراء :
(14) الكامل (تحقيق احمد محمد شاكر) : 1186 . وما بعدها .
(15) الفاضل (طبعة دار الكتب المصرية 1376 هـ / 1956 م) : 59 ـ 68 .
(16) عيـــون الاخبـــار (دار الكتب المصرية) 3 / 52 .
(17) انظر كتاب الدرة فى النوادب والتعازي والمراثي من العقد (لجنة التاليف والترجمة) 3 / 228 .

وهو فى الثانية والسبعين من عمره ، وهي سن يتأهب فيها الانسان عـــادة ــ عن وعي منه ، أو عن غير ما وعي ــ للحاق بمن سبقه من أصدقائه واترابه . فالمبرد يريد ان يعزي نفسه بتاليف هذا الكتاب ، قبل ان يحصل عليـــه المصـــاب المحتـــوم .

ومما تقدم تبرز قيمة هذا الكتاب ، وهي قيمة كبيرة جدا لا نستطيع هنا ان نحصي جوانبها ، وانما نذكر أهمها :

1 ــ فى مقدمة هذه الجوانب انه كتاب للمبرد ينشر اول مرة . وفى هذا ما يغني عن الشرح والتفصيل .

2 ــ ومنها انه يعالج موضوعا جليلا هو العزاء والرثاء والنصوص فيه ــ شعرية ونثرية ــ منتقاة بذوق رفيع .

3 ــ وهو بعد هذا كتاب تعزية وتسلية ... « والمراثي واسبابهـا باقية مع الناس ابدا اذ كانت الفجائع لا تنقضي الا بانقضاء المصائـــب ولا يفنى ذلك الا بفناء الارض ومن عليها . ولا اله الا الله الحي الذي لا يموت».

4 ــ ثم ان هذا الموضوع ــ التعازي والمراثي ــ لم يعديهم الأديب وحده ولا المتعشق للادب او المتعزي به فحسب ــ بل اصبح يهم دارسي الفلسفة والسيكولوجيا والمجتمع ويعينهم على كشف بعض جوانب النفس الانسانية فى بيئة معينة وزمان معين .

5 ــ ولكتاب التعازي والمراثي قيمة تاريخية . فالمؤلف يروي فيه اخبارا واحداثا واقعية سمع بعضها يؤثر عن الاجيال السالفة او سمعه من معاصريه او اتيح له ان يشاهد هو نفسه بعض هذه الاحداث .

فهذه الاخبار التاريخية او شبه التاريخية تعيننا على رصـــد بعض جوانب المجتمع العربي فى تلك العصور وخاصة الجانب السيكولوجـــي والـــدينـــــي .

6 ـ وتزداد قيمة هذا الكتاب بما تفرد به من نصوص شعرية . ففيه كثير من القصائد وجدنا بعض أبياتها موزعا في بطون المراجع المختلفة ولكننا لم نجدها مجموعة في اي مرجع . وهناك اشعار اخرى لم نجد لها اثرا قط في المراجع العديدة التي رجعنا اليها ونقبنا فيها .

7 ـ ومن هنا تاتي قيمة اخرى وهي انه اصبح مرجعا لكثير من النصوص النفسية التي ضاعت فلم تصل الينا :

وبعد ، فقد من الله علينا فوفقنا لتحقيق هذا الكتاب النفيس الذي نلنا به دبلوم السلك الثالث من كلية الآداب (جامعة محمد الخامس بالرباط)

وقد تفضل مجمع اللغة العربية بدمشق ـ جزى الله العاملين به خيرا ـ فقرر طبع هذا الكتاب (18) ، وسيصدر قريبا ان شاء الله .

الرباط محمد الديباجي

(18) التقرير السنوي للامانة العامة لمجمع اللغة العربية بدمشق 1394 هـ ـ 1974 م .

في مكتبة المناهل

دوحة الناشر
لمحاسن من كان بالمغرب
من مشايخ القرن العاشر

لأبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عسكر العلمى الحسنى الشفشاونى .

تحقيق د . محمد حجي 185 ص 21×13 سم
دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر بالرباط 1976 .

الف ابن عسكر كتابه « الدوحة » سنة 985 هـ موافق 1577 اى قبل وفاته بسنة واحدة ولأهميته طبع مرتين بالمطبعة الحجرية بفاس وأصبح من المصادر النادرة التى يرجع اليها للتعرف على رجال القرن العاشر المغاربة مما دفع بالمحقق الى المسارعة بطبعه وقد ذكر فى المقدمة أن الكتاب المذكور بمثابة « فهرس ذكر فيه ـ ابن عسكر ـ شيوخه وما قرأ عليهم من فنون أو أخذ عنهم من مبادىء التصوف الا انه توسع فذكر كل من عرف من شيوخ القرن الهجرى العاشر سواء لقيهم أم لم يلقهم بل ذكر من اعلام هذا القرن حتى الذين لم يعاصرهم ، آخذا على المؤلف ما وقع فيه من هنات مثل ركاكة الاسلوب ومخالفة قواعد اللغة والاسهاب فى الاساطير وخلطها بالكرامات . ومثل عدم الاشارة الى

تاريخ وفيات المترجم لهم او عدم الضبط فى التواريخ على عكس المنجور فى فهرسه وابن القاضى فى درة الحجال وقد يعزى ذلك الى النساخ الذين لا يتحرون جهلا أو شرعا .

وقد علل ابن عسكر اقتصاره على مشايخ القرن العاشر من المغاربة فى مقدمة كتابه بقوله (وانما جعلته مختصا بمشايخ المغرب لكونه وطنى ومغرس شبابى وموطنى ؛ ومن الذين لا تهزه عصبية وطنه ؟) .

ثم يشرح طريقته فى انتقاء الرجال : و « وأبدأ بعلماء غمارة والهبط وصلحائها بعد سائر بلاد المغرب بنشأة الضرتين العظيمتين المجمع على شرفهما وقطبانيتهما ابى الحسن الشـاذلى وابى محمـد عبد السـلام ابـن مشيـش .

ومن علمائها ابو الحسن الصغير شارح المدونة المعروف عنـد المشارقة بالمغربى شيخ الاسلام عياض بن موسى » ثم يستمر ابن عسكر معددا فى المقدمة من ترجم لهم وعددهم مائة وثلاثة وخمسون بين عالم فذ وصالح متصوف . وسيساعد ذلك لا محالة جمهرة الباحثين على استجلاء عقلية أهل هذا القرن من خلال الترجمة لرجاله .

وقد بذل المحقق قصارى جهده حسب مـا يظهـر من الحـواشى والتعليقات والاحالات على مصادر أخرى مما يضيف الجديد ويكمل النقص فأجـاد وأفـاد .

الربـاط حبيبة البورقادية

الإعلام الثقافي

حفلات بباريس بمناسبة صدور كتاب "التحدي" لصاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني

بمناسبة صدور كتاب « التحـدي » لصاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثانى ، اقامت سفارة المملكة المغربية بباريس ، حفلات تكريمية لهذا الكتاب الملكى . وقد توجه وزير الدولة المكلـف بالشـؤون الثقافية الاديب الكبير السيد الحاج امحمد ابا حنينى الى باريس ، بقصد الاشراف على هذه الحفلات ، والمشاركة الفكرية فيها ، والحوار المباشر مع الادباء والمفكرين ومختلف المثقفين الفرنسيين ، حول كتاب جلالته ، الذى عرف بكثير من المواضيع التى كانت غفلا فى تأريخ المغرب الحديث ، فأحياهـا جلالته فى كتابه القيم ، وبعثها نابضة بالحيـاة والنضـارة والجـدة ، بأسـلوب مشرق أخـاذ .

وفى هذه الحفلات ، التقى السيد وزيـر الدولة المكلـف بالشؤون الثقافية ، ببعض الوزراء الفرنسيين السابقين والحاليين ، المتعاطفين مع المغرب ، الى جانب نخبة من رواد الادب والفكر بباريس ، حيث كـان الحديث يدور بينهم على محتويات هذا الكتاب ، وفلسفة جلالته فى المواجهة والتحدي ، لكل ما من شأنه أن يقف حجر عثرة فى سبيل تقدم المغرب وازدهاره ونموه وكرامته فى جميـع مظاهـره ومجالاتـه ومكتسبـاته ومشروعياته ، اقتصادا ، وثقافة ، وتعليما ، وفلاحـة ، وعمرانـاً ،

وسياسة ، تمشياً مع أصالة تاريخه العريق العامر بالامجاد والبطولات ، فى سبيـــل غد أطيب وأسعد لوطننا .

فى مثل هذه المواضيع كان يدور الحديث بين السياسيين والمفكرين الفرنسيين ، وبين السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية .

وقد اغتنمت التلفزة والاذاعة الفرنسيتان وجود وزيرنا بباريس ، فأجرت مع سيادته استجواباً اذاعياً وتلفزيونيـــا فى موضـــوع كتـــاب ((التحـــدى)) .

ومن الجدير بالذكر ، أن وزير الثقافة الفرنسي ميشيل كى ، أقام مأدبة غداء على شرف وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية .

وقد أولت الصحافة الفرنسية اهتماماً متزايـــداً بحفلات التكريم ، وبالكتاب الملكى المحتفى به ، وبزيارة وزير الثقافة المغربى الى باريس .

المعرض الأول لرسوم الأطفال

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة ، ووزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، المعرض الاول لرسوم الاطفـــال بمسرح محمـــــد الخامس . وقد تفضل صاحب السمو الملكى الامير المحبوب سيدى محمد حفظه الله ، بتدشين هذا المعرض الذى ضم أزيـــد من مائتـــى لوحة ، رسمها بعض الاطفال الموهوبين من مختلف المدارس المغربية .

وكان الى جانب صاحب السمو الملكى فى هذا التدشين ، وزيـــــر الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، ووزير التعليم الابتدائى والثانوى ، والوزير المكلف بتربية سموه ، وبعض الوزراء الآخرين ، بالاضافة الى أعضاء من السلك الديبلوماسى ، وجمهور من المثقـــفين ، والفنـــانين ، والادباء ، والصحافيين ، ومجموعة كبيرة من الاطفال .

المملكة المغربية

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

وزارة التعليم الابتدائي والثانوي



معرض لرسوم الأطفال

بمسرح محمد الخامس من 24 أبريل إلى 10 مايو 1976

نموذج من الملصقات الجدارية لمعرض رسوم الاطفال

وفى نهاية هذا المعرض ، تكرم صاحب السمو الملكى ، فقدم هدايا الى الاطفال الذين تفوقوا بلوحاتهم فى هذا المعرض ، الذى سجل نجاحاً كبيراً فى عالم الطفولة . ودام مفتوحاً من 24 ابريل الى 10 ماى الماضى .

وقد أشرف على تنسيق هذا المعرض ، المهندس المعمارى السيد الامين الدمناتي .

الأسبوع الثقافي المغربي بالشقيقة موريتانيا

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، أسبوعاً ثقافياً بنواكشوط من 28 مارس الى 4 ابريل 1976 الماضى ، اشتمل على أنشطة ثقافية هامة ، استمتع بها المواطنون ، وتعرفوا من خلالها على النهضة الثقافية بالمغرب .

وقد لقى الاسبوع اقبالا كبيراً ، تجلت فيه العلاقات الاخوية بين الشعبين الشقيقين . وعرفت قاعات العروض زوارا كثيرين ، اطلعوا على نماذج من الكتاب المغربى على عهد الاستقلال ، ونماذج من المخطوطات المغربية المصورة التى تبرز الرحلات العلمية والثقافية ، التى كانت تتم عبر العصور . فتبتدىء من مدينة فاس الى مراكش ، ومن مراكش الى شنقيط ، ومنها الى تنبكتو ، ومنها الى نيجيريا ثم السودان . وتشتمل المخطوطات المذكورة على مؤلفات لعديد من علماء شنقيط الافذاذ . وتجدر الاشارة الى أن ما عرض من كتب ، قدم هدية الى وزارة الثقافة الموريطانية ، حيث أودعته المكتبة الوطنية بنواكشوط .

كما اقيم معرض آخر تنوغرافى ، اظهر التطور الحضارى للمغاربة ، سواء من حيث اللباس أو الحلى أو التحف . واظهر معرض المعالم التاريخية المصور ، تطور المعمار المغربى خلال العصور . أما معرض الفنون الشعبية والصناعة التقليدية ، فقد نال اعجاب الجميع وتقديرهم . كما أثار معرض الفنون التشكيلية المغربى ، انتباه الزائرين وتعليقاتهم واندهاشهم ، للنهضة التشكيلية بالمغرب . وعقب ذلك ندوة شارك فيها رسامون من المغرب ، ونقاد من مورطانيا ، أذيع نصها على امواج الاثير .

وقدمت عروض مسرحية ، لفرقة المسرح الوطنى للتمثيليتين الفكاهيتين الاجتماعيتين (القاضى أغا . واليانصيب) وكلتاهما من تأليف واخراج أحمد الطيب العلج . وقد لقيتا اقبالا منقطع النظير ، خلال عرضين متتابعين .

كما نظمت أمسية شعرية للاستاذ العلامة الشاعر ، السيد عبد الكريم التواتى ، قرأ خلالها منتقيات من شعره . وتجدر الاشارة الى انه القى يوم الافتتاح ، قصيدة موجهة للشعب الموريطانى ورئيسه ، لقيت استحسان الجمهور الموريطانى ، وقوبلت بالتصفيقات الحادة .

وقد القيت خلال الاسبوع ، محاضرتان قيمتان ، الاولى للدكتور عباس الجرارى ، تحدث فيها عن الصحراء مهد أصيل للثقافة ، والثانية للاستاذة حبيبة البورقادية عن المراة فى التشريع الاسلامى .

وقد تخلل النشاط المذكور ، ثلاث حفلات موسيقية ، قدمها احمد التمسمانى ، وشارك فيها جوق المشاهب مشاركات ناجحة .

ونظمت وزارة الثقافة الموريطانية على شرف الوفد المغربى ، رحلات وزيارات ، للتعرف على نهضة الشعب الموريطانى ، فى مختلف المجالات ، خصوصا الثقافية منها . كما اقام السيد وزير الثقافة ، حفلة غداء للوفد المغربى ، حضرها وزير الاعلام . ونظمت السفارة المغربية حفلة استقبال ، ثم حفلة غداء ، حضرها السفراء العرب والمسؤولون من وزارة الثقافة والاعلام .

وختم الاسبوع بجلسة عمل ، تراسها السيد الكاتب العام لـوزارة الثقافة الموريطانية ، قدم خلالها مدير الثقافة ، ورؤساء الاقسام المختصة بالوزارة ، عروضا عن خطواتهم للنهوض بالثقافة ، وتجربتهـم لجمـع التراث الموريطانى . وذكر السيد الكاتب العام ، بأنـه يهـدف بالجلسة الى الاستفادة من تجربة المغرب فى المجال الثقافى .

وختمت الجلسة بكلمة السيد الكاتب العام ، الذى اعلن ان الوزارة ، ستنظم اسبوعا ثقافيا موريطانيا بالمغرب ، فى الايام المقبلة بحول الله .

أسبوع ثقافي بمراكش

كما نظمت الوزارة أسبوعا ثقافيا بمدينة مراكش ، من 23 ابريل الى 30 منه ، احتوى على الانشطة الثقافية الآتية :

ــ معرض الكتاب المغربى خلال عشرين سنـة من الاستقـلال ، وقد اشتمل المعرض على جناح خاص بالكتب المؤلفة ، من أجل استكمال وحدة التراب ، وكذا الخرائط ، وافتتح المعرض وعقبته محاضرة قيمـة للاستاذ : الصديق بن العربى محافظ مكتبة ابن يوسف ، عن دور مراكش التاريخى والفكرى خلال العصور .

وفى اليوم التالى ، نظمت امسية شعرية للاستاذ الشاعر عبد القادر حسن تعرض فى بدايتها الى رؤيته الشعرية ، والقى منتخبات من شعره فى الوطنيات والغزليات وغير ذلك من الموضوعات الطريفة . كمـا قـدم عرض جماعى من جمعية التشكيليين المغاربة ، واستمر العرض مـدة اسبوعين بقاعة مندوبية السياحة .

ثم نظمت أمسية للموسيقى الاندلسيــة والموشحات الشرقيــة ، سبقها عرض تاريخى قدمه الاستاذ المنتصر حسن الجيلالى وقدم المنتخبات المعهد الموسيقى بمراكــش .

وفى الغد ، أقيمت أمسية لأدب الملحون ابتدأهــا الاستاذ عبد الله الشليح بعرض تحليلى عن هذا النــوع من الادب الشعبــى العريــق ، معلقا على المنتخبات المقدمة ومبرزا الجانب الادبى والفنى فيها . وقــد قدم المنتخبات أعضاء المعهد الموسيقى لمدينة مراكش .

وفى اليوم الموالى كان موعد الجمهور ، مع الشاعرين مولاى الطيب المرينى والسيدة خديجة الشياظمى حيــث قدمــا نمــاذج من شعرهما قوبلت باستحسان الجمهور .

وفى نهاية الاسبوع ، قدمت فرقة النخيل للابحاث المسرحية عرضين لمسرحية « روض الزيتون » من تأليف احمد بن مشيش ، واخراج عبــد الكريم بنانى ، وهى مسرحية حاولت تصوير حياة شاعر الحمراء محمد بن ابراهيم منذ ولادته حتى وفاته ولم تغفــل المسرحية احــوال النــاس واهتماماتهم وعقليتهم ، مراعية الصدق الفنى والتاريخى .

الأسبوع الثقافي المغربي بتونس

توطيداً للروابط العريقة ، والعلاقات الاخوية والثقافية المتيــنة ، التى تربط بين المغرب وتونس ، تقرر تنظيــم أسبــوع ثقــافى مغربى فى تونس ، ابتداء من 16 يوليو المقبل الى 23 منه .

وسيقوم كل من وزيرى الثقافة المغربى والتونسى ، الاديبين الكبيرين الاستاذين الحاج محمد أبا حنينى ، ومحمود المسعدى ، بتدشين هــــذا الاسبــوع فى حفــل رسمى .

وقد أولت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، عناية كبيرة فى سبيل تقديم هذا المهرجان الثقافى الى الشعب التونسى الشقيق ، تقديماً من شأنه أن يدعم الاواصر التأريخية ، والحضارية ، المتأصلة بين البلدين ، وعهدت الى نخبة من ذوى الكفاءات والدراية ، للاشراف على هذا المهرجان حتى يتم فى أحسن الظروف .

ويشتمل برنامجه على ما يلى :

- محاضرات
- حفلات مسرحية
- حفلات موسيقية
- حفلات فلكلورية
- معارض ، تشمل :
- معرض الفنون التشكيلية .
- معرض الكتاب المغربى .
- نماذج من الخط اصيلة ومصورة .
- صور لبعض المخطوطات القديمة .
- معرض الصحافة .
- معرض الأزياء المغربية والمعالم التاريخية .
- معرض اللباس التقليدى .

— معرض المعالم التاريخية .

— السينما :

— أشرطة .

وغيرها من النشاطات الثقافية الاخرى .

التعاون الثقافي بين المغرب ونيجيريا

فى اطار تمتين أواصر الصداقة والتعاون بين المملكة المغربية والجمهورية الفدرالية النيجيرية ، قام السيد ابراهيم هارونة ، وزير الاعلام والثقافة فى الحكومة النيجيرية ، بزيارة للمغرب من 15 الى 18 ماى 1976 .

وخلال زيارته لبلادنا ، تم التوقيع على اتفاقية ثقافية وعلمية وتقنية بين البلدين .

مأدبة غداء تكريما لوزير الاعلام والثقافة النيجيري

وبهذه المناسبة أقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مأدبة غداء على شرف وزير الاعلام والثقافة النيجيرى حضرها بعض الوزراء وكتاب الدولة والوفد المرافق لوزير الاعلام والثقافة الى جانب أعضاء من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

حفلة تكريم
للشاعر مفدى زكريا والكاتب جلال كشك

كما اقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ الكبير الحاج امحمد ابا حنيني مساء الاربعاء 20 جمادى الاولى 1396 موافق 19 ماى 1976 مأدبة عشاء تكريما للشاعر مفدى زكرياء بمناسبة صدور ديوانه « من وحى الاطلس » وللكاتب جلال كشك بمناسبة صدور كتابـــــه « وقيـــل الحمد للـــه » .

حضر هذه المأدبة عدد من الوزراء فى حكومـــة صاحب الجلالـــة ، وبعض سامى الشخصيات ورجالات الفكر والادب والفن ، وبهذه المناسبة القى الاستاذ الكبير الحاج امحمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية فى البداية خطابا رائعا ، كما القى الشاعر مفدى زكرياء قصيدة رقيقة بعنوان « فوق الخيال » والكاتب جلال كشك كلمة قيمة فى الموضوع .

وفيما يلى نثبت خطاب السيد الوزير بالاضافة الى قصيدة الشاعر وكلمـــة الكاتـــب :

نص خطاب السيد الوزير

بسم الله الرحمـــن الرحيـــم

حضرات الســـادة

ليس قصدي من هذه التحية التي أزجيها اليوم ـــ فرحـــاً جذلان ـــ تقديماً للأخوين الكبيرين ولا تعريفاً بآثارهما او تنويها مستانفا بما أتاح الله لهما من فنون الاحسان ، فقد تمليـــا قبل اليوم من واسع الترحيب والاحماد ووجدا من وافر الاقبال والاعجاب فى مختلف الصور والأشكال ما يغني عن تقريظ مجدد أو اطراء مردد ، ولاكن قصدي وقد اتسعت مرة أخرى رحاب هذا السامر الهاش الى منتـــابيه ومرتاديه وتفضلت هـــذه الهالة من جلة الادباء وصفوة المعجبين فاستدارت حفيـــة حفاوة الاعزاز والاكبار ان هو الا قصد من يحاول بارخـــاء من عنـــان القول وارسال للنفس على سجيتها أن يبلغ من شكر الصنيع وحمد المنقبة واليد البيضاء قصارى ما يشتهيه من تبيين ويبتغيه من دلالة وافصاح .

على أني وان سلكت ما سلكت من طريق وسرت ما سرت من سير لعالم ان المرتقى الى غرض كهذا الفرض عسير وان ما احاوله من هذا الامر قد تتقطع معه الانفاس وتكبو من وعثائه الجياد ، ولولا ما يمتلىء به قلبا صاحبي الكبيرين من سري الشيم ولولا ما يشفع لي عندهما من عاطفة صادقة ونية صالحة لتـــولى من العزيمة كليلهـــا ولجف من هذه الكلمة بليلها . وما دامت أسباب الاغراء راجحة ودواعى الاقدام غالبـــة فلا جناح فى مطاولة الصعب ولا بـــاس فى مراودة العصم على حلـــول سهـــل الأبـــاطـــح .

صلتي بالأخوين الحبيبين صلة يسمهـا التقدير والاكبـار وتؤكدها المودة والصداقة ، الا أن الشاعر منهما أسرع منذ زمن بعيد الى احتلال مرابع القلب واعتصار العاطفة وامتلاك أعنة الاعجاب ، وجاء الناثـر بعد سنين يغذ السير ويحث الخطى ويلقى عصا التسيار بعد الوخد والرسم ثم يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ويجوس خلال المشاهد والاحـداث ببصر نافذ وقلب ذكي وقدم ثابتة لا تزل ولا تزيغ وسرعان مـا يستقصي ويستوعب ويسلك ما ينتقي ويقتطف فى نظـام بديـع يحمله الى جوار صاحبه الشاعر نزيل المرتـع الخصيب .

عرفتك اخي زكرياء يوم عرفتك شاعرا طائر الصيت ذائـع الذكر تنطلق الحانك وأغانـيك منتحية كل ناحيـة من نواحي الروعة والجمال وينجذب سجعك وهديلك الى رواء الرفض والاباء ونضـارة الـذود عن أعز وأغلى ما تذود عنه النفس المترعة بكريم المشاعر وسني المطامح ، وابتليت بما يبتلى به أرباب الكلمة التى تستجاش بهـا النفوس وتحول بها الأفئدة من حال الى حال وتحرك بلهيبهـا الهمم والعزائـم ويبـدل بتأثيرها وجه التاريخ ، وكان للاعتقال فى نفسك ما يكون عادة فى نفوس المومنين من صبر واحتمال وثبات على أقدس ما يشد اليه القلب من مثل ومبادىء على ان الاعتقال الذى أريد به اخماد الضرام واسكات الصيحة وصرف الهم والوكد الى الانزواء والانقباع كان سببا من أسباب التفجر والاندلاع وذريعة من تلك الذرائع التى تتاح للضمائر الحيـة والنفوس المشبوبة الثرية لارسال الشرارة بعد الشرارة واذكاء الثورة بعد الحماسة واتباع القصيد الملتهب بالنشيد الفائر المصطخب ، وصار مغربنا العربى يحقق بعد ذلك انتصارا تلو انتصار ويقدم برهانا غب برهـان على أن المجد وان أحدقت به الأخطار وشاعت حوله المهالك خليق بان يطلب ، حقيق بأن ينال على ما يقتضيه من أعلاق ويستلزمه من تضحيات وارزاء ، وبقيت أيها الأخ الكريم حتى فى أكلح الساعات وأعنـف الأوقـات ذلك الشاعر الذي يثور للكرامة وينتفض للعزة ولا يرى علاجـا غير عـلاج الحريـة والاستقـلال .

فلما من الله على المغرب برجوع ملكـه البطل من منفـاه السحيق بعد الكفاح المرير والنضال المستطير حييـت بأولى قصائـد ديوانـك ((من وحي الأطلس)) من أسميتـه ((معبد طريق الخلود للصاعدين)) ((ومعلم الانسان المغربى كيف يصنع المجد)) ((وقاهر الأحداث والزمن وملهم الأجيال)) وتتابع تمجيدك لبطل التحرير وحامل لـواء الاستقلال الى أن وارته المنية عن العيون فعند ذلك فاضت نفسك عليه حسرات وحللت بالرباط لتشاطر اخوانك المغاربة ألم المصاب وتقاسمهم الأمـل المعقود بخلفه العظيم صاحب الجلالة الحسن الثانى ، وصرت بعد ذلك تحضر وتغيب وترحل وتقيم الى أن آثـرت بالمقام هذا البلـد على غيره واتخذت هذا الوطن مستقرا تلذك باستمرار معاشرة بنـيه الذين لمست ايثارهم لك بالمودة والاعجاب وطفقت بعد السكينة والاطمئنان تعي كل كبيرة وصغيرة من شؤون هذه المملكة التى تتقدم كل يوم خطوات وترتفع كل يوم درجات وتبسط الوسائل والأسباب طلبا لجاه يمتـد ويستطيل وابتغاء لمجد جديد يضاف الى مجد أثيل ، وكان كل بنـاء يعـلو ، وكل صرح يمرد وكل مكرمة تنتسق فى عقد النظام وكل عمل من الاعمال التي لا يخطيء البصر مرماها ولا يستعصي على الادراك مدلولهـا وجدواها كان كل هذا غذاء سائغا لقريحة تمرست بالاحساس العميق وارتاضت لأفانين القول وأصناف البيان . فرحت تغني طروبـا للعود الغض حين يخضل وحين يورق وللزهر يوم يتبرج فيونق وللثمر عندما يطل ثم يدرك وللغاية التي ينتهي اليها المطاف ويطيب على بلوغها الأخذ والاقتطاف .

وما من قضية من قضايانا التي اهتزت لهـا مشاعرنا اهتزازا الا كان لها فى نفسك الأثر البليغ والصدى البعيد وفى قصيـدك ونشيـدك ما ينبيء باتحاد شعورك وشعور اصفيائك واحبائك المغاربة ويـدل على أنك خلقت لتمجيد البطولات وفطرت على الوفاء للعهود والرعاية لأذمـة القرابة والجـوار .

وهكذا اجتمعت فى ديوانك الاخير ((من وحي الاطلس)) حصيـلة احساس مرهف وحصيلة حب ووفـاء وتمسك بأسمى القيـم وحصيلة تكريم وتمجيد لعبقرية قائد البلاد المؤيد المنصور صاحب الجلالة الحسن

الثاني وعبقرية شعبه السائر فى وضح حكمته وهدايته وحصيلة بيـان ينميك الى زمرة الفحول من الشعراء .

وان ثروة كهذه الثروة التي تورثها ابنـاء المغرب وابنـاء العروبة اجمعين لحرية بكل نعت جميل وحمد جزيل .

ولو وقفت ايها الأخ العزيز عند هذا الحـد واقتصرت على هـذه الصورة الموجزة لكانت تحيتي تحية من يلم بجانب مرموق ويغفل جوانب اخرى مشرقة مستحبة مستطابة وحسبي تكميلا ان كانت الاشارة تهدي والأمارة تغني ان اقول : اني ما رايتـك يومـا وما جالستـك وحادثتك الا الح على الذاكرة قول الشاعر السلولى :

اذا جد عند الجد ارضاك جـده   وذو بـاطل ان شئت ألهـاك باطله

واذا كانت سنوات غير قليلة قد خلت على اتصالى بشاعرنا الكبير مفدي زكرياء واذا كانت قصائد ديوانه من وحي الأطلس غير غريبة عني لأنها كانت توافيني بعد نظمها محمولة على أجنحة ما بينـي وبيـنه من وداد مكين فان صلتي بالكاتب اللوذعي جلال كشك يرجع عهدها الى زمن قريب وان كنت قبل هذا الاتصال على حظ غير يسير من العلـم بشأنـه الكـبـير .

الا ان اخانا الكاتب القدير وان لم يفاجئنا بمهارته قد فاجانا احسن المفاجآت وادعاها الى عظيم الابتهاج بما خص بـه قضيـة صحرائنـا وما دار فى مدارها من حوادث . وان كتابا يفرد لهذه القضية ويستقرىء فصولها استقراء الباحث الذى لا يفوتـه طـور من اطوارهـا ويفحص المواقف والاتجاهات والتيارات فحص الناقد الذى تراه تارة يذهب بـه الاعجاب كل مذهب وتراه تارة اخرى يفنـد ويكذب ويضـع الأمور فى نصابها بالحجج البالغة والبراهين التي لا تترك مجالا للمكابرة والجدال — ان كتابا من هذا القبيل ليشكل وثـيقة من اعلـق الوثائـق باهتمـام المؤرخين ومرجعا من اغرز المراجع مادة واغناها واولاها بشغف الباحثين والـدارسـين .

هذا الكتاب الذي عنونه صاحبه بعنـــوان هو وحـــده دليـــل على عبقرية المستشهد بالقول الكريم ((وقيل الحمد لله)) لا سبيل الى انتقاء فصل أو فصول منه لأن فصوله كلها تتلاحق مؤتلفة يأخذ بعضها بأهداب بعض ولا تدع القارىء يتجاوز بابا الى باب او صفحة الى صفحات .

والكتاب بعد هذا كله جملة وتفصيلا تحليل دقيـــق بـــارع لعبقرية زعيم تحرير الصحراء صاحب الجلالة الحسن الثانى وعرض لامــــــع لجميع الأطوار التى تقدمت الحادث الاعظـــم حـــادث المسيرة الخضراء الذى عبأ الشعب كله حتى لم يبق بينه قاعد ولا متثاقل وأضاف صفحة ناصعة غراء الى صفحات تاريخنا المجيد .

هذه نظرة عجلى لم ارد بهـــا استقراء ولا استقصاء وانما قصدت من ورائها الى اعلان ما نحن مدينون به من فضل والى تبيان ما نستشعره من اعتزاز بقائدنا وشعبنا .

وان رجلين تصلهما بالمغرب اواصر مودة وحب وروابط تقديـــــر واعجاب يسبك أحدهما السبائك وينظم القلائد ويصـــف الآخـــر وصف الصناع حقبة من ألمع واعز حقب تاريخنا تعريفا منهما بالعبقرية وتمجيدا للبطولة لحريان بأن يشعرا فى هذا اليوم شعورا جديدا بأن هذا السامر يضوع عرفانا للجميل ويعبق محبة واجلالا .

اطال الله بقـــاء عاهل البلاد صاحب الجلالة الحسن الثاني وأدام تأييده ونصره وكلأ قرة عينه الكريمة ولي عهده المحبوب واخوته الأمراء الميامين وأمد الله شاعرنا الكبير وكاتـــبـــنا الجليـــل بالعمـــر الطويـــل والتوفيـــق الجميـــل .

امحمد ابا حنينى

فوق الخيال

فوق الخيال . . . وفوق الخبر والخبر ! فوق النهى والحجى ، والسمع والبصر!
يا شعب . . . والحسن الثانى خلاصته حاشا لربك . . . ما ان انت من بشر !!
ويـــا بلادا . . . غرقنـــا فى مفاتـــنها وفى الأصالات ، من أخلاقها الغـــــرر
ويـــا ملاكـــا . . . ذهلنـــا فى خوارقه وفى الرسالات ، من آياتـــه الكبـــر !
وفى «التحدى» (1).. وقد أهوى لروعته كبر الزمان . . . ولانـــت قسوة القدر
تسمو به المثلات الخضر ، فى مــــلا من البطولات ، والآراء ، والفـــكـــر
ويستعيـــد بـــه التاريـــخ حرمـــتـــه فى ناصع من بيـــان ، ساحـــر نـــضر
العرش ، والشعب ، من ابطال قصته وروح معناه ، فـــن الصبـــر والظفر
وفى مسيرته الخضرآ . . . يواكبـــهـــا سر الكتـــاب . . . وعـــزم غير منحصر
تلقى الصحارى ، سراياه ، كأن لهـــا فى مهبط الوحي وعـــدا غير منتظـــر
يا روعة الشعب فى أرض الكرام ، ويا صدق الرؤى من مليك فـــارع النظر
مـــا كنت أحسب أني فى ديـــاركمـــو القى ملائكـــة ، فى صـــورة البـــشر
فكم بلـــوت الدنـــا علمـــا وتجربـــة وكم صحبت ابن آوى ، دونما حـــذر
وكم حسوت بهـــا الكاسات مترعـــة حتى الثمالة . . . بين الصبر والصبر
وغصت أعماق أهليها . . فمـــا نظرت عيني سوى كل دجـــال ، ومحتكـــر
وطفت بالارض ، استجلي الوفاء بهـــا بين الأنـــام . . . فطاف الغدر فى أثرى
وطوح اليأس بى ، فى عالـــم خـــرف (غلبـــان) فى سكرات الموت ، محتضر

فــلاح لى من حماكم بــارق ، لعجبت   اقداره . . . فأتــيــناكم على قــدر

رايت فيكـــم ، وفى الخضرآ لواقحــه   فى دافــق (لنواق الشط) منحــدر

فقلت : للمغرب المحسود . . . لا عجب   ان كنت فى صلوات الشعر.. من سورى

ولا غرابة ، ان هـــام الفــؤاد بكـم   فعشــت أنثــر فى أفيــائكــم درري

وقلت لليأس : لا تيأس . . . فربتمـــا   يقفو خطانا ... ذوو الارحام من مضر!!

وللألى ، ضاقت الدنيــا بمـــا رحبت   عليهمو . . . فى الجنان الوارف الخضر!

وطوحت بهمـــو الاقـــدار ، مانتهكت   اقدارهم بــيــد المستهــتــر الأشر !

لا تقنطوا . . . فقصاص الله ، فى يدكم   (والحـــر كالنصل ، لا يهتــز للغير)

والعابثون ، وان طالوا . . . فانهمـــو   (أعجاز نخل) ـــبوادى الموتـــ(منقعر)!

والظالمون . . . اذا حاقـــت بمكرهمو   ارادة الشعب . . . عقباهم الى سقر !

* * *

يا أيها المحفل المسحور . . . فى وطن   يضوع فى الكون ريـــا ذكــره العطر

ومنتدى . . . بـــث فى أعطافه (حسن)   روح الصفآ والوفآ . . . فى أروع الصور

وجـــال (حسان) يروى فيــه ملحمة   عن حاضر ، بأثيــل المجـــد منصهـــر

ومجمعـــا برجـــال الفكـــر مزدهـــرا   فى موطـــن برجـــال الحكـم مزدهـــر

من (وحي أطلس) هذا الشعب اقرؤكم   من الحنايا ، تحايـــا فرحـــة العمـــر

ان تكرموا الشعر ، فى ديوان عاشقكم   فما صنعت سوى من بحركم مطري !

حسبى ، وعين رضاكم... أن شرفت به   قدرا .. وطاولت أقرانى .. على قصرى

ان جاد شعرى .. . فمن الهامكم كلمي   أو رن عودى . . . فمن أعماقكم وترى

رق الجلال على روعى ، ففجره   سجل أمجادكم من خالد العصر

اربى الجمال ، على حسى ، فأرهفه   نجوى الحسان ، وهمس الليل للسحر

والحب ... لم يبق هذا القلب فى دعة   يا ويح نفسى من قلبى ومن نظرى !

قلبى ، كأهل جحيم . . . كلما نضجت   جلودهم . . . بدلت فى لمحة البصر

كم ظلت الهب بالأنات مجتمعي   وعشت أطرب بالآهات مؤتمرى

وكم عزفت عن الكاسات . . أبد لها   ثغراً ، فيسكرني . . . من غير ما سكر

وكم نصبت خيامى . . . فانشغلت بها   عن (الخيام) وساقيها ، وعن (عمر)

وكم سهرت الليالى ، فى منادمة   مع النجوم ، أناجى فى الدجى قمرى

وكم سمعت (ابن سهيل) يستعيد معي: «سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى»

وكم تعمد سمارى مغالطتي   فلم يطب لي سوى فى ذكركم سمري

آمنت بالحب أصفاني ، وصورني   بدعا من الخلق ... لا جذعا من الشجر!

ومن خلا قلبه من نبل عاطفة   لا خير فيه ... ولا فى قلبه الحجري !

به عرفت طريق الله ، فانطلقت   للانهايات روحي دونما خطر

والحب الهم شعري ، صدق لهجته   فجاء يطفح بالآيات والعبر

وفى الأصالة ما تزرى فحولته   (بمشكل !!) ليس بالأنثى ولا الذكر !

شهادة الزور ... فى ديني ، ومعتقدى   من لا يفرق بين الشعر ، والشعر !!

(أبا حنينى(2)) أمانا ... هل ستشفع لي   عين الرضا منك؟؟ أو تغضي عن العور؟؟

يا ناقدي . . . أنا مهما صغت قافية   الا رأيتك ملء القلب والبصر !

فقمت اصلح اخطائي على حذر ... خوف العثار ... وخوف الناقد الحذر !

رايت (أحمد) (3) مفتوناً برائعة ... (كالزمزمية) من ابكاره الغرر

فتهت عجباً . . . واغراني تواجده ... بالكبرياء — وما استحييت من حصري

وقلت : والقيم العليا تساجلني ... افديك ، يا شعب ... ولتسلم من الغير

جددت فيك شبابى . . . فى غضارته ... فرحت أسخر من أسطورة الكبر

يا شعب ، والحسن الثانى خلاصته ... حاشا لربك ، ما ان انت من بشر !!!

الرباط ... **مفدى زكرياء**

---

(1) اشارة للكتاب القيم الذي الفه جلالة الحسن الثاني ، واحدث رجة فى العالم

(2) اشارة لاستاذي الجليل ناقد شعري الاديب الكبير معالي الاستاذ الحاج امحمد اباحنيني وزير الدولة المكلف بالثقافة

(3) اشارة للشاعر الموهوب صديقي معالي الاستاذ احمد بنسودة مدير الديوان الملكي العامر ، ومن غرر قصائده « الزمزمية » فى الابتهال بأسماء الله الحسنى ، وله فى الشعر الذاتي « الشوادي المجنحات » .

كلمة الكاتب جلال كشك

سامحكم الله يا اخواني المغاربة

اعرف ان المقام مقام شكر ، ولكني لا استطيع الا ان ابدا شاكياً ، فرغم كل ما غمرتموني به من حب واعزاز وتقدير وتوجيه وكرم وتكريم . . . الا انكم بعثتم الحيرة فى نفسي ، واثرتم التساؤلات فى خاطري على ما كتبته من قبل ، وما سأكتبه من بعد . . . قد كنت احسب أنني قد قلت كل ما يجب أو ما يمكن أن يقوله كاتب من جيلي ، وانه قد آن لمثلي فى سنى أن يتقاعد بعد أن يختم حياته الادبية بكتاب فى مستوى موضوع « وقيل الحمد لله » ، فليس فى طموح كاتب وهب حياته لقضايا الاسلام والوحدة العربية ، الا أن يعيش تجربة وحدوية ، رسم فيها شعب عربى حدوده بارادته المنفردة ، بوقفته الصلبة ، بايمانه القاهر لكل سلاح ، بل وان تتحقق هذه الوحدة بدافع العقيدة الاسلامية ، فيثبت على أرض الواقع وبدليل فى حجم بريطانيا كلها . . . وخلال عشرة أيام مجيدة هزت الدنيا بحق ، يثبت كل ما حاول الكتاب العقائديون اقناع أمتنا به . . انه لا تحرير ، ولا تحريك للجماهير ، ولا بعث ، ولا استقلال ، ولا انتصار الا بالاسلام ، وعلى هدى الاسلام ، وبروح الاسلام ، وبجماهير تؤمن بالاسلام ، وتلبى دعوة امام يناديها باسم الاسلام .

رضيت كمسلم بأن اختم حياتى بالمسيرة والكتابة عنها . . وأى طموح لكاتب عربى هزم جيله ثلاث مرات ، وقنع من المعركة بشهادة الصابر المحتسب ، فاذا بملك المغرب ، وجيش المغرب ، وشعب المغرب ، يمنحون أمتى نصراً كاملا يحقق التحرير والوحدة معا .

عشت ذلك كله ، ورأيت ذلك كله ، وكتبت بعض ذلك ، أليست هذه أفضل خاتمة يتقاعد بعدها كاتب عربى وحدوى ؟ ؟

تمنيت حقاً لو أتيح لى أن أتقاعد لأتفرغ للقراءة ، فمازلت بحاجة الى أن أقرأ ، وأنا من حضارة أول كلماتها هى فعـل أمـر بالقراءة ، ((اقـرأ)) هى أول كلماتنا ، وكتابنا هو القرآن ، وعلماؤنـا هـم القـارئـون . .

ولكن ، سامحكم الله يا أهل المغرب ، ما جئت بلادكم ولا اختلطت بكم ، ولا سمعت عنكم ومنكم ، الا واكتشفت أننـى لم أكتـب شيئـاً ، وتمنيت أن أستقبل من عمرى ما استدبرت لأعود فأتعلم منكـم ، وأكتب عنكم ليعلم الذين حالت بينهم وبين المعرفة حواجز المكـان ، وحواجـز الفكر ، وحواجز السياسة ، ليعلموا اى خير فى هذا البلد ، وأى امـل يمكن أن ينبثق من هذا الشعب بقيادته المؤمنة والعبقرية .

فى كل مرة أكتشف أننى ما زلت عند الباب لم أتجاوزه . . واننى لـم أقرأ أكثر من عنوان كتاب الخلود . . وشوقى يـزداد لصفحاته وأمجاده وتعاليمه وعبـره .

وهكذا بقدر ما أدخلتم الفرحة على نفسى بانتصاركم ، أثرتم الطموح عندى ، لكى أبحث عن ذلك السر الذى جعـل شعب المغـرب ينفـرد بالقدرة على صنع المعجزات ، بل وتقبلها فى يـسر وبساطة ، كأنهـا السلوك الطبيعى . . فلو حدثت المسيرة فى بلد آخر عربى أو غير عربى . وحققت عشر معشار ما حققته مسيرتكم ، لكانت قد تحولت الى أسطورة ، تؤلف فيها الاغانى ، والمصنفات ، والمسرحيات ، والتماثيل ، واللوحات ، بل ولجعلت بداية ونهاية للتاريخ . . ولا اريد أن أضرب لكـم الامثـال ، اما هنا ، فالناس فى المغرب يعجبون اذا ما رأوا انبهارنـا ودهشتـنا وخشوعنا كلما تحدثنا عن المسيرة . .

وهذا سلوك جيل المعجزات . . فقد روت كتب السيرة أن المسلمين الاوائل كانوا يطاردون بعض المشركين فى فتوحاتهم فى فارس ، فاختبـأ

الجيش المذعور فى حظيرة للثيران ، فلما وصل جند المسلمين ، انطق الله الثيران قائلة يا ((جند الله)) : المشركون هنا فخذوهم . . قال الذى روى القصة بعد خمسين عاما ، فدخلنا وأخذناهم . . وأذهل السامعون من غير جيل المعجزات فسألوه : ألم تدهشوا لمعجزة نطق الثيران ؟ وسكت الشيخ قليلا وكأنه تنبه وقتها فقط الى أنه يروى أمراً عجيباً . . ثم أكمل . . حقا لم ننتبه وقتها فقد بدا لنا أنه من الطبيعى جدا أن نسأل الثيران وأن تجيب . . (وهكذا فان الناس ينقسمون الى فريقين الذين يصنعون المعجزة والذين تبهرهم المعجزة أو يوفقهم الله فيؤمنون بها ونحن منهم ان شاء الله) .

والعجيب فى المغرب أن لكل جيل معجزة . . من كان يصدق أن المغرب سيتصدى للهجمة الصليبية الاوربية الاولى ، وبينما تسقط المدن فى قلب العالم الاسلامى ، فى مصر ، والشام ، ترسل الصحراء المغربية فتاها ابن تاشفين فيقهر الغزوة فوق أرض اوربا ، ويبقى الاسلام هناك ثلاثة قرون ، بل ويؤخر غزو الشرق أربعة قرون (من كان يصدق أن المغرب سيستطيع حماية استقلاله بعدما سقطت آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . . من كان يصدق أن الملك يعقد الاجتماعات السرية مع زعماء الحركة الوطنية (فى مكان سرى وبنفس وسائل حرب العصابات ، ويدبر معهم خطوات الثورة ضد الاستعمار) ويتقبل الخلع والنفى متحدياً فرنسا ، فاذا به يعود منتصراً ، حقق الاستقلال والكرامة ، من كان يصدق أن المغرب الذى أنهك فى المواجهة الدائمة ستة أو سبعة قرون ، ثم سحقت اطاراته الفنية فى ظل الحكم الاستعمارى ومزق أخمسة أقسام ، يستطيع أن يحقق كل هذا الذى تحقق فى عشرين عاماً . . بعض الدول عجزت عن أن تخرب مثل ما بنيتم انتم فى هذه المدة .

أنتم لا تهتمون بأن لديكم أفضل شبكة اتصالات تليفونية ، وأفضل طرق ، وأفضل شبكة سدود فى العالم العربى بلا نفط . . ولا ضجيج .

ثم المسيرة . ؟

كيف تأتى أن يجتمع فى بلد واحد كل هذه الامكانيات : القائد الملك امير المؤمنين ، الذى يستطيع أن يستنبط من التراث مثل هذه الفكرة العبقرية ، ثم يحسب حساب أدق تفاصيلها ، ويكتم ذلك كله تحت ضغط يفوق قدرة البشر على التحمل ، حتى يجبر التاريخ على أن ينحنى لارادته ويسير وفق مشيئته ، ويقلب جميع المقاييس ويغير كل النظريات والمسلمات.

اسمحوا لى أن أهنئكم ، بل وان تهنئكم كل الشعوب على ما وهبكم الله من قيادة حكيمة قادرة على اتخاذ القرار وتحمل النتائج ، قادرة على انتزاع النصر ، قيادة مؤمنة بدينها مؤمنة بشعبها . . علمه أبوه ألا يكذب على الشعب ، وما أروع ما حفظ العهد .

كيف ظفرتم بحكومة استطاعت ليس فقط أن تكتم السر ، بل وأن تنفذ المعجزة فى 12 يوماً . . انني أقولها بكل ثقة ، انه ما من حكومة باستثناء الدول الشيوعية ، تستطيع أن تنظم حركة 350 ألف مدنى فى هذه المدة ، وبهذا التنظيم . . لقد تحولت بريطانيا الى دولة من الدرجة الثانية ، لأن حكومة ايدن عجزت عن حشد 50 ألف جندى وليس مدنى بريطانى ، فى نفس المدة بل احتاجت الى 3 شهور ، صحيح أن الفضل يرجع لاستعدادات الشعب ، ولكن لا بد من أن نحنى الرأس اعجابا وتقديرا لحكومة السيد أحمد عصمان التى استطاعت أن تنظم هذه الاستعدادات .

ولا بد من وقفة عند القوى السياسية ، احزاب اليسار ، التى أثبتت لأول مرة فى التأريخ العربى ، وجود يسار وطنى وحدوى ، يعرف أن التراب قبل خلافات النظم ، ويعرف أن سلامة الوطن هى مسؤولية الجميع . . انى أحنى رأسى للقوى اليسارية فى هذا البلد ، وهو مالم افعله ولا أفعله لأى يسار آخر . .

اما انت ، يا شعب المغرب ، ايها الملهم المعلم القائد للشعوب . . شعب المغرب فى المسيرة ، وخلف المسيرة . . وبعد المسيرة . . شعب المغرب فى الصحراء صبراً واحتساباً وتضحيات . . فى ظل الاحتلال المزيف

وأخيراً ثم رفض ، ذهب الانفصال وسيف الاستعمار ، باسم الاستقلال والتصدى بحزم لمؤامرات الأشقاء والجيران الذين فاتهم الوعى بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقوق الجار . . تلك التى شرحها أمير المؤمنين فى لقائه مع علماء المسلمين ، وأشهد أن أمير المؤمنين قـد أضاف مالم يسبقه اليه أحـد فى تطبيـق مفـهوم الحديث على العلاقات الدولية بين الدول المتجاورة . . ولكن عفوا يا مولاى . . أفمن غدر بحقوق الجيرة بين الافراد ، وبيت جاره وباغته فى منامـه ، وخان العهد ورفقة العمر ، أفهذا يصون عهود الجار بين الدول ؟ .

وهنا نبعث بالتحية لشعب المغـرب فى القوات المسلحة الملكيـة ، التى تواصل مهمتها التاريخية منذ أن كان للمغرب جـيران . . ألا وهى حمايتهم من أعـداء العروبة والاسلام ، وحمايتهم أيضـا من نزعـات الشيطان . . بكفهم عن ظلم أنفسهم وظـلم الامـة الاسلامية ، وظلـم القضيـة العربيـة . .

تحية للقوات المغربية التى كتبت أخلد الصفحات ، فوق الجولان ، وفى السويس ، وفى سيناء ، والتى ما ضنت يومها بدمها فى سبيل العرب والمسلمين ، وما طلبت يومها من العرب الا أن يتركوهـا تواجه عنـهم كيـد الاعـــداء . .

شكراً معالى وزير الثقافة . . شكرا حضرات الاصدقـاء الذيـن شرفتمونى بالحضور والتكريـم . .

ومرة أخرى سامحكم الله . . فقـد حملتم كل قلـم عربى شريـف مسؤولية تعريف أمتنا بروعة ما حققـتموه . . وأعاهدكم على أن أبـذل وسعى وما بقي من عمرى لأحدث قومى عن ملحمة المغرب . . وأختـم كلمتـى بدعـاء أن يحفـظ ملـك المغـرب وشعـب المـغـرب . . . هـاكـاديمـا . . .

جـلال كشـك

وقد بعث الشاعر التونسى الحبيب شيبوب بالقصيدة التالية اسهاماً منه فى تكريم صديقه الشاعر مفدى زكرياء :

تحية الشعر

من بعد ما اغفى ربيع شبابه … حن الحبيب الى بساط شرابه
ولهان ، يدفعه الى الشعر الهوى … والشوق للانشاد ملء اهابه
ما هزه للقول الا محفل … ضم العصاميين من اصحابه
داعي الوفاء بهم أهاب ، فكرموا … (مفدينا) الصداح فى اطرابه
ولقد أراد الكاشحون سفاهة … ان يحجب النسيان نور شهابه
جحدوا سناه تنكرا لذوي النبو … غ ، وايهم لم يسق من أكوابه ؟
هيهات لن تنسى روائعه التي … فيها أفاض الصفو من تسكابه
يتلو فتهتز الجوانح نشوة … ما يبعث التحنان فى محرابه
فسلوا المنابر عنه ، عن صرخاته … فى مسمع (المنسى بين قبابه)
أيام يمسكنا الدخيل بقبضة … تفضى لغائلة الردى وخرابه
تتعثر الاصوات من هلع بها … ويظل يصرخ فى الشباب النابه
ذودوا عن الحرمات. واحموا عرضها … من مستبيح لج فى ارهابه
وتسابقوا للمجد فى عزم امرىء … يسعى بهمته لنيل طلابه
حتى اذا ما الظلم كبكب فى الثرى … والشر منهزم على أعقابه
غنى بنصر زاهر متلألىء … أيمن بنصر زاهر غنى به
ياصنو (شوقي) . ما أقول . وانت فى … فجر الشباب اخذت من اسبابه
فتنتكما لغة الكتاب بسحرها … فرشفتما فيض الندى برحابه
ان فاخرت أرض (الكنانة) بابنها … فلك انتهى فى الشعر فصل خطابه

تونس **الحبيب شيبوب**

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المملكة المغربية

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

جائزة المغرب

لسنة..........

بناء على المرسوم رقم 564-74-2 المؤرخ بـ 16 شعبان 1394 الموافق 4 شتنبر 1974 الصادر بإحداث جائزة المغرب.

وبناء على قرار وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية رقم 74-754 المؤرخ بـ 17 شعبان 1394 الموافق 5 شتنبر 1974 الخاص بتطبيق المرسوم رقم 564-74-2 المشار إليه أعلاه.

وبناء على قرار لجنة التحكيم لسنة...... فقد تقرر منح الجائزة في.................. إلى..................

تقديراً لكتابه.................. المرشح لهذه الجائزة.

الرباط

وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية:

نسخة من شهادة ((جائزة المغرب)) التي ابتدأت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بتقديمها للفائزين بها منذ سنة 1974 .

اجتماع امناء اللجان الوطنية العربية للتربية والثقافة والعلوم

بمقر « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » فى القاهرة ، وبداية من 10 حتى 14 أبريل 1976 ، اجتمع أمناء اللجان الوطنية فى البلاد العربية . وأوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، عضو المجلس التنفيذى للمنظمة السيد المهدى الدليرو ، لتمثيل المملكة المغربية فى جلسات الاجتماع .

وفى مقدمة التوصيات التى أقرها مندوبو الدول الاعضاء ــ توحيدا لاسلوب تنظيم العمل ــ الاقتصار على تشكيل لجنة واحدة فى كل دولة عضو ، باسم « اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم » تتفرع عنها شعبتان : (شعبة لليونسكو ، وشعبة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) .

وتعريفا بمجالات اهتمام المنظمة والمنجز من برامجها ــ تقرر الاحتفال سنويا بتاريخ انشائها فى 25 يوليوز ، حيث ينظم ــ داخل كل قطر عربى ــ أسبوع موحد ، يشمل محاضرات وندوات ومعارض . . . تسهم فى انجاجه وتحقيق أهدافه وسائل الاعلام الرسمية .

ندوة حول
الانسية الاسبانية في العالم العربي

خلال أيام 24 و 27 من شهر فبراير الماضى ، نظمت بمدريد ندوة حول الدراسات الاسبانية فى العالم العربى ، شارك فيها مسؤولون عن المراكز الثقافية الاسبانية فى 8 عواصم عربية ، الى جانب كتاب وأساتذة جامعيين من مختلف الاقطار العربيــة .

وقد أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية السيــد محمــد الصباغ ، لحضور هذه الندوة التى عقدت فى المعهــد الثقــافى الاسبانى العربــى بمدريــد .

وقد درست فيها موضوعات تتعلق بنشاط المراكز الثقافية الاسبانية فى العالم العربى ، وحركة الترجمة من الاسبانية الى العربية ، والتبادل الثقافى الاسبانى العربى .

ووقع الاتفاق فى الاخير على عقد مؤتمر حول الدراسات الاسبانية فى بــلد عــربــى .

وقد ضمت هذه الندوة 24 مشاركا من المغرب ، وتونس ، ومصر ، وسوريا ، بالاضافة الى مديرى المراكــز الاسبانيــة فى مختلف البلدان العــربــيــة .

مهرجان العالم الاسلامي بلندن

بتاريخ 12 أبريل 1976 افتتح بلندن مهرجان العالــم الاسلامى ، والهدف من اقامته هو تقديم صورة شاملة معبــرة عن الحياة فى البــلاد الاسلامية وعن تراثها الاصيــل .

وقد اشتمل البرنامج العام لهــذا المهرجان على القــاء محاضرات أسبوعية لكبار المسلمين ، وتقديم معارض عن الفن الاسلامى ، وتنظيم جولات علمية فى عدد من المدارس والمعاهد والجامعات ، واصدار عــدة كتب ودراسات معززة بالرسوم التوضيحية فى موضوع الحضارة الاسلامية وآدابها ، كما اشتمل البرنامج على تنظيم سهرات موسيقية كلاسيكية ، تشارك فيه الاقطار الاسلامية ، مع حفلات للفنون الشعبيــة ، وعرض للآلات الموسيقية ، والاشرطة السينمائية .

والمغرب باعتباره دولــة اسلامية أصيلــة ، استطاعت أن تحمى تراثهــا الحضارى وتغنيــه ، دعى للمشاركة فى هذا المهرجان ، وكانت مشاركته تتلخص فى جناح اشتمل على ما يــلى :

— تصميم نــاتىء لمدينــة فــاس .

— دار قديمة ذات الهندسة الوطنية الاصيلة .

— مصنــع تقليــدى .

- مخطوطات .

- منبر قديم .

- ثريات نحاسية .

كما قدم المغرب فى هذا المهرجان سهرات موسيقية اندلسية واشرطة سينمائية عن مدينة فاس ، بالاضافة الى مجموعة من الصور الثابتة عن نفس المدينة .

وقد اوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية السيد محمد ابن العربى ليحضر فى حفلات افتتاح هذا المهرجان ، وليهىء الجو المناسب للاعمال التى شاركت بها الوزارة فى هذا المهرجان والتى حظيت باستحسان كبير . واستمر هذا المهرجان الى نهاية شهر يونيه 1976 .

الميثاق الثقافى للدول الافريقية

انعقد اخيرا بأديس ابيبا من 24 الى 27 ماى 1976 اجتماع وزراء الثقافة الافارقة للموافقة على مشروع الميثاق الثقافى للدول الافريقية الذى سيعرض على انظار مجلس وزراء الخارجية الافارقة اثناء انعقاد الدورة العادية السابعة والعشرين من 24 الى 27 يونيه 1976 ببورلويس بجزيرة موريس .

وقد مثل المغرب فى الاجتماع وفد مغربى برئاسة السيد عبد العزيز الجامعى ويتكون من السادة محمد ابن العربى ، ممثل وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، وادريس عطرسة ، ممثل وزير الدولة المكلف بالاعلام ، ومحمد العربى مزيان ممثل وزير التعليم الابتدائى والثانوى .

هذا ولم يطرأ اى تغيير على المشروع المقترح من طرف منظمة الوحدة الافريقية .

وقد شارك الوفد المغربى كذلك فى اجتماع الدورة الرابعة العادية للمجلس الثقافى الافريقى الذى انعقد باديس أبيبا فى 28 ماى 1976 حيث اسندت اليه رئاسة اللجنة الادارية التابعة لهذا المجلس .

الملتقى الثانى للاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب

سيحتضن المغرب خلال شهر دجنبر المقبل الملتقى الثانى للفنانين التشكيليين العرب ، وستقام هذه التظاهرة الثقافية — التى ستستمر شهرا — بمدينة الدار البيضاء . ومن المنتظر أن يسهم فى هذا الملتقى أكثر من ستين فنانا بلوحاتهم ، بالاضافة الى مجموعة كبيرة من نقاد الفن ورجال الصحافة .

وفى هذا الموضوع تتوالى بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اجتماعات يحضرها الى جانب اعضاء من الوزارة المذكورة ، فنانون من الجمعية المغربية للفنانين التشكيليين ، ليتم هذا الملتقى فى أحسن الظروف.

المؤتمر العربي الثامن للحفريات

باشراف وتنظيم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية تقوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعقد المؤتمر العربى الثامن للحفريات بمدينة مراكش ابتداء من فاتح فبراير 1977 الى 9 منه .

المؤتمر الخامس للأكاديمية العربية للموسيقى

سيقام فى نهاية شهر مارس ، أو فى بداية شهر أبريل من سنة 1977 ، المؤتمر الخامس للاكاديمية العربية للموسيقى .

سهرة خاصة بطرب الملحون

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية سهرة كبرى خاصة بطرب الملحون شاركت فيها مجموعة من المختصين اختيروا من أجواق كبريات المدن المغربية وذلك يوم الجمعة 26 جمادى الثانية 1396 هـ الموافق 25 يونيه 1976 فى الساعة التاسعة والنصف ليلا بقاعة المحاضرات بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

أصداء مهرجان ابن زيدون

كانت للذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ، التى دعت الى الاحتفال بها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، أصداء واسعة فى الاوساط الفكرية فى العالم العربى ، وفى عالم الاستشراق ، كما كان لها تأثـــير فى عالم الفكر ، حيث نشرت عدة مجلات وصحف جملة من الابحاث والقصائد التى دبجها أصحابها المشاركون فى هذه الذكرى .

ومن بين المجلات التى اهتمت بهذا الموضوع ، مجلة « الكتاب » العراقية ، حيث أفردت عدداً خاصاً منها بهذه الذكرى ، ضـــم مجموعة بحوث وقصائد فى الموضوع ، الى جانب حديثها عن كل المنجزات التى تمـــت فى هذا الاحتفـــال .

كما نشرت مجلة « الثقافة » السورية قسطاً كبـــيراً من ابحـــاث الذكرى وقصائدهـــا .

واصدر الاستاذ عبد الرزاق الهلالى احد المؤتمرين بحثـــه « ولادة واثرها فى حياة ابن زيدون » فى كراسة ، استهله بمقدمته عن المهرجان .

"التراث العربي في المغرب"

نشرت الزميلة « الثقافة » التى تصدر عن وزارة الثقافة بجمهورية مصر العربية فى عدديها 27 (دجنبر 1976) و 28 (يناير 1976) بحثا عن : « التراث العربى فى المغرب وقضية التواصل بين المشرق والمغرب » للاستاذ محمود محمد الطناحى أبرز فيه دور المغاربة وجهادهم الدائب ورحلاتهم عبر الامصار والاقطار ، وتفانيهم فى خدمة العلم والاتصال بالعلماء فى المشرق ، وما برزوا فيه من علوم كالفقه ، والتوحيد ، واللغة ، وعلم القراءات . وقد خص المكتبات المغربية العامة منها والخاصة ببحث مستفيض عما تضمه من ذخائر ونفائس المخطوطات متعرضا لذكر الكثير مما كان يعتقد ضياعه . كما تعرض لزمرة من البحاث المغاربة المعاصرين وما لهم من فضل فى نشر المطويات المخطوطة ذات الاهمية البالغة .

وقد كتب بحثه هذا بعد ان وقف على المكتبات المذكورة بنفسه مرتين ، واتصل بثلة من العلماء المغاربة .

ومجلة « المناهل » اذ تشكر الاستاذ محمود محمد الطناحى لبحثه القيم ، تلفت نظر قرائها الى الاطلاع عليه لما يحتوى عليه من معلومات قيمة تفيد البحاث فى هذا المضمار .

كتاب " ضريح محمد الخامس "

صدر أخيرا عن الشركة المغربية للنشر والتوزيـــع (سوشبريس) كتاب بعنوان ((ضريح محمد الخامس)) لمؤلفه المهندس المعمارى الفتنامى فوطوان محتويا على 250 صفحة تتخللها 150 صورة ملونة .

وقد كتـــب مقدمتـــه الاستاذ السيد محمد الفـــاسى الذى أشـــاد فيها بالمعجزة الفنية التى تتجلى فى الضريح ، كما نـــوه بالمجهودات التى بذلهـــا المؤلـــف فى تاليفـــه

كما قام الاستاذ السيد عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكـــــة ومحافظ الضريح ، بتقديم هذا الكتاب فذكر الدواعى والاعتبارات العاطفية والتاريخية والدينية ، التى دعت جلالة الملك الحسن الثانى الى تشييـــد ضريـــح والـــده العظيـــم ، فكان ذلـــك استجابـــة لرغبـــة الشعـــب المغربى ، نظرا للمكانة المقدسة التى يحتلها المغفور له فى قلـــب كـــل مغربى ، وبين المزايا الحسنة والمرامى السامية التى ينطـــوى عليهـــا الكتاب ، وكيف استطاع مؤلفه أن يستوعب فننا الوطنى الاصيل بمختلف أشكالـــه ومميزاتـــه .

وقد استهل الكتاب بصورتى صاحبي الجلالة المغفـــور لـــه محمد الخامس نور الله ضريحه ، ووارث سره بانى الضريح مولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثانى نصره اللـــه .

وتأتى بعد ذلك نبذة تاريخية غنية بالمعلومات عن ((جامع حسان)) ومرافقه ، وعظمة فنه ، وجلال تاريخه .

والجدير بالذكر أن الكتاب صدر بأربع لغـــات وهى : العربيـــة ، الفرنسية ، والانجليزية ، والالمانيـــة .

كتب مغربية صدرت اخيراً

ـ المختـــار من شعر علال الفاسى

ـ شذرات تاريخية من 1900 الى 1950

تأليــف : عبد الله الجرارى

ـ المحــدث الحافــظ أبو شعيب الدكــالى

تأليــف : عبد الله الجرارى

ـ تاريــخ الحركــة الوطنيــة بالمغــرب

تأليــف : عبد الكريم غــلاب

ـ الثقافة والفكر فى مواجهة التحدى

تأليــف : عبد الكريم غلاب

ـ وحــدة المغرب المذهبيــة خلال التاريخ

تأليــف : د . عبــاس الجرارى

ـ أمــير مغــربى فى طرابلــس

أو

ليــبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقى

تأليــف : د . عبــد الهادى التــازى

ـ المنظمــات الدوليــة

تأليــف : د . محمد الرويــفى

ـ التراجيديا كنموذج
تأليف : د . حسن المنيعي

ـ دم ودخان (مجموعة قصصية)
تأليف : مبارك ربيع

ـ فن الطبخ المغربى التطوانى
تأليف : فاطمة الرهونى

ـ أعلام درعة
تأليف : المهدى بن علي الصالحى

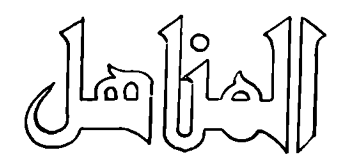
ـ دوحة الناشر ـ لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر .
تأليف : ابن عسكر الحسن الشفشاونى
تحقيق : محمد حجى

ـ خلاصة تاريخ سبتة بالاثر والمأثور وما جاورها حتى كدية الطيفور
تأليف : محمد السراج

المناهل

الفهرس

مطبعة فضالة — المحمدية — المغرب



تصــدرهـــا :

وزارة الدولة المكلفــة بالشــؤون الثقافيــة

زنقة غانــدي ــ الربــاط ــ المغــرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du

MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93